قصص

الطبعة الثانية

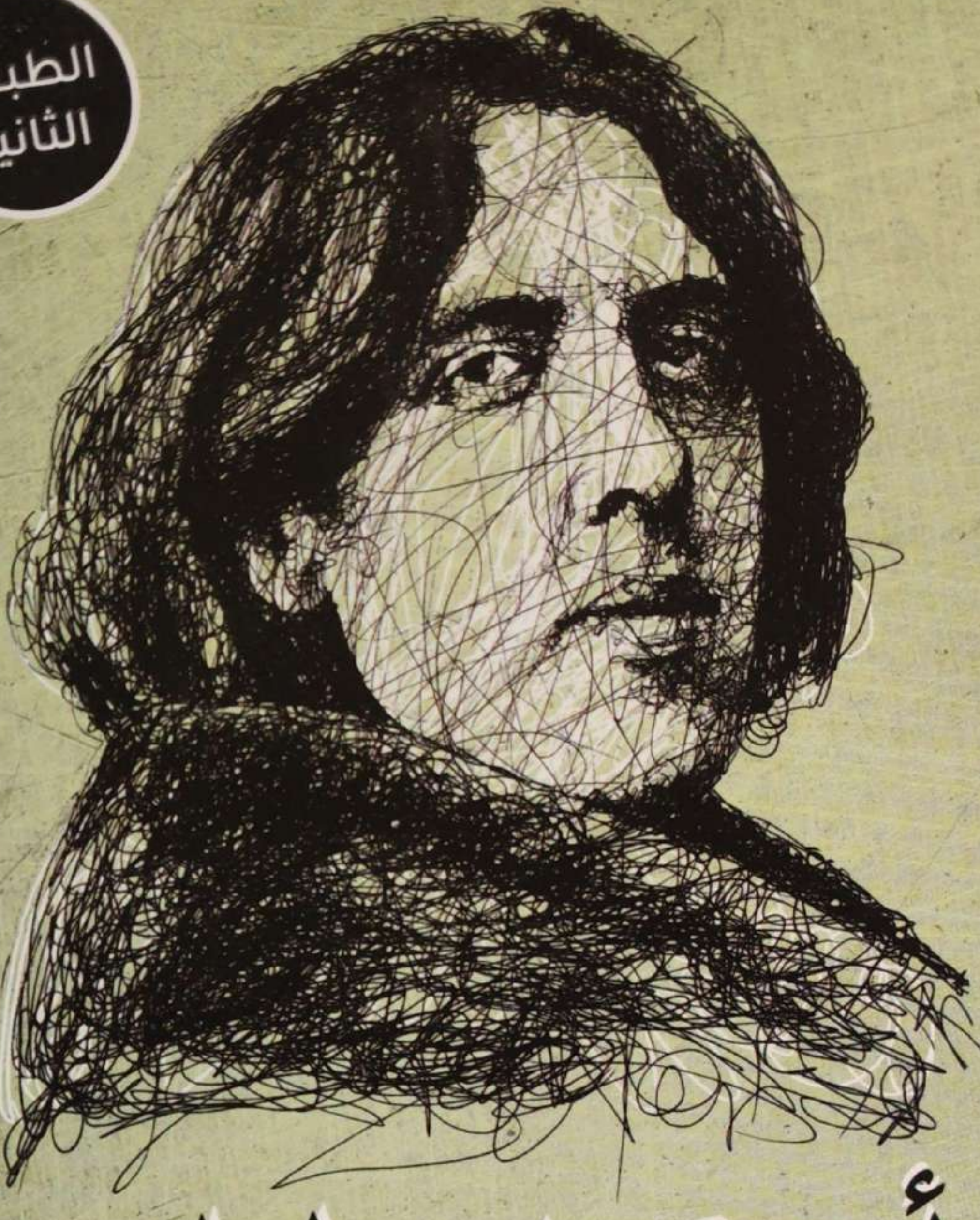

أوسكار وايلد

الأعمال القصصية الكاملة

ترجمها

د. عبد السَّتَّار الأسدي

"السيد "وايلد" بالنسبة لي، هو كاتبنا المسرحي الشامل الوحيد. إنه يلعب بكل شيء: بالذكاء والفلسفة والدراما ووالممثلين والجمهور والمسرح بأكمله".

جورج برنارد شو

"أوسكار وايلد هو الكاتب الأكثر اقتباساً على مر العصور".

اندرو دكسن

كاتب وصحافي وناقد- "محرر قسم الفنون في صحيفة الغارديان".

"تنمُّ هذه القصص كلُّها عن درايةٍ واسعةٍ وفنٍّ رصينٍ وموهبةٍ متأصّلةٍ وهيمنة كاملةٍ على البناء السَّرديِّ المحكم للحكاية، ما يفصح عن قدرةِ الكاتبِ الرِّوائيِّ أوسكار وايلد على نسج حكاياته وبناء شخصيَّاته واختيار موضوعاته. إنَّ القارئ ليشعر أنَّ خلف هذه الحكايات يدٌ تدري ما تخطُّ وتعي ما تكتب وتعلم ما تصنع... فالكاتب دائم التَّجريب في السَّرد والطَّرح والحبك والموضوع والتِّقنيَّات المستخدمة، مثلما كان دائم التَّطوير لذاته".

"من المقدّمة"

تعرض هذه المجموعة الشاملة مهارات أوسكار وايلد الرائعة في سرد القصص وتعدد استخداماته المذهلة، بدءاً من الحكايات الخيالية وقصص الأشباح إلى الخيوط البوليسية والحكايات الساخرة. وقد سبق نشر أغلب هذه القصص شهرة وايلد ككاتب مسرحي. تقدم القصص تعبيرات آسرة عن الموضوعات التي سيطرت على حياة وايلد وفكره وكواليس عوالمه النفسية التي صنعت لاحقاً أشهر أعماله.

"الناشر"

لوحة الغلاف من تخطيط وسام مناحي (العراق)

ISBN 978-9-9226347-7-7

9 789922 634777

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين

أوسكار وايلد

الأعمال القصصية الكاملة

الأعمال القصصية الكاملة

أوسكار وايلد

ترجمها: د. عبد السَّتَّار الأسدي

The Complete Short Stories

By Oscar Wilde

Translated by Dr. Abdel Sattar Al Asady

الطبعة الأولى: يناير - كانون الثاني، 2021 (1000 نسخة)

الطبعة الثانية: أغسطس - آب، 2021 (1000 نسخة)

Arabic Translation Copyrights@Dar Al _ Rafidain2020

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

لبنان - بيروت/ الحمرا

تلفون: 345683 1 961+/541980 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+/9647811005860+

info@daralrafidain.com — dar alrafidain

daralrafidain@yahoo.com — Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com — @daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 634 - 77 - 7

أوسكار وايلد

الأعمال القصصية الكاملة

ترجمها

د. عبد السَّتَّار الأسدي

www.daralrafidain.com

الفهرس

مقدِّمة 7

المجموعة الأولى
الأمير السَّعيد وقصصٌ أخرى
هذه المجموعة مهداةٌ إلى كارلوس بلاكير

الأمير السَّعيد 23
أنثى العندليب والوردة 40
العملاق الأنـانـيُّ 51
الصَّديق الوفيُّ 58
أنـا الصَّاروخ العتيد 76
صـورة صاحب الحرفين (واو) و(هاء) 96

المجموعة الثَّانية
منزلُ الرُّمَّان وقصصٌ قصيرةٌ أخرى
هذه المجموعة مهداةٌ إلى كونستانس ماري وايلد

الملك الشَّابُّ 153
عيد ميلاد الإنفانتا 172
بين صيَّاد السَّـمك وروحه 198
الطِّفلُ النَّجمةُ 244

المجموعة الثَّالثة
جريمة اللُّورد آرثر سافيل
وقصصٌ أخرى

جريمة اللُّورد آرثر سافيل: درسٌ في الواجب 267
الفصل الأوَّل 267
الفصل الثَّاني 283
الفصل الثَّالث 287
الفصل الرَّابع 297
الفصل الخامس 302
الفصل السَّادس 317
ليس للأسفنكس أسرار: تنميشٌ 320
شبح كانترفيل: قصَّةٌ من وحي المثاليَّة المادِّيَّة 328
الفصل الأوَّل 328
الفصل الثَّاني 335
الفصل الثَّالث 340
الفصل الرَّابع 348
الفصل الخامس 354
الفصل السَّادس 361
الفصل السَّابع 366
المليونير المثاليُّ: رسالة إعجاب 372

مقدِّمة

أوسكار وايلد ـ هو أوسكار فينكال أوفلاهيرتي ويلز وايلد، الكاتب الأيرلنديُّ الذَّائع الصِّيت، المولود في 16 تشرين الأوَّل (أوكتوبر) من عام 1854، والمتوفِّي في الثَّلاثين من تشرين الثَّاني (نوفمبر) من عام 1900. كتب الرِّواية والمسرحيَّة والشِّعر والقصَّة القصيرة والمقال الأدبيَّ والصَّحفيَّ. ذاع صيته في أعماله المسرحيَّة وخاصَّةً (مروحة السَّيِّدة وندرمير) و(امرأة لا شأن لها) و(أهمِّيَّة أن تكون صريحًا)، وفي رواية (صورة دوريان كرييه). وصار شغل لندن الشَّاغل ردحًا طويلًا من الزَّمن، وكان يُعَدُّ ضيف شرفٍ في كافَّة حفلات العشاء الباذخة والسَّاحرة التي كانت تقيمها الطَّبقة الأرستقراطيَّة التي لم يَحِدْ عن انتقادها والسُّخرية منها في جلِّ ما خطَّ يراعُه! وقد عُرِف عن أوسكار وايلد هيمنته على صياغة جمله واختيار مفرداته وتحديد أفكاره وتوظيف الظُّروف الاجتماعيَّة في فنِّه معتمدًا على حسِّـه الأدبيِّ الرَّفيع ولغته الجميلة وعلى تمكُّنه من أدواتٍ أسلوبيَّةٍ من طرافةٍ وتوريةٍ ومفارقةٍ وسخريةٍ في استقطاب القرَّاء من كلِّ أصناف وطبقات المجتمع الإنكليزيِّ في عصره!

يتضمَّن هذا الكتاب الأعمال القصصيَّة القصيرة الكاملة للكاتب الأيرلنديِّ أوسكار وايلد، وكان جُلُّ هذه القصص قد نُشِر فُرادىً في أواخر ثمانينيَّات وفي تسعينيَّات القرن التَّاسع عشر الميلاديِّ، في دوريَّاتٍ

وصحفٍ إنجليزيَّةٍ مختلفة، ثمَّ جمعها وايلد نفسه في مجلَّداتٍ ثلاثةٍ وبعناوين اختارها بنفسه، وقد حافظت التَّرجمة العربيَّة التي بين يديك على العناوين ذاتها للمجلَّدات الثَّلاثة، وهي:

1 ـ **المجلَّد الأوَّل**: قصَّة الأمير السَّعيد وقصصٌ قصيرةٌ أخرى، وقد نُشِر هذا المجلَّد أوَّل الأمر بشكلٍ منفصلٍ عن المجموعة ككلٍّ في عام 1888.

2 ـ **المجلَّد الثَّاني**: قصَّة جريمة اللُّورد آرثر سافيل وقصصٌ قصيرةٌ أخرى، وقد نُشِر بشكلٍ منفصلٍ عن المجموعة ككلٍّ في عام 1891.

3 ـ **المجلَّد الثَّالث**: قصَّة بيت شجرة الرُّمَّان وقصصٌ قصيرةٌ أخرى، وقد نُشِر بشكلٍ منفصلٍ عن المجموعة ككلٍّ في عام 1891.

تنمُّ هذه القصص كلُّها عن درايةٍ واسعةٍ وفنٍّ رصينٍ وموهبةٍ متأصِّلةٍ وهيمنةٍ كاملةٍ على البناء السَّرديِّ المحكم للحكاية، ما يفصح عن قدرة الكاتب الرِّوائيِّ أوسكار وايلد على نسج حكاياته وبناء شخصيَّاته واختيار موضوعاته، وعن ذكاءٍ متَّقدٍ في توجيه أصابع النَّقد، من خلالها، إلى الظَّواهر السَّلبيَّة في المجتمع الفكتوريِّ الإنجليزيِّ، عامَّةً، والطَّبقة الأرستقراطيَّة وحياتها المخمليَّة وعقليَّتها المنافقة وتفاهتها وسطحيَّتها وانتقائيَّتها خاصَّةً... وإنَّ القارئ ليشعر أنَّ خلف هذه الحكايات يدٌ تدري ما تخطُّ وتعي ما تكتب وتعلم ما تصنع... فالكاتب دائم التَّجريب في السَّرد والطَّرح والحبك والموضوع والتِّقنيَّات المستخدمة، مثلما كان دائم التَّطوير لذاته، فهو يكـدُّ ويتعب ويقرأ ويطَّلع ويجمع مصادره الحقيقيَّة وينقِّب في الكتب المرموقة والموسوعات المعروفة إن احتاج، مثلًا، إلى وصف شلَّالات النِّيل في أسوان، أو قطعة رخامٍ

في أرضيَّات مرمرٍ في بلاط ملك إسبانيا، أو منمنماتٍ صغيرةٍ طُعِّمت بها علبة مجوهراتٍ، أو مرآةٍ كبيرةٍ معلَّقةٍ على أحد الجدران، أو لوحةٍ زيتيَّةٍ لفنَّانٍ فرنسيٍّ أو إيطاليٍّ أو إسبانيٍّ، أو كرسيٍّ فخمٍ كأنَّه عرشٌ، أو حديقةٍ غنَّاء في قصرٍ من القصور، أو مقبرةٍ في إحدى الكنائس القديمة، أو ستائر جميلةٍ في صالةٍ ملكيَّةٍ، أو آنية زهورٍ، أو أثاثٍ فخمٍ، أو بوَّابات مدنٍ تاريخيَّةٍ، أو أهوارٍ ومستنقعاتٍ وأنواعٍ من الطَّير وأنواعٍ من الحشائش وأنواعٍ من الزُّهور والسَّحالي والبراري البعيدةِ، أو مسلَّةٍ مصريَّةٍ اسمها (إبرة كليوباترة)، أو قيصر روسيا بطرس العظيم وقد تنكَّر بصفة نجَّارٍ يعمل في حوضٍ لبناء السُّفن بإنجلترا، دون علم سفارته... وتطول القائمة في هذا المزج الجميل بين الواقع والحكاية الخياليَّة التي يقدِّمها للقارئ؛ ثمَّ إنَّه يُشعرك بأنَّه يسوح بك في كلِّ الأماكن: في المدينة وخارج المدينة - فيُريك باريس ولندن وإيطاليا، والبيكاديللي والهايد - بارك، ويزوِّدك بأسماء الشَّوارع والمحالِّ التِّجاريَّة وأنت تتنقَّل معه وتستكشف معه طرق المدينة وهو يدلف في أزقَّتها، أو عندما يجلس في مقاهيها ويشرب الشِّيشة وأقداح النَّبيذ، أو عندما ينتظر في ساحاتها العامَّة وحدائقها المشاعة، أو عندما يضطرُّه الأمر إلى ركوب العربات التي تجرُّها الخيول المتعدِّدة أو العربة التي يجرُّها جوادٌ واحد، وتراه أحيانًا في الغابات، في رحلةٍ بعيدةٍ إلى الشَّرق وبين الأحراش، أو قد تراه في البحر، يستقلُّ الجندول وينزل في فندقٍ تتلاطم الأمواج عند درجاته في البندقيَّة، وقد ينقل لك حوارًا مع الأشباح أو حديثًا للإنسان مع روحه، بعد أن ضاق بها، أو ما يراه قارئ كفٍّ في راحة يد اللُّورد آرثر، فيضطرُّه إلى ارتكاب جريمةٍ أو ربَّما جرائم! فكان ذلك يدفعه إلى

مراجعة موسوعاتٍ ضخمةٍ في المكتبات العامَّة، باحثًا عن اسم مادَّةٍ أو عن مقالةٍ عن السُّموم، أوْ إلى التَّعامل مع صنَّاع المتفجِّرات، أو مع أحد المطلوبين الرُّوس للنِّظام القيصريِّ، وكلُّ ذلك في وصفٍ دقيقٍ، كأنَّه الكاميرا، شأنه في ذلك شأن روائيِّي عصره الكبار، أمثال تشارلز ديكنز وتوماس هاردي وشارلوت وإميلي برونتي وإليزابيث كاسكيل وآخرين، وربَّما فاقهم جميعًا في التَّجريب والقدرة على تنويع نتاجه الأدبي، مثلما فاق كتَّابًا وشعراء آخرين من العظماء في نقد السُّلطة الحاكمة وضع اليد على مثالبها وتعريتها أمام الملأ، كما فعل الشَّاعر شيللي في قصائد مثل (الملكة ماب) و(ثورة الإسلام) و(انتصار الحياة) وغيرها، إذ لم يُبقِ شيئًا في التُّراث الإنجليزيِّ لم يوجِّه إليه الاتِّهام والسُّخرية والنَّقد ضاربًا عرضَ الحائط بالمحرَّمات والتَّابوات كلِّها ـ من دينٍ وكنيسةٍ وزواجٍ حرٍّ غير مقيَّدٍ وغير ذلك من القضايا المثيرة لاهتمام الشَّاعر المتمرِّد شيللي؛ وكذلك فعل مواطنه الشَّاعر الرُّومانسيُّ اللُّورد بايرون الذي قاده تمرُّده إلى اليونان ليقاتل الجيش العثمانيَّ ويموت هناك؛ وكذلك فعل الفيلسوف والموسوعيُّ والنَّاقد جون رسكن الذي رأى أنَّ فساد الفنِّ وتردِّي القيم وتدهور الذَّوق، كلَّ ذلك مظاهر تنمُّ عن فساد السُّلطة السِّياسيَّة وتعفُّنها، وكذلك فعل أيضًا المسرحيُّ السَّاخر جورج بيرنارد شو الذي رأى ضرورة التَّحوُّل إلى الاشتراكيَّة بطريقةٍ تدريجيَّةٍ وهذا ما أطلق عليه اسم المذهب الفابي وهو مؤسِّسه. أقول إنَّ أوسكار وايلد بزَّ هؤلاء جميعًا في هجومه على السُّلطة وتعريتها وكشف أكاذيبها وترَّهاتها أمام أبناء الطَّبقة الأرستقراطيَّة أنفسهم أوَّلًا، ثمَّ أمام طبقات المجتمع برمَّته ثانيًا، علمًا أنَّ كلَّ هذه الأسماء تنتمي إلى الطَّبقة الأرستقراطيَّة،

ثمَّ إنَّهم جميعًا أيرلنديُّون... ولكنَّ أوسكار وايلد بـزَّهم في النَّقد وبزَّهم في الإلحاح المستميت على النَّقد وواصل حثيثًا فيه، فإن كان قد انخرط في الكتابة الأدبيَّة والصَّحفيَّة بعد تخرُّجه من جامعة أوكسفورد وزواجه في عام 1879 وحتى وفاته معدَمًا في عام 1900، فإنَّه كتب فيما أحصيناه عددًا 110 نتاجًا تراوحَتْ بين الرِّواية والقصَّة والمسرحيَّة والشِّعر والمقالة الأدبيَّة والمقالة الصَّحفيَّة، أي أنَّه كان يكتب خمسة أعمالٍ متفرِّقةٍ في العام الواحد، موزَّعةً على الأجناس الأدبيَّة والصَّحفيَّة، طوال إحدى وعشرين سنة، لدرجة أنَّ السُّلطة ضاقت ذرعًا بصوتٍ ينتقدها وينشر فضائحها ومثالبها ويهجم عليها ويسخر منها في صحفها وعلى مسارحها وبين القرَّاء من أبناء جلدته، خمسة أعمالٍ في العام الواحد، في عمليَّةٍ دؤوبٍ سعت إلى تثوير القيم الجديدة التي راهن عليها في التَّغيير الإجتماعيِّ وإعادة تربية الذَّائقة الإنجليزيَّة التي خرَّبتها السُّلطة بحسب وجهة نظر زميله جون رسكن، ولكن هيهات له ذلك... فقد كان للسُّلطة رأيٌ آخر! لا بدَّ من إسكاته خاصَّةً وأنَّه اختلف عن الآخرين جميعًا بجرأته وشجاعته في توجيه النَّقد والسُّخرية من الحكومة الإنجليزيَّة بمجلسَيها، مجلس اللُّوردات ومجلس العموم، وكان يلغِّـم قصصه وكلَّ إنتاجه الأدبيِّ والصَّحفيِّ بنقدٍ جريءٍ وسخريةٍ لاذعةٍ من الطَّبقة الحاكمة أو العائلة المالكة أو السِّياسة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة التي عاثت في البلاد الفساد وجمعت الثَّروات من استعباد الشُّعوب ونهب الثَّروات وإنشاء المستعمرات، بينما تركت في الدَّاخل أعدادًا غفيرةً من المظلومين المقهورين من الرِّجال والنِّساء على حدٍّ سواء وجيوشًا من الفقراء والمعدَمين والعاطلين عن العمل أو الأُجَراء الذين لا يجدون

ما يملأ البطون ويدفع عنهم غائلة الجوع. كان وايلد يستغلُّ كلَّ فرصةٍ، مهما بدت بسيطةً للعيان، لتوجيه هجومه إلى هؤلاء المسؤولين ولا يفوِّت نقدهم ولو بعبارةٍ واحدةٍ أو بجملةٍ واحدةٍ طوال تلك الفترة الطَّويلة وهو يسرد الحكايات أو يكتب النَّصَّ المسرحيَّ أو يبوح بقصيدةٍ أو يخطُّ بيراعه المقالة الصَّحفيَّة أو المقال الأدبيَّ، ممَّا خلق له الأعداء والخصوم ـ وعلى أعلى المستويات وطوال عشرين عامًا ونيفٍ ـ من الذين سعوا الى إسكات صوته وتسقيطه اجتماعيًّا والتَّشهير به وحتى مقاضاته وسجنه! فهو من الكتَّاب الذين استُغلَّت كتاباتهم ضدَّهم في أروقة المحاكم! بل هو الرِّوائيُّ الأوَّل والوحيد الذي شهدت روايةٌ له، رواية (صورة دوريان كرييه)، ضدَّه في المحكمة وأُدين بسببها وبشهادةٍ منها عليه في قضيَّةٍ أخرى أريد لها أن تؤثِّر في الرَّأي العامِّ وتثير اللَّغط حوله حتى لو صحَّت وقائعها الحقيقيَّة كلُّها ولم ينكرها أحدٌ، فهو ليس أوَّل من اقترف ما اقترف وإن صحَّت ادِّعاءات القضاء الإنجليزيِّ في هذه القضيَّة. كان الأجدر بالقضاء مقاضاة أعلامٍ كبارٍ مثل هوراس ومايكل أنجِلو والسِّير فرانسيس بيكون وشكسبير وجون ميلتون وجون دن وماثيو لويس وجيرمي بنثام وبول فيرلين واللُّورد بايرون وبيرسي بيتش شللي وبلزاك وجورج بيرنارد شو نفسه والقائمة تطول والأسماء غير متوقَّعة، ولو رُفِعَ الغطاء، لأصابت القارئ صدمةٌ كبيرةٌ، ولكنَّنا نكتفي بهذا القدر! فهل يستطيع القضاء الإنجليزيُّ محاسبة عمالقة التَّاريخ والاقتصاص منهم على (شذوذهم) و(مثليَّتهم)؟ وهو ما لم يفعله القضاء الفكتوريُّ المنافق آنذاك، ممَّا يكشف زيف الادِّعاءات الإعلاميَّة الإنجليزيَّة (بالأخلاق الفاضلة) المزيَّفة وحماية النَّاس ممَّا

يخدش الحياء والتَّطبيل للدِّيمقراطيَّة والمعاملة العادلة والحرِّيَّات، بل ويأتي تشخيصًا لحالةٍ من النُّكوص عن مبادئ الثَّورة الفرنسيَّة التي سادت أوروبَّا! هذا ما أراد تعريته أوسكار وايلد في الوقوف في وجه العملاق الأنانيِّ والمارد العتيد ـ السُّلطة والطَّبقة الحاكمة!

انتهج أوسكار وايلد التَّجريب في أساليب كتابته القصص القصيرة، فقد كتب قصصًا تبدو في ظاهرها موجَّهةً إلى الأطفال، مثل (الأمير السَّعيد) و(أنثى العندليب والوردة) و(العملاق الأناني)، بينما انتهج أسلوب البحث الأكاديميِّ الرَّصين في قصَّة (صورة صاحب الحرفين (واو) و(هاء)) لتأتي القصَّة مفعمةً بمعلوماتٍ غنيَّةٍ عن موضوعٍ جريءٍ لم يتطرَّق إليه أحدٌ قبله وليميط اللِّثام عن أسرارٍ ويكشف ملابساتٍ في قراءةٍ متمعِّنةٍ وتبصُّرٍ عميقٍ في كلِّ ما كتب شكسبير من سونيتاتٍ باحثًا بين إلغازات ما دأب شكسبير على الإشارة إليه في السُّونيتات نفسها أو في الإهداءات التي تتصدَّرها عن الهويَّة الحقيقيَّة لصاحب الحرفين (واو) و(هاء) ومن يكون وهل هو رجلٌ أم أمرأةٌ؛ ويُعَدُّ أوسكار وايلد من روَّاد القصَّة التي اتَّخذت شكل البحث العلميِّ، وبأسلوبٍ شائقٍ وممتعٍ يطرح الفرضيَّات ويجمع المادَّة والبيانات ويقارن ويحلِّل ويناقش ويتوصَّل إلى نتائج مُلزمةٍ. فتراه يقرأ كتابًا في النَّهضة الفنِّيَّة في البلاط الفرنسيِّ من تأليف الكونت دي لابورديه في عام 1855 حين احتاج إلى وصف أعمال الفنَّان فرانسوا كلاوو في هذه القصَّة، ويراجع أنطولوجيا شعريَّةً ضمَّت نتاج شعراء عصره جمعها الكاتب روبرت آلِّوت ونشرها بعنوان (بارناسوس إنجلترا: باقات زهرٍ مختارةٌ من شعرائنا المعاصرين)... وورد ذلك في هذه القصَّة التي أخذت من وقته وجهده الكثير كما يبدو من التَّحضير لها

والإعداد لمعطياتها، حتى إنَّه راجع كتاب (مفاتيح سونيتات شكسبير) للنَّاقد الألمانيِّ دي باستورف وهو مكتوبٌ بالألمانيَّة، ولكنَّ المؤلِّف الإنجليزيَّ أدموند داودن اقتبس منه الكثير عندما ألَّف كتابه (سونيتات شكسبير) الذي طبع عام 1881 ولا شكَّ أنَّ أوسكار وايلد اعتمدَه عندما كتب هذه القصَّة، وهناك بالطَّبع كتبٌ أخرى راجعها وايلد وهو يعدُّ مادَّته لقصَّة (عيد ميلاد الإنفانتا) وقصَّة (جريمة اللُّورد آرثر سافيل) وقصَّة (شبح كانترفيل)، ففي قصَّة الإنفانتا، استعان بكِتابٍ يوضِّح لوحةً فنِّيَّةً اسمها (رقصة الموت) للفنَّان هانز هولباين.

وربَّما لجأ إلى أسلوبٍ آخر حين يجرِّب الكتابة عن الجريمة والغموض، وبطريقةٍ تختلف عمَّا كان في وقته الكاتب آرثر كونان دويل ـ مبتكر شخصيَّة شرلوك هولمز ـ يفعل، في محاولات المحقِّق كشف خيوط الجريمة من آثارٍ بسيطةٍ تغيب عن البال إلى أن يتوصَّل إلى الحقيقة الكاملة، كما تختلف عمَّا سوف تختطُّه مواطنته أجاثا كريستي لاحقًا في جلِّ ما كتبته في حقل الجريمة وكشف أسرارها. إنَّ لأوسكار وايلد بصمته المميَّزة في سرد حيثيَّات الجريمة ومتطلَّباتها حين يربطها بالقدر والمصير المحتوم للمنفِّذ الذي لا يصفه بالمجرم البتَّة بل يجعله يبحث عن ضحاياه كما يبحث عن وسائل التَّنفيذ ويزوِّده بالمبرِّرات العقليَّة والنَّفسيَّة والاجتماعيَّة، الأمر الذي يجعل وجهة نظر القارئ حياديَّةً، كما في قصَّة (جريمة اللُّورد آرثر سافيل).

كما كانت له تجربةٌ في كتابة قصص الأشباح والخرافات المتعلِّقة بها، الأشباح التي تسكن االقصور والبيوت الفخمة التي بسبب ذلك يتركها أصحابها... وهنا أيضًا نراه ينتقد العقليَّة الإنجليزيَّة التي درجت على

الإيمان بالأشباح والأرواح الشِّرِّيرة والرَّعب الذي يحمله مرأى الدِّماء والأصوات الغريبة في اللَّيالي الظَّلماء وسط الرَّعد والمطر وفي المقابر وبين اللُّحود والأشجار اليابسة. ويختطُّ وايلد هنا خطَّه المميَّز، بعيدًا عن تأثيرات الرِّواية القوطيَّة ورائدها ماثيو كريكوري لويس في روايته المشهورة (الرَّاهب) (1796)، فقد نجح في السُّخرية من الأشباح وجعلهم أضحوكةً للأطفال وشيئًا لا مبرِّر للخوف منه، وهكذا أفرغ الرِّواية القوطيَّة من التَّفاعل النَّفسيِّ المتصاعد مع عناصر الرُّعب والخوف والموت والدِّماء، بمعنى أنَّه حتى إن توفَّرت هذه العناصر في السَّرد، يواصل القارئ القراءةَ بلا وجلٍ وعلى شفتيه ابتسامةٌ وفي قلبه فرح. لقد كتب وايلد قصَّةً قوطيَّةً نازعًا منها فتيلَ قنبلة الخوف والرُّعب والارتعاش والكوابيس والخوف من الظَّلام والقبور والجثث التي تتكلَّم!

عُرف أوسكار وايلد بموقفه الرَّافض لتجنيس الأخلاق وتجنيس الأدب والقيم أو التَّمييز بين قيم ذكوريَّةٍ وأخرى أنثويَّة، فهو لا يعترف بتجزئة الأدب إلى ذكوريٍّ وأنثويٍّ لأنَّ من شأن ذلك ـ كما يرى ـ أن يُضعف النَّسيج الاجتماعيَّ ويُفسده، ولكنَّ ذلك لم يمنعه من الاهتمام بقضايا المرأة والانتصار لحقوقها المهضومة في المجتمع الإنجليزيِّ الفيكتوريِّ، إذ كثيرًا ما وجَّه نقده اللَّاذع والعنيف إلى تسلُّط الطَّبقة العليا المخمليَّة، صاحبة الامتيازات في قمع المرأة وسحقها وخاصَّةً في القضايا الجنسيَّة، محاولًا أن يقدِّم قضيَّة تحرُّر المرأة من خلال تسليط الضَّوء على نفاق المجتمع الفيكتوريِّ برمَّته وتعرية سوء المعاملة بل المعاملة الظَّالمة التي تُعامَل بها النِّساء، مع أنَّه كان يوجِّه النَّقد أيضًا إلى المجتمع المخمليِّ وإلى حفلات الشَّاي التي تقيمها النِّساء المترفات والتي يحاولن

فيها استقطاب مجموعةٍ من الرِّجال الغنادرة المتأنِّقين المتشبِّهين بالنِّساء والذين أطلق عليهم مسمَّى داندي وخلق في أدبه تيَّارًا بهذا المسمَّى ـ الدَّانديَّة أو الدَّانديزم. وفي هذا وذاك، قدَّم نماذج كثيرةً من النِّساء، فهناك المرأة النَّمطيَّة وهناك المرأة المتحرِّرة وهناك المرأة الشُّجاعة. وظهر هذا الاهتمام بالجندر في اختيار مفردات خطابه وهو ما نلاحظه في القصص القصيرة التي ترجمناها بمجلَّداتها الثَّلاثة حيث يجعل بعض المفردات مذكَّرةً عن قصد ويجعل أخرى مؤنَّثةً عن قصد، فالسُّنونو عند وايلد اسمٌ مذكَّر والعندليب عنده مؤنَّث، وغالبيَّة التَّرجمات العربيَّة السَّابقة لم تراعِ هذا الأمر، فقد اعتاد المترجمون ترجمةَ المفردتين السَّابقتين إلى (العندليب) كما في قصَّة (أنثى العندليب والوردة) و (الأمير السَّعيد)، وهذا لا يستقيم مع الحكاية الإنجليزيَّة فيما يخصُّ جندر أسماء الشَّخصيَّات عند وايلد؛ فالكاتب جعل الطَّائر مؤنَّثًا لا مذكَّرًا عن قصدٍ ودرايةٍ، وهذا واضحٌ من توظيفه ضمائر التَّأنيث الإنجليزيَّة أينما ورد ذكرُ الطَّائر بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أو الحيرة عند التَّرجمة، ولهذا دلالته الفكريَّة، ولذلك فإنَّ اختيار لفظة (العندليب) في التَّرجمة العربيَّة المعهودة لا يدلُّ على التَّأنيث المقصود في الأصل بقدر ما يوحي بتذكير ما هو مؤنَّث، وهذا تحويرٌ لفكرة القصَّة وتزييفٌ لأهمِّ مغزىً في الحكاية وخطأٌ من أخطاء التَّرجمة العربيَّة الشَّائعة، وقد اهتممتُ كثيرًا بقضيَّة المحافظة على جنس الاسم في هذه التَّرجمة ومنها (صغير السِّحليَّة) للدَّلالة على التَّذكير ولم أشأ أن أترجمها إلى (السِّحليَّة الصَّغيرة) فتصبح الدَّلالة مؤنَّثةً بينما المراد بها التَّذكير في المحاورة بين أنثى العندليب وصغير السِّحليَّة والفراشة والزَّنبقة في قصَّة (العملاق الأناني)، ومن ذلك أيضًا أنَّ (الشَّجرة) عند وايلد لفظٌ

مذكَّرٌ، فترجمتُها إلى (الشَّجر) كمفردٍ مذكَّرٍ عن قصدٍ ودرايةٍ مع أنَّه اسم جمعٍ، لأنَّ اللُّغة العربيَّة من الرَّوعة بحيث أنَّها تمتلك ميزة استخدام اسم الجمع للدَّلالة على المفرد باعتبار لفظه، ومن الأمثلة الأخرى أنَّ وايلد عدَّ (الرِّياح الشَّماليَّة الباردة) اسمًا مذكَّرًا، فترجمتُها إلى (عاصف ريح الشَّمال) كي أحافظ على الجندر. ومن أخطاء المترجمين السَّابقين ترجمتهم (أسفنكس) إلى (أبي الهول)، كما في قصَّة (ليس للأسفنكس أسرار) وشتَّان ما بين المفردتين ـ لأنَّ (أسفنكس) شخصيَّةٌ خرافيَّةٌ تنتمي إلى منظومة الميثولوجيا الإغريقيَّة وتفكيرها، ومن حيث التَّصنيف فإنَّ Gynosphinx امرأةٌ بجسد أسدٍ رابضٍ يحرس مدخل الطَّريق المؤدِّي إلى المعبد اليونانيِّ حيث مستقَرُّ الآلهة، وهي رمز الشَّرِّ والخوف والرَّهبة والجبروت والقدر، ومن هنا جاء استخدامها في اللُّغز الذي طرحته على أوديب في المسرحيَّة المشهورة... ولكنَّ ترجمتها في اللُّغة العربيَّة إلى (أبي الهول) الذي ينتمي إلى منظومة الميثولوجيا المصريَّة القديمة وهو ذكرٌ تصنيفًا، أي Androsphinx، يُفقد الأسفنكس جنسها الأنثويَّ عند التَّرجمة وهذا أمرٌ خطيرٌ ينعكس على الدَّلالة الأنثويَّة أينما وردت في النُّصوص الأدبيَّة، ثمَّ إنَّ الأسفنكس عنوانٌ لإحدى قصائد أوسكار وايلد، والعنوان أيضًا يذكِّرنا بحوارٍ متبادلٍ ورد في مسرحيَّة (امرأةٌ ليست ذات شأن) للمؤلِّف نفسه حين جعل السَّيِّدة ألونبي، في المسرحيَّة، تطلب من اللُّورد أيلين ـ وورث أن يُعرِّف النِّساء من النَّاحية الجنسيَّة فيجيب اللُّورد: إنَّهن مجموعةٌ من الأسفنكس ليس لهنَّ أسرار (انظر الفصل الأوَّل من المسرحيَّة)، ولذلك لو ترجمنا الأسفنكس إلى (أبي الهول) لضاع المعنى في هذه القصَّة وفي السَّرديَّات الأخرى، فكان لِزامًا علينا أن نحافظ على

الجندر عند التَّرجمة، وقد راعينا الخصائص الأسلوبيَّة للكاتب، فممَّا يؤخذ على التَّرجمة عادةً أنَّها تسلب النَّصَّ ما فيه من خصائص أسلوبيَّة عندما يُنقَل إلى لغةٍ أخرى!

ولعلَّ من الخصائص الأخرى في أسلوب أوسكار وايلد السَّرديِّ، كثرة إشاراته إلى فلسفته في الفنِّ وإلى وجهة نظره في ما ساد عصره من مظاهر لا تمتُّ إلى الجمال بصلةٍ، ومن ذلك دفاعه عن رأيه في أنَّ (الفنَّ كذبٌ فنِّيٌّ) واستطراده في العلاقة ما بين (المنفعة) و(الجمال المطلق) كما في قصَّة (الأمير السَّعيد) أو في انتقاده للمدرسة الواقعيَّة والمدرسة الطَّبيعيَّة أو في وقوفه ضدَّ التَّكلُّف والتَّصنُّع والنِّفاق مقابل الصِّدق والجوهر والإخلاص، كما في قصَّة (أنثى العندليب والوردة)، أو في تركيزه على التَّناقض بين الأقوال والأفعال، أو في نقده الحثيث لأخلاقيَّات المجتمع الفيكتوريِّ خاصَّةً والمجتمع الإنجليزيِّ عامَّةً، كما في قصَّة (الصَّديق الوفي) وإشارته في القصَّة نفسها إلى رأيه الشُّجاع والصَّريح في أنَّه (لا يوجد كتابٌ أخلاقيٌّ، بهذا الوصف، كما لا يوجد كتابٌ لا أخلاقي)، مما يعكس ما سبق له أن نشره في مقالٍ بعنوان (تدهور الكذب وانحلاله)، علمًا أنَّ في العنوان مفارقةً ساخرةً مقصودةً واستهزاءً بمجتمعٍ عاش على الكذب والرِّياء! ومن مظاهر سخريَّته أيضًا، رأيه السَّاخر بمظهر الإنسان ـ إذ يقول (من الأفضل للإنسان أن يكون حسن المظهر من أن يكون حسن الخلق) ـ ورد ذلك في قصَّة (صاحب الحرفين واو وهاء)، بل إنَّه تجرَّأ في قصَّة (أنا الصَّاروخ العتيد المحترم) على إعطاء تعريفٍ لم يسبقه إليه أحدٌ في (البطالة ـ فهي عمل من لا عمل له)، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في مقالةٍ بعنوان (عباراتٌ وفلسفاتٌ للاستعمال لأجل

النَّاشئة) وفيها ينتقد الحكومة البريطانيَّة على الاهتمام بسياسةٍ تقوم على الحروب واستعباد الشُّعوب بينما تركت في الدَّاخل حشودًا من الشَّباب المتخرِّجين من الجامعات والمعاهد بلا عملٍ، بل إنَّ عملهم أنَّهم عاطلون عن العمل! فهل هناك سخريَّةٌ أبلغ من هذه؟ وقد طال هجومه ونقده أدباء عصره والباحثين الأكاديميِّين بخصوص ظاهرةٍ أدبيَّةٍ عمَّت الأوساط الثَّقافيَّة في القرنين الثَّامن عشر والتَّاسع عشر، ألا وهي (السَّرقة الأدبيَّة)، ويشير أوسكار إلى ذلك في مستهلِّ قصَّته (صاحب الحرفين واو وهاء)، ولكنَّه، إن كان ينتقد الآخرين على الانتحال، فهو نفسه انتحل البحث الذي اعتمدت عليه القصَّة، فالبحث في حياة شكسبير والغوص في قصائد السُّونيتات والسَّعي إلى معرفة هويَّة صاحب الحرفين واو وهاء اللَّذين يتصدَّران مجموعةً من سونيتات شكسبير، إنَّما كان في الأصل محاضرةً مكتوبةً ألقاها ونشرها الكاتب والشَّاعر توماس تشاتيرتون والمحاضرة محفوظةٌ الآن في (المكتبة التِّذكاريَّة) الخاصَّة والمقامة على شرف وليام آندروز كلارك في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس!

وبعد هذا الإبداع كلِّه، والحراك الثَّقافيِّ والتَّوعويِّ الذي قام به في سبيل إيقاظ المجتمع الإنجليزيِّ من سباته وركوده إلى أن قام أخيرًا ونهض، ولكن ضدَّ الكاتب نفسه، استشعر وايلد خطر المجتمع عليه فكتب مرَّةً متقمِّصًا دور المجتمع الذي صار يحاربه ويقاضيه: «إنَّك يا وايلد قضيت كلَّ حياتك تعارض قوانيني وتتحدَّى سطوتي والآن وأنت في مأزقك الأخير، تأتي إليَّ لتطلب حمايتي! هيهاتَ هيهات... ستكون لتلك القوانين التي أنت هاجمتها اليد الطُّولى وستُطبَّق بالكامل عليك وتقتصُّ منك!» وبالفعل، انتهت حياة أوسكار وايلد نهايةً مأساويةً، فقد سُجن لمدَّة عامين

سجنًا انفراديًّا، ومات بعد إطلاق سراحه بثلاث سنواتٍ، في باريس، سنة 1900، بعد أن انتهى الرَّجل مصابًا بخيبة أملٍ ويأسٍ، ولكنَّ نجمه لم يأفل أبدًا في سماء الأدب.

د. عبد السَّتَّار عبد اللَّطيف الأسدي

أستاذ الأدب الإنجليزيِّ/كلِّيَّة التَّربية للعلوم الإنسانيَّة

جامعة البصرة

البصرة 10 ـ 06 ـ 2020

المجموعة الأولى

الأمير السَّعيد وقصصٌ أخرى

هذه المجموعة مهداةٌ إلى كارلوس بلاكير[1]

(1) كارلوس بلاكير مواطنٌ بريطانيٌّ مغتربٌ في فرنسا، يعيش في باريس وقد تعرَّف بأوسكار وايلد هناك في إحدى رحلات الكاتب إلى باريس. (المترجم).

الأمير السَّعيد

انتصب عاليًا، على عمودٍ سامقٍ، يطلُّ على المدينة برمَّتها، تمثالُ الأمير السَّعيد المكسوُّ كلُّه برقائق من الذَّهب الخالص وقد وضعوا له زمرَّدتَين لامعتَين وبرَّاقتين في موضع عينيه، وهناك ياقوتةٌ حمراء كبيرةٌ تتلألأ في مقبض سيفه!

نال الأمير إعجاب كلِّ من رآه، وهذا أمرٌ لا يخفى على أحد، «فهو جميل المحيَّا ويبدو في عليائه مثل ديك مؤشِّر الرِّياح!»، قالها أحد الرِّجال الأعضاء في هيئة المجلس البلديِّ وهو يتمنَّى أن يحظى بصيتٍ مماثلٍ لصيت من يمتلك موهبةً وذوقًا فنِّيَّين...

ثمَّ تابعَ:

- «وإن كان هذا الدِّيك غير ذي فائدة!» قال ذلك وهو يخشى ردَّة فعل مواطنيه، أو أن يكون، بملاحظته هذه، غير موفَّقٍ وغير عمليٍّ، وهو الذي تختلف حقيقته عمَّا يتظاهر به!

- «لماذا لا تكون مثل الأمير السَّعيد؟» قالت أمٌّ حنونٌ مخاطبةً ولدها الصَّغير الذي كان يبكي لأنَّه يريد القمر! «فأنا لا أظنُّ أنَّ الأمير السَّعيد بكى ولو مرَّةً واحدةً في حياته لاقتناء شيء!».

- «إنَّني سعيدٌ لأنَّني وجدت إنسانًا سعيدًا بحقٍّ في هذا العالم!» دمدم رجلٌ يبدو عليه الإحباط وهو يحدِّق مليًّا في ذلك التِّمثال الرَّائع!

ـ «إنَّه يبدو مثل ملاكٍ في السَّماء!» قالت مجموعةٌ من طلَّاب مدارس[1] الإحسان، كانوا قد خرجوا لتوِّهم من مبنى الكاتدرائيَّة القريبة في أرديتهم القرمزيَّة البرَّاقة ومعاطفهم البيضاء النَّظيفة، ثمَّ تجمهروا قرب التِّمثال ومعهم أستاذهم.

قال مدرِّس الرِّياضيَّات: «وكيف عرفتم ذلك وأنتم لم تروا واحدًا من الملائكة رأي العين؟»

ـ «ولكنَّنا رأينا الملائكة حقًّا! رأيناهم في أحلامنا!» ردَّ بعض الطُّلَّاب عليه، فعبس مدرِّس الرِّياضيَّات وقطَّب جبينه ونَهَرَهم بشدَّةٍ وعنفٍ مستهجنًا أحلامهم!

وذات ليلةٍ، في هذه المدينة، حلَّق في الأجواء سنونو صغيرٌ آثر البقاء هنا بعد أن هاجرت جماعته إلى مصر قبل ستَّة أسابيع، وربَّما كان سبب بقائه هنا حبَّه العميق لقصبةٍ جميلةٍ ـ هي أجمل القصبات ـ قابلها في أيَّام الرَّبيع الأولى بينما كان يطير فوق النَّهر متعقِّبًا فراشةً صفراء، فجذبت انتباهَه رقَّةُ خصرها، فتوقَّف عن الطَّيران ودنا منها يخاطبها:

ـ «أتأذنين لي بأن أقع في حبِّك أيَّتها القصبة؟» قال السُّنونو ذلك بكلِّ صراحةٍ وبلا مواربةٍ، فانحنت القصبة له انحناءةً خفيفةً، فراح السُّنونو يرفرف حولها عدَّة مرَّاتٍ، مرتفعًا في الهواء تارةً، ومنحدرًا ليلامس صفحة ماء النَّهر بجناحيه تارةً أخرى، فيتموَّج الماء موجاتٍ فضِّيَّةً من تحته، وكانت هذه طريقته في مغازلة القصبة طوال فصل الصَّيف!

(1) مدارس الإحسان مؤسَّساتٌ تربويَّةٌ خيريَّةٌ انتشرت في القرن التَّاسع عشر في إنجلترا، وكانت تعتمد في تمويلها على الإعانات الماليَّة الخيريَّة وصدقات المحسنين، وغالبًا ما كان ينتسب إليها أبناء الفقراء، ولعلَّ أبلغ تصويرٍ أدبيٍّ لها هو ما جاء في رواية (جين آير) لشارلوت برونتي. (المترجم).

ـ «يا لها من علاقة حبٍّ مضحكة!» سقسقتْ طيور السُّنونو الأخرى مبديةً رأيها بهذه العلاقة الغريبة وظلَّت تقول: «إنَّ القصبة فقيرةٌ لا تملك المال، وثانيًا لديها الكثير من العلاقات ـ علاقاتٌ لا يمكن حصرها!» وهذه حقيقةٌ، فالنَّهر يغصُّ بعيدان القصب. وحين حلَّ فصل الخريف، غادر سرب السُّنونو المكان.

شعر السُّنونو الصَّغير بالوحدة بعد رحيل جماعته، وما لبث أن دبَّ إليه الملل من معشوقته وصار يحدِّث نفسه: «إنَّها لا تتحدَّث ولا تنطق وأخشى ما أخشاه أن تكون مثل امرأةٍ لعوب، لأنَّها دائمة اللَّعب مع الرِّيح!» وهذه حقيقةٌ لا مراء فيها، فكلَّما هبَّت الرِّيح، مالت لها القصبة برقَّةٍ ودلال، حتى إنَّه واصل قائلًا: «أعترف أنَّها لطيفةٌ ولصيقةٌ ببيتها! أمَّا أنا بطبعي فمتيَّمٌ بالسَّفر والتَّرحال، والزَّوجة التي أريدها، لا بدَّ أن تكون مثلي عاشقةً للسَّفر والتَّرحال!»

ـ «هل تأتين معي أيَّتها القصبة؟» قال لها أخيرًا وربَّما على مضضٍ، ولكنَّ القصبة هزَّت رأسها بما يعني أنَّها ملتصقةٌ بأرضها!

ـ «إذن كنتِ طوال الوقت تعبثين معي، تُسلِّين نفسك بي!» صاح السُّنونو باكيًا، «إنَّني راحلٌ الآن إلى الأهرامات إذن، وداعًا!» قال ذلك وطار مبتعدًا عنها!

وطار سحابةَ نهاره لا يلوي على شيءٍ، ومع حلول اللَّيل وصل إلى المدينة ولسان حاله يقول: «أين تُراني أبيت اللَّيلة؟» ثمَّ أردف، «آمل أن تكون المدينة قد اتَّخذت كافَّة الاستعدادات لأجلي!»

وما لبث أن وقعت عيناه على ذلك التِّمثال المنتصب على العمود

السَّامق، فقال: «سوف أبيت هناك!» وأردفَ، «إنَّه لمكانٌ رائعٌ، مع فيضٍ من الهواء المنعش!» وهكذا رفرف السُّنونو هابطًا حتى استقرَّ في فجوةٍ بين قدمَي الأمير السَّعيد!

ـ «ها إنَّ لديَّ سرِيرًا من الذَّهب أنام فيه الآن!» قال في سرِّه بصوتٍ ناعمٍ بينما عيناه تجولان في المكان وتستطلعان ما حولهما وقد تأهَّب للنَّوم، ولكن ما إن وضع رأسه تحت جناحه حتى أحسَّ بقطرة ماءٍ كبيرةٍ تسقط عليه، فصاح: «يا للعجب! لا غيمة في السَّماء، والنُّجوم تتلألأ والسَّماء صافيةٌ، ومع ذلك تمطر. إنَّ الطَّقس في شمال أوروبَّا سيِّئٌ للغاية. كانت القصبة تحبُّ المطر، ولكنَّ ذلك منتهى الأنانيَّة منها!»

ثمَّ سقطت قطرةٌ أخرى!

ـ «أتساءل ما فائدة تمثالٍ ضخمٍ إن كان لا يستطيع درء المطر عنِّي؟» قال؛ «عليَّ أن أبحث عن فجوةٍ ألتجئ إليها ولو كانت في مدخنة!»، وقرَّر أن يغادر ويطير بعيدًا، ولكن قبل أن يبسط جناحيه للطَّيران، سقطت قطرةٌ ثالثةٌ، فرفع ناظريه إلى الأعلى، ويا لهول ما وقع بصره عليه!

كانت عينا الأمير السَّعيد مغرورقتَين بالدُّموع التي راحت تنساب بغزارةٍ على وجنتيه الذَّهبيَّتين، وكان وجهه في هذه اللَّيلة المقمرة في غاية الجمال فامتلأ قلب السُّنونو شفقةً وحزنًا عليه!

ـ «من أنت؟» بادرَهُ السُّنونو السُّؤالَ!

ـ «أنا الأمير السَّعيد!» قال التِّمثال!

ـ «لماذا تبكي إذن؟» سأله السُّنونو، «لقد بلَّلَتْني دموعُك!»

أجاب التِّمثال: «حين كنتُ على قيد الحياة، وكان لديَّ قلبٌ كقلوب البشر، لم تعرف عيناي طعمَ الدُّموع، لأنَّني كنت أعيش في قصرِ (بلا هموم)[1]، حيث لا يُسمح لأيِّ حزنٍ بالدُّخول! في النِّهار، كنت ألعب مع رفاقي في الحديقة، وفي المساء، أكون أنا سيِّد الرَّاقصين في صالة القصر الكبيرة؛ وكان ثمَّة سورٌ ضخمٌ وعالٍ يحيط بالحديقة، ولكنَّني لم أسأل نفسي يومًا ماذا يوجد وراء ذلك السُّور، بل لم أعبأ البتَّة بذلك السُّؤال، لأنَّ كلَّ شيءٍ حولي كان بديعًا ورائعًا وسعيدًا، حتى لقَّبني أصحابي بالأمير السَّعيد، وقد كنتُ سعيدًا بحقٍّ، إن كانت السَّعادة تقاس بلذَّة العيش. هكذا عشتُ، وهكذا متُّ. والآن، بعد موتي، رفعوني عاليًا جدًّا كي أرى وأشهد بعينيَّ كلَّ قبح مدينتي وكلَّ المآسي والفواجع، ومع أنَّ قلبي الآن مصنوعٌ من الرَّصاص، إلَّا أنَّني لا أستطيع الكفَّ عن البكاء!»

ـ «ماذا؟ ألم يصنعوا له قلبًا من الذَّهب؟» قال السُّنونو في سرِّه، وكان مهذَّبًا للغاية بحيث لم يسمح لنفسه بالمجاهرة بآرائه الشَّخصيَّة بصوتٍ عالٍ.

ـ «هناك في مكانٍ بعيدٍ،» واصل التِّمثال بصوتٍ عذبٍ وخفيضٍ كالموسيقى، «هناك في أقصى المدينة، في ذلك الشَّارع الصَّغير، بيتٌ فقير! وقد رأيتُ من هذا المكان، عبر إحدى نوافذه المفتوحة، امرأةً جالسةً عند طاولة. وجهها هزيلٌ ومرهَقٌ، ويداها خشنتان وحمراوان، وفي كلِّ موضعٍ منهما أثرٌ لوخزة إبرة. لقد كانت خيَّاطةً، وكانت منكبَّةً على تطريز معطفٍ من السَّاتان بأزهار العاطفة كي تقدِّمه إلى أجمل وصيفات الملكة

---

(1) الإشارة هنا إلى القصر الفخم الذي شيَّده الملك فردريك والمقام في مدينة بوتسدام والذي أُطلقَت عليه تسمية (بلا هموم) sans _ souci. (المترجم).

لتلبسه في حفلة الرَّقص التي ستُقام في القصر غدًا. ولكن كان هناك، قرب السَّيِّدة، في الزَّاوية القصيَّة من الغرفة، ولدٌ صغيرٌ طريح الفراش، تضطرم في أحشائه الحمَّى، وكان يطلب البرتقال. ولكن ليس لدى أمِّه ما تقدِّمه له سوى ماء النَّهر، ولهذا كان لا يكفُّ عن البكاء. فيا سنونو، يا سنونو، أيُّها السُّنونو الصَّغير، هلَّا تقتلع الياقوتة الحمراء من مقبض سيفي وتذهب بها إلى تلك السَّيِّدة؟ فقدماي كما ترى مثبَّتتان بقاعدة هذا التِّمثال ولا أستطيع الحركة!»

فردَّ السُّنونو: «ولكن هناك من ينتظرني في مصر!»، وليوضِّح موقفه أكثر أردفَ قائلًا، «لقد سبقني رفاقي إلى هناك، وهم الآن يحلِّقون فوق النِّيل ويجوبون الأجواء جيئةً وذهابًا، وربَّما رأيتهم أيضًا يتحدَّثون إلى زهور اللُّوتس الكبيرة. وسرعان ما سوف يغشاهم النُّعاس ويبيتون عند ضريح الملك العظيم المضطجع في تابوته المزخرف، الملك الملفوف بالكتَّان الأصفر والمحنَّط بأنواع التَّوابل والعطور وقد تقلَّد قلادةً من حجر اليشب المخضَرِّ بينما تبدو يداه مثل ورقتَي شجرٍ ذابلتَين!»

ـ «يا سنونو، يا سنونو، أيُّها السُّنونو الصَّغير،» خاطبه الأمير، «ألتمس منك معروفًا ـ هلَّا تبقى معي ليلةً واحدةً وتكون رسولي إلى بيت الصَّبيِّ؟ إنَّ الولد عطشانٌ أشدَّ العطش وأمَّه حزينةٌ أشدَّ الحزن!»

ـ «لا أظنُّ أنَّني أحبُّ الأولاد!» ردَّ السُّنونو، «ففي الصَّيف الماضي، وبينما كنت أحلِّق فوق النَّهر، كان هناك ولدان مشاكسان، ولدا الطَّحَّان، فصارا يرميانني بالحجارة، وإن لم يتمكَّنا من إصابتي، لأنَّنا معشر السُّنونو نحلِّق عاليًا في الأجواء لئلَّا يصيبنا أحد، فضلًا عن أنَّني سليل عائلةٍ معروفةٍ برشاقتها، ولكن يظلُّ سلوكهما سلوكًا شائنًا وينمُّ عن عدم الاحترام!»

ولكنَّ الأمير السَّعيد حزن لهذا الجواب لدرجة أنَّ السُّنونو الصَّغير أشفق عليه، فغيَّـر رأيه وقال، «الجوُّ قارسٌ هنا، ولكن سأبقى معك ليلةً واحدةً، وأكون حامل رسالتك!»

ـ «شكرًا لك، أيُّها السُّنونو الصَّغير!» قالَ الأمير.

حينئذٍ انتزع السُّنونو بمنقاره تلك الياقوتة الحمراء من سيف الأمير وطار بعيدًا فوق أسطح المدينة والياقوتة في منقاره. فمَـرَّ بجانب برج الكاتدرائيَّة حيث نُحِتَتْ ملائكةٌ من الرُّخام الأبيض، ثمَّ فوق قصرٍ سمع منه أصوات الرَّاقصين وصخب رقصهم، ورأى فتاةً جميلةً واقفةً على إحدى شرفات القصر مع حبيبها، وكان هذا يقول لها:

ـ «كم هي رائعةٌ النُّجوم، وكم هي عظيمةٌ قوَّة هذا الحُبِّ!»

ـ «كم آمل أن يصل ثوبي في الوقت المحدَّد لأتمكَّن من حضور حفلة الرَّقص الرَّسميَّة!» أجابت الفتاة المتيَّمة بحبيبها، «لقد أوصيت الخيَّاطة أن تطرِّزه بزهور العاطفة، ولكن يبدو أنَّ الخيَّاطة كسولٌ وبطيئةٌ جدًّا!»

ثمَّ مرَّ السُّنونو في طيرانه فوق النَّهر ورأى الفوانيس المعلَّقة على صواري السُّفن، ثمَّ مرَّ فوق حيِّ اليهود ورأى شيوخهم يساوم بعضُهم بعضًا، وشهد بأمِّ عينه كيف أنَّهم يكيلون حتى أموالهم بموازين من نحاس. وأخيرًا وصل إلى منزل الخيَّاطة الفقيرة ونظر من النَّافذة فرأى الولد ما يزال في سريره يلتهب بنار الحمَّى، وأمُّه بجانبه قد غلبها النُّعاس من التَّعب فنامت، فدخل السُّنونو البيتَ ووضع الياقوتة الحمراء الكبيرة على طاولة الخياطة قرب الكشتبان، ثمَّ راح يرفرف برفقٍ حول السَّرير مروِّحًا على جبينِ الصَّبيِّ بجناحيه.

ـ «أشعر ببرودةٍ الآن!» قال الولد، «لا بدَّ أنَّني أتحسَّن!» ثمَّ غطَّ في نومةٍ عميقةٍ هانئة!

ثمَّ طار السُّنونو عائدًا إلى الأمير السَّعيد ليخبره بما فعله، وقال: «إنَّه لأمرٌ غريبٌ! إنَّني أشعر بالدِّفء الآن، على الرَّغم من برودة الجو!»

فقال الأمير: «هذا لأنَّك فعلتَ الخير!»

فراح السُّنونو يفكِّر في الأمر، وما لبث أن ران عليه النُّعاس فنام؛ إذ دائمًا ما كان التَّفكير يحمله على النُّعاس!

وحين انبلج الصُّبح، طار صوب النَّهر واستحمَّ هناك!

ـ «يا لها من ظاهرةٍ غير عاديَّةٍ على الإطلاق. سنونو في الشِّتاء؟» قال أستاذٌ متخصِّصٌ في علم الطُّيور في أثناء مروره فوق الجسر، وشرع فورًا في كتابة رسالةٍ مطوَّلةٍ عمَّا رآه وأرسلها للنَّشر في إحدى الصُّحف المحلِّيَّة فلم يبق أحدٌ لم يقتبس منها، خاصَّةً وأنَّه ضمنَّها الكثير من المفردات العصيَّة على فهم العامَّة.

ـ «اللَّيلة أطير إلى مصر!» قال السُّنونو وقد اهتزَّ طربًا لمجرَّد الفكرة! ولكنَّه قبل سفره، راح يزور كلَّ معالم المدينة، فطار نحو برج الكنيسة وحطَّ على قمَّته فترةً طويلةً، وكان أينما ذهب سمع عصافير الدُّوريِّ يقول بعضها لبعضٍ: «يا لهذا الغريب المميَّز!»، والحقيقة أنَّه استمتع بجولته أيما استمتاع!

وحين طلع القمر، قفل السُّنونو راجعًا إلى الأمير السَّعيد وقال له: «هل لديك أيُّ رسالةٍ تريدني أن أحملها إلى مصر؟ فأنا منطلقٌ الآن!»

- «يا سنونو، يا سنونو، أيُّها السُّنونو الصَّغير!» ناشده الأمير، «هلَّا تبقى معي ليلةً أخرى، ليلةً واحدةً فحسب؟»

- «هناك من ينتظرني في مصر!» أجابه السُّنونو، «وغدًا يطير رفاقي إلى الشَّلَّال الثَّاني حيث تضطجع أفراس النَّهر بين نباتات البرديِّ بينما تمثال الإله ممنون[1] متربِّعٌ على عرشٍ ضخمٍ من الجرانيت يراقب النُّجوم طوال اللَّيل، وحين تشرق نجمة الصُّبح يطلق صيحة فرحٍ عاليةً ثمَّ يلوذ بالصَّمت. وعند الظَّهيرة، تنزل اللُّيوث الصَّفراء إلى النَّهر لتشرب. عيونها أشبه بحجر البِريل[2] الأخضر، وزئيرها يعلو على هدير الشَّلَّال».

- «يا سنونو، يا سنونو، أيُّها السُّنونو الصَّغير،» قال الأمير، «إنِّي أرى في البعيد الآن، في أقصى المدينة، شابًّا بنِّيَّ الشَّعر، مجعَّده، شفتاه حمراوان مثل رمَّانتين، يجلس في علِّيَّةٍ منكبًّا على منضدةٍ غارقةٍ بالأوراق المبعثرة، وبجانبه مزهريَّةٌ فيها بضعُ بنفسجاتٍ ذابلات، وهو يحاول جاهدًا إنهاء مسرحيَّةٍ اتَّفق على كتابتها مع مخرجٍ مسرحيٍّ، ولكنَّه في تلك العلِّيَّة لا يكاد يكتب شيئًا بسبب برودة الجو، فليس هناك نارٌ في المدفأة والجوع يكاد يصيبه بالإغماء!»

- «حسنًا، سأبقى ليلةً أخرى معك!» ردَّ السُّنونو، وكان في الحقيقة طائرًا طيِّب القلب، ثمَّ أضاف، «هل تريدني أن أحمل إليه ياقوتةً أخرى؟»

---

(1) الإشارة هنا إلى تمثالين ضخمين يسمَّيان تمثاليَ ممنون وهما للملك أمنحوتب الثَّالث ويقعان في طيبة الغربيَّة بمصر، وتقول الأسطورة إنَّ الإنسان يسمع نغماتٍ وترانيم حين تشرق أشعَّة الشَّمس عليهما. (المترجم).

(2) حجرٌ كريمٌ شفَّافٌ بلونٍ أخضر شاحب. (المترجم).

ـ «واأسفاه، أنَّى لي الآن بياقوتةٍ أخرى؟» قال الأمير، «فأنا لا أملك سوى عينيَّ هاتَين، وهما من ياقوتٍ أزرق نادرٍ جُلبتا قبل ألف عامٍ من الهند، وكلُّ ما أرجو منك فعله هو أن تنتزع إحداهما وتذهب بها إلى ذلك الشَّابِّ ليبيعها للجواهريِّ ويشتري بثمنها طعامًا وحطبًا يقيمان أوده ويمكِّنانه من إنهاء مسرحيَّته.»

ـ «يا عزيزي الأمير! لا أستطيع فعل ذلك!» قال السُّنونو وأجهش بالبكاء!

ـ «يا سنونو، يا سنونو، أيُّها السُّنونو الصَّغير!» قال الأمير، «افعل ما آمـركَ به!»

فانتزع السُّنونو عين الأمير من محجرها وطار بها إلى غرفة ذلك الطَّالب الشَّاب، وكان من السَّهل الدُّخول، لأنَّه كانت هناك فتحةٌ في السَّقف، فنفذ منها ودخل الغرفة. وكان الشَّابُّ دافنًا رأسه بين يديه، فلم يسمع رفرفة جناحي السُّنونو، فلمَّا رفع رأسه، اندهش إذ رأى ياقوتةً رائعة الجمال موضوعةً على البنفسجات الذَّابلات!

ـ «لقد بدأتُ أصير موضعَ تقدير! إنَّها هديَّةٌ من أحد المعجبين الكِبار. الآن فحسب أستطيع إنهاء مسرحيَّتي!» هتف الشَّابُّ وقد تهلَّل وجهه فَرَحًا!

في اليوم التَّالي طار السُّنونو إلى ميناء المدينة، وحطَّ على سارية سفينةٍ كبيرةٍ فرأى بحَّارتها منشغلين بتفريغ عنبرها من صناديق كبيرةٍ شادِّين إيَّاها بالحبال، وهم يصيحون مثل: «هوووي ـ ارفع هذا الثَّقيل!» مع كلِّ صندوقٍ يرفعونه!

ـ «أنا ذاهبٌ إلى مصر!» صاح السُّنونو بأعلى صوته من مكانه فوق السَّارية فلم يعبأ به أحدٌ، وحين بزغ القمر، طار عائدًا إلى الأمير السَّعيد!

ـ «لقد جئتُ إليك ثانيةً لأودِّعـك!» صاحَ!

ـ «يا سنونو، يا سنونو! أيُّها السُّنونو الصَّغير، هلَّا تبقى معي ليلةً أخرى؟» قال له الأمير.

ـ «لقد حلَّ الشِّتاء، وعمَّا قريبٍ تغطِّي الثُّلوج الباردة كلَّ شيءٍ هنا» أجابَ السُّنونو، «أمَّا في مصر، فالشَّمس ترمي أشَّعتها الدَّافئة على أشجار النَّخيل الخضراء، والتَّماسيح تستلقي في الوحل وهي تنظر حولها بتكاسلٍ ولامبالاة، ورفاقي الطُّيور منهمكون في بناء أعشاشهم في معبد بعلبك[1] بينما الحمائم البيض والورديَّات يراقبنهم هادلاتٍ بعضهنَّ لبعضٍ؛ كلَّا، يا عزيزي الأمير، لا بدَّ من الرَّحيل، وأعطيك وعدًا منِّي ألَّا أنساكَ أبدًا، وفي الرَّبيع القادم سأجلب لك من مصر ياقوتتين جميلتين عوضًا عن تينك اللَّتين تبرَّعت بهما، ياقوتةً حمراء أشدَّ حمرةً من وردةٍ جوريَّةٍ قانية، وأخرى زرقاء أشدَّ زرقةً من البحر العظيم!»

ـ «في السَّاحة هنا تقف فتاةٌ صغيرةٌ،» قال الأمير السَّعيد، «وهي تبيع أعواد الثِّقاب، ولكنَّ الأعواد سقطت من يدها في مسيل ماءٍ، فابتلَّت وتَلِفَت، وسيضربها أبوها إن لم تَعُدْ ببعض النُّقود إلى المنزل، وهي تبكي

(1) ربَّما كان هناك معبدٌ في مصر يحمل اسم معبد بعلبك المعروف في البقاع اللُّبناني، وهو معبد إله الشَّمس ـ هليوبوليس، وإذا عرفنا أنَّ (رع) هو إله الشَّمس أيضًا في الدِّيانة الفرعونيَّة وله معبدٌ في الكرنك والأقصر وترجمتُهُ في اللُّغتين الإغريقيَّة واللَّاتينيَّة: «هليوبوليس»، اتَّضح لنا أنَّ الأمر ربَّما اختلط على الشَّاعر كوتيير في قصيدته الآنفة الذِّكر التي ينقل منها أوسكار وايلد رحلة طيور السُّنونو. (المترجم).

الآن، وليس في قدميها الصَّغيرتين حذاءٌ ولا حتَّى جوارب، ورأسها الصَّغير مكشوفٌ في هذا الطَّقس البارد، ولذلك أرجوك أن تنتزع عيني الأخرى وتعطيها لها لكيلا يضربها والدها!»

- «سوف أبقى معك ليلةً أخرى، أنا موافق، ولكنَّني لا أستطيع انتزاع عينك الأخرى، لأنَّك ستفقد البصر تمامًا حينئذٍ!»

- «يا سنونو، يا سنونو! أيُّها السُّنونو الصَّغير!» قال الأمير، «افعل ما آمرك به!»

وفعل السُّنونو ما أُمِر به، فانتزع الياقوتة الأخرى من عين الأمير واندفع طائرًا نحو الفتاة الصَّغيرة بائعة الثِّقاب وأسقط الياقوتة في راحة يدها، فصاحت الفتاة الصَّغيرة: «يا لها من قطعة زجاجٍ جميلة!» وركضت إلى المنزل ضاحكةً.

ثمَّ عاد السُّنونو إلى الأمير وقال له: «ها قد كفَّ بصرك الآن، ولذلك سأبقى معك إلى الأبد.»

- «لا أيُّها السُّنونو!» قال الأمير المسكين، «عليك أن ترحل إلى مصر!»

- «لا أيُّها الأمير، سأبقى معك إلى الأبد!» قال السُّنونو، ونام عندَ قدمَي الأمير.

وفي اليوم التَّالي قضى سحابة يومه جاثمًا على كتف الأمير يحكي له حكاياتٍ عمَّا شاهده في بلدانٍ غريبةٍ وأمصارٍ بعيدةٍ، فحكى له عن طيور أبي منجل الأحمر التي تقف في صفوفٍ طويلةٍ على ضفاف النِّيل وتلتقط الأسماك الذَّهبيَّة بمناقيرها؛ وعن أبي الهول القديم قِدَمَ العالَم نفسِه، ويعيش في الصَّحراء، ويعرف كلَّ شيء؛ وعن التُّجَّار الذين يمشون

الهوينى بجانب إبلهم حاملين خرز الكهرمان في أيديهم؛ وعن ملكِ جبال القمر[1]، الأسْوَدِ كخشب الأبنوس، والذي يعبد وثنًا كبيرًا من الكريستال؛ وعن تلك الأفعى الخضراء الضَّخمة التي تنام في شجرة نخيلٍ ولديها عشرون كاهنًا موكَلين بإطعامها كعك العسل؛ وعن الأقزام الذين يجوبون مياه بحيرةٍ كبيرةٍ على أوراقٍ مسطَّحةٍ وكبيرةٍ اتَّخذوها قوارب لهم، وهم دائمًا في حربٍ حامية الوطيس مع الفراشات!

- «عزيزي أيُّها السُّنونو الصُّغير،» قال الأمير، «إنَّ ما تحكيه لي لشيءٌ عُجاب، ولكن أعجب من ذلك شقاء الرِّجال والنِّساء ومآسيهم. لا سرَّ أعجب في الحياة من سرِّ المعاناة. أريدك أن تذهب وتحلِّق فوق مدينتي، أيُّها السُّنونو الصَّغير، وتخبرني بما تراه هناك.»

فطار السُّنونو فوق المدينة المترامية الأطراف، فرأى الأغنياء يقيمون الولائم والحفلات الرَّاقصة في قصورهم الجميلة، بينما الفقراء على أبوابهم يتسوَّلون؛ ثمَّ طار إلى أزقَّةٍ يغشاها الظَّلام، فرأى الوجوه الشَّاحبة لأطفالٍ يتضوَّرون جوعًا وهم ينظرون بلا أملٍ إلى الشَّوارع المظلمة؛ ثمَّ رأى تحت جسرٍ صبيَّين صغيرين وقد استلقى كلٌّ منهما بين ذراعَي الآخر علَّهما يدفآن من البرد، وسمعهما يقولان: «كم نحن جائعان!»، ثمَّ سمع صوت الحارس يصيح عليهما: «ليس مسموحًا لكما بالنَّوم هنا»، فخرجا من تحت الجسر ليهيما على وجهيهما تحت المطر.

ثمَّ طار عائدًا إلى الأمير وأخبره بما رآه!

---

(1) سلسلةٌ جبليَّةٌ تقع الآن في أوغندا ومنها تأتي بعض روافد نهر النِّيل ويرتبط اسمها بمجموعةٍ من الأساطير والخرافات. (المترجم).

ـ «إنّني مكسوٌّ برقائق من الذَّهب الخالص،» قال الأمير، «وما عليك الآن سوى أن تنتزعها عن جسدي، ورقةً تلو الورقة، وتوزِّعها على فقراء مدينتي؛ فالأحياء لطالما اعتقدوا أنَّ الذَّهب يمكن أن يجلب لهم السَّعادة.»

وهكذا، ورقةً تلو الورقة، انتزع السُّنونو رقائق الذَّهب عن جسد الأمير، حتى بدا الأمير السَّعيد باهتًا جدًّا ورماديًّا، وراح يحملها، ورقةً تلو الورقة، إلى فقراء المدينة، فابتهج الأطفال وتورَّدت وجناتهم وعلت أصوات ضحكاتهم وهم يلعبون ألعابهم في شوارع المدينة، وسمعهم يهتفون: «صار لدينا خبزٌ الآن!»

ثمَّ جاء الثَّلج، وبعد الثَّلج جاء الصَّقيع، وبدت الشَّوارع كصفحاتٍ من الفضَّة ببريقها وتلألؤها، وتجمَّدت القطرات النَّازلة من أفاريز المباني والمنازل فبدت كخناجر طويلةٍ مدلَّاةٍ، وخرج النَّاس وقد لبسوا الفراء، والأطفالُ وقد وضعوا قلانسَ قرمزيَّةً على رؤوسهم وراحوا يتزلَّجون على الجليد.

أمَّا السُّنونو الصَّغير، فقد اشتدَّ البرد عليه، ولكنَّه مع ذلك لم يبرح جانب الأمير، لأنَّه أحبَّه، وكان يقتات على فتات الخبز المتساقط خارج باب الخبَّاز حين يكون هذا الأخير غافلًا عنه، ويحاول تدفئة نفسه برفرفة جناحيه.

ولكنَّه أيقن أخيرًا أنَّه ميِّتٌ لا محالة، ولم يكن لديه من القوَّة إلَّا ما يساعده على الطَّيران لمرَّةٍ واحدةٍ فحسب إلى كتف الأمير، فطار إلى هناك وهمس في أذنه: «وداعًا يا أميريَ العزيز، هل تسمح لي بتقبيل يدك؟»

ـ «إنَّني سعيدٌ بأنَّك اتَّخذت أخيرًا قرارك بالرَّحيل إلى مصر، أيُّها السُّنونو الصغير!» قال الأمير، «لقد أمضيت معي وقتًا طويلًا وقد صبرت عليَّ كثيرًا، فتعال وقبِّلني في شفتيَّ لأنَّني أحببتك!»

ـ «لست راحلًا إلى مصر!» ردَّ السُّنونو، «بل إلى دار الأموات. يُقال إنَّ الموت شقيق النَّوم، أليس كذلك؟»

ثمَّ قبَّل الأمير في شفتيه، وسقط ميِّتًا عندَ قدميـه!

في هذه اللَّحظة، سُمع صوت تهشُّم شيءٍ ما في داخل التِّمثال، وحقيقة الأمر أنَّ قلبه المجبول من الرَّصاص قد انفلق شطرين من شدَّة الصَّقيع... هذا مؤكَّد!

في وقتٍ مبكِّرٍ من صباح اليوم التَّالي، كان عمدة المدينة يقوم بجولةٍ في السَّاحة الكبيرة برفقة عضوين من مجلس المدينة، وحين مرُّوا بالعمود، نظر إلى التِّمثال، فتعجَّب وقال: «يا إلهي، كم يبدو رثًّا وقبيحًا أميرُنا السَّعيد!»

ـ «إنَّه حقًّا رثٌّ وقبيحٌ» قال المستشاران، وكانا دائمًا ما يتَّفقان مع العمدة ولا يخالفان له رأيًا، وصعدوا ليتفحَّصوا التِّمثال!

ـ «لقد سقطت الياقوتة من قبضة سيفه واختفت الزُّمرُّدتان من عينيه وتلاشى ثوبه الذَّهبيُّ أيضًا!» قال العمدة، ثمَّ أردف، «إنَّه في الحقيقة لا يبدو أفضل حالًا بكثيرٍ من أيِّ فقيرٍ بائس!»

ـ «نعم، إنَّه أفضل حالًا بقليلٍ من الشَّحَّاذ!» قال المستشاران بصوتٍ واحد!

ـ «هناك طائرٌ صغيرٌ ميِّتٌ بين قدميه!» تابعَ العمدة، «علينا حقًّا أن نصدر

مرسومًا بعدم السَّماح للطُّيور بالموت هنا!» وفورًا حرَّر كاتب العمدة إعلانًا بذلك.

وبسرعةٍ أيضًا، هدُّوا تمثال الأمير السَّعيد، «فبما أنَّه لم يعد جميلًا، لم يعد مفيدًا»[1] على حدِّ قول أستاذ الفنِّ في الجامعة.

ثمَّ صهروا التِّمثال في الفرن، وعقدَ العمدة اجتماعًا مع مجلس البلديَّة ليقرِّروا ما يجب عمله بالمعدن المُذاب، فاقترح عليهم قائلًا: «سنصنع منه تمثالًا جديدًا، ويكون تمثالًا لي أنا العمدة!»

ـ «كلَّا، سيكون التِّمثال لي!» قال كلُّ عضوٍ من أعضاء المجلس، واحتدم بينهم النِّقاش وتشاجروا، وحين سمعت أنا بالخبر كانوا ما يزالون يتشاجرون!

ـ «يا له من أمرٍ غريبٍ حقًّا!» قال المشرف على أعمال الصَّهر في الفرن، «إنَّ ذلك القلب المنفلق فلقتين والمصنوع من الرَّصاص لن يذوب

---

(1) الإشارة هنا إلى العلاقة بين المنفعة المادِّيَّة Utility والجمال المطلق Absolute Beauty في الفنِّ ولأيٍّ منهما الأولويَّة، فهناك رأيان سادا في القرن التَّاسع عشر بخصوص مدرستين ـ إحداهما تناصر الجمال Aestheticism وترى الفنَّ للفنِّ Art for Art's Sake خالصًا دون الاهتمام بأيِّ منفعةٍ مادِّيَّةٍ Utility ومن هؤلاء وليام موريس والشَّاعر كيتس، والأخرى مدرسة النَّفعيِّين المادِّيِّين يقودهم الفيلسوف ستيورات ميل Stuart Mill، أمَّا بالنِّسبة إلى موقف أوسكار وايلد فقد وضَّحه جليًّا في مقدِّمة روايته (صورة دوريان كرييه) The Picture of Dorian Gray حيث كتب: « الفنُّ كلُّه بلا طائلٍ أو منفعة»، فالفنُّ في رأيه للفنِّ وهو يعبِّر عن نفسه فحسب وإن كان كذبًا أو وهمًا، بمعنى أنَّ الفنَّ لا ينقل الواقع بحرفيَّته كما فعل زولا أو بلزاك، رائدا الواقعيَّة Realism والمدرسة الطَّبيعيَّة Naturalism في الأدب، وعلى الفنَّان في رأي أوسكار ألَّا يعدَّ فنَّه وسيلةً للتَّكسُّب المادِّيِّ ولا ينبغي له أن يلقي بالًا لمتطلَّبات الجمهور أو لذوق العامَّة ولا لأخلاق المجتمع بل لما توحيه له عبقريَّته له فحسب لأنَّها وحدها ما يعوَّل عليه. (المترجم).

في الفرن! فلنلقِ به في القمامة إذن!» وهكذا ألقوا به على كومةٍ من القمامة حيث كان السُّنونو الميِّت مُلقَىً أيضًا!

ـ «فلتُحضِرْ لي أثمن شيءٍ تلقاه في هذه المدينة!» قال الرَّبُّ مخاطبًا أحد ملائكته! فنزل الملاك والتقط شيئين من القمامة ـ القلب المصنوع من الرَّصاص وطائر السُّنونو الميِّت وحملهما إليه!

ـ «لقد أحسنت الاختيار أيُّها الملاك!» قال الرَّبُّ، «فأمَّا الطَّائر فسيبقى يغنِّي إلى أبد الآبدين في حديقة جنَّتي، وأمَّا الأمير السَّعيد ففي مدينتي التي كلُّها من الذَّهب سوف يسبِّح بحمدي!»

أنثى العندليب[1] والوردة

ـ «لقد أخبرتني أنَّها سترقص معي إن أحضرت لها وردًا حمراء!» قال الطَّالب الشَّابُّ وهو يكاد يبكي ألمًا، «ولكن في كلِّ حديقتنا ليس ثمَّة وردةٌ حمراء واحدة!»

وحدث أن سمعت هذا الحديث من عشِّها في شجرةِ السِّنديان أنثى عندليب، فحارت وتعجَّبت وهي تنظر إليه من خلال الأوراق!

ـ «لا توجد وردٌ حمراء في كلِّ الحديقة، فمن أين آتيها بما تريد؟» صاح الطَّالب واللَّوعة تأكل قلبه والدُّموع تملأ مآقيه، ثمَّ أردف، «إنِّي لأَعْجَبُ كيف لسعادة الإنسان أن تقام وتُبنى على أشياء صغيرةٍ وتافهة، وليس على ما يجنيه المرء من العلوم والمعارف! فلقد قرأت كلَّ ما كتبه

---

(1) اعتاد المترجمون ترجمة هذا العنوان بـ (العندليب والوردة) وهذا لا يستقيم مع الحكاية الإنجليزيَّة فيما يخصُّ جندر أسماء الشَّخصيَّات عند وايلد؛ فالكاتب جعل الطَّائر مؤنَّثًا لا مذكَّرًا عن قصدٍ ودرايةٍ، وهذا واضحٌ من توظيفه ضمائر التَّأنيث الإنجليزيَّة أينما ورد ذكرُ الطَّائر بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أو الحيرة عند التَّرجمة، ولهذا دلالته الفكريَّة، ولذلك فإنَّ اختيار لفظة (العندليب) في التَّرجمة العربيَّة المعهودة لا يدلُّ على التَّأنيث المقصود في الأصل بقدر ما يوحي بتذكير ما هو مؤنَّث، وهذا تحويرٌ لفكرة القصَّة وتزييفٌ لأهمِّ مغزىً في الحكاية وخطأٌ من أخطاء التَّرجمة العربيَّة الشَّائعة، وقد اهتممتُ كثيرًا بقضيَّة المحافظة على جنس الاسم في هذه التَّرجمة ومنها (صغير السِّحليَّة) للدَّلالة على التَّذكير ولم أشأ أن أترجمها إلى (السِّحليَّة الصَّغيرة) فتصبح الدَّلالة مؤنَّثةً بينما المراد بها التَّذكير في المحاورة بين أنثى العندليب وصغير السِّحليَّة والفراشة والزَّنبقة. (المترجم).

الحكماء ووقفتُ على كلِّ أسرار الفلسفة، ولكن، مع هذا كلِّه، تصير حياتي بأسرها بائسةً بسبب حاجتي إلى وردةٍ حمراء!»

ـ «ها أنا أخيرًا أرى عاشقًا حقيقيًّا وصادقًا!» حدَّثت أنثى العندليب نفسها، «فأنا لطالما تغنَّيت، ليلةً بعد ليلةٍ، به وبحاله، مع أنَّني لم أعرفه من قبل. ليلةً بعد ليلةٍ، سردتُ حكايته للنُّجوم، وها أنا أراه الآن رأيَ العين. شعره أسود كقلب زهرة المـُكحـَّلة، وشفتاه حمراوان كوردةِ رغبته، ولكنَّ العشق جعل وجهه بلون العاج المصفَرِّ، والحزن وضع ختمَهُ على جبينه!»

ـ «ليلة غدٍ ينوي أمير البلدة إقامة حفلةٍ كبيرة!» دمدم الشَّابُّ بهذه الكلمات مع نفسه، «والفتاة التي أعشقها ستكون حاضرةً، فإن استطعت الحصول على وردةٍ حمراء، جعلتُها تراقصني حتى انبلاج الفجر. إن أحضرتُ لها وردةً حمراء، استطعت أن أحتضنها وأضمَّها بين ذراعيَّ، وهي بالتَّأكيد ستضع رأسها على كتفي، وتشبك يدَها بيدي، ولكن هيهات، كيف لحلمي أن يتحقَّق وليس في حديقتي وردةٌ حمراء واحدة! إذن سأجلس وحيدًا في الحفل وهي ستمرُّ بي وتتجاوزني ولن تلقي بالًا إليَّ، وسينفطر قلبي لذلك!»

ـ «الآن فحسب اكتشفت عاشقًا حقيقيًّا وصادقًا!» قالت أنثى العندليب، ثمَّ أردفت، «إنَّ ما أغنِّيه أنا، يكابده هو، وما يفرحني أنا ويُدخل السُّرور إلى نفسي، هو بالنِّسبة إليه ألمٌ ولوعة. إنَّ الحبَّ لشيءٌ رائعٌ حقًّا! إنَّه أغلى من الزُّمرُّد وأثمن من الأوبال البديع، ولا يمكن شراؤه بكلِّ لؤلؤ الأرض ورمَّانها، بل لن تجده معروضًا في الأسواق. فهو شيءٌ لا يُباع لدى التُّجَّار، ولا يوزن حتى بميزان الذَّهب!»

ـ «سوف يأخذ الموسيقيُّون أماكنهم ويعزفون على آلاتهم الوتريَّة،» تابعَ الشَّابُّ حديثه مع نفسه، «وعندئذٍ ستنهض محبوبتي لترقص على أنغام القيثارة وألحان الكمان. سوف ترقص بخفَّةٍ لدرجة أنَّ قدميها لن تلامسا الأرض، وسوف يتجمَّع حولها الرَّاقصون من رجال البلاط ويتحلَّقون حولها ببدلاتهم الجميلة الزَّاهية. ستراقصُ الجميع باستثنائي، لأنَّني لا أملك وردةً حمراء أقدِّمها لها!» وفجأةً ارتمى الشَّابُّ على الأرض المعشوشبة ودفن وجهه بين راحتَي يديـه وأجهش بالبكاء!

ـ «لماذا يبكي؟» تساءل صغير السِّحليَّة الأخضر، وهو يركض بجوار الشَّابِّ وذيله مرفوعٌ في الهواء.

ـ «حقًّا، لماذا يبكي؟ « تساءلت فراشةٌ كانت ترفرف وراء شعاعٍ من ضوء الشَّمس!

ـ «نعم، حقًّا، لماذا يبكي؟» همست أقحوانةٌ في أذن جارتها بصوتٍ خافتٍ يكاد لا يُسمَع!

ـ «إنَّه يبكي من أجل وردةٍ حمراء!» قالت أنثى العندليب لهم!

ـ «من أجل وردةٍ حمراء!» صاحت المخلوقات الثَّلاثة بصوتٍ واحدٍ، «كم هذا مضحكٌ وسخيف!»؛ وضحك صغير السِّحليَّة، الذي كان متهكِّمًا بطبعه، منه علانيةً ودون استحياء.

ولكنَّ أنثى العندليب كانت تفهم السِّرَّ الكامن وراء حزن الشَّابِّ وتعرف سبب بكائه، ولهذا جلست صامتةً في شجرة السِّنديان واستغرقت في تأمُّلِ كُنه الحبِّ وأسراره!

وفجأةً نشرَت أنثى العندليب جناحيها وطارت تاركةً عشَّها وحلَّقت

عاليًا في السَّماء، ومثل شبحٍ عبرَت الأيكةَ وراحت تبحث هنا وهناك إلى أن وقع بصرها على شجرة وردٍ جميلةٍ وسط الأرض الخضراء، وما إن رأتها حتى طارت إليها وحطَّت على غصنٍ مزهرٍ من أغصانها وخاطبتها قائلةً:

ـ «أيَّتها الشَّجرة، أعطيني وردةً حمراء واحدة، وأعاهدكِ أن أغنِّي لكِ أحلى أغنية!»

ولكنَّ الشَّجرة هزَّت رأسها وقالت:

ـ «ألا ترين أنَّ كلَّ ورودي بيضاء اللَّون؟ بيضاءُ بياضَ زبدِ البحر، بل أكثر بياضًا من الثَّلج الذي يغطِّي قمَّة ذلك الجبل؛ ولكنَّني سأدلُّك على طريقٍ آخر: اذهبي إلى أخي الذي ينمو هناك، حول السَّاعة الشَّمسيَّة العتيقة، علَّه ينوِّلك ما تريدين».

وهكذا طارت أنثى العندليب إلى تلك الشَّجرة التي تنبت كالحلقة حول السَّاعة الشَّمسيَّة العتيقة!

ـ «أيُّها الشَّجر، أعطني وردةً حمراء،» صاحت به، «وأعاهدك أن أغنِّي لكَ أحلى أغنية!»

ولكنَّه هزَّ رأسه وقال:

ـ «ألا ترين أنَّ ورودي صفراء اللَّون؟ صفراء صُفرَةَ ضفائر تلك الحوريَّة الجالسة على عرشها الكهرمانيِّ، بل أكثر صُفرةً من زهرة النَّرجس البرِّيِّ التي تنبت هناك، في ذلك المرج، منتظرةً مجيء الفلَّاح ليقطعها بمنجله؛ ولكنَّني سأدلُّك على طريقٍ آخر: اذهبي إلى أخي الذي ينمو هناك، أسفل نافذة ذلك الطَّالب، علَّه ينوِّلك ما تريدين!»

وطارت أنثى العندليب إلى ذلك الشَّجر الذي ينمو تحت نافذة الطَّالب الشَّابِّ، وقالت له:

ـ «أيُّها الشَّجر، أعطني وردةً حمراء» صاحت به، «وأعاهدك أن أغنِّي لكَ أحلى أغنية!!»

ولكنَّ الشَّجر هزَّ رأسه وقال:

ـ «صحيحٌ أنَّ ورودي حمراء مثلَ قدمَي تلك الحمامة، بل أكثر حُمرةً من مراوح المرجان العظيمة التي تتراقص جيئةً وذهابًا مع الأمواج في جوف ذلك المحيط، ولكن دعيني أقول لك أمرًا، إنَّ الشِّتاء القارص جمَّد عروقي، والصَّقيع لسع براعمي، والعاصفة كسَّرَتْ أغصاني، ولذلك لن تزهر ورودي أبدًا هذا العام!»

ـ «كلُّ ما أريده وردةٌ حمراء واحدة! وردةٌ حمراء واحدةٌ فحسب! أما من طريقةٍ للحصول على تلك الوردة؟» صاحت أنثى العندليب به.

ـ «هناك طريقةٌ!» قال الشَّجر، «ولكنَّها طريقةٌ رهيبةٌ، رهيبةٌ لدرجة أنَّني لا أجرؤ على إخبارك بها!»

ـ «هيَّا، أخبرني!» قالت أنثى العندليب، «لستُ خائفةً من شيء!»

ـ «إن أردتِ الحصولَ على وردةٍ حمراء،» قال الشَّجر، «عليكِ أن تُنشئيها بأنغامك في ضوء القمر، ثمَّ لا بدَّ أن تخضِّبيها بدماء قلبك. عليكِ أن تغنِّي لي والشَّوكة مغروزةٌ في قلبك. طوال اللَّيل عليكِ أن تغنِّي لي والشَّوكة تخترق قلبك ودم حياتك يتدفَّق في عروقي ويصبح لي!»

ـ «ولكنَّ الموت ثمنٌ باهظٌ لقاءَ وردةٍ حمراء واحدة!» قالت أنثى

العندليب بألمٍ، ثمَّ أردفت: «والحياة عزيزةٌ على كلِّ المخلوقات. من الجميل أن يجلس المرء في حديقةٍ خضراءَ غنَّاء، يرقبُ مرور إله الشَّمس في عربته الذَّهبيَّة، وربَّةِ القمر في عربتها اللُّؤلؤيَّة، ويشمُّ عبقَ أزهار الزُّعرور البرِّيِّ، وعبيرَ أزهار الجُرَيس الزَّرقاء التي تختبئ في الوادي، وعطرَ أزهار الخلنج الذي يهبُّ على التِّلال. الحياة غاليةٌ وحلوة، ولكنَّ الحبَّ أغلى وأحلى وأفضل من الحياة، وما قيمة قلب عصفورةٍ إزاء قلب إنسان!»

ثمَّ نشرَتْ جناحيها البنِّيَّين متأهِّبةً للطَّيران، وارتفعت في الهواء، ثمَّ عبرَت الحديقة مثل طيفٍ، ومثل طيفٍ تغلغلت بين أشجار الأيكة وجنباتها، ورأت الطَّالب الشَّابَّ على حاله، مستلقيًا على العشب كما تركته آخر مرَّةٍ، والدُّموع لم تجفَّ بعد في عينيه الجميلتين، فصاحت به قائلةً:

- «ابتهجْ، ولينشرح صدرك، لأنَّك ستمتلك وردةً حمراء، وردةً سأنشئها من أنغامي على ضوء القمر وأصبغها بدماء قلبي؛ وكلُّ ما أطلبه منك مقابل ذلك، أن تكون عاشقًا وفيًّا وصادقًا، فالحبُّ أبلغ حكمةً من الفلسفة، وإن اشتُهرت هذه بالحكمة، وهو أقوى من أيِّ سلطانٍ، وإن اشتُهر هذا بالجبروت، ذلك أنَّ للحبِّ أجنحةً من لهب، ومثل اللَّهب ملوَّنٌ جسدُه، أمَّا شفتاه فحلوتان كالشَّهد، وأنفاسُه شذا البخور!»

ونظر الطَّالب إلى الأعلى وهو مستلقٍ بين الأعشاب، وأصغى إلى كلمات أنثى العندليب، ولكنَّه لم يفقه منها شيئًا لأنَّه لم يكن يعرف إلَّا الأشياء المسطورة في الكتب!

ولكنَّ شجر السِّنديان فهم ما قصدته أنثى العندليب وشعر بالحزن، لأنَّه كان متيَّمًا بأنثى العندليب الصَّغيرة التي بنت عشَّها بين أغصانه، فهمس لها:

- «أيَّتها العصفورة، غنِّـي لي أغنيةً واحدةً تكون آخر أغنيةٍ أسمعها منك! سأفتقدك كثيرًا حين ترحلين، وكم سأشعر بالوحدة!»

وأخذت أنثى العندليب تغنِّي لشجر السِّنديان بصوتٍ أعذب من خرير ماءٍ يتدفَّق من جرَّةٍ من فضَّة!

وحين ختمت أغنيتها، نهض الطَّالب من مكانه، وأخرج من جيبه دفتر ملاحظاتٍ وقلمَ رصاصٍ وراح يدوِّن بعض الملاحظات:

- «إنَّ لأنثى العندليب أسلوبًا في الغناء،» حدَّث الطَّالب نفسه وهو يتمشَّى في ممرَّات الحديقة، «هذا ما لا يمكن لأحدٍ إنكاره، ولكن السُّؤال: هل لها مشاعر؟ أخشى أنَّها لا تملك من المشاعر شيئًا! وفي الواقع، إنَّها مثل سائر الفنَّانين، لها أسلوبٌ، ولكن يعوزها الصِّدق الدَّاخلي[1]. وأعتقد أنَّها لن تضحِّي بنفسها في سبيل الآخرين. إنَّها لا تفكِّر سوى بالموسيقى، الموسيقى فحسب، وجميع البشر يعلمون أنَّ الفنون بطبيعتها أنانيَّة. ومع ذلك، يجب الاعتراف بأنَّ لديها بعض النَّغمات الجميلة في صوتها، ولكنَّها مع الأسف، لا تعني شيئًا، وما من فائدةٍ عمليَّةٍ تُرجَى منها». ودخل الطَّالب إلى غرفته، واضطجع على سريره، وراح يفكِّر في حبِّه، وبعد وقتٍ ليس بطويلٍ استسلم للنَّوم.

حين بزغ القمر وتصدَّر كبد السَّماء، طارت أنثى العندليب إلى الشَّجر ذي الورود الحمراء، ثمَّ ضغطت صدرها على شوكةٍ في أحد الأغصان.

---

(1) لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ ثيمات (التَّصنُّع والتَّكلُّف والمظهر الخارجي) تسير جنبًا إلى جنبٍ مع الثِّيمات المضادَّة لها (الصِّدق والجوهر والإخلاص) في اقترانٍ متواصلٍ في أغلب كتابات أوسكار وايلد، فتراه يبثُّه بين ثنايا قصصه ورواياته ومسرحيَّاته للكشف عن قضيَّةٍ أكبر هي النِّفاق الاجتماعي السَّائد في مجتمع القرن التَّاسع عشر. (المترجم).

وطوال اللَّيل راحت تغنِّي والشَّوكة تنغرز عميقًا في صدرها وربَّة القمر الكريستاليَّة تنحني نحوها وتُصغي إليها وهي تشعر بالبرد. طوال اللَّيل غنَّت والشَّوكة تنغرز أعمق فأعمق في صدرها، حتى انحسر دمُ حياتها عن قلبها.

في البداية، غنَّت أنثى العندليب عن ولادة الحبِّ بين قلبين، قلب فتىً وقلب فتاة، وفي أثناء ذلك، ظهرت وردةٌ رائعةٌ على قمَّة غصنٍ أعلى شجر الورد الأحمر، وتكوَّنت البتلةَ بعد البتلةَ، مثلما كانت النَّغمة تتلو النَّغمة في أغنية أنثى العندليب! كانت شاحبةً أوَّل الأمر، كضبابٍ معلَّقٍ على صفحة النَّهر - شاحبةً كقدمَي الصَّباح، فضِّيَّةً كأجنحة الفجر، كخيال وردةٍ في مرآةٍ من الفضَّة، كخيال وردةٍ في بركة ماء، هكذا كانت الوردة التي أزهرت وتفتَّحت في أعلى الغصن.

ولكن عندئذٍ، نادى شجر الورد الأحمر أنثى العندليب أن تزيد في ضغط صدرها على شوكته، قائلًا:

- «اضغطي صدرك أكثر، أيَّتها العصفورة الصَّغيرة، وإلَّا طلع النَّهار قبل إنجاز وردةٍ حمراء واحدة!»

ففعلت أنثى العندليب وضغطت بصدرها على الشَّوكة لتنغرز فيه أعمق وأعمق، بينما ارتفع صوت غنائها أكثر فأكثر وهي تغنِّي ولادة حبٍّ جارفٍ في روحَي رجلٍ وامرأة!

وإذا بنضارةٍ ورديَّةٍ تسري في بتلات الوردة، مثلما يتورَّد وجه العريس حين يطبع القبلة الأولى على شفتي عروسه، ولكنَّ الشَّوكة لم تكن قد بلغت بعد قلب أنثى العندليب، ولهذا ظلَّ قلب الوردة أبيض، ذلك أنَّ دمَ قلب أنثى العندليب وحده يمكن أن يصبغ بالحمرة قلبَ الوردة.

وصاح شجر الورد الأحمر بأنثى العندليب طالبًا منها أن تزيد في ضغط صدرها على شوكته:

ـ «اضغطي صدركِ أكثر، أيَّتها العصفورة الصَّغيرة! اضغطي أكثر، فقد يطلع النَّهار قبل إنجاز وردةٍ حمراء واحدة!»

وفعلت أنثى العندليب ما أُمِرَت به، فزادت في ضغط صدرها على الشَّوكة حتى لمست الشَّوكة قلبها، فشعرت بوخزة ألمٍ قويَّةٍ تسري في جسدها. كان الألم مريرًا كالعلقم، وازدادت أغنيتها قوَّةً وجموحًا، ذلك أنَّها غنَّت الحبَّ الذي لا يبلغ درجة الكمال المطلق إلَّا بالموت، الحبَّ الذي لا يموت حتى في القبر.

وأصبحت الوردة الرَّائعة قرمزيَّةً مثل وردة سماءِ الشَّرق. قرمزيَّةً كانت بتلات الوردة، وقرمزيًّا كالياقوت كان قلبها.

ولكنَّ صوت أنثى العندليب بدأ يضعف ويخفت، وبدأ جناحاها الصَّغيران يصطفقان، وغطَّت غشاوةٌ رقيقةٌ عينيها، حتى أصبح صوتها أخفت من أن يُسمَع وأحسَّت بشيءٍ ما يخنقها ويضغط على حنجرتها.

ثمَّ استجمعت قواها وأطلقت آخر نغمةٍ من نغماتها، فسمعتها ربَّة القمر المتَّشحة بالبياض، فنسيت الفجرَ، وظلَّت تتلكَّأ في السَّماء. شجر الورد الأحمر سمع تلك النَّغمة أيضًا، فاهتزَّ منتشيًا، وتفتَّحت بتلات الوردة مستقبلةً نسمات الصَّباح الباردة! وحملت ربَّة الصَّدى تلك النَّغمة إلى كهفها الأرجوانيِّ في التِّلال، فأيقظت الرُّعاة النَّائمين من أحلامهم، وسَرَتْ تلك النَّغمة في قصب النَّهر، قصبةً قصبة، فحملت هذه رسالتَها إلى البحر.

وخاطب شجر الورد الأحمر أنثى العندليب قائلًا: «انظري! انظري أَيَّتها العصفورة! لقد اكتملت الوردة الحمراء الآن!» ولكنَّ أنثى العندليب لم تجب، فقد سقطت جثَّةً هامدةً بين الحشائش والشَّوكة مغروزةٌ في قلبها.

وعند الظَّهيرة، فتح الطَّالب نافذته المطلَّة على الحديقة، ونظر إلى الخارج.

ـ «ما هذا الذي أرى! أيَّة لمسة حظٍّ هذه!» صاح متعجِّبًا، «ثمَّة وردةٌ جوريَّةٌ حمراء هنا! وردةٌ لم أر لها مثيلًا طوال حياتي! إنَّها آيةٌ في الجمال، وأنا على يقينٍ من أنَّها تحمل اسمًا لاتينيًّا طويلًا!» ثمَّ مال بجسمه من النَّافذة وانتزعها عن غصنها.

ثمَّ وضع قبَّعته على رأسه، وهرع إلى منزل البروفسور والوردة الحمراء في يده.

كانت ابنة البروفسور تجلس في المدخل منشغلةً في لفِّ خيوط حريرٍ زرقاء على البكرة، وكان كلبها الصَّغير باسطًا ذراعيه عند قدميها.

ـ «لقد وعدتِ أنَّك سوف تراقصيني إن أحضرت لك وردةً حمراء!» قال مذكِّرًا الفتاة بوعدها، «وها هي الوردة، أشدُّ الورود حمرةً في العالم، وردةٌ لا مثيل لها، ولا شكَّ عندي أنَّكِ سوف تضعينها بفستانك الذي سترتدينه لحفلة اللَّيلة، ستضعين الوردة عند موضعِ قلبك، وبينما نرقص معًا سوف تخبرك عن مقدار حبِّي لك!»

ولكنَّ الفتاة قطَّبت جبينها وأجابت: «أخشى أنَّ وردتك هذه لن تلائم فستاني! ودعني أضيف، لقد أرسل لي ابنُ أخ حاجبِ المَلِك مجموعةً من المجوهرات الحقيقيَّة، ولا أعتقد أنَّ هناك إنسانٌ على وجه الأرض يعتقد أنَّ الورود أغلى ثمنًا من المجوهرات!»

ـ «حسنًا، أقسم بشرفي إنَّك ناكرةٌ للجميل!» قال الطَّالب غاضبًا، ثمَّ رمى الوردة في الشَّارع، فسقطت في أخدودٍ لتصريف مياه الأمطار، وجاءت عربةٌ تجرُّها الخيول وداستها!

ـ «ماذا؟ أنا ناكرةٌ للجميل؟» صاحت الفتاة، «دعني أقول لك شيئًا، إنَّك إنسان فظٌّ ووقحٌ للغاية، وبعد كلِّ شيءٍ، من تكون أنت؟ إنَّك مجرَّد طالب! وأحسبُ أنَّك لا تستطيع شراء إبزيمين من الفضَّة لحذائك كإبزيمَي ابن أخ حاجب الملِك»؛ ثمَّ قامت عن كرسيِّها ودخلت البيت.

ـ «يا لسُخف الحُبِّ!» قال الطَّالب لنفسه وهو يغادر، «إنَّه ليس مفيدًا ولا حتى نصفَ فائدة المنطق، فهو لا يستطيع إثبات أيِّ شيءٍ كما يفعل المنطق، ودائمًا ما يمنِّينا بأشياء لا تتحقَّق البتَّة، ويجعل المرء يصدِّق أمورًا ليست صحيحةً. الحبُّ، في الحقيقة، شيءٌ غير عمليٍّ، ولمَّا كان كلُّ شيءٍ في هذا العصر يُقاس بعمليَّته، فخيرٌ لي إذنْ أن أرجع إلى كتبي وأدرسَ الفلسفة وأتبحَّر في علوم الماورائيَّات! ذلك أفضل لي!»

ورجع الطَّالب إلى غرفته، وأنزل من أحد الرُّفوف كتابًا قديمًا يعلوه الغبار، وانكبَّ على قراءته.

العملاق الأنانـــيّ

عَصْرَ كلِّ يومٍ، اعتاد الأولاد أن يذهبوا ليلعبوا في بستان العملاق، بعد انصرافهم من مدرستهم!

كان بستانًا شاسعًا وجميلًا اكتست أرضُه بعشبٍ أخضر ناعم، وانبثقت هنا وهناك، كالنُّجوم، أزهارٌ خلَّابةٌ، وكانت هناك اثنتا عشرة شجرة خوخٍ تتفجَّر في الرَّبيع عن براعم ورديَّةٍ رقيقةٍ كاللآلئ، وفي الخريف تحمل ثمارًا وفيرةً، وكانت الطُّيور تحطُّ على أغصانها وتغرِّد تغاريدها الشَّجيَّة والعذبة التي كانت تستهوي الأولاد فيتوقَّفون عن اللَّعب ليستمعوا إليها غابطين أنفسهم على هذه المتعة وقائلين أحدهم للآخر: «كم نحن سعداء في هذا البستان!»

ولكن ذات يوم، قرَّر العملاق العودة إلى بستانه بعد غياب سبع سنواتٍ قضاها في زيارةٍ لصديقه بعبع كورنوول[1]. والآن، بعد مرور سبع سنواتٍ تكلَّم خلالها مع البعبع وقال له كلَّ ما كان عليه قوله، ذلك أنَّ حديثه كان محدودًا، عاد إلى بستانه، وحين وصل تفاجأ برؤية الأولاد يلعبون في البستان، فصاح بهم:

(1) الإشارة هنا إلى مقاطعة كورن ـ وول السِّلتيَّة في جنوب غربي الجزيرة البريطانيَّة. (المترجم).

ـ «ماذا تفعلون هنا؟»، وكان صياحه خشنًا جدًّا ومخيفًا، فهرب الأولاد بعيدًا.

فدمدم العملاق بينه وبين نفسه: «هذا البستان بستاني، وعلى جميع النَّاس أن يفهموا ذلك، ولن أسمح لأحدٍ غيري باللَّعب فيه»، وهكذا شرع في بناء سورٍ عالٍ حوله وعلَّق لوحةً كبيرةً كتب عليها:

«سوف يُعاقَب من يتعدَّى أملاك الآخرين شرَّ عقاب!»

والحقُّ أنَّ العملاق بتصرُّفه هذا كان يكشف عن أنانيَّةٍ لا نظير لها.

ولم يعد لدى الأولاد المساكين مكانٌ يلعبون فيه. حاولوا أن يلعبوا في الشَّارع، ولكنَّ الشَّارع كان متربًا للغاية ومليئًا بالحجارة القاسية، فكرهوا اللَّعب هناك. ولكنَّهم اعتادوا أن يتمشَّوا حول السُّــور العالي، بعد انتهاء الدُّروس، وأن يتكلَّموا عن البستان الجميل الذي وراءه، وكان كلٌّ منهم يقول للآخر: «كم كنَّا سعداء!»

ثمَّ جاء الرَّبيع، وفي جميع أنحاء البلاد تفتَّحت أزهارٌ صغيرةٌ وانفقست البيوض عن فراخٍ جميلةٍ، إلَّا في بستان العملاق الأنانيِّ، فقد بقي الشِّتاء مقيمًا ولم يرحل، فلم تهتمَّ الطُّيور هناك بالغناء، إذ لم يكن ثمَّة أطفال، وحتى الأشجار نسيَــتْ أن تُزهِر. وحدث أن أطلَّت زهرةٌ جميلةٌ برأسها من بين الحشائش، ولكن حين رأت تلك اللَّوحة شعرت بالحزن على الأطفال وانزلقت عائدةً إلى التُّراب لتغطَّ في النَّوم من جديد. الوحيدان اللَّذان سُرَّا بذلك هما الثَّلج والصَّقيع! وقد عبَّرا عن سرورهما قائلَين: «أخيرًا نسي الرَّبيع هذا البستان! ولذلك سنعيش هنا طوال العام!» وغـطَّى الثَّلجُ العشبَ بعباءته البيضاء الفضفاضة، بينما صبغ الصَّقيع تيجان الأشجار

بلونه الفضِّي! ثمَّ دَعَوَا عاصف[1] الشَّمال للمكوث معهما، فجاء. وكان كعادته متلفِّعًا بالفراء، ولم يكفَّ عن الزَّمجرة طوال النَّهار في أرجاء البستان، حتى إنَّه راح ينفخ على دهاليز[2] المداخن بعاصف ريحه فسوَّاها بالأرض، وكان يردِّد قائلًا: «يا له من مكانٍ مُبهج!»، ثمَّ قال: «علينا أن ندعو البَرَدَ لزيارتنا!»، وفعلًا لبَّى البَرَد الدَّعوة وجاء، وكان كلَّ يومٍ يقضي ثلاث ساعاتٍ في قصف سقف القصر بحبَّاته، حتى انهارت معظم الألواح، وبعد ذلك كان يطوف في البستان ويدور بأسرع ما يمكن، وكان يرتدي ملابس رماديَّة اللَّون وينفث أنفاسًا كالثَّلج!

- «لا أستطيع أن أفهم لماذا تأخَّر الرَّبيع عن القدوم هذا العام؟» قال العملاق الأنانيُّ محدِّثًا نفسه بينما كان جالسًا عند النَّافذة ينظر إلى حديقته البيضاء الباردة. ثمَّ أردف: «آملُ أن يتغيَّر الطَّقس!»

ولكنَّ الرَّبيع لم يأتِ، ولا الصَّيف. وأمُّ الخريف وهبت كلَّ البساتين ثمارًا ذهبيَّةً، ولم تهب بستان العملاق شيئًا. «إنَّه أنانيٌّ جدًّا»، قالت عنه. ولذلك، ظلَّ الشِّتاء رابضًا هناك، وظلَّ عاصف ريح الشَّمال والبَرَد والصَّقيع والثَّلج يرقصون بين الأشجار.

وذات صباحٍ، بينما العملاق مضطجعٌ في سريره إذ تناهت إلى سمعه

---

(1) قلنا فيما سبق إنَّ التَّرجمة تراعي قضيَّة الجندر عند أوسكار وايلد ولهذا سمحت لنفسي بتوليد دلالاتٍ أو نحت كلماتٍ من أصول مفرداتٍ موجودةٍ للمحافظة على النَّصِّ المصدر ودون المساس بجمال اللغة العربيَّة، ومن ذلك ترجمة (ريح الشَّمال الباردة والعاصفة) إلى (عاصف ريح الشَّمال) كاسم مذكَّر. (المترجم).

(2) كانت المداخن شائعة الاستخدام في البيوتِ الإنجليزيَّة طوال القرون الماضية، وكانت تبنى من الآجر كنفقٍ طويلٍ يمتدُّ في السَّماء ويُراعى فيه أن تكون فتحته العليا أضيق من تلك القريبة من سطح الدَّار، ولهذا يُشار إليها بالإنجليزيَّة بإضافة مفردة pot إلى مفردة المدخنة chimney، فيُقال chimney _ pot. (المترجم).

أنغام موسيقى جميلة، وكان وقْعُها من العذوبة في أذنيه لدرجة أنَّه تصوَّر أنَّ موسيقِّيِي الملك كانوا يمرُّون قريبًا من هناك، ولكن لم يكن الأمر سوى غناءِ حسُّونٍ تفَّاحيٍّ صغيرٍ قرب نافذته، ولكن لأنَّ سنينًا طوالًا مرَّت منذ سمع طائرًا يغرِّد في بستانه بدا له ذلك الغناء أجمل موسيقى في العالم كلِّه. وفجأةً توقَّف البَرَد عن الرَّقص فوق رأسه، كما توقَّف عاصف ريح الشَّمال عن الزَّئير والزَّمجرة، وهبَّ عليه عطرٌ زكيٌّ قادمٌ من بهو المنزل المفتوح، ففتح العملاق فاه وقال: «أحسب أنَّ الرَّبيع قد أقبل أخيرًا إلى بستاني!» ثمَّ قفز من السَّرير ونظر إلى الخارج.

فماذا رأت عيناه؟

رأتا مشهدًا لم ير أجمل منه من قبل. ثمَّة أطفالٌ في الحديقة، أطفالٌ كانوا قد تسلَّلوا عبر فتحةٍ صغيرةٍ في السُّور، وهم الآن جالسون على أغصان الأشجار. في كلِّ شجرةٍ استطاع أن يراها كان هناك طفلٌ صغير. وكانت الأشجار سعيدةً للغاية بعودة الأطفال مرَّةً أخرى إليها، لدرجة أنَّها اكتست بالأزهار والبراعم، وراحت تميد بأذرعها برفقٍ فوق رؤوس الأطفال، وكانت الطُّيور ترفرف حولهم وتشدو بسعادةٍ، والزُّهور تطلُّ برؤوسها من بين الحشائش الخضراء وتضحك. كان مشهدًا بديعًا، ولكن في زاويةٍ واحدةٍ فحسب بقي الشِّتاء مقيمًا. كانت أبعد زاويةٍ في الحديقة، وكان يقف فيها طفلٌ صغيرٌ لم يستطع، لصغر سنِّه، بلوغ أيِّ غصنٍ من أغصان الشَّجرة، وكان يدور حولها ويبكي بمرارة.، وكانت الشَّجرة المسكينة ما تزال مغطَّاةً بالثَّلج والصَّقيع وعاصفُ ريح الشَّمال يهبُّ ويزمجر فوقها. فهمست الشَّجرة له: «تعال وتسلَّقني، أيُّها الولد الصَّغير»، وأحنَتْ له أغصانها ما استطاعت، ولكنَّ الصَّبيَّ كان صغيرًا جدًّا.

وهنا رقَّ له قلب العملاق وهو ينظر إلى الخارج. وقال: «كم كنت أنانيًّا!» ثمَّ أردف: «الآن عرفت لماذا كان الرَّبيع يرفض المجيء إلى هنا! سأضع هذا الولد الصَّغير على قمَّة الشَّجرة، وبعد ذلك سأهدم السُّور الذي بنيته، وستكون حديقتي هذه ملعبًا للأطفال إلى الأبد!»، وكان نادمًا حقًّا على ما اقترفت يداه.

ونزل العملاق إلى الطَّابق السُّفليِّ، وفتح الباب الأماميَّ بهدوءٍ شديدٍ، وخرج إلى الحديقة. ولكن حين رآه الأطفال ارتعبوا منه ولاذوا بالفرار، فخيَّم الشِّتاء من جديدٍ على الحديقة. وحده الصَّبيُّ الصَّغير لم يهرب، لأنَّ عينيه كانتا مغرورقتين بالدُّموع، فلم ير العملاق قادمًا. وجاء العملاق من خلفه، وحمله برفقٍ بيده، ووضعه على أعلى غصنٍ في الشَّجرة. وما إن فعل ذلك حتى تفجَّرت الشَّجرة بالأزهار، وجاءت الطُّيور من كلِّ حدبٍ وصوبٍ إليها وغرَّدت على أغصانها، حتى إنَّ الطِّفل مدَّ ذراعيه الصَّغيرتين وطوَّق بهما رقبة العملاق وقبَّلَه. وحين رأى الأطفال الآخرون أنَّ العملاق قد تغيَّر ولم يعد ذلك الشِّرِّير الذي عهدوه، عادوا راكضين، ومعهم عاد الرَّبيع. وقال العملاق: «الحديقة الآن حديقتكم، أيُّها الأطفال الصِّغار!» ثمَّ تناول فأسًا عظيمةً ودكَّ بها السُّور. وحين خرج النَّاس إلى السُّوق في السَّاعة الثَّانية عشرة، وجدوا العملاق يلعب مع الأطفال في أجمل حديقةٍ رأوها على الإطلاق.

ولعب الأطفال في الحديقة طوال النَّهار، وفي المساء جاؤوا إلى العملاق ليودِّعوه.

ـ «ولكن أين صديقكم الصَّغير؟» سأل العملاقُ الأطفال، «أعني ذلك

الطِّفل الذي وضعته بنفسي على الشَّجرة!». لقد أحبَّ العملاق هذا الطِّفل أكثر ممَّا أحبَّ بقيَّة الأطفال لأنَّه قبَّله.

- «لا ندري!» أجاب الأطفال، «ربَّما رحل!»

- «عليكم أن تخبروه بأن يأتي إلى هنا في الغد، بل ألحُّوا عليه في ذلك!» قال العملاق؛ ولكنَّ الأطفال أجابوه بأنَّهم لا يعرفون عنوان الطِّفل وبأنَّهم لم يروه من قبل؛ فشعر العملاق بالحزن الشَّديد.

وهكذا، عَصْرَ كلِّ يومٍ، بعد انتهاء الدَّوام في المدرسة، كان الأطفال يأتون ليلعبوا مع العملاق في البستان؛ أمَّا ذلك الصَّغير الذي أحبَّه العملاق، فلم يظهر ثانيةً البتَّة! كان العملاق لطيفًا جدًّا مع جميع الأطفال، ولكنَّه كان يتوق إلى رؤية صديقه الصَّغير الأوَّل، وكثيرًا ما كان يتحدَّث عنه ويردِّد بينه وبين نفسه: «كم أتمنَّى لو أراه!»

ومرَّت السُّنون وكبر العملاق وبلغ من العمر عتيًّا ووهن جسمه فلم يعد بمقدوره اللَّعب مع الأطفال كما اعتاد أن يفعل في أيَّام شبابه، فصار يكتفي بالجلوس على كرسيِّه الضَّخم ومشاهدة الأطفال وهم يلعبون؛ «لديَّ الكثير من الزُّهور الجميلة،» قال، «ولكنَّ الأطفال هم أجمل الزُّهور!»

وفي صبيحةٍ من صبيحات الشِّتاء، راح ينظر من النَّافذة وهو يرتدي ملابسه. لم يعد يكره الشِّتاء الآن، فقد بات يعلم أنَّ الرَّبيع كان نائمًا فحسب وأنَّ الأزهار كانت تستريح. فجأةً فرك عينيه متعجِّبًا، ونظر ثانيةً فثالثةً فرابعة، وما أعجب ما رآه! هناك في ذلك الرُّكن القصيِّ من البستان، انتصبت شجرةٌ واحدةٌ فريدةٌ، وكانت مغطَّاةً تمامًا بأزهارٍ بيضاء مدهشة، وأغصانها كلُّها من الذَّهب الخالص، وتتدلَّى منها فاكهةٌ

فضيَّةٌ، وهناك، تحت الشَّجرة، وقف ذلك الطِّفل الصَّغير الذي أحبَّه وبحث عنه طويلًا!

ونزل العملاق إلى الطَّابق الأرضيِّ مسرعًا والفرحة تغمره، وخرج إلى الحديقة، فاجتاز العشب مهرولًا واقترب من الطِّفل، ولكنَّه حين قرَّب وجهه منه احمرَّ غضبًا وصاح: «من تجرَّأ على جرحك؟»

كانت راحتا يدَي الطِّفل تحملان أثر مسمارين، وكان هناك أثر مسمارين في قدمَيه الصَّغيرتين أيضًا.

- «من تجرَّأ على جرحك؟» صاح العملاق، « قُل لي، لآخذَ سيفي الكبير وأذبحه».

- «كلَّا، لا تفعل!» ردَّ الطِّفل، «فهذه جروحُ الحبِّ!»

- «مَنْ أنت يا صغيري؟» قال العملاق ذلك وقد استولت على قلبه رهبةٌ خرَّ معها ساجدًا أمام الطِّفل الصَّغير.

ابتسم الطِّفل للعملاق وقال له: «أنا ذلك الطِّفل الذي سمحتَ له، ذات يومٍ، بأن يلعب في حديقتك، واليوم حان دورك لتأتي معي إلى حديقتي التي هي الجنَّة».

في عصر ذلك اليوم، حين دخل الأطفال الحديقةَ ليلعبوا ويركضوا، وجدوا العملاق يرقد ميّتًا تحت تلك الشَّجرة، وقد غُطِّي كلِّيًّا بأزهارٍ بيضاء.

الصَّديق الوفيُّ

ذات صباحٍ، أطلَّ جرذ الماء العجوز برأسه من جحره. كانت عيناه مثل خرزتين لامعتين، وسبلتا شاربَيه قد شابتا وتصلَّبتا، وذيله مثل قطعةٍ طويلةٍ من المطَّاط، وكانت بطَّاتٌ صغيراتٌ يَسبَحْن بالقرب منه في ماء البركة، وقد بَدَوْنَ أشبه بسربٍ كبيرٍ من طيور الكناريِّ الصَّفراء، وكانت أمُّهنَّ، بريشها النَّاصع البياض وساقيها الخالصتَي الحُمرة، تحاول تعليمهنَّ كيفيَّة الوقوف على رؤوسهنَّ في الماء.

ـ «لن تستطعن العيش على خير وجهٍ في المجتمع ما لم تتعلَّمن الوقوف على رؤوسكنَّ!» استمرَّت البطَّة الأمُّ في القول لهنَّ، وكانت بين الحين والآخر تبيِّن لهنَّ كيف يتمُّ ذلك. ولكنَّ البطَّات الصَّغيرات لم يكنَّ يُولين الأمر أيَّ اهتمام، فقد كنَّ صغيراتٍ لدرجةِ أنَّهنَّ لم يكنَّ يفهمن على الإطلاق ما جدوى التَّعايش في مجتمع.

ـ «يا لهم من أطفالٍ عُصاةٍ!» صاحَ جرذ الماء العجوز، ثمَّ أضاف: «إنَّهم حقًّا يستحقُّون الغرق!»

ـ «لا، ليس الأمر كما تعتقد!» أجابته البطَّة الأمُّ، «فلا بدَّ لكلِّ امرئٍ من بداية، ومع ذلك، هناك حدودٌ لصبر الآباء والأمَّهات».

ـ «آه، أنا لا أعرف شيئًا عن مشاعر الوالدين،» قال الجرذ، «فأنا لست

رجل أسرة! وفي الواقع، أنا لم أتزوَّج ولم أفكِّر قَطُّ في الزَّواج! صحيحٌ أنَّ الحُبَّ أمرٌ جيِّدٌ إجمالًا، ولكنَّ الصَّداقة أعلى منزلةً بكثيرٍ من الحبِّ، والحقَّ أقول لكِ، لم أعرف في هذا العالم ما هو أكثر نبلًا وأكثر ندرةً من صداقةٍ شيمتُها الصِّدق والوفاء».

ـ «قُل لي، من فضلك! ما هي فكرتك عن واجبات الصَّديق الوفي؟»، تدخَّل في الحديث طائر حسُّونٍ أخضر كان جاثمًا في شجرة صفصافٍ قريبةٍ، ويبدو أنَّه سمع محاورتهما.

ـ «نعم، هذا هو بالضَّبط ما أودُّ معرفته!» قالت البطَّة الأمُّ وسبحت بعيدًا حتى نهاية البركة، ثمَّ وقفت على رأسها لتعطي صغارها مثالًا يُحتذَى به.

ـ «يا له من سؤالٍ سخيف!» صاح جرذ الماء، «طبعًا أتوقَّع من صديقي الوفيِّ أن يكون وفيًّا لي، وأن يكرِّس نفسه لي وحدي».

ـ «وماذا ستقدِّم له في المقابل؟» قال الطَّائر الصَّغير وهو يرفرف بجناحيه الصَّغيرين على غُصَينٍ فضِّيٍّ!

ـ «لم أفهم ما تقصد!» أجابه جرذ الماء.

ـ «اسمح لي أن أقصَّ عليك قصَّةً في هذا الموضوع!» قال الحسُّون الأخضر.

ـ «هل القصَّة عنِّي؟» سأله جرذ الماء، «فإن كانت كذلك، أصغيتُ إليك، لأنَّني مغرمٌ بالحكايات».

ـ «إنَّها تنطبق عليك،» ردَّ طائر الحسُّون؛ ثمَّ طار ونزل إلى الضِّفَّة وبدأ يحكي قصَّة (الصَّديق الوفي):

ـ «يُحكَى أنَّه كان في قديم الزَّمان وسالف العصر والأوان،» قال الطَّائر مستهلًّا قصَّته بالطَّريقة المعهودة، «شابٌّ أمينٌ يُدعَى هانز».

ـ «هل كان متميِّزًا؟» قاطعه جرذ الماء.

ـ «لا، لا أظنُّ أنَّه كان متميِّزًا عن الآخرين في شيء!» أجاب طائر الحسُّون، ثمَّ أضاف: «اللَّهمَّ باستثناء طيبة قلبه ووجهه المستدير البشوش والمنبسط الأسارير. كان يعيش وحيدًا في كوخٍ صغيرٍ، وفي كلِّ يومٍ كان يعمل في الحديقة خاصَّته. ولم تكن هناك حديقةٌ أجمل من حديقته في الرِّيف كلِّه. كان قرنفل الشَّاعر والمنثور وكيس الرَّاعي ونبتة الجميلات الفرنسيَّات تنمو هناك، ناهيك عن الورد الدِّمشقيِّ والورد الأصفر والزَّعفران اللَّيلكيِّ والبنفسج بثلاثة ألوانٍ، الذَّهبيِّ والأرجوانيِّ والأبيض، إضافةً إلى الأنقولية وحُرف الماء والمردَقوش والحبق البرِّيِّ وزهرة الرَّبيع والزَّنبق والنَّرجس البرِّيِّ والقرنفل الشَّائع، مزهرةً أو متفتِّحةً في ترتيبها الصَّحيح مع مرور الشُّهور، وكلُّ زهرةٍ تحلُّ مكان الأخرى، بحيث كانت الحديقة لا تخلو أبدًا من الأشياء الجميلة والرَّوائح العطرة».

«وكان لهانز هذا عددٌ كبيرٌ من الأصدقاء، ولكنَّ هيو الضَّخم الجثَّة، والذي كان طحَّانًا، كان أكثر أصدقائه وفاءً. والحقيقة أنَّ وفاء الطَّحَّان الغنيِّ لهانز الصَّغير كان من الصِّدق لدرجة أنَّ هانز لم يكن يمرُّ بحديقته دون أن يتَّكئ على الجدار ويقطف باقة أزهارٍ كبيرةً أو يقتلع حزمةً كبيرةً من الأعشاب الحلوة أو يملأ جيوبه بثمار الخوخ والكرز إذا كان موسم إثمارها».

ـ «الأصدقاء الحقيقيُّون يجب أن يتشاركوا كلَّ شيء»، اعتاد الطَّحَّان أن

يقول، وكان هانز الصَّغير يهزُّ برأسه موافقًا ويبتسم ويأخذه الزَّهو لأنَّ لديه صديقًا يحمل مثل هذه الأفكار النَّبيلة».

ـ «أحيانًا، في الواقع، يظنُّ الجيران أنَّه من الغريب أنَّ هذا الطَّحَّان الغنيَّ لم يقدِّم في المقابل أيَّ شيءٍ لهانز الصَّغير مع أنَّه كان يمتلك المئات من أكياس الطَّحين المكدَّسة في مطحنته وستَّ بقراتٍ حلوباتٍ وقطيعًا كبيرًا من الخِراف الصَّوفاء، ولكنَّ هانز لم يكن يلقي بالًا أبدًا لهذه الأمور، بل لم يكن يجد متعةً أكبر من متعة الاستماع إلى الأحاديث والحكايات الغريبة التي كان يحكيها له الطَّحَّان عن الإيثار والصَّداقة الحقيقيَّة».

ـ «كان هانز الصَّغير، إذن، يشتغل في حديقته بلا كللٍ أو ملل، فكنتَ في الرَّبيع، وكذلك في الخريف والصَّيف، تراه مترعًا بالسَّعادة، ولكن ما إن يحلَّ الشِّتاء، ولا تكون لديه فاكهةٌ أو زهورٌ يحملها إلى السُّوق، حتى تبدأ معاناته مع البرد والجوع، وغالبًا ما كان عليه الذَّهاب إلى الفراش دون عشاءٍ باستثناء القليل من الكمَّثرى المجفَّفة أو بعض المكسَّرات اليابسة، كما أنَّ عزلته كانت تزداد في الشِّتاء، فالطَّحَّان كان ينقطع عن زيارته تمامًا في هذا الفصل».

ـ «لا فائدة من ذهابي لزيارة هانز الصَّغير ما دام الثَّلج يملأ الشَّوارع»، كان الطَّحَّان يقول لزوجته، «أتعلمين لماذا؟ لأنَّه عندما يواجه النَّاس ضائقةً ما، ينبغي تركهم بمفردهم وعدم إقلاق راحتهم بالزِّيارت. هذه هي فكرتي عن الصَّداقة، وأعتقد أنَّني على صواب، ولذلك سأنتظر حلول الرَّبيع، وعندئذٍ أذهب لزيارته، وسيقدِّم لي سلَّةً كبيرةً من أزهار كعب الثَّلج، الأمر الذي سيُدخِل السُّرورَ على قلبه».

ـ «إنَّك بالتَّأكيد كثير الاهتمام بالآخرين» قالت زوجة الطَّحَّان وهي تجلس على أريكتها الوثيرة قرب نارٍ كبيرةٍ أوقِدَت من خشب الصَّنوبر، «كثير الاهتمام في الواقع. وكم هو رائعٌ الإصغاء إليك وأنت تتحدَّث عن الصَّداقة بطريقةٍ جميلةٍ لا يجيدُها حتى قسُّ الكنيسة نفسه، مع أنَّه يقطن في قصرٍ من ثلاثة طوابق، ويتختَّم بخاتمٍ من ذهبٍ، في بنصـره».

ـ «ولكن أليس من المستحسن أن نطلب من هانز الصَّغير أن يأتي إلى هنا؟» قال الابن الأصغر للطَّحَّان، «فإن كان هانز المسكين في ضَيْقٍ، فسأعطيه نصف عصيدتي وأُريه أرانبي البيضاء».

ـ «يا لك من صبيٍّ سخيفٍ!» صاح الطَّحَّان بولده، «لا أعلم حقًّا ما جدوى إرسالك إلى المدرسة. يبدو أنَّك لا تتعلَّم أيَّ شيء! لماذا نفعل ذلك؟ إن جاء هانز الصَّغير إلى قصرنا ورأى نارنا الدَّافئة وعشاءنا اللَّذيذ ودنانَ نبيذنا الأحمر، قد ينتابه الحسد، والحسد شيءٌ فظيعٌ يُفسد الطَّبيعة البشريَّة لأيِّ امرئٍ، وأنا بالتَّأكيد لن أسمح لنفسي بإفساد طبيعته! فأنا صديقه الأوفى وسوف أظلُّ أرعاه وأحميه وأبقيه بعيدًا عن أيَّة إغراءات! إضافةً إلى ذلك، إن جاء هانز إلى هنا، فإنَّه قد يطلب منِّي بعض الطَّحين على الحساب، وهذا ما لا يمكنني تلبيته، فالطَّحين شيءٌ والصَّداقة شيءٌ آخر، وينبغي عدم الخلط بينهما، لماذا؟ لأنَّ الكلمتين تُلفظان بشكلٍ مختلفٍ، ما يعني أنَّهما شيئان مختلفان تمامًا. هذا ما لا يختلف عليه اثنان».

ـ «ما أجمل كلامك!» قالت زوجة الطَّحَّان وهي تصبُّ كأسًا كبيرةً من الجعة الدَّافئة ثمَّ أردفت، «حقًّا إنَّني أشعر بالنُّعاس كما لو كنتُ في كنيسة!»

ـ «كثيرٌ هم أولئك الذين يُحسنون التَّصرُّف» عقَّب الطَّحَّان، «ولكنْ قليلٌ من يُحسنون الكلام، ما يعني أنَّ الكلام أصعب من الفعل وأفضل منه!»[1] ثمَّ نظر بصرامةٍ إلى ابنه عبر المائدة التي بينهما، فشعر الولد بالخجل من نفسه لدرجة أنَّه أطرق برأسه، واحمرَّ وجهه حتى صار بلون القرمز، وانهمرت دموعه في فنجانه الشَّاي. ومع ذلك، كان من صِغَر السِّنِّ بحيث كان لا بدَّ من التماس العذر له على ما تفوَّه به.

ـ «أهذه نهاية القصَّة؟» سأل جرذ الماء.

ـ «بالتَّأكيد لا!» أجاب طائر الحسُّون ثمَّ أضاف، «إنَّها البداية فحسب!»

ـ «أنت قديم الأسلوب وبعيدٌ عن روح العصر إذن!» علَّق جرذ الماء، «لأنَّ كلَّ الرُّواة الجيِّدين هذه الأيَّام يبدأون سرد الحكاية من نهايتها، ويمضون بها إلى بدايتها، ويختتمونها في الوسط. هذه هي الطَّريقة الحديثة في السَّرد، وقد سمعت عنها أوَّل أمس من فم ناقدٍ كان يتمشَّى حول البركة بصحبة شابٍّ في مقتبل العمر! لقد تحدَّث عن الأمر بإسهاب، وأعتقد أنَّه كان على حقٍّ في ذلك، لأنَّه كان يضع نظَّارةً زرقاء وله رأسٌ أصلع، وكان كلَّما أبدى الشَّابُّ ملاحظةً، يردُّ عليه بكلمة: «أفٍّ!» ولكن أرجوك

(1) تؤكِّد فكرة أوسكار وايلد في «الأقوال والأفعال» على صعوبة القول مقارنةً بالفعل، وهي ثيمةٌ متكرِّرةٌ في أعمال أوسكار وايلد حتى إنَّه أعاد صقلها في مقالةٍ مشهورةٍ له يبيِّن فيها نظرته إلى الفنِّ، والمقالة بعنوان (النَّاقد بوصفه فنَّانًا)، وقد نُشرت ضمن مجموعته الموسومة بـ (نوايـا)، حيث أضاف عنصرًا آخر إلى ثنائيَّة (القول والفعل)، ألا وهو (الصَّمت أو السُّكوت عن الأمر) إذ كتب عبارةً لها شأنها في هذا المجال: «إنَّ الحديث عن (أمـرٍ) ما أصعب بكثيرٍ من أدائه أو القيام به، ولكنَّ الأصعب من هذا وذاك هو السُّكوت عنه وعدم البوح به أو التَّطرُّق إليه نهائيًّا»؛ وهنا لا بدَّ من تذكُّر المثل الإنجليزي القائل: «تتكلَّم الأفعال بصوتٍ أعلى من الأقوال»، وهذه هي المفارقة في نظرة أوسكار وايلد وفي نقده لأخلاقيَّات المجتمع الفكتوري. (المترجم).

أن تواصل سرد قصَّتك، فقد أحببت هذا الطَّحَّان كثيرًا، وأنا أمتلك مثله كلَّ أشكال المشاعر الطَّيِّبة، ولذلك هناك تعاطفٌ كبيرٌ بيننا».

ـ «حسنًا» ردَّ الحسُّون قافزًا تارةً على هذه السَّاق وتارةً على الأخرى، «قال الطَّحَّان لزوجته إنَّه، حين ينحسر الشِّتاء وتتفتَّح أزهار الرَّبيع كنجومٍ خفيفة الصُّفرة، سينزل ويرى هانز الصَّغير».

ـ «ما أطيب قلبك، يا زوجي،» صاحت زوجة الطَّحَّان، «إنَّك لا تكفُّ عن التَّفكير بالآخرين، ولكن دعني أذكِّرك بأن تأخذ معك السَّلَّة الكبيرة من أجل الأزهار».

«وهكذا ربط الطَّحَّان أشرعة طاحونة الهواء بسلسلةٍ حديديَّةٍ قويَّةٍ ونزل التَّلَّةَ وبيده السَّلَّة».

ـ «عمت صباحًا، يا هانز الصَّغير!» سلَّم الطَّحَّان على هانز.

ـ «عمت صباحًا» ردَّ هانز وهو يتَّكئ على رفشه ويبتسم للطَّحَّان ابتسامةً عريضةً من الأُذن إلى الأُذن.

ـ «كيف مرَّ عليك الشِّتاء؟» سأل الطَّحَّان.

ـ «حسنًا، حقيقةً» ردَّ هانز، «إنَّه حقيقةً للطفٌ بالغٌ منك أن تسأل عنِّي! لطفٌ بالغٌ حقًّا! لقد مرَّت عليَّ أيَّامٌ عصيبةٌ في الشِّتاء، ولكن ها قد انحسر وجاء الرَّبيع، وكم أنا مسرورٌ بذلك، ما دامت أزهاري كلُّها بخير».

ـ «لقد تحدَّثنا عنك طوال الشِّتاء،» قال الطَّحَّان، « وكنَّا نتساءل كيف تقضيه».

ـ «ذلك لطفٌ منك!» ردَّ هانز، «لقد اعتراني بعض الشَّكِّ في أن تكون قد نسيتني».

ـ «أوه يا هانز، أنا مندهشٌ منك، كيف تقول ذلك؟» ردَّ الطَّحَّان، «إنَّ الصَّداقة لا تُنسى أبدًا! وذلك هو الشَّيء الرَّائع فيها، ولكن أخشى أنَّك لم تفهم حتى هذه اللَّحظة شِعْرَ الحياة. ما أجمل أزهار الرَّبيع في حديقتك! إنَّها جميلةٌ جملةً وتفصيلًا!»

ـ «إنَّها حقًّا في غاية الجمال!» قال هانز، «ومن حسن حظِّي أنَّني أمتلك الكثير منها، وسوف أحملها إلى السُّوق لكي أبيعها لابنة العمدة وأشتري بثمنها عربة يدٍ صغيرة».

ـ «أتشتري ثانيةً عربة يدٍ؟ ألم تكن لديك واحدةٌ ثمَّ بعتها؟ أيُّ تصرُّفٍ غبيٍّ هذا!»

ـ «حسنًا، الحقيقة،» قال هانز، «لقد اضطُررتُ إلى بيعها، فقد مرَّ عليَّ شتاءٌ صعبٌ وقاسٍ، ولم يكن لديَّ من المال ما يكفي لشراء الخبز، ولذلك بدأت أبيع ما عندي، وأوَّل ما بعته أزرار معطفي الفضِّيَّة، المعطف الذي أرتديه يوم الأحد، ثمَّ بعت سلسلتي الفضَّة، ثم جاء دور غليوني الذي بعته هو الآخر، وأخيرًا، بعت عربتي الصَّغيرة ذات العجلة الواحدة! والآن قرَّرت استعادتها كلِّها».

ـ «اسمع يا هانز» قال الطَّحَّان، «سأعطيك عربة اليد خاصَّتي. صحيحٌ أنَّها ليست في حالةٍ جيِّدةٍ، فأحد جانبيها، في الواقع، عَطِبٌ، وهناك عطلٌ في مساند العجلة، ولكن مع ذلك، سأعطيك إيَّاها. أعلمُ أنَّ ذلك سخاءٌ منِّي، وقد يعتقد كثيرٌ من النَّاس أنَّني في غاية السَّذاجة لأتخلَّى عن عربتي، ولكنَّني لست مثل سائر النَّاس، فأنا أؤمن بأنَّ الكرم جوهر الصَّداقة، ثمَّ، دعني أصارحك، لقد حصلت على عربة يدٍ جديدة، ولذلك، أرحْ تفكيرك يا صديقي، سأعطيك عربة اليد القديمة خاصَّتي».

ـ «حسنًا! هذا حقًّا كرمٌ منك!» ردَّ هانز وقد تهلَّل وجهه المستدير فرحًا، «أستطيع إصلاحها بسهولةٍ بنفسي، فلديَّ لوحٌ من الخشب في منزلي».

ـ «لوحٌ من الخشب!» تساءل الطَّحَّان، «يا إلهي، هذا هو بالضَّبط ما أحتاج إليه لإصلاح سقف مخزن الحبوب في مزرعتي، فثمَّة فجوةٌ كبيرةٌ فيه وسوف يبتلُّ محصول الذُّرة ويتلف إذا لم أقم بإصلاحه. إنَّك محظوظٌ يا صديقي إذ ذكرتَ لي ذلك! فمن اللَّافت حقًّا كيف أنَّ عملًا صالحًا يولِّد دائمًا عملًا صالحًا آخر! لقد أعطيتك عربة يدٍ صغيرة، وها أنت بالمقابل تعطيني لوحًا من الخشب! لا شكَّ أنَّ العربة أثمن بكثيرٍ من لوحٍ من الخشب، ولكنَّ الصَّداقة الحقيقيَّة لا تنظر إلى مثل هذه الأمور، فأرجوك أحضره لي في الحال لكي أبدأ إصلاح مخزني اليوم بالذَّات».

ـ «بالتَّأكيد!» ردَّ هانز بصوتٍ عالٍ، ثمَّ توجَّه بسرعةٍ إلى مخزنه وعاد يسحب خلفه لوح الخشب.

ـ «إنَّه ليس كبيرًا!» قال الطَّحَّان وهو يمعن النَّظر في الخشبة، «أخشى أنَّه لن يبقى منه شيءٌ لإصلاح عربتك بعد أن أصلح سقف مخزني، ولكن، بالطَّبع، هذا ليس خطأي! والآن، بعد أن أعطيتك عربتي، أنا على يقينٍ من أنَّك راغبٌ في إعطائي بعض زهور الرَّبيع مقابل ذلك. ها هي السَّلَّة، فلتملأها لي حتى الحافَّة».

ـ «حتى الحافَّة؟» قال هانز الصَّغير، وقد بدا الأسف في نبرة صوته، لأنَّ السَّلَّة التي جلبها الطَّحَّان كانت كبيرةً جدًّا، وكان يعلم أنَّه إذا ملأها بالزُّهور حتى الحافَّة، فإنَّه لن يتبقَّى له أيُّ زهرةٍ ليبيعها في السُّوق، وهكذا لن يستطيع استعادة أزرار معطفه الفضِّيَّة التي يتوق إلى استعادتها.

ـ «حسنًا! في الحقيقة،» أجاب الطَّحّان، «كما أعطيتك عربة اليد الصَّغيرة خاصَّتي، لا أظنُّك ستبخل عليَّ بحفنةٍ من الزُّهور! قد أكون مخطئًا، ولكنِّي أعتقد أنَّ الصَّداقة، أقصد الصَّداقة الحقَّ، ينبغي أن تكون خاليةً من أدنى شائبةٍ من شوائب الأنانيَّة».

ـ «يا صديقي العزيز، بل يا أفضل الأصدقاء طرًّا!» ردَّ عليه هانز الصَّغير، «كلُّ الزُّهور في حديقتي رهن إشارتك، ولا تهمُّني استعادة أزرار معطفي الفضِّيَّة بقدر ما يهمُّني أن أكون عند حسن ظنِّك»، ثمَّ هرع نحو زهور الرَّبيع وقطفها كلَّها وملأ السَّلَّة الكبيرة التي أحضرها الطَّحَّان معه.

ـ «وداعًا، يا هانز الصَّغير!» قال الطَّحَّان وهو يصعد التَّلَّة حاملًا لوح الخشب على كتفه و ممسكًا السَّلَّة الكبيرة بيده!

ـ «وداعًا!» ردَّ هانز الصَّغير، وبدأ يحفر ووجهه مشرقٌ فرحًا لحصوله على العربة اليدويَّة.

«في اليوم التَّالي، وبينما كان على سلَّمه الخشبيِّ الصَّغير يعلِّق فروعَ شجيرة صريمة الجدي المتسلِّقة على الظُّلَّة، سمع صوت الطَّحَّان يناديه وهو ما يزال في الطَّريق! فقفز عن السُّلَّم وعبرَ الحديقة مهرولًا ونظر من فوق السِّياج، فإذا به يرى الطَّحَّان حاملًا على ظهره كيسًا كبيرًا من الطَّحين».

ـ «أيْ عزيزي هانز!» قال الطَّحَّان، «هلَّا تحمل عنِّي كيس الطَّحين هذا إلى السُّوق».

ـ «إنِّي آسفٌ حقًّا!» ردَّ هانز الصَّغير، «فأنا مشغولٌ جدًّا اليوم، لأنَّ عليَّ أن أثبِّت جميع نباتاتي المتسلِّقة، ثمَّ عليَّ بعد ذلك أن أسقي كلَّ الزُّهور وأحزم كلَّ الأعشاب».

ـ «حسنًا،» قال الطَّحَّان، «أعتقد أنَّه ليس من الصَّداقة في شيءٍ أن ترفض طلبي بينما أنا عازمٌ على إعطائك عربتي اليدويَّة».

ـ «أوه! لا تقل ذلك!» أجاب هانز الصَّغير، «أنا لا أحبُّ أن أتصرَّف تصرُّفًا غير ودِّيٍّ مع أحدٍ من النَّاس، فما بالك معك!» ثمَّ ركض إلى كوخه وأحضر قبَّعته وانطلق حاملًا الكيس الثَّقيل على كتفيه.

«لقد كان نهارًا قائظًا، وكان الطَّريق مترَبًا بشكلٍ لا يُحتمَل، وقبل أن يبلغ هانز الميل السَّادس من الطَّريق الطَّويل، بلغ من الاعياء كلَّ مبلغٍ، فكان لزامًا عليه أن يتوقَّف ويجلس قليلًا ليأخذ قسطًا من الرَّاحة. ولكنَّه، مع ذلك، واصل طريقه بكلِّ قوَّةٍ وشجاعة، وفي النِّهاية وصل إلى السُّوق، وبعد أن انتظر هناك بعض الوقت، باع كيس الطَّحين بثمنٍ جيِّدٍ للغاية، ثمَّ عاد إلى المنزل في الحال، لأنَّه كان يخشى إن هو تأخَّر قليلًا أن يلتقي بعض قطَّاع الطُّرق في الطَّريق».

ـ «لقد كان يومًا شاقًّا بلا شكٍّ،» راح هانز يكلِّم نفسه وهو ذاهبٌ إلى الفراش، «ولكنَّني سعيدٌ جدًّا لأنَّني لم أرفض للطَّحَّان طلبه، فهو أعزُّ أصدقائي، وسوف يعطيني عربته اليدويَّة».

«في وقتٍ مبكِّرٍ من صباح اليوم التَّالي جاء الطَّحَّان إلى منزل هانز ليستلم منه ثمن كيس الطَّحين، ولكنَّ هانز الصَّغير كان ما يزال في فراشه بسبب تعبه الشَّديد».

ـ «بشرفي،» صاح الطَّحَّان، «إنَّك لرجلٌ كسول. لقد توقَّعت منك أن تعمل بجدٍّ أكبر لأنَّني سأعطيك عربتي اليدويَّة. إنَّ الكسل لخطيئةٌ عظيمةٌ، وأنا لا أحبُّ أن يكون أحدٌ من أصدقائي خاملًا أو بليدًا، وأرجو ألَّا تزعجك

صراحتي، فأنا ما كنت لأكلِّمك بهذه الطَّريقة لو لم أكن صديقك! ثمَّ ما ما فائدة الصَّداقة إذا لم يستطع المرء البوح بكلِّ ما في قلبه؟ فكلُّ امرئٍ بمقدوره أن يقول كلامًا لطيفًا وفيه ما فيه من الإطراء والمجاملة، ولكنَّ الصَّديق الحقَّ هو الذي دائمًا يقول أمورًا لا تعجب ولا تسرُّ خاطرَ صديقه، ولا يهمُّه إن هو سبَّب له الألم! وفي الحقيقة، إن كان صديقًا صدوقًا بحقٍّ، وضعَ إيلامَ صديقه على رأس أولويَّاته، لأنَّه يعلم في قرارة نفسه أنَّ في ذلك الخير له».

ـ «آسفٌ كلَّ الأسف» قال هانز وهو يفرك عينيه وينزع قلنسوة نومه، ثمَّ أردف: «ولكنَّني كنت متعبًا لدرجةِ الظَّنِّ أنَّ بإمكاني البقاء في الفراش قليلًا والاستماع إلى غناء الطُّيور. هل تعلم أنَّني أعمل دائمًا بشكلٍ أفضل حين أستمع إلى غناء الطُّيور.

ـ «حسنًا، يسعدني ما أسمعه منك الآن!» ردَّ الطَّحَّان وهو يربِّت على ظهر هانز، «في الواقع، أريدك أن تصعد إلى طاحونتي فور الانتهاء من ارتداء ملابسك، لتصلح لي بنفسك سقف مخزني».

«وطبعًا كان هانز المسكين متلهِّفًا إلى العمل في حديقته، لأنَّ أزهاره لم تُسْقَ منذ يومين، ولكنَّه من ناحيةٍ أخرى لم يكن يحبُّ أن يرفض للطَّحَّان طلبًا، لأنَّ هذا الأخير كان صديقًا صدوقًا له.

ـ «هل تعتقد أنَّه سيكون تصرُّفًا غير وديٍّ منِّي إذا قلتُ لك إنَّني مشغول؟» سألَ بصوتٍ خجولٍ ومتردِّد.

ـ «حسنًا،» أجاب الطَّحَّان، «حقًّا لا أعتقد أنَّ ما أطلبه منك بالشَّيء الكثير، خاصَّةً إذا أنت وضعت في الاعتبار أنَّني سوف أعطيك عربتي اليدويَّة، ولكن بالطَّبع، إن لم تأتِ معي فسأذهب وأنجز العمل بنفسي.»

ـ «أوه! لا تفكِّر في الأمر كثيرًا» قال هانز وهو يقفز من فراشه ويرتد
ملابسه بسرعةٍ، وصعد بصحبة الطَّحَّان إلى مخزن الحبوب.

«وظلَّ يعمل في مخزن الحبوب طوال اليوم حتى غروب الشَّمس
وعند الغروب، جاء الطَّحَّان إلى المخزن ليرى سير العمل».

ـ «هل انتهيت من إصلاح تلك الفتحة في السَّقف أم ليس بعد، يا هانز؟
صاح الطَّحَّان بصوتٍ مبتهج.

ـ «لقد تمَّ إصلاحها تمامًا»، ردَّ هانز وهو ينزل السُّلَّم الخشبيَّ.

ـ «آه،» قال الطَّحَّان، «حقًّا لا يوجد عملٌ يُثلج صدر المرء مثل العمل
الذي يؤدِّيه للآخرين».

ـ «إنَّه لامتيازٌ كبيرٌ لي أن أسمعك تتحدَّث،» أجاب هانز الصَّغير وهو
يجلس على الأرض ويمسح العرق عن جبينه، «نعم، امتيازٌ كبيرٌ للغاية!
ولكن أخشى أنَّني لا أملك مثل هذه الأفكار الرَّائعة التي تملكها أنت».

ـ «أوه! تلك الأفكار ستأتيك،» قال الطَّحَّان، ثمَّ استدرك: «ولكن عليك
أن تكابد المزيد من الآلام، ففي الوقت الحاضر، لم تحظ سوى بتجربة
الصَّداقة، ولسوف يأتي اليوم الذي تعرف فيه نظريَّاتها أيضًا».

ـ «هل تعتقد حقًّا أنَّ ذلك اليوم سيأتي؟» سأل هانز الصَّغير.

ـ «ليس لديَّ أدنى شكٍّ في ذلك!» أجابه الطَّحَّان، ثمَّ قال: «أمَّا الآن
بعد أن أنجزت إصلاح السَّقف، فأرى أن تذهب إلى بيتك وترتاح، لأنَّني
أريدك أن تسوق خرافي إلى الجبل في الغد».

«وخشي هانز الصَّغير أن يتفوَّه بكلمةٍ إزاء هذا، وفي وقتٍ مبكِّرٍ من

صباحِ اليوم التَّالي، أحضر الطَّحّان الخِراف إلى الكوخ وصعد بها هانز الجبل، واستغرق الأمر يومًا كاملًا للوصول إلى هناك والعودة؛ وحين عاد، كان متعبًا جدًّا لدرجة أنَّه نام على الكرسيِّ ولم يستيقظ حتى ساعةٍ متأخِّرةٍ من صباح اليوم التَّالي».

- «يا له من وقتٍ جميلٍ سأقضيه في حديقتي!» قال محدِّثًا نفسه، وتوجَّه لقضاء شؤونه في الحال ودون تأخير.

«ولكن لسببٍ ما لم يستطع هانز الصَّغير أبدًا الاعتناء بزهوره، لأنَّ صديقه الطَّحّان كان دائمًا ما يأتي ويرسله في مهمَّاتٍ طويلةٍ أو يأتي به ليساعده في طاحونته. وكان هانز الصَّغير يحزن في بعض الأحيان على زهوره، إذ كان يخشى أن تظنَّ أنَّه نسيها، ولكنَّه كان يعزِّي نفسه بالتَّفكير في أنَّ الطَّحّان كان أعزَّ صديقٍ له، «وعلاوةً على ذلك،» كان يقول لنفسه، «سوف يعطيني عربة اليد خاصَّته، وهذا كرمٌ خالصٌ منه».

«وهكذا كان هانز الصَّغير يؤدِّي أعمالًا كثيرةً للطَّحّان، وبالمقابل كان الطَّحّان يُسمعه كلَّ الكلمات الجميلة عن الصَّداقة، وكان هانز من شدَّة إعجابه بها يدوِّنها في دفتر ملاحظاته ويسهر اللَّيل في استذكارها وحفظها، لأنَّ هانز الصَّغير، بعد كلِّ شيءٍ، كان تلميذًا مجتهدًا ونجيبًا».

«وحدث ذات ليلةٍ شتويَّةٍ، بينما كان هانز جالسًا قرب المدفأة في كوخه، أن تناهى إلى سمعه ما خُيِّل إليه أنَّه صوتُ طرقٍ على الباب. كانت ليلةً شديدةَ البرودة، وكانت الرِّيح تعصف وتزمجر حول المنزل في ذلك اللَّيل البهيم، فظنَّ في البداية أنَّه لم يكن سوى صوت العاصفة، ولكنَّ صوت الطَّرق تكرَّر ثانيةً، ثمَّ ثالثةً، وكلُّ طرقةٍ أعلى من سابقتها».

ـ «إنَّه حتمًا مسافرٌ فقيرٌ»، قال هانز الصَّغير لنفسه وهو يهرع إلى الباب.

«وإذا بالطَّحَّان في الباب يحمل فانوسًا في يدٍ وعصًا غليظةً في اليد الأخرى».

ـ «يا عزيزي هانز الصَّغير،» صاح الطَّحَّان حالما رأى هانز، «إنَّني واقعٌ في مشكلةٍ كبيرة. لقد سقط ولدي الصَّغير عن السُّلَّم وآذى نفسه وأنا ذاهبٌ لإحضار الطَّبيب، ولكنَّه يعيش في مكانٍ بعيدٍ جدًّا، وهذه اللَّيلة باردةٌ والطَّقس سيِّئٌ للغاية كما ترى، وقد خطر لي لو أنَّك تذهب بدلًا منِّي لإحضاره، فأنت تعلم أنَّني سوف أعطيك عربة اليد خاصَّتي، ولذا فمن العدل أن تفعل شيئًا لأجلي في المقابل».

ـ «بالتَّأكيد!» صاح هانز الصَّغير، «فأنا أرى في قدومك إليَّ إطراءً كبيرًا لي، ولسوف أنطلق من فوري، ولكن أعطني هذا الفانوس لأنَّ اللَّيلة مظلمة جدًّا وأخشى أن أسقط في حفرةٍ ما».

ـ «إنَّني آسفٌ جدًّا،» أجاب الطَّحَّان، «فهذا الفانوس، كما ترى، فانوسي الجديد! وسوف تكون خسارةً فادحةً لي إن أصابه أيُّ مكروه».

ـ «حسنًا، لا تهتمَّ للأمر! بإمكاني الاستغناء عنه!» ردَّ هانز الصَّغير، ثمَّ تناول معطفه الفرو ووضع قلنسوته القرمزيَّة على رأسه ولفَّ وشاحًا حول رقبته وانطلق ليأتي بالطَّبيب.

«ويا لها من عاصفةٍ رهيبةٍ! كانت تلك اللَّيلة من الحلكة لدرجة أنَّ هانز لم يستطع أن يرى شيئًا إلَّا بصعوبةٍ بالغةٍ، وكانت الرِّيح من العتوِّ لدرجة أنَّه لم يستطع الوقوف إلَّا بشقِّ الأنفس، ولكنَّه كان شجاعًا للغاية، فبعد أن سار زهاء ثلاث ساعاتٍ، وصل إلى منزل الطَّبيب وطرق على بابه».

ـ «من الطَّارق؟» صاح الطَّبيب مطلًّا برأسه من نافذة غرفة النَّوم.

ـ «أنا هانز الصَّغير، أيُّها الطَّبيب».

ـ «وماذا تريد، يا هانز الصَّغير؟»

ـ «لقد سقط ابن الطَّحَّان عن السُّلَّم وآذى نفسه، ويريدك الطَّحَّان أن تأتي في الحال».

ـ «حسنًا،» قال الطَّبيب، وأمر بحصانه وجزمته الكبيرة وفانوسه، ونزل إلى الطَّابق الأسفل، ثمَّ امتطى حصانه منطلقًا إلى منزل الطَّحَّان وهانز الصَّغير يخوض في الوحل خلفه».

«واشتدَّت العاصفة أكثر وأكثر، وهطلت الأمطار سيولًا، فعجز هانز عن رؤية طريقه ووجهته ولم يتمكَّن من مواكبة الحصان. وأخيرًا ضلَّ طريقه، وهام في المستنقع الذي كان خطيرًا للغاية بسبب امتلائه بالحفر العميقة، وشاءت الأقدار أن يقع هانز المسكين في إحداها ويغرق. وفي اليوم التَّالي، عثر بعض رعاة الماعز على جثَّته طافيةً في بركةِ ماءٍ كبيرةٍ، فحملوها إلى كوخه».

«وحضر كلُّ شخصٍ في القرية جنازة هانز الصَّغير لأنَّه كان معروفًا للجميع، وكان الطَّحَّان على رأس المشيِّعين».

ـ «لمَّا كنتُ أعزَّ صديقٍ له،» استهلَّ الطَّحَّان كلمته التأبينيَّة، «فإنَّني أعتقد أنَّ من الإنصاف أن أحظى بمكان الصَّدارة في هذه الجنازة»، وهكذا تبوَّأ الطَّحَّان مقدِّمة الموكب الجنائزيِّ متلفِّعًا بمعطفٍ أسود طويلٍ، وكان بين الفينة والأخرى يمسح عينيه بمنديل جيبٍ كبير.

ـ «إنَّ موت هانز الصَّغير لخسارةٌ جسيمةٌ لنا جميعًا!» قال الحدَّاد حين انتهى التَّشييع، وكان الجميع جلوسًا في الحانة القريبة يحتسون النَّبيذ المطيَّبَ بالتَّوابل ويتناولون معه بعض الكعك المحلِّي.

ـ «إنَّها خسارةٌ جسيمةٌ لي أنا على وجه الخصوص» قال الطَّحَّان، «لماذا؟ لأنِّي كنت سأعطيه عربة اليد خاصَّتي، والآن، بعد وفاته، لا أدري ماذا أصنع بها. إنَّها دائمًا في وجهي في المنزل وهي في حالةٍ من العطب لا تنفع معها أيُّ محاولةٍ لإصلاحها، ولن تعود عليَّ بأيِّ سعرٍ إن أردتُ بيعها. سأحرص بالتَّأكيد على ألَّا أهب شيئًا من أغراضي بعد اليوم، فدائمًا ما يعاني المرء لكونه كريمًا».

ـ «حسنًا، وماذا بعد؟» قال جرذ الماء، بعد وقفةٍ طويلة.

ـ «تلك هي خاتمة الحكاية»، قال طائر الحسُّون.

ـ «ولكن ماذا حدث للطَّحَّان بعد ذلك؟» سأل جرذ الماء.

ـ «أوه! حقًّا لا أعرف» ردَّ طائر الحسُّون، «ولا يهمُّني أن أعرف».

ـ «يبدو واضحًا أنَّك بطبيعتك لا تتعاطف مع أحد»، قال جرذ الماء.

ـ «أخشى أنَّك لم تلتقط المغزى الأخلاقيَّ للحكاية!» قال طائر الحسُّون.

ـ «لم ألتقط ماذا؟» صاح جرذ الماء بالطَّائر!

ـ «المغزى الأخلاقيَّ!»

ـ «هل تقصد أنَّ الحكاية تضمَّنت درسًا أخلاقيًّا؟»

ـ «نعم، بالتَّأكيد!» قال الحسُّون!

ـ «حسنًا! حقًّا» قال جرذ الماء بنبرةٍ ساخطةٍ، «كان عليك أن تخبرني بذلك قبل أن تبدأ حكايتك! فلو أنَّك فعلت ذلك لما استمعت إليك بالتَّأكيد، بل لما قلتُ لك إلَّا (أفٍّ) مثل النَّاقد! وعلى أيَّة حال، يمكنني أن أقولها لك الآن،» وصاح جرذ الماء بصوتٍ عالٍ: (أفٍّ)، ثمَّ ضرب الماء بذيله ودخل جحره.

ـ «وكيف وجدتَ جرذَ الماء؟» سألت البطَّة حين جاءت تبطبط في الماء بعد بضع دقائق، ثمَّ أضافت: «إنَّ لديه الكثير من الحجج القويَّة، ولكن بصفتي أمًّا وأمتلك عواطف الأمومة، لن أتمالك نفسي عن الإجهاش بالبكاء حين أرى شخصًا عَزَبًا مثله».

ـ «أخشى أن أكون قد أزعجته،» قال طائر الحسُّون، «فالحقيقة أنَّني قصصت عليه قصَّةً ذات مغزىً أخلاقيٍّ!»

ـ «آه، هذا أمرٌ محفوفٌ دائمًا بالمخاطر!(1)» ردَّت البطَّة.

وأنا أتَّفق تمامًا مع ما ذهبت إليه البطَّة.

---

(1) يتَّضح هنا موقف أوسكار وايلد النَّاقد من كلِّ ما كان يميِّز الأدب الفكتوريَّ من التزام جلِّ كتاب عصره بضرورة تضمين نصوصهم الأدبيَّة دروسًا أخلاقيَّةً أو مواعظ. وبالتَّأكيد لا يرى أوسكار وايلد ذلك صوابًا وهو المؤمن بمقولة الفنِّ للفنِّ، وهو موقفٌ طالما أكَّده في أغلب كتاباته كما في رواية (صورة دوريان كرييه) حيث ترد الجملة التَّالية: (لا يوجد شيءٌ اسمه كِتابٌ أخلاقيٌّ أو كِتابٌ لا أخلاقي). (المترجم).

أنـا الصَّاروخ العتيد

اقترب زواج ابن الملك فأقيمت الاحتفالات والمهرجانات بهذه المناسبة، وكان ابن الملك قد انتظر بفارغ الصَّبر عامًا كاملًا وصول عروسه، وها هي أخيرًا قد وصلت.

كانت العروس أميرةً روسيَّةً، وقد جاءت من بلدها، عبر فنلندا، على زلَّاجةٍ جليديَّةٍ تجرُّها ستُّ أيائل من أيائل الرَّنَّة، وكانت الزَّلَّاجة مصمَّمةً على شكل أوزَّةٍ ذهبيَّةٍ فخمةٍ، وبين جناحيها جُعِلَ المكان الذي ستجلس فيه الأميرة في سفرتها، وكانت هذه الأخيرة ترتدي معطفًا من فراء ابن عرس يصل حتى قدميها، وقد وضعت على رأسها قلنسوةً صغيرةً منسوجةً من خيوط الفضَّة، وكانت تبدو شاحبةً مثل قصر الجليد الذي عاشت فيه دائمًا، وقد لفتَ شحوبها انتباه النَّاس وهي تجوب الشَّوارع بزلَّاجتها، وتعجَّبوا من ذلك، حتى إنَّهم صاحوا: «إنَّها أشبه بوردةٍ بيضاء»، وكانوا يُلقون عليها الزُّهور من شرفاتهم تحيَّةً لمقدمها.

عند بوَّابة القصر، وقف الأمير ينتظر وصولها. كانت له عينان بنفسجيَّتان حالمتان، وشعرٌ كالذَّهب الخالص؛ وحين رآها خرَّ على ركبةٍ واحدةٍ وقبَّل يدها.

ـ «كانت صورتُكِ جميلةً،» همس لها، «ولكنَّكِ أجمل بكثيرٍ من الصُّورة!»؛ واحمرَّت وجنتا الأميرة من الخجل.

ـ «لقد كانت مثل وردةٍ بيضاء من قبل» قال حوذيُّ الزَّلَّاجة لجارٍ له، «أمَّا الآن فإنَّها مثل وردةٍ جوريَّةٍ حمراء!»؛ وعمَّت الأفراحُ البلاط.

مضت ثلاثة أيَّامٍ على وصول الأميرة، وطوال ذلك الوقت كان كلُّ شخصٍ يردِّد: «وردةٌ بيضاء، وردةٌ حمراء، وردةٌ حمراء، وردةٌ بيضاء!»؛ وأصدر الملك أمرًا بمضاعفة راتب حوذيِّ الزَّلَّاجة، ولأنَّ هذا الأخير لم يكن يتقاضى أيَّ راتبٍ على الإطلاق، فإنَّ الأمر لم يعن له شيئًا، ولكنَّه عدَّه شرفًا عظيمًا، ونُشِر الأمر الملكيُّ في صحيفة «جريدة القصر».

وحين انقضت الأيَّام الثَّلاثة أعقبها حفل الزِّفاف. وكان احتفالًا مهيبًا ورائعًا، وسار الأمير مع عروسه، يدًا بيدٍ، تحت مظلَّةٍ من المخمل الأرجوانيِّ مطرَّزةٍ بحبَّاتٍ صغيرةٍ من اللُّؤلؤ. ثمَّ أقيمت مأدبةٌ عامرةٌ استمرَّت خمس ساعات، وجلس الأمير والأميرة في صدر القاعة الكبرى وشربا من كأسٍ من الكريستال النَّقيِّ لا يشرب منها إلَّا العشَّاق الحقيقيُّون، لأنَّه إذا لامستها شفاهٌ كاذبةٌ صارت رماديَّةً وباهتةً وضبابيَّة.

ـ «يبدو واضحًا أنَّهما يحبَّان بعضهما بعضًا،» قال الحوذيُّ، «يبدو واضحًا وضوحَ الكريستال!»؛ وأمر الملك بمضاعفة راتبه مرَّةً ثانيةً، وصاح جميع رِجال الحاشية من الحاضرين: «يا له من شرفٍ عظيم!»

وبعد المأدبة الفخمة، أقام الملك حفلةً راقصةً راقصَ الأمير فيها عروسه الأميرة رقصةَ الوردة، وكان الملك قد وعد المحتفين بأنَّه سيعزف شخصيًّا على النَّاي، وبالفعل، تناول النَّاي وراح يعزف، وكان عزفه سيِّئًا

للغاية، ولكن لم يجرؤ أحدٌ على إخباره بذلك، لأنَّه كان الملك. وفي الواقع، لم يكن الملك يعرف سوى نغمتين اثنين، ولم يكن يعرف بالضَّبط أيَّهما كان يعزف؛ ولكنَّ الأمر لم يكن مهمًّا، لأنَّه أيًّا كان ما يفعله، كان الجميع يصيحون: «يا له من عزفٍ فاتنٍ! يا له من عزفٍ ساحر!»

وكانت الفقرة الأخيرة في برنامج الحفل عرضًا كبيرًا للألعاب النَّاريـَّة. وكان مقرَّرًا أن يبدأ في منتصف اللَّيل، ولم تكن الأميرة قد رأت مطلقًا ألعابًا ناريَّةً في حياتها، ولذلك أمر الملكُ الإختصاصيَّ بالألعاب النَّاريَّة أن يكون حاضرًا في ليلة زفافها.

ـ «ما الألعاب النَّاريَّة؟» سألت الأميرةُ الأميرَ ذات صباحٍ وهي تتمشَّى في حديقة القصر.

ـ «إنَّها مثل ألوان الشَّفق القطبيِّ،» أجاب الملك، وليس الأمير، لأنَّ الملك كان يجيب دائمًا على الأسئلة الموجَّهة إلى غيره، ثمَّ قال: «ولكنَّها طبيعيَّةٌ أكثر! وأنا نفسي أفضِّلها على النُّجوم[1]! ولسوف ترينها حين يبدأ العرض. إنَّها مبهجةٌ مثل عزفي على النَّاي، ويجب أن تشاهديها من كلِّ بدٍّ».

وأُقيمت منصَّةٌ كبيرةٌ لإطلاق مفرقعات الألعاب النَّاريَّة في الطَّرف

(1) من الأفكار الأثيرة لدى أوسكار وايلد كشفه للزَّيف والنِّفاق الاجتماعيَّين، وقد تناول في غالبيَّة أعماله ثيمة ما هو (طبيعي) Naturalness و (حقيقي) وما هو (مصطنع) Artificiality و (مزيَّف) وكل ما له علاقةٌ بـ (المظهر الخادع) من ناحيةٍ و (الأصيل) من ناحيةٍ أخرى؛ وهو يطرح ذلك بأسلوبٍ ساخرٍ فيه الكثير من المفارقة ـ Irony ومن هذا ما ورد في وصفه لظاهرة الغروب الطَّبيعيَّة على أنَّها تمامًا مثل «مجموعةٍ من الأخطاء الجسيمة والمبالغ فيها ارتكبها فنَّانٌ من الدَّرجة الثَّانية لا يرقى إلى مستوى الفنَّان تيرنر» ـ أحد أبرز فنَّاني إنجلترا في الفترة الرُّومانسيَّة. وردت تلك الإشارة في مقالةٍ لوايلد بعنوان «تهافتُ الكذب!» The Decay of Lying. (المترجم).

القصيِّ من الحديقة الملكيَّة، وحالما وضع اختصاصيُّ الألعاب النَّاريَّة كلَّ شيءٍ في المكان المخصَّص له للشُّروع في العرض، بدأت الألعاب النَّاريَّة تكلِّم بعضها بعضًا، فقالت مفرقعةٌ لصديقتها:

ـ «لا شكَّ أنَّ هذ العالم في غاية الجمال! انظري فقط إلى زهور التُّوليب الصَّفراء! لو كانت أسهمًا ناريَّةً لما أصبحت بهذا الجمال! إنَّني سعيدةٌ للغاية لأنَّني سافرت. السَّفر يحسِّن العقل بشكلٍ عجيبٍ ويساعد المرء على التَّخلُّص من كلِّ أشكال التَّعصُّب».

ـ «اعلمي أنَّ حديقة الملك الكبيرة هذه ليست هي العالم الرَّحب، أيَّتها المفرقعة الغبيَّة!» قالت شمعةٌ رومانيَّةٌ كبيرةٌ، «إنَّ العالم مكانٌ شاسعٌ، وسوف يستغرق الأمر ثلاثة أيَّامٍ كاملةٍ لرؤيته كلِّه».

ـ «أيُّ مكانٍ تحبِّينه هو العالم بالنِّسبة إليكِ!» تدخَّلت في النِّقاش حلقةٌ كاثرينيةٌ[1] كثيرةُ التَّفكير، وكانت ملتصقةً بصندوقٍ قديمٍ لحفظ العقود في بداية حياتها، وكانت تفخر بقلبها الكسير، «لم يعد الحبُّ موضوع العصر. لقد قتله الشُّعراء. لقد أفرطوا في الكتابة عنه حتى لم يعد يصدِّقهم أحد، وطبعًا لست مستغربةً! إنَّ مَن يُحبُّ حبًّا حقيقيًّا يتألَّم في صمت! وأذكر أنَّني في إحدى المرَّات... ولكن هذا ليس ضروريًّا الآن! لقد صار الحبُّ شيئًا من الماضي».

---

(1) حلقةٌ أو عجلةٌ حلزونيَّة الشَّكل أو أسطواناتٌ مجوَّفةٌ ترتَّب كحلقةٍ ثمَّ تحشى بعبواتٍ من البارود وتعلَّق على صاريةٍ عاليةٍ لتدور حول محورها، ثمَّ تشعَل لتبدأ بإطلاق الألعاب النَّاريَّة المختلفة الألوان، وتسمَّى حلقة كاترين أو عجلة كاترين النَّاريَّة Cath-erine Wheel وهي مستخدمةٌ إلى يومنا هذا في مدن الملاهي وحتى في المهرجانات والاحتفالات الشَّعبيَّة والرَّسميَّة. (المترجم).

ـ «هذا كلامٌ فارغ!» ردّت الشّمعة الرُّومانيّة الكبيرة، «الحبُّ لا يموت أبدًا! إنَّه يعيش إلى الأبد كالقمـر! هذا العروسان، على سبيل المثال، يحبُّ أحدهما الآخر حبًّا جمًّا. ذلك ما سمعته هذا الصَّباح من خرطوشةٍ ورقيَّةٍ بنّيَّة اللَّون صادف أن تقيم معي في الجارور نفسه الذي أعيش فيه، وهي تعرف كلَّ أخبار القصر الملكيِّ أوّلًا بأوّل!»

ولكنَّ الحلقة الكاثرينيَّة هزَّت رأسها وراحت تدمدم: «لقد مات الحبُّ، لقد مات الحبُّ، لقد مات الحبُّ». لقد كانت واحدةً من ذلك الصَّنف الذي يظنُّ أنَّك إن قلت الشَّيء نفسه مرارًا وتكرارًا، فإنَّه سيصبح في النِّهاية حقيقةً دامغة.

وفجأةً تناهى إلى أسماعهم صوت كُحَّةٍ حادَّةٍ وجافَّةٍ، فالتفت الجميع إلى مصدره، فتبيَّن لهم أنَّ الصوت آتٍ من صاروخٍ طويلٍ ذي مظهرٍ متشامخ قد ثُبِّتَ بنهاية عصًا طويلةٍ، ويبدو أنَّه كان من عادته أن يكحَّ قبل أن يُدلي بأيِّ تعليقٍ لجذب الانتباه إليه.

ـ «إحم! إحم!» قال، والجميع التفتوا ليصغوا إليه، باستثناء الحلقة الكاثرينيَّة المسكينة التي كانت ما تزال تهزُّ برأسها وتدمدم: « لقد مات الحبُّ».

ـ «التزموا الهدوء والصَّمت من فضلكم!» صاح مفرقعٌ من المفرقعات، وكان سياسيًّا نوعًا ما، إذ دائمًا ما كان يلعب دورًا بارزًا في أيَّة انتخاباتٍ محلِّيَّةٍ، ولذلك كان يجيد استخدام التَّعبيرات المناسبة التي يستخدمها البرلمانيُّون عادةً.

ـ «لقد مات تمامًا»، همست الحلقة الكاثرينيَّة الكبيرة، وذهبت لتنام.

وما إن ساد صمتٌ مطبقٌ حتى كحَّ الصَّاروخ مرَّةً ثالثةً ثمَّ بدأ يتحدَّث. تحدَّث بنبرةٍ هادئةٍ وبطيئةٍ وواضحةٍ، كما لو كان يُملي ذكرياته على أحد، وكان دائمًا ينظر إلى أعلى كتف الشَّخص الذي يخاطبه وهذا، في الواقع، ما كان يميِّز أسلوبه في الحديث:

ـ «كم هو محظوظٌ ابن الملك ليتزوَّج في اليوم نفسه الذي سأنطلق فيه،» علَّق قائلًا، «حقًّا، ما كانت الأمور لتكون أفضل ممَّا هي عليه بالنِّسبة إليه لو جرى ترتيبها مسبقًا، ولكن ماذا أقول غير ما اعتدت قوله على الدَّوام: إنَّ الأمراء محظوظون دائمًا».

ـ «أوه يا عزيزي!» قالت المفرقعة الصَّغيرة، «لقد كنتُ أعتقد أنَّ الأمر عكس ذلك، أي أنَّنا نحن الذين سننطلق على شرف الأمير!»

ـ «ربَّما كان الأمر كذلك بالنِّسبة إليكم،» أجاب الصَّاروخ، «وفي الواقع، ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أنَّ الأمر كذلك، أمَّا بالنِّسبة إليَّ فالأمر مختلفٌ تمامًا! فأنا صاروخٌ عتيدٌ، محترمٌ وابن ناس، وأنحدر من عائلةٍ لها شأنها! فأمِّي كانت الحلقة الكاثرينيَّة الأكثر شهرةً في زمنها، وقد ذاع صيتها لرقصها الرَّشيق، فحين ظهرت في عرضها العلنيِّ الرَّائع، دارت تسع عشرة مرَّةً قبل أن تختفي، وفي كلِّ مرَّةٍ كانت تقذف في الهواء سبع نجوم ورديَّةٍ، وكان قطرها ثلاثة أقدامٍ ونصف القدم، وقد حُشِيَت بأفخر أنواع البارود في العالم! أمَّا والدي فكان صاروخًا مثلي، ومن أرومةٍ فرنسيَّةٍ، وقد طار عاليًا لدرجة أنَّ النَّاس كانوا خائفين من أنَّه لن يعود إلى الأرض مرَّةً أخرى أبدًا، ولكنَّه عاد، لأنَّه كان عطوفًا ومؤدَّبًا، وقد صنع في هبوطه البديع وابلًا من الشَّرارات الذَّهبيَّة، حتى إنَّ الصُّحف كتبت عن أدائه بعبارات تقريظٍ

رائعة. وفي الواقع، أطلقت عليه «جريدة القصر» لقبَ «بطل الألعاب الشَّراريَّة![1]»

ـ «تقصد ألعابًا ناريَّةً، ناريَّةً وليس شراريَّة!» قال النُّور البنغاليُّ[2] الأزرق، «أنا أعلم أنَّ الكلمة هي «ناريَّة» لأنَّني رأيتها مكتوبةً هكذا على ظاهر العلبة الخاصَّة بي!»

ـ «حسنًا! أنا أسمِّيها شراريَّة!» ردَّ الصَّاروخ بنبرة صوتٍ فظَّةٍ جعلت النُّور البنغاليَّ ينسحب مذمومًا مدحورًا لدرجة أنَّه بدأ على الفور يتنمَّر على المفرقعات الصَّغيرة لكي يُظهر لها أنَّه ما يزال شخصيَّةً لها مكانتها واعتبارها.

ـ «كنتُ أقول» تابعَ الصَّاروخ، «كنتُ أقول... ماذا كنتُ أقول؟»

ـ «كنتَ تتكلَّم عن نفسك!» ردَّت عليه الشَّمعة الرُّومانيَّة.

ـ «آه، بالطَّبع! كنت أعلمُ علم اليقين أنَّني كنت أناقش موضوعًا في غاية الأهمِّيَّة حين قاطعني أحدهم بوقاحةٍ شديدةٍ؛ وكم أكره الصَّفاقة والأخلاق

---

(1) يحاول أوسكار وايلد هنا أن يبتكر مفردةً جديدةً للدَّلالة على الألعاب النَّاريَّة، فهو يدعوها على لسان الصَّاروخ المتبجِّح (ألعابًا شراريَّة Pylotechnic) وهي كلمةٌ لا أحسبها موجودةً في اللُّغة الإنجليزيَّة، وقد استُخدمت هذه المفردة مرَّةً واحدةً في هذا النَّصِّ عند وايلد، ويطلق على هكذا مفرداتٍ يتمُّ تداولها لمرَّةٍ واحدةٍ مسمًّى (المفردة ذات المرَّة الواحدة في التَّداول nonce word)، بينما المفردة المعروفة هي Pyrotechnic، أي «ناريَّة»، وقد جارت التَّرجمة هذا الابتكار فاشتققتُ كمترجمٍ من كلمة (شرر) صيغة الصِّفة الصِّناعيَّة (شراريَّة) لتتوافق الترجمة مع إملاءات النَّصِّ وتبدو غريبةً غرابة المفردة في النَّصِّ الأصليِّ. (المترجم).

(2) النُّور البنغاليُّ هو مفرقعٌ من الألعاب النَّاريَّة أيضًا، وهو غالبًا ما يُصدر لونًا واحدًا هو اللَّون الأزرق البرَّاق والمتواصل، حتى إنَّه استُخدم لاحقًا كإشارةٍ ضوئيَّةٍ لتحديد مكان من يحتاج لتحديد مكانه عند فقدان أثره عن الباحثين عنه. (المترجم).

السَّيِّئة من أيِّ نوعٍ كانت، لأنَّني حسَّاسٌ للغاية، بل لا أحد في العالم كلِّه يملك من الحساسيَّة بقدر ما أملك. أنا واثقٌ تمامًا من هذا».

ـ «ما هو الشَّخص الحسَّاس؟» قال المفرقع للشَّمعة الرُّومانيَّة.

ـ «هو ذلك الذي، حين ينزعج، يدوس على أصابع أقدام الآخرين!» أجابت الشَّمعة الرُّومانيَّة بصوتٍ خافتٍ وكاد المفرقع أن ينفجر من الضَّحك.

ـ «أرجوك يا هذا! علامَ تضحك؟» استفسر الصَّاروخ، «عن نفسي، أنا لا أضحك أبدًا».

ـ «أضحك لأنَّني سعيد!» قال المفرقع.

ـ «إنَّه سببٌ يُفصح عن أنانيَّةٍ مفرطةٍ وبشعة!» ردَّ الصَّاروخ غاضبًا، «بأيِّ حقٍّ تشعر بالسَّعادة؟ عليك أن تفكِّر في الآخرين! في الواقع، عليك أن تفكِّر فيَّ أنا. فأنا أفكِّر دائمًا في نفسي وأتوقَّع من كلِّ فردٍ منكم أن يفعل الشَّيء نفسه! هذا ما أسمِّيه تعاطفًا، وهو خصلةٌ جميلةٌ، وأنا أجعلها في مصافِّ الأخلاق الحميدة. لنفترض أنَّ مكروهًا وقع لي اللَّيلة، ألا تعتقدون أنَّ ذلك سيكون مصيبةً لكلِّ شخصٍ هنا؟ سوف يكتئب الأمير والأميرة ولن يعرفا طعم السَّعادة أبدًا مرَّةً أخرى، وسوف تفسد حياتهما الزَّوجيَّة، بل حتى الملك نفسه لن يستطيع تجاوز هذا الأمر. أتدرون أنَّني حين أفكِّر في أهميَّتي وعلوِّ شأني، يترقرق الدَّمع في عينيَّ وأكون على وشك البكاء؟»

ـ «إن كنت تريد إسعاد الآخرين» قالت الشَّمعة الرُّومانيَّة بصوتٍ عالٍ، «فعليك أن تحافظ على جفافك!»

ـ «نعم، بالتَّأكيد!» صاح النُّور البنغاليُّ، الذي كان الآن في حالةٍ معنويَّةٍ أفضل، ثمَّ أردف: «ذلك ما يقضي به المنطق العاديُّ!»

ـ «المنطق العاديُّ، حقًّا!» ردَّ الصَّاروخ بسخطٍ، «هل نسيتم أنَّني نادرٌ وغير عاديٍّ، بل استثنائيٌّ ولي شأني؟ أَتدري لماذا؟ لأنَّ أيَّ شخصٍ يمكن أن يمتلك المنطق العاديَّ، خاصَّةً إذا لم يمتلك شيئًا من الخيال! أمَّا أنا فأمتلك الخيال، لأنَّني لا أرى الأشياء كما هي في الواقع، بل أنظر إليها دائمًا على أنَّها مختلفةٌ عمَّا هي عليه في الحقيقة. أمَّا بالنِّسبة إلى نصيحتك في أن أحافظ على نفسي جافًّا، فأعتقد أنَّه لا يوجد بينكم أحدٌ لديه القدرة على تقدير الحالة الانفعاليَّة أو العاطفيَّة للآخرين، ولحسن حظِّي أنَّني لا أعبأ بذلك البتَّة، لأنَّ الأمر الوحيد الذي يسند المرءَ في حياته هو شعوره بدونيَّة الآخرين الكبيرة أمامه، وهو شعورٌ كنت أغرسه على الدَّوام في نفسي، ولكن ليس فيكم من لديه قلب. وها أنتم تضحكون وتبتهجون وكأنَّ الأمير والأميرة لم يتزوَّجا للتَّوِّ!»

ـ «حسنًا، ولمَ لا؟» تساءل بالون نارٍ صغيرٌ، «فبالنِّسبة إليَّ هذه أسعد مناسبةٍ على الإطلاق، وحين أرتفع عاليًا في السَّماء أعتزم إخبار النُّجوم بكلِّ شيءٍ عنها. سترونها تومض حين أحدِّثها عن العروس الجميلة».

ـ «آه، يا لها من نظرةٍ تافهةٍ للحياة!» قال الصَّاروخ، «ولكن هذا ما توقَّعته منك تمامًا! إنَّك خالٍ من كلِّ مضمون؛ أنت أجوف وفارغ! أتدري لماذا؟ قد يذهب الأمير والأميرة للعيش في بلدةٍ يجري فيها نهرٌ عميقٌ، وقد ينجبا ابنًا واحدًا فقط، صبيًّا جميلًا ذا شعرٍ أشقر وعينين بنفسجيَّتين، كوالده الأمير تمامًا، وفي يومٍ من الأيَّام، قد يخرج الصَّبيُّ ليتنزَّه برفقة مربِّيته، وقد تنام المربِّية عند شجرة بيلسانٍ كبيرةٍ، وقد يسقط الصَّبيُّ في النَّهر ويغرق! فأيُّ مصيبةٍ عظيمةٍ هذه! أيُّ كارثةٍ أن يفقد هذان المسكينان ابنهما الوحيد! إنَّها لمصيبةٌ رهيبةٌ حقًّا، ولن أستطيع نسيانها ما حييت!»

ـ «ولكنَّهما لم يفقدا ابنهما!» قالت الشَّمعة الرُّومانيَّة، «ولم تنزل بهما أيُّ مصيبةٍ من هذا القبيل على الإطلاق!»

ـ «لم أقل أبدًا إنَّ مصيبةً نزلت بهما!» ردَّ الصَّاروخ، «قلتُ إنَّ مصيبةً قد تنزل بهما: فلو أنَّهما فقدا ابنهما حقًّا، لما كانت هناك فائدةٌ من قول أيِّ شيءٍ حول هذه المسألة. ثمَّ إنَّني أمقتُ النَّاس الذين يبكون على الحليب المراق؛ ولكن حين أفكِّر في أنَّهما قد يفقدان ابنهما، فإنَّني أتأثَّر بالتَّأكيد وأحزن عليهما حزنًا شديدًا».

ـ «نعم، بالتَّأكيد!» صاح النُّور البنغاليُّ، «في الحقيقة، أنت أكثر مَن قابلتُ في حياتي تأثُّرًا وحساسيَّةً على الإطلاق».

ـ «دعني أقول لك: أنت أكثر مَن قابلتُ في حياتي وقاحةً على الإطلاق!» ردَّ الصَّاروخ، «وأنت أعجز من أن تفهم الصَّداقة التي تربطني بالأمير».

ـ «ماذا؟ إنَّك حتى لا تعرفه، فكيف تصادقه!» دمدمت الشَّمعة الرُّومانيَّة بامتعاض.

ـ «لم أقل أبدًا إنِّي أعرفه!» ردَّ الصَّاروخ، «كلُّ ما قلته: لو أنِّي عرفته، لما كنتُ صديقه على الإطلاق. إنَّه لأمرٌ خطيرٌ للغاية أن يعرف المرء صديقه!»

ـ «من الأفضل لك إذن أن تحافظ على جفافك!» قال بالون النَّار، «هذا هو الشَّيء المهمُّ».

ـ «مهمٌّ للغاية بالنِّسبة إليك، ليس لديَّ شكٌّ في ذلك» ردَّ الصَّاروخ، «ولكن لي مطلق الحريَّة في ذرف الدُّموع إن شئتُ أن أفعل»؛ وانفجر بالفعل باكيًا وذرف دموعًا حقيقيَّةً، دموعًا سالت على عصاه مثل قطرات المطر وكادت أن تُغرق خنفُسَتَين صغيرتين لم تكونا تفكِّران سوى في إنشاء بيتهما معًا، وكانتا تبحثان عن بقعةٍ جافَّةٍ ولطيفةٍ لتعيشا فيها».

ـ «لا شكَّ أنَّه ذو طبيعةٍ رومانسيَّةٍ حقيقةً وليس تصنُّعًا!» قالت الحلقة الكاثرينيَّة، «لأنَّه يبكي حتى عندما لا يوجد ما يستدعي البكاء عليه!»، قالت ذلك وزفرت زفرةً عميقةً وهي تفكِّر بصندوق العقود.

ولكنَّ الشَّمعة الرُّومانيَّة والنَّور البنغاليَّ كانا في غاية السُّخط، فظلَّا يردِّدان: «هُراء! هُراء!» بأعلى صوتيهما. والحقيقة أنَّهما كانا عمليَّين للغاية، بحيث أنَّهما كلَّما اعترضا على شيءٍ أطلقا عليه صفةَ الهُراء.

ثمَّ ارتفع القمر كدرعٍ فضِّيٍّ بديعٍ، وبدأت النُّجوم تتلألأ، بينما تعالت أصواتُ الموسيقى من القصر.

كان الأمير والأميرة يقودان حلقة الرَّقص، وكان رقصهما من الجمال لدرجة أنَّ زهور الزَّنبق أطلَّت بأعناقها من النَّافذة تشاهدهم، وزهور الخشخاش الأحمر الكبير هزَّت رؤوسها طربًا وتمايلت مع الإيقاع.

ثمَّ دقَّت السَّاعة معلنةً العاشرة، ثمَّ الحادية عشرة، ثمَّ الثَّانية عشرة، وعند الدَّقَّة الأخيرة من منتصف اللَّيل، خرج الجميع إلى الشُّرفة الكبيرة، وأوعز الملك إلى خبير النَّاريَّات الملكيِّ في أن يبدأ عرضه.

ـ «نأمر بأن تبدأ الألعاب النَّاريَّة!» قال الملك، فانحنى خبير النَّاريَّات انحناءة احترامٍ أمام الملك وسار إلى نهاية الحديقة. كان معه ستَّة مساعدين، وقد حمل كلٌّ منهم شعلةً مضاءةً في نهاية عصًا طويلة.

كان عرضًا بديعًا ومهيبًا بحقٍّ!

أزَّت الحلقة الكاثرينيَّة أزًّا خفيفًا وهي تدور وتدور حول نفسها، ثمَّ فرقعت الشَّمعةُ الرُّومانيَّة فرقعاتٍ متتاليةً، ثمَّ رقصت المفرقعات في كلِّ

أنحاء المكان، أمَّا الأنوار البنغاليَّة فجعلت كلَّ شيءٍ يبدو قرمزيًّا، وصاح بالون النَّار: «وداعًا!» وهو يرتفع في السَّماء مُطلِقًا شراراتٍ زرقاء صغيرة، وأجابته بفرقعاتها الأسهمُ النَّاريَّةُ التي كانت تستمتع بشكلٍ كبيرٍ، وهكذا حقَّق كلٌّ منهم نجاحًا كبيرًا باستثناء الصَّاروخ العتيد الذي كان رطبًا للغاية من الدُّموع فلم يستطع أن ينطلق على الإطلاق. كان البارود أفضل ما فيه، ولكنَّ البارود كان قد ابتلَّ بالدُّموع فبات بلا فائدة. كلُّ معارفه البسطاء، أولئك الذين ما كان ليتحدَّث إليهم أبدًا إلَّا بسخريَّةٍ وازدراءٍ، ارتفعوا في السَّماء مثل زهورٍ ذهبيَّةٍ رائعةٍ تتفتَّح نيرانًا متلألئة، فهلَّل لها كلُّ من في القصر فَرَحًا، وضحكت الأميرة الصَّغيرة بسرور.

- «أعتقد أنَّهم يحتفظون بي لمناسبةٍ عظيمةٍ أخرى!» قال الصَّاروخ لنفسه، «لا شكَّ في ذلك»، وبدا أكثر تشامخًا ممَّا كان في أيِّ وقتٍ مضى.

في اليوم التَّالي جاء العمال إلى حديقة القصر ليعيدوا كلَّ شيءٍ إلى مكانه، فقال الصَّاروخ: «يبدو أنَّهم الوفد المفوَّض بمقابلتي، سأستقبلهم بكامل زهوي وكبريائي»؛ وشمخ بأنفه عاليًا، وبدأ يتجهَّم بصرامةٍ تجعل كلَّ مَن ينظر إليه يحسب أنَّه يفكِّر في أمرٍ في غاية الأهمِّيَّة! ولكنَّهم لم ينتبهوا إلى وجوده إلَّا في اللَّحظة التي همُّوا فيها بالخروج. ففي تلك اللَّحظة لمحه أحدهم، فالتقطه قائلًا: «مرحبًا! يا له من صاروخٍ رديءٍ!»، وألقى به في الخندق من فوق السُّور.

- « صاروخٌ رديءٌ؟ صاروخٌ رديءٌ؟» صاحَ وهو يدور في الهواء، «مستحيلٌ! مستحيل! صاروخٌ عظيمٌ، ذلك ما قاله الرَّجل! رديءٌ وعظيمٌ مفردتان تبدوان متشابهتين إلى حدٍّ كبير! بل أغلب الظَّنِّ أنَّهما الشَّيء نفسه»؛ وسقط في الوحل.

ـ «إنَّه ليس بالمكان المريح!» علَّق قائلًا، «ولكن لا شكَّ أنَّه مكانٌ عصريٌّ لتجميع المياه، ويبدو أنَّهم أرسلوني إلى هنا لأستعيد عافيتي، خاصَّةً وأنَّ أعصابي قد استُنزفت إلى حدٍّ كبيرٍ وبتُّ في حاجةٍ إلى الرَّاحة».

ثمَّ سبح نحوه ضفدعٌ صغيرٌ ذو عينين برَّاقتين كجوهرتين ومعطفٍ أخضر مرقَّشٍ.

ـ «لدينا وافدٌ جديدٌ هنا، كما أرى» قال الضِّفدع، «حسنًا، بعد كلِّ شيءٍ، ليس هناك ما هو أفضل من الوحل! أعطني طقسًا ممطرًا وخندقًا وسأكون في غاية السَّعادة! ولكن دعني أسألك سؤالًا: هل تظنُّ أنَّها ستمطر عصر اليوم؟ يقينًا أنا آمل ذلك، ولكنَّ السَّماء زرقاء تمامًا وخالية من الغيوم؟ يا للأسف!»

ـ «إحم! إحم!» قال الصَّاروخ وأخذ يسعل عاليًا.

ـ «يا لهذا الصَّوت الجميل الذي لديك!» قال الضِّفدع، «إنَّه يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ صوت النَّقيق، والنَّقيق بالطَّبع أجمل صوتٍ موسيقيٍّ في العالم! وستسمع غناء نادينا الموسيقيِّ هذا المساء! نحن نقيم في بركة البطِّ القديمة، تلك القريبة من كوخ الفلَّاح، وحالما يبزغ القمر تبدأ حفلتنا. إنَّه لأمرٌ أخَّاذٌ حقًّا أن يظلَّ الجميع مستيقظًا في اللَّيل ليصغي إلى غنائنا! ولا أخفيك سرًّا، أمس فقط سمعت زوجة الفلَّاح تقول لأمِّها إنَّه لم يغمض لها جفنٌ في اللَّيل بسببنا. إنَّه لمن دواعي السُّرور أن يجد المرء نفسه يحظى بشعبيَّةٍ كبيرة!»

ـ «إحم! إحم!» قال الصَّاروخ غاضبًا، فقد كان منزعجًا للغاية لأنَّه لم يستطع أن يفهم كلمةً واحدةً ممَّا قاله الضِّفدع.

ـ «صوتٌ جميلٌ من دون شكٍّ!» واصل الضِّفدع نقيقه، «آمل أن تأتي إلى بركة البطِّ هذا المساء! سأذهب الآن للبحث عن بناتي. لديَّ ستُّ بناتٍ جميلاتٍ وأخشى ما أخشاه أن يقابلهنَّ ذكرُ سمكة الكراكي، فهـو وحشٌ رهيبٌ ولن يتورَّع عن الإفطار عليهنَّ. حسنًا، وداعًا، لقد استمتعت كثيرًا بمحادثتنا، أؤكِّد لك ذلك».

ـ «محادثةٌ بالفعل!» قال الصَّاروخ، «لقد استأثرتَ بالحديث طوال الوقت! وهذا ليس من المحادثة في شيء!»

ـ «لا بدَّ من وجود مَن يصغي!» أجاب الضِّفدع، «ثمَّ إنَّني أرغب دائمًا في الاستئثار بالحديث، لأنَّ من شأن ذلك أن يوفِّر الوقت ويمنع الجدل».

ـ «ولكنَّني أحبُّ الجدل!» قال الصَّاروخ.

ـ «لا أرجو لك ذلك،» قال الضِّفدع بلا مبالاةٍ، «فالمجادلات سوقيَّةٌ للغاية، لأنَّ الجميع في المجتمع الرَّاقي يحملون نفس الأفكار تمامًا. وداعًا مرَّةً أخرى! أرى بناتي قادماتٍ من بعيد»؛ وسبح الضِّفدع الصَّغير مبتعدًا.

ـ «أنتَ شخصٌ مزعجٌ للغاية!» قال الصَّاروخ، «بل إنَّك عديم التَّربية! وأنا أمقت أولئك الذين لا شغل لهم سوى الحديث عن أنفسهم، مثلك أنت، في الوقت الذي يرغب فيه أحدٌ ما في الحديث عن نفسه، مثلي أنا. هذا ما أسمِّيه أنانيَّة، وأبغض الأشياء الأنانيَّة، خاصَّةً عند شخصٍ في مثل مزاجي وطبعي، فأنا معروفٌ جيِّدًا بأنَّني عاطفيٌّ مع الآخرين! وفي الواقع، أريدك أن تتَّخذني قدوةً لك، إذ لا يمكن أن تجد أفضل منِّي قدوةً، والآن الفرصة متاحةٌ أمامكَ لتستفيد

منّي، فأنا عائدٌ إلى البلاط على الفور تقريبًا! إنّني المفضَّل لدى البلاط لو تدري، وفي الحقيقة، لقد تزوَّج الأمير والأميرة في اللَّيلة الماضية على شرفي. طبعًا أنتَ لا تفقه شيئًا في هذه الأمور، لأنَّك من سكَّان الرِّيف».

- «لا جدوى من الحديث مع هذا الضِّفدع!» تدخَّل يعسوبٌ صغيرٌ كان جالسًا على قمَّة نبتة بُوطٍ كبيرةٍ بنِّيَّة اللَّون، «لا جدوى على الإطلاق، فقد ذهب بعيدًا».

- «حسنًا! هو الخسران وليس أنا!» ردَّ الصَّاروخ، «لن أتوقَّف عن الحديث معه لمجرَّد أنَّه لا يولي حديثي أيَّ اهتمام، لأنَّني ببساطةٍ أُحبُّ سماع نفسي أتحدَّث. إنَّها واحدةٌ من أعظم ملذَّاتي، وغالبًا ما أجري محادثاتٍ طويلةٍ مع نفسي، فأنا ذكيٌّ لدرجة أنَّني لا أفهم أحيانًا كلمةً واحدةً ممَّا أقوله![1]»

- «عليك إذن أن تكون مُحاضرًا في الفلسفة!» قال اليعسوب مخاطبًا الصَّاروخ، ثمَّ نشر جناحيه الخفيفين الجميلين وطار محلِّقًا في السَّماء.

- «إنَّها لسخافةٌ منه أن يتركني ويطير!» قال الصَّاروخ، «أنا على يقينٍ من أنَّه لن يحظى بفرصةٍ ثمينةٍ كهذه ليطوِّر عقله ويحسِّن نمط تفكيره، وعلى كلِّ حالٍ، هذا لا يهمُّني البتَّة! فأنا متأكِّدٌ من أنَّ عبقريَّةً كهذه التي

(1) يبدو أنَّ هذا الكلام عن المحادثات غير المجدية والكلام غير المفهوم حتى من قبل قائله ممَّا يفضِّل أوسكار وايلد الإشارة إليه مرارًا وتكرارًا في قصصه، والإشارة هنا إلى شخصيَّة لورد كورينك في حواره مع والده لورد كافرشام في قصَّة «الزَّوج المثالي». (المترجم).

أمتلكها سوف تُقدَّر في يومٍ من الأيَّام»؛ قال ذلك وغاص أعمق قليلًا في الوحل.

وبعد مرور بعض الوقت سبحت نحوه بطَّةٌ بيضاء كبيرة. كانت ساقاها صفراوَين وقدماها مكفَّفَتَين، وكانت آيةً في الجمال إذ تتبختر في مشيتها.

ـ «كواك، كواك، كواك!» قالت البطَّة، «ما أغرب هيئتك يا هذا! هل لي أن أسألك إن كنت قد وُلدتَ على هذه الشَّاكلة أم أنَّ الأمر نتيجة حادثٍ تعرَّضتَ له؟»

ـ «من الواضح تمامًا أنَّكِ عشتِ دائمًا في الرِّيف!» ردَّ عليها الصَّاروخ، «وإلَّا لكنتِ عرفتِ من أنا! ومع ذلك، أغفر لكِ جهلك! فليس من الإنصاف أن يتوقَّع المرء من الآخرين أن يكونوا ذوي شأنٍ مثله. وسوف تتفاجئين بلا شكٍّ إذا علمتِ أنَّني أستطيع الطَّيران نحو السَّماء ثمَّ النُّزول في هيئة وابلٍ من الأمطار الذَّهبيَّة».

ـ «لا أفكِّر كثيرًا في هذا،» قالت البطَّة البيضاء الكبيرة، «لأنَّني لا أرى ما فائدة ذلك لأيِّ شخص. لو كان بإمكانك حرث الحقول كالثَّور، أو جرَّ عربةٍ كالحصان، أو حراسة الخِراف ككلب كولِّي الإسكتلنديِّ، لكان ذلك شيئًا ذا شأنٍ».

ـ «أيَّتها المخلوقة الصَّغيرة!» صاح الصَّاروخ بها بنبرةٍ متعاليةٍ ومتغطرسةٍ، «أرى أنَّك تنتمين إلى الطَّبقات الدُّنيا، ولا تدركين أنَّ شخصًا في موقعي ومنزلتي لن يأبه أبدًا أن تكون له فائدة، فنحن لنا إنجازاتٌ معيَّنةٌ، وهذا أكثر من كافٍ، ثمَّ إنَّني لا أتعاطف مع أيـَّة صناعةٍ أو حرفةٍ من أيِّ نوعٍ كانت، وخاصَّةً تلك التي يبدو أنَّك توصي الآخرين بها. وفي الواقع،

كنتُ دائمًا أرى أنَّ العمل الشَّاقَّ هو ببساطةٍ ملاذ النَّاس الذين ليس لديهم ما يفعلونه![1]»

ـ «حسنًا، حسنًا،» قالت البطَّة التي كانت مسالمَة جدًّا ولم يحدث قَطُّ أن تشاجرت مع أيِّ شخص، «إنَّ الناس أذواقٌ مختلفةٌ. آملُ، على أيَّة حالٍ، أن تكون قد اتَّخذتَ مسكنك هنا».

ـ «أوه! لا يا عزيزتي!» صاح الصَّاروخ، «أنا مجرَّد زائرٍ، زائرٍ بارزٍ، والحقيقة أنَّني أجد هذه البقعة مملَّةً إلى حدٍّ ما، فلا مجتمعٌ يوجد هنا، ولا عزلة، والحقيقة، إنَّ المكان ينتمي إلى الضَّواحي، ولذلك أفكِّر في الرُّجوع إلى البلاط الملكيِّ، فأنا أعرف أنَّني خلقت لأترك أثرًا عميقًا في هذا العالم».

ـ «لقد كان طموحي يومًا ما أن أدخل معترك الحياة العامَّة،» علَّقت البطَّة، «لأنَّ هناك الكثير من الأمور التي لا بدَّ من مدِّ يد الإصلاح إليها وفي الواقع، لقد تولَّيتُ رئاسة أحد الاجتماعات قبل بعض الوقت، واستطعنا أن نُصدِرَ الكثير من القرارات التي تدين كلَّ شيءٍ لم نحبَّه. ومع ذلك، لا يبدو أنَّه كان لتلك القرارات كبيرُ أثرٍ. ولذلك أعتزم الآن الذَّهاب إلى بيتي ورعاية أسرتي».

ـ «أمَّا أنا فقد خُلقتُ للحياة العامَّة!» قال الصَّاروخ، «وكذلك جميع أقربائي، حتَّى أصغرهم شأنًا! لأنَّنا أينما نظهر، نجذب الانتباه إلينا.

(1) يؤكِّد أوسكار وايلد هذه الفكرة التي مفادها أنَّ البطالة قمَّة الكمال، وأنَّ العمل لمن لا عمل له، وقد وردت الفكرة في مقالةٍ له بعنوان «عباراتٌ وفلسفاتٌ للاستعمال من قِبَل النَّاشئة». (المترجم).

شخصيًّا لم أجرِّب ذلك إلى الآن، ولكن حين أفعل، سيكون مشهدًا في غاية الرَّوعة. أمَّا بالنِّسبة إلى الاهتمام بالشُّؤون المنزليَّة، فإنَّه يُهرِمُ المرءَ بسرعةٍ وقبل الأوان، والأدهى من ذلك أنَّه يشتِّت ذهن المرء عن الأمور السَّامية».

ـ «آه، يا عيني على الأمور السَّامية في الحياة! كم هي جميلة وراقية!» قالت البطَّة، «إنَّ الحديث عن الأمور السَّامية يذكِّرني بالجوع.» وسبحت بعيدًا مع التَّيَّار مردِّدةً: «كواك، كواك، كواك».

ـ «ارجعي! ارجعي!» زعقَ الصَّاروخ بأعلى صوته، «لديَّ الكثير لأقوله لكِ،» ولكنَّ البطَّة لم توليه أيَّ اهتمامٍ، فقال لنفسه: «إنَّني سعيدٌ لأنَّها رحلت، فهي بالتَّأكيد ذات عقليَّةٍ تنتمي إلى الطَّبقة المتوسِّطة»؛ وغاص أعمق قليلًا في الوحل، وبدأ يفكِّر في عزلة العبقريِّ حين ظهر فجأةً ولدان صغيران يلبسان قميصين أبيضين وهما يركضان صوبَ النَّهر ويحملان قِدْرًا وبعض الأعواد.

ـ «يبدو أنَّ هذا هو الوفد»، قال الصَّاروخ، وحاول أن يظهر بمظهر الوقور.

ـ «انظرْ!» صاح أحد الولدين بصوتٍ عالٍ، «انظرْ إلى تلك العصا العتيقة! أتساءل كيف وصلت إلى هنا!» ومدَّ يده والتقط الصَّاروخ من الوحل.

ـ «عصًا عتيقة!» قال الصَّاروخ، «مستحيلٌ! مستحيل! بل عصًا عريقة، هذا ما قاله. وقوله «عصًا عريقة» فيه ما فيه من المدح والإطراء لي. في الحقيقة، يبدو أنَّه يخلط بيني وبين صولجانٍ من صولجانات البلاط الملكيِّ».

ـ «هلمَّ بنا نضعها في النَّار!» قال الولد الآخر، «لأنَّها سوف تساعد في غليان الماء في القِدْر».

وهكذا جمعا الأعواد في كومةٍ واحدةٍ ووضعا الصَّاروخ على قمَّتها وأشعلا النَّار.

ـ «يا للرَّوعة!» صاح الصَّاروخ، «سيجعلاني أنطلق في وضح النَّهار حتى يتمكَّن الجميع من رؤيتي».

ـ «سنذهب لننام الآن،» قال الولدان، «وحين نستيقظ سنجد القِدْرَ تغلي»؛ وهكذا تمدَّدا على العشب وأغمضا عيونهما.

كان الصَّاروخ رطبًا للغاية فاستغرق وقتًا طويلًا ليشتعل، ولكن أخيرًا شبَّت فيه النِّيران.

ـ «الآنَ سأنطلق!» صاحَ وهو يجعل نفسه صلبًا جدًّا ومستقيمًا، «أعلم أنَّني سوف أحلِّق عاليًا في السَّماء، أعلى بكثيرٍ من النُّجوم، وأعلى بكثيرٍ من القمر، وأعلى بكثيرٍ من الشَّمس. في الواقع، سأرتفع لدرجة أنَّني...»

ويززز! ويززز! ويززز! وانطلق مستقيمًا في الهواء.

ـ «كم هذا مُبهج!» صاح الصَّاروخ، «سأواصل هذا الصُّعود إلى الأبد. يا له من نجاح!»

ولكن لم يره أحد.

ثم بدأ يشعر بوخزٍ غريبٍ في كلِّ أنحاء جسمه، فصاح: «الآن سأنفجر! وبفعلتي هذه، سأشعل النَّار في العالم كلِّه، وسأصنع دويًّا هائلًا لن يكون للنَّاس طوال عامٍ كاملٍ حديثٌ آخر سواه!»؛ وانفجر بالفعل. بم! بم! بم! وتناثر البارود في الهواء، ولم يكن هناك شكٌّ في ذلك.

ولكن لم يسمعه أحد، ولا حتى الولدين، لأنَّهما كانا نائمَين.

ثمَّ إنَّ كلَّ ما تبقَّى منه كان العصا، وقد سقطت هذه على ظهر إوزَّةٍ كانت تمشي بجانب الخندق، فصاحت: «يا إلهي! إنَّها ستمطر عِصِيًّا هذه المرَّة!»، وقفزت في الماء.

ـ «علمتُ علم اليقين أنَّني سأخلق أثرًا عظيمًا!» قال الصَّاروخ لاهثًا، وخبا إلى الأبد.

صورة صاحب الحرفين (واو) و(هاء)

I

كنتُ أتناول العشاء مع إرسكين في منزله الصَّغير الجميل الواقع في شارع بيردكيج ووك[1]، وكنَّا جالسَين في مكتبته منكبَّين على قهوتنا وسجائرنا حين تحوَّل حديثنا إلى ظاهرة السَّرقة الأدبيَّة، ولا أستطيع في الوقت الحاضر أن أتذكَّر كيف توقَّفنا عند هذه المسألة الغريبة نوعًا ما، كما كانت في ذلك الوقت، ولكنَّني أتذكَّر أنَّنا تحدَّثنا طويلًا حول ماك ـ فيرسون[2] وأيرلاند[3] وتشاتيرتون[4]، وبالنِّسبة إلى الاسم الأخير، فقد أصررتُ على أنَّ ما يُزعَم أنَّه تزويرٌ[5] في أعماله إنَّما مردُّه إلى رغبة الفنَّان

---

(1) هو الشَّارع الواقع إلى الجنوب من متنزَّه سانت جيمس في لندن وأحد أفضل الأماكن التي يحبُّ أوسكار وايلد أن يجعل شخصيَّاته تعيش فيها. (المترجم).

(2) هو جيمس ماك ـ فيرسون (1736 ـ 1796) الشَّاعر والكاتب والمترجم الذي انتحل ترجماتٍ للشَّاعر أوسيان ونسبها إلى نفسه. (المترجم).

(3) هو وليام هنري أيرلاند (1777 ـ 1835) الذي ادَّعى امتلاكه مخطوطاتٍ بخطِّ يد شكسبير ونشرها على هذا الأساس بينما هي في الحقيقة من تأليفه. (المترجم).

(4) هو توماس تشاتيرتون (1752 ـ 1770) الذي ادَّعى امتلاكه مخطوطاتٍ تعود إلى العصور الوسطى ونشرها باسمه وزوَّرها (المترجم).

(5) في الوقت الذي ينتقد فيه أوسكار وايلد ظاهرة السَّرقة الأدبيَّة والانتحال اللَّتين عمَّتا الأوساط الثَّقافيَّة في القرنين الثَّامن عشر والتَّاسع عشر في إنجلترا نكتشف أنَّه هو نفسه، في ندوةٍ أدبيَّةٍ، يقدِّم محاضرةً عن الكاتب والشَّاعر توماس تشاتيرتون سرق جلَّها

الجامحة في بلوغ كمال التَّصوير الفنِّي، وعليه لا يحقُّ لنا نحن أن نعادي الفنَّان للظُّروف التي يختار تحت لوائها تقديمَ نتاجه الفنِّي، لأنَّ الفنَّ، بدرجةٍ ما، أسلوبُ عمل، ومحاولةٌ لتحقيق الفنَّان شخصيَّته على المستوى الفنِّيِّ التَّخيُّليِّ[1] بمنأىً عن قيود وإكراهات الواقع اليوميِّ المعاش، وإنَّ توجيه اللَّوم إلى الفنَّان بسبب التَّزوير فيه خلطٌ بين قضيَّتين ينبغي أن تكونا منفصلتين: قضيَّة الأخلاقيِّ وقضيَّة الجماليِّ.

وطوال الوقت كان إرسكين، الذي يكبرني كثيرًا بالعمر، يصغي إليَّ باحترام رجلٍ في الأربعين، مستمتعًا بسماع رأيي، ولكن فجأةً وضع يده على كتفي وقال لي: «ما قولك في شابٍّ لديه نظريَّته الغريبة، التي يؤمن بها، في عملٍ فنِّيٍّ معيَّنٍ، ويرتكب تزويرًا في سبيل إثباتها؟»

ـ «آه، تلك مسألةٌ مختلفةٌ تمامًا،» أجبتُه.

ظلَّ إرسكين صامتًا لبعض الوقت ينظر إلى خيوط الدُّخان الرَّماديَّة الرَّقيقة التي كانت تتصاعد من سيجارته، ثمَّ قال: «نعم! أتَّفق معك، تلك مسألةٌ مختلفةٌ، مختلفةٌ تمامًا».

كان هناك شيءٌ مختلفٌ في نبرة صوته، ربَّما مسحةٌ طفيفةٌ من المرارة أثارت فضولي، فسألته بصوتٍ مرتفع: «وهل سبق لك أن عرفت أيَّ شخصٍ فعل ذلك؟»

من أعمالٍ أدبيَّةٍ لم يشر إليها، والمحاضرة محفوظةٌ اليوم في (المكتبة التِّذكاريَّة) ـ المكتبة الخاصَّة المقامة على شرف وليام آندروز كلارك في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس. (المترجم).

(1) إنَّ وظيفة الفنِّ والنَّقد من وجهة نظر وايلد تكمن في التَّعبير عن الفرد الفنَّان، وقد عبَّر وايلد عن ذلك في جلِّ أعماله الأدبيَّة الإبداعيَّة والنَّقديَّة. (المترجم).

ـ «نعم!» أجاب وهو يرمي سيجارته في نار المدفأة المشتعلة، «إنَّه صديقٌ عزيزٌ عليَّ، واسمه سيريل غراهام. لقد كان شخصًا ساحرًا جدًّا، وأحمق جدًّا، ومتحجِّرَ القلب جدًّا. ومع ذلك، فقد ترك لي الإرث الوحيد الذي حظيت به في حياتي».

ـ «وماذا كان ذلك الإرث؟» هتفتُ متعجِّبًا. فنهض إرسكين من مقعده واتَّجه صوب خزانةٍ طويلةٍ مطعَّمةٍ، موضوعةٍ في الفسحة التي بين النَّافذتين، وفتحها، وعاد إلى حيث كنتُ جالسًا وهو يمسك في يده لوحةً صغيرةً مؤطَّرةً بإطارٍ إليزابيثيٍّ قديمٍ فَقَدَ بريقه إلى حدٍّ ما».

كانت اللَّوحة عبارةً عن صورةٍ شخصيَّةٍ كاملةٍ لشابٍّ يرتدي زيَّ أواخر القرن السَّادس عشر، ويقف بجانب طاولةٍ، ويده اليمنى مستلقيةٌ على كتابٍ مفتوح. كان يبدو في السَّابعة عشرة من العمر، وكان ذا جمالٍ غير عاديٍّ على الإطلاق، وإن بدا مخنَّثًا إلى حدٍّ ما. وفي الواقع، لولا الثِّياب والشَّعر المقصوص قصًّا قصيرًا، لقال المرء إنَّ الوجه، بعينيه الحزينتين الحالمتين وشفتيه القرمزيَّتَين الرَّقيقتَين، لم يكن سوى وجه فتاة. ومن حيث الأسلوب، وخاصَّةً معالجة اليدين، كانت الصُّورة تذكِّر بأسلوب الفنَّان فرانسوا كلويه[1] في أعماله المتأخِّرة. الصُّدرة المخمليَّة السَّوداء المطرَّزة بشكلٍ مذهلٍ بنقاطٍ ذهبيَّة اللَّون، والخلفيَّة

---

(1) فرانسوا كلويه (1520 ـ 1572)، فنَّانٌ فرنسيٌّ تميَّز بأعمال البورتريه، وقد انتشرت أعماله وأعمال والده الفنَّان جان كلويه في فرنسا القرنين الخامس عشر والسَّادس عشر، وأُلِّفَتْ عنهما الموسوعات الفنيَّة، خاصَّةً في ثمانينيَّات القرن التَّاسع عشر، وأبرزها كتاب (النَّهضة الفنيَّة في البلاط الفرنسيِّ) من تأليف النَّاقد الكونت دي لابورديه، عام 1855. (المترجم).

الزَّرقاء زرقةَ الطَّاووس التي تظهر عليها تلك الصُّدرة بشكلٍ عذبٍ للغاية، والتي منها استمدَّت إشراقة الألوان تلك، كانت بالضَّبط على طراز كلويه؛ والقناعان، قناع المأساة وقناع الملهاة، المعلَّقان بصورةٍ شكلانيَّةٍ إلى حدٍّ ما بقاعدة التِّمثال الرُّخاميَّة، كانت لهما تلك اللَّمسة الخشنة ـ المختلفة تمامًا عن الطَّلاوة النَّاعمة في أسلوب الإيطاليِّين ـ التي حتى في البلاط الفرنسيِّ لم يفقدها المعلِّم الفلاندريُّ[1] العظيم تمامًا، والتي في حدِّ ذاتها كانت على الدَّوام سمةً من سمات المزاج الشَّماليِّ.

ـ «إنَّها شيءٌ يخلب اللُّبَّ،» هتفتُ بأعلى صوتي، «ولكن من يكون هذا الفتى الجميل الذي في اللَّوحة، هذا الذي صان الفنُّ جمالَه لنا ليكون بهجةً للنَّاظرين؟»

ـ «تلك صورة السَّيِّد واو ـ هاء!» أجابني إرسكين مع ابتسامةٍ حزينةٍ، وربَّما كان ذلك بسبب انعكاس الضَّوء مصادفةً، ولكن بدا لي أنَّ الدَّمع ترقرق متلألئًا في عينيه.

ـ «السَّيِّد واو ـ هاء؟» صحتُ، «ومن يكون السَّيِّد واو ـ هاء هذا؟»

ـ «ألا تتذكَّر؟» أجاب؛ «انظر إلى الكتاب الذي ترتاح عليه يده».

ـ «أرى أنَّ هناك كتابةً ما، ولكنَّني لا أستطيع تمييزها»؛ أجبت.

ـ «خذ هذه العدسة المكبِّرة وحاول»، قال إرسكين مع الابتسامة الحزينة نفسها التي كانت ما تزال مرتسمةً حول فمه.

---

(1) فرانسوا كلويه نفسه. (المترجم).

وتناولتُ العدسة، وقرَّبتُ المصباح قليلًا، ثمَّ بدأتُ أتهجَّى خطَّ اليد الذي يعود إلى القرن السَّادس عشر الميلاديِّ: (إلى خالق هذه السُّونيتات بين الدَّفَّتين أُهدي هذا الكتاب)»... «يا إلهي!» هتفتُ بأعلى صوتي، «هل السَّيِّد واو ـ هاء هو رجُل شكسبير نفسه؟»

ـ «هذا ما كان يردِّده سيريل غراهام»، تمتمَ إرسكين.

ـ «ولكن لا يبدو أنَّه اللُّورد بامبروك![1]»، رددتُ عليه، «فأنا ملمٌّ إلمامًا جيِّدًا بلوحات بينهرست[2]، لأنَّني كنت مقيمًا على مشارفها قبل بضعة أسابيع».

ـ «هل تعتقد حقًّا أنَّ السُّونيتات كانت مهداةً إلى اللُّورد بامبروك؟»، سألَني.

---

(1) لورد مدينة بامبروك، وهو إيرل Earl المدينة أي حاكمها، وهو وليام هيربرت، (واو ـ هاء)، الحاكم الثَّالث الذي وُلد قرابة 1580 ومات قرابة 1630، وقد اهتمَّ برعاية جملةٍ من الشُّعراء الإنجليز حتى سُمِّي بـ (راعي الشُّعراء)، وقد أُهديَت له النُّسخة الأولى من أعمال شكسبير المعروفة باسم (الفوليو الأوَّل) First Folio، وعليه يُعتقَد أنَّه هو المقصود بـ (السَّيِّد واو ـ هاء) المذكور أعلاه بصفته (صاحب شكسبير) في سونيتاته، وهذا ليس رأي أوسكار وايلد وحده بل رأي الكثير من النُّقَّاد. (المترجم).

(2) المقصود مدينة والتون Walton وهي المدينة التي وُلد فيها لورد بامبروك والإشارة هنا إلى لوحاتٍ زيتيَّةٍ رسمها الفنَّانان دانيال مايتينز Daniel Mytens وفان ديك Van Dyck وهي اللَّوحات التي يقصدها أوسكار وايلد في القصَّة ولكنَّ الأمر التبس عليه، فذكر (بامبروك) بدلًا من (والتون) والسَّبب أنَّ الأولى هي مسقط رأس الشَّاعر الإنجليزيِّ الكبير فيليب سدني Sir Philip Sidney. (المترجم).

ـ «أنا متأكِّدٌ من ذلك،» أجبتُ. «بامبروك وشكسبير نفسه والسَّيِّدة ماري فيتون[1] هم الشَّخصيَّات الثَّلاث في السُّونيتات، وهذا من المسلَّمات التي لا يرقى إليها الشَّكُّ».

ـ «حسنًا، أتَّفق معك،» قال إرسكين، «مع أنَّني لم أكن أعتقد ذلك دائمًا. لقد كنتُ أؤمن، أفترضُ أنَّني كنتُ أؤمن بسيريل غراهام وبنظريَّته».

ـ «وما هي تلك النَّظريَّة؟» سألتُه وأنا أتأمَّل تفاصيل اللَّوحة الآسرة التي بدأت بالفِعل تبهرني وتملك عليَّ حواسِّي.

ـ «إنَّها قصَّةٌ طويلة،» قال إرسكين وهو يأخذ الصُّورة منِّي دون مقدِّماتٍ كما فكَّرتِ في ذلك الوقت، «قصَّةٌ طويلةٌ جدًّا! ولكن إن كنتَ مهتمًّا بسماعها، فسأخبرك بها».

ـ «حقيقةً، أنا شغوفٌ بالنَّظريَّات التي تتناول السُّونيتات،» قلتُ بصوتٍ عالٍ، «ولكن لا أعتقد أنَّه من المحتمل أن تتمَّ هدايتي إلى أيِّ فكرةٍ جديدة.

(1) إنَّ القارئ لشكسبير، وخاصَّةً لسونيتاته، يعرف أنَّ الشَّاعر الإنجليزيَّ يهدي بعض قصائده لسيِّدةٍ مجهولةٍ لم يصرِّح سوى بالحرفين الأوَّلين D.L من اسمها، ولذلك اتَّفق النُّقَّاد على تسميتها بالمرأة المجهولة The Dark Lady (سيِّدة الظَّلام)، ولكن في القرن التَّاسع عشر، وبفضل دراساتٍ تنقيبيَّةٍ اضطلع بها توماس تايلر Thomas Tyler، توصَّل إلى هويَّة السَّيِّدة المجهولة، وهي السَّيِّدة ماري فيتون، عشيقة لورد بامبروك وإحدى وصيفات الملكة ذائعة الصِّيت إليزابيث الأولى، ابنة الملك هنري الثَّامن من زوجته آن بولين، وآن بولين نفسها كانت الوصيفة الجميلة والشَّقراء لدى ملكة إنجلترا كاترين دي آراكون، ولكنَّها كانت أكبر سنًّا من زوجها الثَّاني هنري الثَّامن الذي أراد تطليقها ليتزوَّج بالوصيفة الشَّقراء التي أُغرم بها، ولكنَّ بابا الفاتيكان رفض الطَّلاق بحسب التَّعليمات الكاثوليكيَّة فما كان من الملك إلَّا ان قام بالانفصال عن كنيسة روما وتأسيس كنيسة إنجلترا Church of England، ثمَّ تنصيب نفسه بابا لها والزَّواج من حبيبته التي كانت تحبُّ الشَّاعر توماس وايت Thomas Wyatt، في قضيَّةٍ معروفةٍ تمخَّض عنها الانشقاق الدِّيني. (المترجم).

الأمر لم يعد لغزًا لأيٍّ أحد. وفي الواقع، أتعجَّب من أنَّه كان لغزًا في أيِّ وقتٍ مضى».

- «لمَّا كنتُ غير مؤمنٍ بالنَّظريَّة، فمن غير المحتمل أن أهديك إليها!» قال إرسكين وهو يضحك، «ولكن أعتقد أنَّها قد تثير اهتمامك».

- «بالطَّبع، أخبرني،» أجبتهُ. «سأكون أكثر من راضٍ إن أدخلَتْ عليَّ نصف ما أدخلَتْه الصُّورة من بهجة».

- «حسنًا،» قال إرسكين وهو يشعل سيجارةً، «حسنًا، يجب أن أبدأ بإخبارك عن سيريل غراهام نفسه. كنَّا نعيش معًا في المنزل نفسه، في مدينة إيتون، وكنت أكبره بعامٍ أو عامين، ولكنَّ هذا لم يَحُلْ دون توطُّد صداقتنا، وكنَّا ننجز كلَّ أعمالنا ونلعب كلَّ ألعابنا معًا، وطبعًا كان اللَّعب أكثر من العمل، ولكن لا يمكنني القول إنَّني نادمٌ على ذلك. بل إنَّ من دواعي سروري أنَّني لم أتلقَّ تعليمًا تجاريًّا متينًا، لأنَّ ما تعلَّمته في حقول اللَّعب في إيتون كان مفيدًا لي بقدر أيِّ شيءٍ تعلَّمتُه في كامبريدج. هنا، لا بدَّ أن أخبرك أنَّ سيريل عاش حياته يتيمًا بعد أن فقد أبويه في حادثة غرقٍ باليخت قبالة جزيرة وايت. كان والده منخرطًا في السِّلك الدِّبلوماسيِّ ومتزوِّجًا بالابنة الوحيدة للُّورد كريديتون العجوز الذي أصبح وصيَّ سيريل بعد وفاة والديه. ولكن لا أعتقد أن اللُّورد كريديتون اهتمَّ كثيرًا بتربية سيريل وتنشئته، فهو لم يغفر لابنته أبدًا زواجَها برجلٍ لا يحمل أيَّ لقب. كان أرستقراطيًّا قديمًا وغير اعتياديٍّ، وكان يتَّصف بصفات الفلَّاحين ويـُقسم مثلما يُقسم بائعو الخُضَر المتجوِّلون، وأتذكَّر أنَّني شهدته مرَّةً يلقي خطابه اليوميَّ، فما كان منه إلَّا أن عبس في وجهي ودمدمَ عليَّ، ثمَّ أعطاني قطعةً نقديَّةً وأمـرني بألَّا أكون (راديكاليًّا ملعونًا) مثل والدي. لم يكن سيريل

يكنُّ له سوى القليل من المودَّة، وكان سعيدًا للغاية لقضاء معظم عطلته معنا في إسكتلندا، فهما لم ينسجما معًا على الإطلاق. كان سيريل يراه أخرقَ، وكان هو يرى سيريل مخنَّثًا. لقد كان مخنَّثًا في بعض الجوانب، على ما أرى، مع أنَّه كان فارسًا جيِّدًا ومبارزًا لا يُشَقُّ له غبار، وأعتقد أنَّه نال وسام الفروسيَّة قبل مغادرته مدينة إيتون. ولكنَّه كان فاتر الهمَّة في سلوكه، وليس لديه أيُّ اعتدادٍ بمظهره، وكان يكره كرهًا شديدًا كرةَ القدم. الشَّيئان اللَّذان أدخلا البهجة على قلبه حقًّا كانا الشِّعر والتَّمثيل. في إيتون، كان يرتدي دائمًا ملابس التَّمثيل ويُلقي مقاطع من شكسبير، وحين ارتدنا كلِّيَّة ترينيتي أصبح عضوًا في (إيه.دي.سي)[1] منذ الفصل الأوَّل. أتذكَّر أنَّني كنت أشعر دائمًا بالغيرة من تمثيله، ولكنَّني كنت أحبُّه بشكلٍ غير معقول، مع أنَّنا كنَّا مختلفَين في الكثير من الأمور، فأنا كنتُ أخرق إلى حدٍّ ما، ولدًا ضعيفًا بقدمَين ضخمتَين ووجهٍ مليءٍ بالنَّمش، فالإسكتلنديُّون معروفون بالنَّمش، مثلما الإنجليز معروفون بالنِّقرس. وكان سيريل يقول إنَّه من بين الاثنين يفضِّل النِّقرس، ولكنَّه كان دائمًا وبشكلٍ غير معقولٍ يعطي قيمةً عاليةً للمظهر الشَّخصيِّ، وأتذكَّر أنَّه قرأ ورقةً بحثيَّةً كتبها بنفسه لإثبات أنَّ من الأفضل للمرء أن يكون حسن المظهر من أن يكون حسن الخلق وقدَّم تلك الورقة أمام جمهورٍ من جمعيَّة المناظرة التَّابعة للكلِّيَّة، ولهذا كان وسيمًا على نحوٍ رائعٍ. أولئك الذين لم يحبُّوه، الفليستينيُّون[2] ومدرِّسو

(1) الحروف الأولى من اسم فرقة الهواة المسرحيَّة The Amatuer Dramatic Company الموجودة في كلِّيَّة ترينتي (الثَّالوث) التَّابعة لجامعة كامبريدج. (المترجم).

(2) الفليستينيُّون Philistines مصطلحٌ استخدمه النَّاقد الإنجليزيُّ المعروف ماثيو أرنولد في كتابه Culture and Anarchy (الثَّقافة والفوضى) الذي نُشر سنة 1869، ويقصد بها (وضاعة الطَّبقة الوسطى وتدنِّي قيمها لأخلاقيَّة وبدائيَّة أو تخلُّف تفكيرها ورداءة

الكلِّيَّة والطَّلبةُ الذين يدرسون على حساب الكنيسة، كانوا يرونــه مجرَّد شخصٍ جميلٍ؛ ولكن كانت ملامح وجهه توحي بما هو أكثر بكثيرٍ من مجرَّد جمال. أعتقد أنَّه أروع مخلوقٍ قابلته في حياتي، ولا شيء يمكن أن يضاهي جمال حركاته وسحرَ أسلوبه. لقد سحرَ كلَّ من كان يستحقُّ ذلك السِّحر، وجُلَّ مَن كان لا يستحقُّه. ولكنَّه، مع هذا وذاك، كان عنيدًا وعدوانيًّا، بل كنت أعتقد بقوَّةٍ أنَّه لم يكن صادقًا فيما كان يظهره لنا، وربَّما كان ذلك يعود، في اعتقادي، إلى رغبته الجامحة في إرضاء الآخرين. المسكين سيريل! أخبرته ذات مرَّةٍ أنَّه كان يقنع بالانتصارات الرَّخيصة، ولكنَّه ضحك فحسب. كان مدلَّلًا بشكلٍ فظيع. كلُّ النَّاس السَّاحرين، كما أظنُّ، مدلَّلون. إنَّه سرُّ جاذبيَّتهم. ولكن دعني أخبرك عن تمثيله المسرحيِّ. طبعًا أنت تعرف أنَّه من غير المسموح للفتيات بالتَّمثيل في فرقة الهواة المسرحيَّة. أو على الأقلِّ لم يكن ذلك مسموحًا لهنَّ في الفترة التي كنت أدرس فيها هناك، ولا أعرف كيف هو الأمر الآن. ولهذا كانت كافَّة الأدوار النِّسائيَّة في المسرحيَّات تُسنَد إلى سيريل، وعلى سبيل المثال، عندما مُثِّلَت (كما تحبُّ) لشكسبير، أسندوا إليه دور روزاليند، وكان أداؤه رائعًا. في الحقيقة، كان سيريل غراهام الوحيدَ المثاليَّ لدور روزاليند من بين مَن رأيتهم في حياتي. سيكون من المستحيل أن أصف لك جمالَ ورهافةَ وإتقانَ الأمر برمَّته. كانت القاعة الصَّغيرة البشعة تهتزُّ كلَّ ليلةٍ بالتَّصفيق وقد غصَّت بالجمهور الفائض عن استيعابها. وحتى حين أقرأ المسرحيَّة

ذوقها) مقارنةً بقيم الطَّبقة الأرستقراطيَّة، وقد تبنَّى أوسكار وايلد هذا المصطلح الذي صار عنده يعني كلَّ ما هو ماديٌّ ومنافٍ للعقل في الثَّقافة الإنجليزيَّة في القرن التَّاسع عشر على وجه التَّحديد. (المترجم).

الآن، لا يمكنني التَّفكير سوى في سيريل. ربَّما كان الدَّور قد كُتب خصِّيصًا له. هذا كلُّه حدث في الفصل الأوَّل من الدِّراسة، وفي الفصل الثَّاني حاز سيريل على شهادته، ثمَّ انتقل إلى لندن ليدرس بغيةَ الانضمام إلى السِّلك الدُّبلوماسي، ولكنَّه لم يلتحق بأيِّ عمل، بل كان يمضي نهاراته في قراءة سونيتات شكسبير، ولياليه في المسرح. لقد كان، بالتَّأكيد، مهووسًا بارتياد المسرح. ولكنَّنا فعلنا كلَّ ما في وسعنا، أنا واللُّورد كريديتون، لمنعه من ارتقاء خشبة المسرح. ذلك كلُّ ما استطعنا أن نفعله لأجله! وربَّما لو تركناه يصعد خشبة المسرح وقتذاك، لكان الآن حيًّا يُرزَق. لطالما كان تقديم النَّصيحة أمرًا سخيفًا، ولكنَّ تقديم نصيحةٍ جيِّدةٍ أمرٌ مُهلِكٌ بكلِّ ما في الكلمة من معنى. آمُل ألَّا تقع أنت في هذا الخطأ، لأنَّك إن وقعت فيه، سوف تكون آسفًا لذلك.

«حسنًا، للوصول إلى كبد القصَّة، فذات يومٍ تلقَّيت من سيريل رسالةً يطلب فيها منِّي الحضور إلى نُزُلِه في ذلك المساء، فقد كانت لديه بعض الغرف السَّاحرة في البيكاديللي تطلُّ على متنزَّه جرين بارك[1]، ولأنَّني كنت قد اعتدتُ الذَّهاب إليه كلَّ يومٍ، استغربتُ من تجشُّمه عناء الكتابة هذه المرَّة. وبالطَّبع ذهبت، وحين وصلت وجدتُه في حالةٍ من الانفعال الشَّديد. أخبرني أنَّه اكتشف أخيرًا السِّرَّ الحقيقيَّ لسونيتات شكسبير، وأنَّ كلَّ الباحثين والنُّقَّاد الشِّكسبيريِّين كانوا على المسار الخاطئ كليًّا، وأنَّه كان أوَّل من توصَّل، من خلال براهين نصِّيَّةٍ في السُّونيتات نفسها، إلى شخصيَّة السَّيِّد واو - هاء. كان في حالةٍ جامحةٍ من السَّعادة، فقد توصَّل إلى هذا الأمر قبل فترةٍ طويلةٍ ولكنَّه لم يخبرني بنظريَّته. وأخيرًا جلب

---

(1) متنزَّهٌ كان أوسكار وايلد يحبُّه، وسنراه يكرِّر استخدامه في كتاباته اللاَّحقة. (المترجم).

مجموعةً من الأوراق التي كان قد دوَّن عليها ملاحظاته، ثمَّ جاء بنسخته من سونيتات شكسبير الموضوعة على رفِّ الموقد، ثمَّ جلس وألقى عليَّ محاضرةً طويلةً حول الموضوع برمَّته.

«بدأ بالإشارة إلى أنَّ الشَّابَّ الذي وجَّه إليه شكسبير هذه القصائد العاطفيَّة يجب أن يكون شخصًا يمثِّل بالنِّسبة إلى شكسبير عاملًا فعَّالًا في تطوُّر فنِّه الدِّراميِّ والشِّعريِّ، وهذا ما لا ينطبق على لورد ساوث ـ آمبتون[1] ولا على لورد بامبروك. وفي الواقع، كائنًا مَن كان، لم يكن من الممكن أن يكون شخصًا ينتمي إلى أسرةٍ رفيعة المكانة، كما ظهر بوضوحٍ شديدٍ في السُّونيتة الخامسة والعشرين، حيث يقارن شكسبير نفسه بأولئك المفضَّلين لدى الأمراء العِظام، إذ يقول بصراحةٍ تامَّةٍ:

«دعْ أصحاب الجاه والشَّرف والألقاب

في علياء نجومهم يتفاخرون،

بينما أنا الذي حظـر الحظُّ عنِّي نصرًا كهذا

حسبي ألَّا أبحث عن فرحٍ وقـد حظيتُ بالأرقى» ـ

وتُختَتم السُّونيتة بتهنئة نفسه على منزلته الوضيعة التي عشقها:

«فيا لسعادتي، أنا الذي أَحَبَّ وأُحِبَّ،

الذي لم يمحو أحدًا ولم يمحوه أحد» ـ

---

(1) هوَ هنري رايوثيسليه (1573 ـ 1624)، المسنَد إليه منصب إيرل مدينة ساوث ـ آمبتون وهو الإيرل الثَّالث لهذه المدينة، وكان من (رعاة الشُّعراء) ومن بين الشُّعراء الذين تكفَّل بهم شكسبير نفسه، ولهذا اعتقد النُّقَّاد أنَّه موضع إهداء السونيتات كشأن اللُّورد بامبروك الذي اعتُقد أيضًا أنَّ السونيتات مهداةٌ إليه بصفته راعيًا للشُّعراء. (المترجم).

ويقول سيريل إنَّ هذه السُّونيتة ستكون مبهمةً تمامًا إذا تخيَّلنا أنَّها مهداةٌ إلى إيرل مدينة بامبروك أو إيرل مدينة ساوث ـ آمبتون، وكلاهما من عليَّة القوم ويتبوَّآن مناصب عليا في إنجلترا، ومؤهَّلان تمامًا لأن يُطلق عليهما الشَّاعر لقب (الأمراء العِظام)، وتأكيدًا لوجهة نظره، قرأ لي سيريل السُّونيتة 124 والسُّونيتة 125، حيث يخبرنا شكسبير بأنَّ مَن يحبُّ ليس (ابنَ منصبٍ)، وإلَّا (لكانت معاناته متأتِّيةً عن التَّرف الباسم)، ولكنَّه (مجبولٌ بحيث لا يمسُّه حدثان الدَّهر). كنتُ أصغيَ إليه بقدرٍ كبيرٍ من الاهتمام، لأنَّني لا أعتقد أنَّ هناك مَن تطرَّق إلى هذه الفكرة من قبل. ولكنَّ ما أعقب ذلك كان أكثر إثارةً للدَّهشة، وبدا لي في ذلك الوقت أنَّ القضيَّة بعيدةٌ كلِّيًّا عن إقحام اسم بامبروك. نحن نعلم من ميريز[1] أنَّ السُّونيتات كُتبت قبل عام 1598، وأنَّ السُّونيتة 114 تخبرنا بأنَّ علاقة شكسبير بالسَّيِّد واو ـ هاء كانت قد بدأت قبل ثلاث سنوات، ولو رجعنا إلى حياة اللُّورد بامبروك، لوجدنا أنَّه ولد في عام 1580، ولم يأت إلى لندن حتى بلغ الثَّامنة عشرة، أي حتى عام 1598، ولا بدَّ أنَّ علاقة شكسبير بالسَّيِّد واو ـ هاء قد بدأت قبل هذا التَّاريخ، في عام 1594 أو كحدٍّ أقصى في عام 1595، وهذا يثبت أنَّ شكسبير لم يعرف اللُّورد بامبروك إلَّا بعد أن أتمَّ كتابة السُّونيتات.

«وبيَّن سيريل لي أيضًا أنَّ والد اللُّورد بامبروك توفِّي في حدود عام 1601، وواضحٌ من البيت الذي يقول شكسبير فيه:

«لقد حظيتَ بأبٍ، فليكن لكَ ابنٌ يناديك بالمثل»[2] ـ

(1) فرانسيس ميريز (1565 ـ 1647) الذي نشر في عام 1598 كتابًا جامعًا عن تاريخ الأدب الإنجليزيِّ من عصر جيفري جوسر وحتى أواخر القرن السَّادس عشر. (المترجم).

(2) البيت موجودٌ في السُّونيتة 13. (المترجم).

أنَّ أبو السَّيِّد واو ـ هاء توفِّي في عام 1598. وإلى جانب ذلك، سيبدو الأمر في غاية السُّخف أن نتخيَّل أنَّ أيَّ ناشرٍ في ذلك الوقت، والمقدِّمة بقلم النَّاشر[1]، كان سيغامر بمخاطبة وليام هربرت، إيرل مدينة بامبروك، بالسَّيِّد واو ـ هاء. أمَّا فيما يخصُّ قضيَّة اللُّورد باكهيرست الذي قيل إنَّه السَّيِّد ساكفيل[2] نفسه، فهذا ليس في الواقع مثالاً ينطبق على القضيَّة التي ناقشها، لأنَّ اللُّورد باكهيرست لم يكن نبيلًا، ولكن الابن الأصغر لأحد النُّبلاء، ولقبه شكليٌّ فحسب، أمَّا ذِكْرُه في كتاب (بارناسوس إنجلترا)، فلم يأتِ على شكل إهداءٍ رسميٍّ وفاخرٍ، بل كمجرَّد إشارةٍ عابرة. هذا فيما يخصُّ لورد بامبروك الذي فنَّد سيريل بكلِّ يسرٍ قضيَّته، بينما أنا جالسٌ يأكلني العجب. ثم انتقل سيريل إلى تفنيد قضيَّة لورد ساوث ـ آمبتون، وكان تفنيدها أقلَّ صعوبةً. أوضح لي أنَّ ساوث ـ آمبتون، وهو في ريعان شبابه، ارتبط بقصَّة حبٍّ مع إليزابيث فيرنون[3]، ولم يحتَجْ زواجه بها إلى أيِّ توسُّلاتٍ أو تضرُّعات، وهو لم يكن جميلًا؛ لم يكن يشبه والدته، مثلما كان السَّيِّد واو ـ هاء:

«كنتَ مرآة أمِّك، وكانت ترى نفسها فيكَ
وتتذكَّر حلاوةَ نيسانِ رَيْعانها؛» ـ

---

(1) كان إهداء السُّونيتات يحمل الحرفين (ت.ث) وهما الحرفان الأوَّلان من اسم (توماس ثورب) الذي باسمه تمَّ تسجيل قصائد شكسبير في هيئة تسجيل المنشورات البريطانيَّة عام 1609، والمعروفة باسم (تسجيل الشُّؤون الكتابيَّة The Stationers Registers). (المترجم).

(2) تولىَّ توماس ساكفيل (1536 ـ 1608) منصب إيرل مدينة دورسيه ومنصب بارون مدينة باكهيرست في عام 1567، وقد وردت بعض إسهامات ساكفيل الأدبيَّة مذيَّلةً بالحرف (إمْ) في كتاب بارناسوس إنجلترا الذي مرَّ ذكره سابقًا. (المترجم).

(3) إليزابيث فيرنون هي ابنة عمِّ الإيرل الثَّاني الذي تسلَّم هذا المنصب في مدينة إيسكس وكانت عشيقة لورد ساوث ـ آمبتون ثمَّ زوجته لاحقًا. (المترجم).

وفوق ذلك كلِّه، كان اسمه الأوَّل، اسمه المسيحيُّ، هنري، بينما الإشارة اللُّغويَّة في السُّونيتتَين 135 و143، تشير إلى أنَّ الاسم الأوَّل لصديق شكسبير هو نفسه الاسم الأوَّل لشكسبير ـ وِلْ[1].

«أمَّا بالنِّسبة إلى الآراء الأخرى التي قدَّمها نفرٌ من المعلِّقين الذين لم تُكتَب لهم الشُّهرة، بأنَّ السَّيِّد واو ـ هاء ينبغي قراءته بالسَّيِّد واو ـ شين، والمقصود هنا طبعًا وليام شكسبير نفسه، وبأنَّ السَّيِّد واو ـ هاء ـ أُوْلْ ينبغي قراءته بالسَّيِّد واو ـ هوْلْ، وبأنَّ السَّيِّد واو ـ هاء يدلُّ على السَّيِّد وليام هاثاوويه[2]، وبأنَّ السَّيِّد واو ـ هاء خطأٌ مطبعيٌّ للسَّيِّد واو ـ شين، بما معناه أنَّ السَّيِّد واو ـ هاء هو الكاتب وليس المهدى إليه[3]، ـ فقد فنَّدها سيريل جميعًا في وقتٍ قصيرٍ جدًّا، وليس من المفيد هنا ذِكْرُ حججه، مع أنَّني أذكر أنَّه أثار فيَّ نوبةً من الضَّحك وهو يقرأ لي، يسعدني أن أقول ليس بلغتها الأصليَّة، مقتطفاتٍ كتبها باللُّغة الألمانيَّة شارحٌ ألمانيٌّ اسمه بارنستورف[4]، ويؤكِّد فيها أنَّ الإشارة إلى السَّيِّد واو ـ هاء إنَّما هي إشارةٌ إلى شخص السَّيِّد وليام شكسبير نفســه[5]، كما أنَّه لم يؤمن أبدًا، ولو

(1) (وِلْ) هو تصغيرٌ لـ (وليام). (المترجم).
(2) وليام هاثوويه هو أخو زوجة الشَّاعر. (المترجم).
(3) حقيقةً، هذه الآراء منتحلة، ليست لسيريل ولا لأوسكار وايلد، وقد قيلت وراجت في الكتابات النَّقديَّة في خمسينيَّات وستِّينيَّات القرن الثَّامن عشر خاصَّةً، من قبل نقَّادٍ مثل آندرو برايبا وصاموئيل نايل. (المترجم).
(4) حقيقةً هو النَّاقد الألمانيُّ دي. بامستورف؛ انظر الحاشية أدناه، وقد أخطأ أوسكار وايلد غالبًا في تهجئة الاسم. (المترجم).
(5) اقترح هذه الفكرة النَّاقد الألمانيُّ دي. بامستورف في كتابه (مفاتيح سونيتات شكسبير) المنشور باللُّغة الألمانيَّة سنة 1860، وأوسكار وايلد مدينٌ بمعرفته هذا الكتاب إلى الكاتب الإنجليزيِّ أدموند داودن الذي ألَّف كتابًا عن السُّونيتات أسماه (سونيتات

لهنيهةٍ واحدةٍ، بأنَّ السُّونيتات هي مجرَّد قصائد هجاء كتبها شكسبير للنَّيل من أعمال الشَّاعر درايتون[1] والشَّاعر جون ديفيز من مدينة هييرفورد[2]، بل كان يرى في هذه السُّونيتات، كما أرى أنا فيها، قصائد جادَّةً ومأساويَّةً اعتُصِرَتْ من المرارة في قلب شكسبير، وانسكبَتْ حلوةً من شهد شفتيه. ناهيك عن تصريحه بأنَّ القصائد لا تخلو من رمزيَّةٍ فلسفيَّةٍ يخاطب فيها شكسبير ذاته المثاليَّة، أو رجولته المثاليَّة، أو روح الجمال، أو العقل، أو الكلمة المقدَّسة، أو حتى الكنيسة الكاثوليكيَّة[3]. لقد شعر هذا الرَّجل، كما يجب علينا كلِّنا أن نعتقد، بأنَّ السُّونيتات كانت تخاطب فردًا بعينه، شابًّا يبدو أنَّ شخصيَّته، لسببٍ ما، قد ملأت كيان شكسبير وروحه بفرحٍ هائلٍ وبيأسٍ لا يقلُّ هولًا.

«وبعد أن أوضح لي سيريل نظرته بهذا الأسلوب، طلب منِّي أن أُقصي من ذهني كلَّ فكرةٍ مسبَّقةٍ كوَّنتُها حول هذا الموضوع وأن أنظر دون تحيُّز، وبصورةٍ عادلةٍ، إلى نظريَّته الخاصَّة، والمسألة لمجرَّد التَّذكير هي: مَن يكون هذا الشَّابُّ الذي عاش في زمن شكسبير وأهدى له هذا الأخير سونيتاته بأسلوبٍ عاطفيٍّ وصل إلى درجةٍ من العبادة الغريبة لا يسعنا إلَّا أن نتساءل عن سرِّها، مع أنَّه لم يكن من عائلةٍ نبيلةٍ،

شكسبير) استعرض فيه ما كُتب عن شكسبير حتى في اللُّغات المعاصرة، وظهر مطبوعًا في عام 1881. (المترجم).

(1) هو الشَّاعر مايكل درايتون (1563 ـ 1631). (المترجم).

(2) طرح هذا الرَّأي النَّاقد هنري براون في كتابه (الحلول في ما استغلقَ في سونيتات شكسبير) الذي طبع في عام 1870. (المترجم).

(3) أحيل القارئ المحترم إلى كتاب النَّاقد هنري براون الآنف الذِّكر لمتابعة كافَّة التَّفاصيل حول هذه الإشارات الواردة في المتن. (المترجم).

لا مولدًا ولا اكتسابًا، ونحن نخشى أن يُماط اللِّثام عن هويَّته ليكشف سرًّا من أسرار شكسبير العاطفيَّة والشَّخصيَّة؟ من يكون ذلك الذي أصبح جماله الجسديُّ حجرَ الزَّاوية في فنِّ شكسبير، ومصدرَ إلهامه، والتَّجسيدَ المطلقَ لأحلامـه؟ إنَّ النَّظر إلى ذلك الشَّابِّ على أنَّه ليس سوى موضوعٍ لبعض قصائد الحُبِّ إنَّما هو تفويتٌ للمغزى الكامل للسُّونيتات والقصائد الشِّكسبيريَّة، لأنَّ الفنَّ الذي يتحدَّث شكسبير عنه في السُّونيتات ليس فنَّ السُّونيتات نفسها، فهذا الفنُّ بالنِّسبة إليه لا يمثِّل إلَّا نزرًا يسيرًا من أسرارٍ أخرى - إنَّه فنُّ التَّمثيل المسرحيِّ الذي إليه يُلمح دائمًا، وذلك الذي يقول له شكسبير:

«إنَّكَ الفنُّ جميعه، تحثُّ بي خطاك

إلى عُلا المعرفة، حتى أتجاوز جهلي المطبق.»[1] -

وله، في سونيتةٍ أخرى[2]، يعطي وعدًا بالخلود:

«حيث تتنسَّم روحُكَ الحياة، كلَّما تفوَّهَتْ بها[3] أفواه البشر» -

ليس بالتَّأكيد سوى الممثِّل الصَّبيِّ الذي لأجله ابتدع شكسبير

---

(1) هذان البيتان هما خاتمة السُّونيتة رقم 78 وقد أخطأ وايلد في كتابة كلمة (أنت Thou) وكتبها (مع أنَّ Though) والكلمتان تلفظان بالطَّريقة نفسها في اللُّغة الإنجليزيَّة، لغة شكسبير، علمًا أنَّ وايلد لا يشير إلى مصدر القصيدة أو رقمها في قصَّته. (المترجم).

(2) هي السَّونيتة رقم 81. (المترجم).

(3) لا تعود (بها)، هنا، إلى (روحك) كما يُتصوَّر للوهلة الأولى، بل إلى القصيدة 81 التي يقرأها كلُّ البشر، فالقراءة عند شكسبير تعيد الحياة للحبيب الموجود في ثنايا الأبيات الشِّعريَّة وكأنَّ القصيدة هي النَّعش والقراءة هي الكلمة الخالقة التي من شأنها أن تعيد الأموات إلى الحياة حالما يقرأ القرَّاء القصيدة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهذا هو الخلود المرتبط بالشِّعر وبقراءاته عبر الاجيال. (المترجم).

شخصيَّاتٍ نسائيَّةٍ مثل فايولا وإيموجين وروزاليند وبورشيا وديزدمونا وكليوباترا نفسها. هذه هي نظريَّة سيريل غراهام التي استمدَّها، كما ترى، من السُّونيتات نفسها فحسب، غيرَ معتمدٍ في سبيل إثباتها على أيِّ دليلٍ ماديٍّ أو برهانٍ ملموسٍ، بل على نوعٍ من الحسِّ الفنِّيِّ والإلهام الرُّوحيِّ الذي به وحده، وفقَ زعمه، يمكن إدراك ما ترمي إليه السُّونيتات من معانٍ. أتذكَّر، هنا، قراءته لي تلك السُّونيتة [1] الجميلة:

«كيف لربَّة شِعري أن تحتار في اختيار موضوعٍ لقصائدي
وأنتَ حيٌّ تتنفَّس، تُلقي في القصيد
دفقًا من منطقٍ حلوٍ، من جَلالٍ
لا يُسطَّر على متن أوراقٍ مبتذَلات!
أوه! أمنحُك كلَّ العرفان، إن كان قليلي
في ناظرك يستحقُّ أيَّ ثناء،
ومَن ذلك الأبكم الأحمق الذي لا يكتب لك
وأنت أعطيتَ الإبداعَ نورَه؟
فلتكن أنت ربَّ الإلهام العاشر، وأفضل عشرَ مرَّاتٍ
من أولئك العجائز التِّسع ـ مُلهماتِ القوافي؛
ومَن يقصدك، فليسع جهده

(1) السُّونيتة 38، ولم يذكر أوسكار وايلد رقمها ولم يوردها كاملةً، والمعروف أنَّ عدد أبيات السُّونيتة 14 بيتًا، ولكنَّه أورد اثني عشر بيتًا، ولكنَّني آثرت ترجمتها كاملةً حفاظًا على تمام المعنى. (المترجم).

أن يكتب قصائد أبديَّةً تُعمِّر العمر المديد.

(ولو أنَّ ربَّة إلهامي تُدخل الرِّضا على هذا الزَّمن الغريب وأيَّامه،

فليكن نصيبك منه المديح، ونصيبي منه الألم)» -

وإشارتَهُ إلى مدى تأييدها التَّامِّ لنظريَّته؛ والحقيقة أنَّه راح يدرس ويتفحَّص السُّونيتات كلَّها بكلِّ عنايةٍ وتمعُّنٍ وبيَّن لي، أو تصوَّر أنَّه بيَّن لي، وفقًا لتفسيره الجديد الذي يقدِّمه، أنَّ كلَّ ما كان يبدو غامضًا أو أثيمًا أو مبالغًا فيه، أصبح واضحًا ومنطقيًّا وذا شأنٍ فنِّيٍّ رفيعٍ، موضِّحًا مفهوم شكسبير عن العلاقة الحقيقيَّة بين الفنِّ الذي يضطلع بتقديمه الممثِّل والفنِّ الذي يقدِّمه كاتب المسرحيَّة.

«من الواضح بالطَّبع أنَّه لا بدَّ أن يكون في فرقة شكسبير المسرحيَّة صبيٌّ فائق الجمال أقنعه شكسبير بأداء أدوار بطلاته النَّبيلات، إذ لا يخفى عن بال أحدٍ أنَّ شكسبير كان مديرًا مسرحيًّا عمليًّا وفي الوقت نفسه شاعرًا خصب الخيال، وأعتقد أنَّ سيريل غراهام قد اكتشف بالفعل اسم ذلك الممثِّل الصَّبيِّ. لقد كان (وِلْ) أو (وِللي هيوز)[1] كما يحلو لسيريل أن يدعوه، واسمه الأوَّل موجودٌ في إشارةٍ وردت في سونيتَتَين، السُّونيتة 135

(1) الإشارة إلى ويللي هيوز بصفته الاسم وراء استخدام شكسبير للحرفين (واو وهاء) في هذه القصَّة ليست من ابتداع أوسكار وايلد، كما أنَّ شخصيَّة سيريل غراهام ليست من بنات أفكاره، ولكنَّ الفكرة وردت في مقالٍ للنَّاقد الإنجليزيِّ توماس تيرويت الذي عاش في القرن الثَّامن عشر وقد سجَّلها الكاتب إدموند مالونه في كتابه (ملحقٌ لطبعة مسرحيَّات شكسبير) التي اضطلع بها كلٌّ من صاموئيل جونسون وجورج ستيفينز ونُشر الكتاب في عام 1780، ويبدو أنَّ أوسكار وايلد انتحل هذه الفكرة ونسبها إلى شخصيَّة سيريل إن لم يكن إلى نفسه. (المترجم).

والسُّونيتة 143، بينما الاسم الثَّاني، أو اللَّقب، فأخفاه شكسبير، وفقًا لنظريَّة سيريل، بطريقةٍ ذكيَّةٍ في ثنايا البيت الثَّامن[1] من السُّونيتة 20، حيث يصف الشَّاعرُ السَّيِّدَ واو ـ هاء بقوله:

«إنَّه في مظهره رجلٌ، والمظاهـر[2] كلُّها منقادةٌ إليه» ـ

«علمًا أنَّ المفردة (هيوز) قد طُبعت في الطَّبعة الأصليَّة للسُّونيتات بحرفٍ كبيرٍ ومائلٍ[3]، وهذا، على حدِّ زعمه، يُظهر بوضوحٍ أنَّ اللَّعب بالكلمات كان مقصودًا، وهو رأيٌ يتلقَّى دعمًا كبيرًا من تلك السُّونيتات التي تضمَّنت توريةً طريفةً للمفردتين (فائدة use) و(رِبا usury). وطبعًا وجدت نفسي مؤمنًا بوجهة نظر صديقي وصرت أتصوَّر ويللي هيوز إنسانًا حقيقيًّا من لحمٍ ودمٍ مثل شكسبير. كان الاعتراض الوحيد لي على نظريَّته هو أنَّ اسم ويللي هيوز لا يرد في قائمة أسماء الممثِّلين العاملين في فرقة شكسبير كما هي مطبوعةٌ في الورقة الأولى، وقد أجابني سيريل بأنَّ غياب اسم ويللي هيوز من تلك القائمة يثبت نظريَّته لا يفنِّدها، وكان واضحًا من السُّونيتة 136 أنَّ ويللي هيوز قد ترك العمل في فرقة شكسبير ليعمل في فرقةٍ

---

(1) الحقيقة أنَّه البيت السَّابع وليس الثَّامن، وقد التبس الأمر على أوسكار وايلد كما يبدو. (المترجم).

(2) تتوافق كلمة مظهر باللُّغة الإنجليزيَّة مع لفظ الاسم الثَّاني للفتى الجميل، عشيق شكسبير، وهو (هيوز Hughes) ولكنَّ مفردة «مظاهر» وردت في صيغة الجمع Hues (وتُلفَظ هيوز) والمفرد منها (مظهر: هيو Hue)، ولهذا فقد استثمر الشَّاعر هذا التَّشابه اللَّفظي ولعب عليه وأورده في قصيدته. (المترجم).

(3) أي هكذا: *Hews*، ففي القرن السَّادس عشر وما بعده كانت المفردات التي تتضمَّن (ue) تُكتَب (ew) واللَّفظ واحدٌ، وهذه حقيقةٌ يعرفها دارسو اللُّغة الإنجليزيَّة وتطوُّرها. (المترجم).

منافسةٍ اهتمَّت بتمثيل بعض مسرحيَّات تشامبان[1]، وقد أشار شكسبير إلى ذلك في سونيتته الرَّائعة عن تشامبان إذ يقول مخاطبًا ويللي هيوز:

«ولكن حين ملأت أساريرُكَ كلَّ أشعاره

افتقرتُ أنا إليها؛ وذاك ما أوهنني[2]»

وليس بخافٍ على أحدٍ أنَّ التَّعبير (حين ملأت أساريرُكَ كلَّ أشعاره) إنَّما يشير بكلِّ وضوحٍ إلى جمال الممثِّل الشَّابِّ الذي يسبغ الحياة والسِّحر ولمسة الواقع على شعر تشامبان، ويجد القارئ الفكرةَ نفسَها في السُّونيتة 79:

«بينما في وحدتي كنتُ أناديك لمساعدتي،

كان شعري وحده يحظى بكلِّ طلاوةِ نعمتك؛

أمَّا الآن، فقد تضعضعَتْ أبياتي الكريمة

وربُّ شِعري العليلُ مضى إلى دارٍ أخرى».

وفي السُّونيتة التي قبل السُّونيتة السَّابقة مباشرةً، يقول شكسبير:

«تجد كلَّ قلمٍ غريبٍ استغلَّني وحذا حذوي

وتحت كنفك ذاعَ شِعرهم وانتشر،»

إنَّ اللَّعب على كلمتَي use و Hughes واضحٌ بالطَّبع[3]، أمَّا البيت الذي

---

(1) جورج تشامبان (1559؟ ـ 1634)، وقد وردت تفاصيل الحكاية عن غياب ويللي هيوز وعمله في فرقةٍ أخرى في كتابٍ عنوانه (خصائص الشُّعراء الإنجليز من جوسر حتى شيرلي) من تأليف وليام مينتو ومنشورٍ في عام 1875، وقد وردت التَّفاصيل أيضًا في كتاب إدموند داودن (سونيتات شكسبير) الآنف الذِّكر. (المترجم).

(2) بيتان اختتم بهما شكسبير السُّونيتة 86؛ علماً أنَّ أوسكار وايلد لا يذكر رقم السُّونيتة ومن يقرأ السِّياق قد يتصوَّر أنَّه يقصد السُّونيتة 136. (المترجم).

(3) طبعًا التَّشابه اللَّفظيُّ لا يتَّضح في التَّرجمة العربيَّة، ولكن واضحٌ في اللُّغة الأمِّ أنَّ صوت الكلمة (يوز use) يشبه صوت الكلمة (هيوز Hughes). (المترجم).

يقول (وتحت كنفك ذاعَ شِعرهم وانتشر)، فالشَّاعر يقصد «أنَّه بفضل مساعدتك كممثِّلٍ جعلتَ مسرحيَّاتهم معروفةً للملأ».

«لقد كانت أمسيةً في غاية الرَّوعة، وجلسنا حتى الفجر نقرأ السُّونيتات ونعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا، وبعد مرور بعض الوقت، بدأتُ أرى أنَّ علينا، قبل أن نعلن النَّظريَّة بصورةٍ مثاليَّةٍ حقًّا على الملأ، أن نبحث عن دليلٍ مستقلٍّ يثبت الوجود الماديَّ لهذا الممثِّل الشَّابِّ ويللي هيوز. فإن كان من الممكن إثبات ذلك ولو مرَّةً واحدةً، فمن شأن ذلك أن يبدِّد كلَّ شكٍّ في علاقته بالسَّيِّد واو ـ هاء وإلَّا فإنَّ النَّظريَّة برمَّتها مصيرُها السُّقوط. وقد عرضتُ رأيي بقوَّةٍ على سيريل الذي أبدى انزعاجه الشَّديد ممَّا أسماه (النَّبرة الفليستينيَّة) للعقل الذي أحمله، وهذا ما جعله يشعر بالمرارة حيال الموضوع برمَّته. ومع ذلك، جعلته يعطيني وعدًا ـ وهذا لمصلحته الشَّخصيَّة ـ بألَّا ينشر هذا الاكتشاف إلَّا بعد أن يستوفي كلَّ شروط التَّوثيق واليقين بمَّا يبدِّد كلَّ الشُّكوك. ولأسابيع وأسابيع رحنا نبحث في سجلَّات كنائس المدينة وفي مخطوطات آلين[1] في مدينة دولويتش وفي دائرة التَّسجيل الرَّسميَّة[2] وحتى في أوراقٍ خاصَّةٍ تعود إلى اللُّورد تشامبرلين[3] نفسه. في الواقع، بحثنا في كلِّ شيءٍ اعتقدنا أنَّه قد يحتوي على بعض التَّلميحات إلى ويللي هيوز، ولكنَّنا لم نعثر على شيءٍ بالطَّبع، ومع كلِّ يومٍ

(1) يقصد بها مخطوطاتٍ تعود إلى إدوارد آلين أبرز ممثِّلٍ عاش في العصر الإليزابيثي، وهي مخطوطاتٌ لم تزل في حيازة كليَّة دولويتش التي أسَّسها آلين وبناها ورعاها. (المترجم).
(2) وتشمل تسجيل كلِّ العقود والمواثيق والكتب الرَّسميَّة والشَّخصيَّة وبيانات الولادة والوفاة والبيع والشِّراء والعقارات والأملاك... إلخ. (المترجم).
(3) لورد تشامبرلين كان المدير أو الرَّئيس المعينَّ من قبل الحكومة لدائرة الرِّقابة المفروضة على النُّصوص المسرحيَّة والعروض الفنيَّة. (المترجم).

يمرُّ كان يبدو لي أنَّ مسألة وجود ويللي هيوز الماديِّ تصبح أكثر إشكاليَّةً من ذي قبل، وهذا لم يرق لسيريل الذي ساءت حالته وتعكَّر مزاجه وصار يلحُّ يومًا بعد يومٍ على الموضوع ويناشدني أن أسلِّم له بصحَّة نظريَّته؛ ولكن كان لي مأخذٌ كبيرٌ على النَّظريَّة، ورفضتُ التَّسليم بصحَّتها حتى يظهر دليلٌ ماديٌّ لا يرقى إليه الشَّكُّ أو الاعتراض على وجود هذا المدعوِّ ويللي هيوز، الممثِّل الشَّابِّ أيَّامَ الملكة إليزابيث.

«وذات يومٍ غادرني سيريل متوجِّهًا إلى بيت جدِّه ليقيم معه، كما اعتقدت في ذلك الوقت، ولكنَّني فهمت فيما بعد، من اللُّورد كريدتون، أنَّ الأمر لم يكن كذلك؛ فبعد أسبوعين تقريبًا، استلمت برقيَّةً منه، وهو في فيووروِيك، يطلب منِّي بإلحاحٍ موافاته لتناول العشاء معه في تمام السَّاعة الثَّامنة من مساء ذلك اليوم، وحين وصلت، قال لي: «أتعلم أنَّ الحواريَّ الوحيد الذي لم يكن في حاجةٍ إلى برهانٍ من حواريِّي المسيح هو القدِّيس توما؟»؛ سألته ما الذي كان يقصده، فأجابني بأنَّه لم يستطع إقامة البرهان على الوجود الماديِّ للممثِّل الشَّابِّ الذي اسمه ويللي هيوز والذي عاش في القرن السَّادس عشر، فحسب، بل استطاع أن يصل إلى دليلٍ دامغٍ وقاطعٍ على شخصيَّة السَّيِّد واو ـ هاء. ولم يقل شيئًا آخر في ذلك الوقت؛ ولكن بعد العشاء، قام بكلِّ هيبةٍ ووقارٍ وأحضر لي لوحةً زيتيَّةً، تلك التي أريتها لك، وأخبرني قصَّة عثوره عليها، بالصُّدفة المحضة، مثبَّتةً بالمسامير على أحد جوانب صندوقٍ قديمٍ كان قد ابتاعه من أصحاب مزرعةٍ في قرية وارويكشاير. الصُّندوق نفسه كان تحفةً فنِّيَّةً على الطِّراز الإليزابيثيِّ، وقد جلبه معه بالطَّبع، ويمكن رؤية الحرفين واو وهاء محفورين في وسط اللَّوحة الأماميَّة للصُّندوق، وذلك ما جذب انتباهه إليه، ولبضعة أيَّامٍ لم

يهدأ له بالٌ حتى استطاع الحصول على الصُّندوق، وظلَّ عاكفًا يتفحَّصه ويستقصي ما بداخله. وذات صباحٍ، لاحظ أنَّ أحد جوانب الصُّندوق أكثر سُمكًا من الجوانب الأخرى، وحين أمعن النَّظر، اكتشف أنَّ هذه اللَّوحة المؤطَّرة كانت مثبَّتةً عليه، وعند انتزاعها وجد أنَّها الصُّورة التي ترقد الآن على الأريكة. كانت متَّسخةً للغاية ومغطَّاةً بالعفن، ولكنَّه تمكَّن من تنظيفها، ويا لفرحته حين رأى أنَّه وقع مصادفةً على الشَّيء الوحيد الذي كان يبحث عنه. إنَّها صورةٌ حقيقيَّةٌ للسَّيِّد واو ـ هاء وقد وضع يده على الصَّفحة الأولى من كتاب السُّونيتات لشكسبير، ويمكن ملاحظة اسم الفتى مكتوبًا بحروفٍ سوداء على خلفيَّةٍ مذهَّبةٍ باهتةٍ، «السَّيِّد وِلْ هيوز». حسنًا، ماذا تتوقَّع أن أقول له؟ لم يخطر ببالي أبدًا، ولو للحظةٍ، أن يُـقدِم سيريل غراهام على خداعي محاولًا إثبات نظريَّته عن طريق التَّزوير».

ـ «ولكن هل هي تزوير؟»، سألتُه.

ـ «بل هي التَّزوير بعينه» قال إرسكين، «إنَّه تزويرٌ بارعٌ للغاية، ولكنَّه يبقى مجرَّد تزوير. اعتقدتُ في ذلك الوقت أنَّ سيريل كان هادئًا إلى حدٍّ ما حيال الأمر برمَّته، ولكن أتذكَّر أنَّه أخبرني أكثر من مرَّةٍ أنَّه لم يكن في حاجةٍ إلى أيِّ دليلٍ من هذا النَّوع، وأنَّ نظريَّته كاملةٌ من دونه. ضحكتُ منه، وقلت له إنَّ النَّظريَّة ستسقط ولن تصمد من دون دليلٍ مادِّيٍّ يدعمها، ولكن في الوقت نفسه، هنَّأته على هذا الاكتشاف الرَّائع وقلت له إنَّه لا بدَّ من استنساخ الصُّورة بالطَّريقة المعهودة في طباعة الكتب لكي نضعها على الصَّفحة الأولى من طبعته من سونيتات شكسبير؛ ولمدَّة ثلاثة أشهرٍ لم نفعل شيئًا سوى مراجعة كلِّ قصيدةٍ، بيتًا بيتًا وسطرًا سطرًا، حتى حسمنا كلَّ ما استغلق أو عصي على الفهم في النَّصِّ أو المعنى. ولكن حدث

أمرٌ جديدٌ، ففي أحد الأيَّام، وبينما كنت في مطبعةٍ في مدينة هولبورن، رأيت على المنضدة مجموعـةً من رسوماتٍ في غاية الإتقان والجمال منفَّذةٍ بأقلام النِّقاط الفضِّيَّة، فانجذبت إليها لدرجة أنَّني اشتريتها؛ وقد أخبرني صاحب المطبعة، واسمه رولينجز، أنَّ هذه الرُّسومات من عمل رسَّامٍ شابٍّ ذكيٍّ جدًّا، اسمه إدوارد ميرتون، ولكنَّه فقيرٌ كفأر الكنيسة. وذهبتُ لرؤية ميرتون بعد بضعة أيَّامٍ، بعد أن حصلت على عنوانه من صاحب المطبعة، ووجدته شابًّا شاحبًا ولطيفًا وبصحبته زوجته، وهي فتاةٌ عاديَّة المظهر تشتغل كموديلٍ له كما عرفتُ لاحقًا. أخبرته كم أعجبتني رسوماته، فسـرَّه كلامي سرورًا بالغًا، وطلبت منه أن يُـريني بعضًا من أعماله الأخرى. وبينما كنَّا نبحث في مخزنه المليء برسوماتٍ جميلةٍ حقًّا ـ لأنَّ ميرتون كان يمتلك لمسةً في غاية الرَّهافة والطَّلاوة ـ استرعى انتباهي فجأةً رسمٌ لصورة السَّيِّد واو ـ هاء. لم يكن هناك أدنى شكٍّ في ذلك. كانت صورةً طبق الأصل لتلك التي أرانيها سيريل، مع فارقٍ بسيطٍ، أنَّ قناعَي الملهاة والمأساة لم يكونا معلَّقَين بقاعدة التِّمثال الرُّخاميَّة، كما في الصُّورة، ولكنَّهما كانا مرميَّين على الأرض عند قدمَي الشَّابِّ، فقلت له: «من أين حصلت على هذه الصُّورة بحقِّ السَّماء؟»، فارتبك وأجابني: «أوه، إنَّها لا شيء. لم أكن أعلم أنَّها موجودةٌ في هذا المخزن. إنَّها ليست بذات قيمةٍ فنيَّةٍ». ولكنَّ زوجته هتفت: «أليست هي الصُّورة التي رسمتَها للسَّيِّد سيريل غراهام؟ إن أراد هذا الرَّجل أن يشتريها، فليحصل عليها.»

«للسَّيِّد سيريل غراهام؟» كرَّرتُ. «هل رسمتَ صورة السَّيِّد واو ـ هاء للسَّيِّد سيريل غراهام؟»

«لا أفهم ما تعنيه،» قال ذلك وقد تضرَّج وجهه خجلًا. كان الموقف

برمَّته لا يُحتمَل بالنِّسبة إليه، ولكنَّ زوجته حسمت الأمرَ وأعطتني الصُّورة، وأعطيتُها أنا خمسة باونات وأنا أغادر منزلهما. لا أحتمل التَّفكير في الأمر الآن؛ ولكن في ذلك الوقت كنت أتميَّز من الغضب. ذهبتُ على الفور إلى منزل سيريل، وانتظرت لمدَّة ثلاث ساعاتٍ قبل أن يأتي ويحدِّق في وجهي بتلك الكذبة المروِّعة، وأخبرته أنَّني اكتشفت التَّزوير الذي قام به، فشحب لونه وقال: «لقد فعلتُ ما فعلتُ من أجل خاطركَ فحسب! لأنَّك ما كنتَ لتقتنع إلَّا بهذه الطَّريقة! ومع ذلك فإنَّ هذا لن يؤثِّر في صحَّة نظريَّتي».

«صحَّة نظريَّتك!»، صحتُ، «من الأفضل ألَّا نتكلَّم في الموضوع البتَّة! أنت نفسك لم تؤمن أبدًا بصحَّتها، وإلَّا ما كنتَ ارتكبتَ هذا التَّزوير لإثبات ذلك.» وتعالت أصواتنا وأسمعته كلامًا خشنًا وأسمعني مثل ذلك، وتشاجرنا شجارًا رهيبًا، وأجرؤ على القول إنَّني لم أكن عادلًا معه، ففي صباح اليوم التَّالي عُثِر عليه ميِّتًا».

- «ميِّتًا؟» صحتُ بأعلى صوتي.

- «نعم، لقد أطلق النَّار على نفسه من مسدَّسه. بعض الدِّماء تناثرت على إطار الصُّورة، وبالتَّحديد حيث رُسم الاسم. وفي الوقت الذي وصلتُ فيه، بعد أن أخبرني خادمه بذلك، كانت الشُّرطة قد وصلت قبلي، وقيل لي إنَّه ترك لي رسالةً مقتضبةً من الواضح أنَّها كُتِبَتْ بأكبر قدرٍ من الاضطراب والاكتئاب الذِّهني».

- «وماذا كان في الرِّسالة؟»، سألتُه.

- «أوه، أنَّه يؤمن إيمانًا مطلقًا بوجود ويللي هيوز وأنَّ تزويره الصُّورة كان ببساطةٍ تنازلًا لي، وأنَّ ذلك التَّزوير لم يُبطل صحَّة النَّظريَّة أبدًا، وأنَّه

من أجل إظهار مدى رسوخ إيمانه بالنَّظريَّة كلِّها كان مستعدًّا أن يهب حياته في سبيل سرِّ السُّونيتات. لقد كانت رسالةً حمقاء ومجنونةً، وأتذكَّر أنَّه أنهاها بالقول إنَّه سيوكِل قضيَّة ويللي هيوز لي لأعرضها على العالم بأسره وأكشف عن سرِّ قلب شكسبير».

ـ «يا لها من قصَّةٍ مأساويَّة!» صحت بصوتٍ عالٍ، «ولكن لماذا لم تنفِّذ رغبته إلى الآن؟»

هزَّ إرسكين كتفيه، وأجابني: «لأنَّ نظريَّته غير سليمةٍ تمامًا من البداية إلى النِّهاية».

ـ «يا عزيزي إرسكين،» قلت وأنا أنهض عن الكرسيِّ الذي كنت جالسًا عليه، «إنَّك مخطئٌ تمامًا بشأن القضيَّة برمَّتها. إنَّها المفتاح المثاليُّ الوحيدُ لسونيتات شكسبير، المفتاحُ المثاليُّ الوحيد الذي تمَّ صوغُه إلى الآن. إنَّها كاملةٌ في كلِّ التَّفاصيل. أنا شخصيًّا أؤمن بوجود ويللي هيوز».

ـ «لا تقل ذلك،» قال إرسكين، «فأنا أعتقد بوجود شيءٍ خطيرٍ في هذه النَّظريَّة، ناهيك عن أنَّه لا يمكن الدِّفاع عنها من النَّاحية الفكريَّة والمنطقيَّة. لقد تناولتُ المسألةَ برمَّتها، وأؤكِّد لك أنَّها مليئةٌ بالمغالطات. إنَّها جديرةٌ ظاهريًّا بالتَّصديق في بعض مفاصلها، ولكنَّ ذلك يتوقَّف عند حدٍّ معيَّنٍ. بحقِّ السَّماء، يا صديقي العزيز، لا تحمل قضيَّة ويللي هيوز على محمل الجدِّ، لأنَّك سوف تحطِّم قلبك من أجلها».

ـ «إرسكين، يا إرسكين،» أجبته، «أعتقد أنَّ من واجبك الآن أن تعلن هذه النَّظريَّة على الملأ، وإن كنت مصرًّا على ألَّا تفعل ذلك، فسأفعله أنا. إنَّك تخطئ في حقِّ سيريل غراهام، أصغر شهداء الأدب وأروعهم، وفي

حقِّ ذكراه، بإحجامك عن ذلك. ولهذا أناشدك بأن تكون عادلًا معه. لقد مات في سبيل هذا الشَّيء، فلا تدع موته يذهب سُدَىً».

نظر إرسكين إليَّ في ذهولٍ، ثمَّ قال: «إنَّك تنجرف عاطفيًّا مع القصَّة. تنسى أنَّ شيئًا ما لا يكون صحيحًا بالضَّرورة لمجرَّد أنَّ شخصًا ما دفع حياته من أجله. لقد كنتُ مخلصًا لسيريل غراهام. وكان موته بهذه الطَّريقة ضربةً قاصمةً لي. ضربةً لم أُشفَ منها لسنوات. ولا أعتقد أنَّني شُفيت منها بعد. ولكن بالنِّسبة إلى ويللي هيوز! أعتقد أنَّه لا وجود لأحدٍ يحمل هذا الاسم، لا وجود لمثل هذا الشَّخص على الإطلاق. أمَّا إن شئتَ أن تعرض القضيَّة أمام العالم برمَّته، فاعلم أنَّ العالم يعتقد أنَّ سيريل غراهام أطلق النَّار على نفسه عن طريق الخطأ، والدَّليل الوحيد على انتحاره هو ما جاء في الرِّسالة التي وجَّهها إليَّ، وعن هذه الرِّسالة لم يسمع الجمهور شيئًا، وحتى يومنا هذا يعتقد اللُّورد كريدتون أنَّ موت سيريل كان حادثًا عَرَضيًّا».

ـ «ولكنَّ سيريل غراهام ضحَّى بحياته في سبيل فكرةٍ عظيمةٍ،» رددتُ عليه، «وإن كنتَ لا تودُّ أن تحدِّث النَّاس عن استشهاده، فلتحدِّثهم على الأقلِّ عن إيمانه».

ـ «لقد كان إيمانه منصبًّا على شيءٍ زائفٍ،» قال إرسكين، «على شيءٍ غير صحيحٍ، شيءٍ لن يقبله أيُّ دارسٍ من دارسي شكسبير البتَّة. ستكون النَّظريَّة موضع سخريَّةٍ، فلا تكن أحمق مثله وتسلك طريقًا لا يؤدِّي إلى شيء. إنَّك تبدأ بافتراض وجود شخصٍ هو الشَّخص نفسه الذي تسعى لإثبات وجوده. ثمَّ إنَّ الجميع يعلم أنَّ السُّونيتات كانت موجَّهةً إلى اللُّورد بامبروك، والقضيَّة حُلَّتْ تمامًا وباتت من المسلَّمات».

ـ «لا، القضيَّة لم تُحَل!» صحتُ به، «سوف أتبنَّى نظريَّة سيريل وأحاول إكمال المسيرة من حيث هو انتهى، وسوف أعمل جاهدًا لأثبت لكلِّ العالم أنَّه كان على صواب».

ـ «فتىً أحمق!» قال إرسكين، «خيرٌ لك أن تذهب إلى منزلك: فالسَّاعة تجاوزت الثَّانية، وأنصحك بألَّا تفكِّر في ويللي هيوز بعد الآن. وإنِّي لآسَفُ لكلِّ كلمةٍ أخبرتك بها عن هذا الأمر، وآسَفُ أكثر لأنَّني هديتك إلى أمرٍ أنا نفسي لا أؤمن به».

ـ «لقد أعطيتني المفتاح لأعظم سرٍّ من أسرار الأدب الحديث،» أجبته، «ولن يهدأ لي بالٌ حتى أجعلك تعترف، وأجعل العالم كلَّه يعترف، بأنَّ سيريل غراهام كان أبرع ناقدٍ شكسبيريٍّ في عصرنا».

وبينما كنت أسير إلى المنزل عبْرَ متنزَّه سانت جيمس، كانت طلائع الفجر تبدأ بالظُّهور في سماء لندن، ولكنَّ طيور التَّمِّ البيضاء كانت ما تزال نائمةً على سطح البحيرة المصقولة، وقد تلألأ القصر [1] الهزيل بلونٍ قرمزيٍّ مقابلَ سماءٍ شاحبة. فكَّرتُ بسيريل غراهام، وترقرقت عيناي بالدُّموع.

II

كانت السَّاعة الثَّانية عشرة ظهرًا عندما استيقظت، وكانت الشَّمس تتدفَّق عبر ستائر غرفتي في أشعَّةٍ مائلةٍ وطويلةٍ من الغبار الذَّهبيِّ. طلبت من خادمي ألَّا يسمح لأحدٍ، كائنًا من كان، بمضايقتي في المنزل. وبعد أن تناولت كوبًا من الشُّكولاتة وقرصًا صغيرًا من الخبز، تناولتُ عن رفِّ

---

(1) ربَّما كان يقصد قصر باكنغهام ولو أنَّ الوصف ينطبق أيضًا على قصر سانت جيمس. (المترجم).

مكتبتي نسختي من سونيتات شكسبير، وبدأت أخوض فيها بعناية. وأنا أقرأ، بدا لي أنَّ كلَّ قصيدةٍ إنَّما تؤكِّد نظريَّة سيريل غراهام. شعرت كما لو أنَّني أضع يدي على قلب شكسبير وأحصي كلَّ خفقةٍ منفصلةٍ وكلَّ نبضةٍ عاطفةٍ فيه. فكَّرتُ بالممثِّل الشَّابِّ الرَّائع، ورأيت وجهه في كلِّ سطرٍ أقرؤه.

أتذكَّر أنَّ اثنتين من السُّونيتات لفتتا انتباهي بشكلٍ خاصٍّ: السُّونيتة 53 والسُّونيتة 67، ففي السُّونيتة الأولى، يهنِّئ شكسبير ويللي هيوز على موهبته المتعدِّدةِ الجوانبِ في التَّمثيل وعلى النِّطاق الواسع للأدوار التي يجيدها، نطاقٍ يمتدُّ من روزاليند إلى جوليت، ومن بياتريس إلى أوفيليا، ويقول له فيها: ـ

«ما معدنك أنت، ومن أيِّ شيءٍ جُبِلت،

حتى تهفو ملايين الأخيلة الغريبة إليك؟

فكلُّ واحدٍ، كلُّ واحدٍ، له خيالٌ وحيدٌ،

وأنتَ، أنتَ وحدك، واهبُ جميع الأخيلة» ـ

أبياتًا ستكون غير مفهومةٍ إن لم تكن موجَّهةً إلى ممثِّلٍ، لأنَّ كلمة «خيال» في زمن شكسبير كان لها معنىً فنِّيٌّ مرتبطٌ بالمسرح، وقد وردت المفردة في نصِّ مسرحيَّة «حلم منتصف ليلة صيف»، حيث يخاطب ثيسيوس فرقة الممثِّلين قائلًا: (إنَّ أفضل الممثِّلين مَن كان مجرَّد خيال)، وطبعًا هناك الكثير من الإشارات المشابهة في أدب اليوم. ومن الواضح أنَّ هذه السُّونيتات تنتمي إلى السِّلسلة التي يناقش فيها شكسبير طبيعة فنِّ الممثِّل وطبيعة مزاجه الغريب والاستثنائيِّ الذي لا بدَّ من توفُّره في شخص الممثِّل المسرحيِّ المثاليِّ. يقول شكسبير لويللي هيوز: «كيف

يكون لك الكثير من الشَّخصيَّات؟»، ثمَّ يذهب إلى الإشارة إلى أنَّ جمال الفتى من الرَّوعة بحيث أنَّه يلائم كلَّ شطحات الخيال، ويستوعب حلم كلِّ خيالٍ إبداعيٍّ، وهي فكرةٌ يتوسَّع فيها أكثر في السُّونيتة اللَّاحقة، حيث، بعد استهلالها بخاطرةٍ راقيةٍ تقول: ـ

«آهٍ، كم يزداد ذلك الجمال جمالًا

بهذه الحلية الرَّائعة التي يُسبغها عليه الصِّدق» ـ

يدعونا شكسبير إلى ملاحظة كيف أنَّ الصِّدق في التَّمثيل، الصِّدق في الأداء المسرحيِّ، يضفي روعةً ما بعدها روعةٌ إلى صياغة العبارة الشِّعريَّة، ويسبغ حياةً على جمال صوره وواقعيَّةً على طبيعته الخياليَّة. ولكن مع ذلك، في السُّونيتة 67، نجد شكسبير يناشد ويللي هيوز أن يترك المسرح بما فيه من تكلُّفٍ وحياةٍ قائمةٍ على المحاكاة الزَّائفة والأزياء غير الواقعيَّة والوجوه الملطَّخة بالماكياج وتأثيراتٍ وإيحاءاتٍ لاأخلاقيَّة وبُعدٍ عن كلِّ عملٍ نبيلٍ وقولٍ صادق في العالم الحقيقي.

«لماذا عليه أن يعيشَ مع هذا العفن

ويزيِّنَ بوجوده الفسوق،

فتجدُ كلُّ مفسدةٍ فيه مبتغاها

وتربط نفسها بعالمه؟

لِمَ يسمح للأصباغ الكاذبة بأن تحاكي خدَّيه

وتسرق من وجهه النَّابض بالحياة مظاهر لا حياة فيها؟

لماذا يجب على الجَمال المسكين أن يبحث

عن ورود الخيال، بينما وردته حقيقيَّة؟»

قد يبدو غريبًا من كاتبٍ مسرحيٍّ كبيرٍ مثل شكسبير، كاتبٍ حقَّق كماله الخاصَّ كفنَّانٍ وشعبيَّته كإنسانٍ، في مجال الكتابة الإبداعيَّة للمسرح على وجه التَّحديد، أن يكتب هذه الأبيات ضدَّ المسرح، ولكن يجب أن نتذكَّر أنَّه في سونيتاتٍ أخرى، مثل السُّونيتة 110 والسُّونيتة 111، يُظهر لنا أنَّه هو أيضًا كان متعبًا من عالم الدُّمى، بل ومليئًا بمشاعر الخزي من جعل نفسه مجرَّد «خليطٍ معروضٍ للفُرجة!»، والسُّونيتة 111 تعبِّر بشكلٍ خاصٍّ عن هذه المرارة:

«آهٍ، لو أنَّك تلومُ ـ حُبًّا بي ـ ربَّةَ الحظِّ
عن كلِّ أذىً اقترفتُه بيديَّ وكان برعايتها، هي الأفَّاكة
التي لم تهبني في حياتي حسنةً واحدةً
سوى المبتذل من الوسائل والمبتذل من الأخلاق.
وهكذا لحقت باسمي وصمة عارٍ
وانقادت فطرتي طيِّعةً، بسبب ذلك،
إلى ما اعتادت أن تؤدِّيه، تمامًا مثل يد الصَّبَّاغ:
أشفِقْ عليَّ إذنْ، وتمنَّ لي حياةً جديدة؛»[1]

---

(1) ارتأيت أن أقدِّم ترجمةً كاملةً لهذه السُّونيتة لتوضيح ما يريده الكاتب وفيما يلي تتمَّتها من ترجمتي:
وحتى ذلك الحين، سوف أتجرَّعُ، كأيِّ سقيم متشبِّثٍ بالشِّفاء،
جرعات الحوامض، علَّها تقضي على علَّتي العضال؛
فلا مرارةً أشقُّ عليَّ من مرارة التَّفكير

وهناك الكثير من الإشارات المبثوثة في أبياتٍ متفرِّقةٍ من السُّونيتات تفصح عن الشُّعور نفسه، إشاراتٍ يكاد يعرفها جميع عشَّاق شكسبير الحقيقيِّين من طلَّابٍ ودارسين.

نقطةٌ واحدةٌ ظلَّت لغزًا محيِّرًا لي وأنا أقرأ السُّونيتات، ومرَّت أيَّامٌ قبل أن أعثر على تفسيرٍ حقيقيٍّ لها، تفسيرٍ لم يخطر في بال سيريل غراهام نفسه. لم أستطع أن أفهم الأسباب الكامنة وراء تعليق شكسبير أهمِّيَّةً كبيرةً على زواج صديقه الشَّابِّ. فهو نفسه تزوَّج شابًّا، وكانت النَّتيجة حياةً زوجيَّةً تعيسةً، ولهذا رأيت أنَّه من غير المنطقيِّ أن يطلب من ويللي هيوز ارتكاب الخطأ نفسه، إذْ لم يكن هناك ما يمكن للممثِّل الشَّابِّ، لاعبِ دورِ روزاليند، أن يجنيه من الزَّواج أو من عواطف الحياة الواقعيَّة. بدت لي السُّونيتات المبكِّرة، بمناشداتها الغريبة لإنجاب الأطفال، أمرًا متنافرًا وصادمًا. خطر لي تفسير هذا اللُّغز فجأةً، وقد عثرتُ عليه في الإهداء الغريب الذي يتصدَّر ديوان السُّونيتات والذي جاء فيه:

إلى المُنْجِب الأوحد للسُّونيتات التَّالية

السَّيِّد واو ـ هاء

السَّعادةُ الكاملةُ

والأبديَّةُ التي بشَّرنا بها

شاعرنا الخالد

ولن يجدي التَّكفير فوق التَّكفير لبلوغ مطلق الصَّواب.
إذن، أشفِقْ عليَّ، يا صديقي العزيز، فأنا على يقينٍ
من أنَّ إشفاقك عليَّ كفيلٌ بشفائي.

مع أطيب التَّمنِّيات

للمغامر الذي يبغي الخير

من نشرها.

ت.ث.

افترض بعض الدَّارسين أنَّ كلمة «مُنجِب» التي تتصدَّر الإهداء إنَّما تعني ببساطةٍ الوسيط الذي حمل السُّونيتات إلى النَّاشر توماس ثورب؛ ولكنَّ هذا الرأي بات مهجورًا بشكلٍ عامٍّ اليوم، لأنَّ السُّلطات بأعلى مراجعها اتَّفقت على أنَّ المقصود هو المُلهِم، وهي استعارةٌ مستمدَّةٌ من القياس على الحياة المادِّيَّة اليوميَّة. ثمَّ رأيتُ أنَّ الاستعارة نفسها استخدمها شكسبير في الكثير من قصائده بشكلٍ متكرِّرٍ، فوضعني هذا على الطَّريق الصحيح. وأخيرًا، اكتشفتُ أعظم اكتشافٍ في حياتي. الزَّواج الذي يقترحه شكسبير على ويللي هيوز هو الزَّواج بشِعر الشَّاعر، وهو تعبيرٌ استخدمه شكسبير في مستهلِّ السُّونيتة 82، حيث، وهو في قمَّة شعوره باللَّوعة والمرارة بسبب انشقاق الممثِّل الشَّابِّ الذي كتب له أعظم أدواره، والتي كان جماله في الواقع ما ألهمه كتابتَها، يستهلُّ شكواه بقوله:

«أقـرُّ أنَّك ما عقدتَ قرانكَ على شِعري» -

وعلى هذا فإنَّ الأطفال الذين يطالبه بإنجابهم ليسوا أطفالًا من لحمٍ ودمٍ، ولكنَّهم أطفالٌ أكثر خلودًا وصيتهم لا يموت. وهكذا فإنَّ الحلقة الكاملة للسُّوناتات المبكِّرة تدور ببساطةٍ حول دعوةٍ يوجهِّها شكسبير إلى ويللي هيوز لاعتلاء خشبة المسرح والتَّمثيل. كم هو عقيمٌ وبلا فائدةٌ، يقولُ له، جمالُكَ هذا إن هو لم يُستثمَر:

«عندما تحاصر جبينك جحافل أربعين شتاءً
وتحفر خنادقَ عميقةً في مـروجِ جمالكَ،
وحلّةُ الشَّباب التي تتراءى الآنَ بها متباهيًا،
تغدو حطامَ زرعٍ، ليس له قيمةٌ،
عندئذٍ بِـمَ تجيب إن سُئلتَ أين طمرتَ شبابكَ،
وأين راحت كنوز أيّامك الشَّبِقات؟
ستجيبني عندئذٍ بعينيك الغائرتين
أنَّها راحت تارةً في حياءٍ يأكل نفسه وتارةً في إطراءٍ رخيص»[1]

عليك، إذن، أن تخلق شيئًا من خلال الفنِّ، هكذا يقول: إنَّ شعري «لك وحدك ومولودٌ منك»، أصغِ إليَّ فحسب، وسوف أكتب «قصائد أبديَّةً تعمِّر العمر المديد»[2]، بينما ستملأ أنتَ عالم الخيال الذي يرتكز عليه المسرح بأدوارك وبكلِّ الشُّخوص التي تريدها. هؤلاء الأطفال الذين سوف تنجبهم، يستمرُّ الشَّاعر في قوله، هم أطفالٌ استثنائيُّون، لن يذبلوا أبدًا، كما هو شأن الأطفال الفانين، بل سوف تعيش إلى الأبد فيهم وفي مسرحيَّاتي أنا: ولهذا أريدك

«أن تنجب لذاتك طفلًا آخر، من أجل حبِّك لي،
كي يحيا جمالك في شخصه وفي شخصك أيضًا.»[3]

(1) الأبيات من السُّونيتة الثَّانية. (المترجم).
(2) البيت 12 من السُّونيتة 38 التي مرَّ ذكرها آنفاً. (المترجم).
(3) البيتان الأخيران من السُّونيتة 10. (المترجم).

وجمعتُ جميع المقاطع التي بدا لي أنَّها تؤكِّد وجهة نظري هذه، وخلَّفَتْ انطباعًا قويًّا لديَّ، وأظهرت لي مدى اكتمال نظريَّة سيريل غراهام. لاحظتُ أيضًا أنَّه كان من السَّهل جدًّا فصلُ تلك الأبيات التي يتحدَّث فيها شكسبير عن السُّونيتات نفسها عن تلك التي يتحدَّث فيها عن فنِّه الدِّراميِّ العظيم. إنَّها النُّقطة التي تمَّ تجاهلها بالكامل من قِبَل جميع النُّقَّاد حتى زمن سيريل غراهام. ولعلَّها أهمُّ نقطةٍ في المجموعة الشِّعريَّة برمَّتها. بالنِّسبة إلى السُّونيتات كان شكسبير غير مبالٍ إلى حدٍّ ما، ولم يكن يرغب في بناء شهرته عليها، لأنَّها كانت في نظره مجرَّد «شعرٍ خفيفٍ»[1]، كما يسمِّيها، وكان في نيَّته، كما يخبرنا السَّيِّد ميريز، أن تبقى محصورةً في دائرةٍ ضيِّقةٍ وخاصَّةٍ بين الخلَّص من الأصدقاء، أمَّا بالنِّسبة إلى الشِّقِّ الثَّاني، فقد كان مدركًا تمامَ الإدراك للقيمة الفنِّيَّة العالية لأعماله المسرحيَّة، بل وكان يفتخر بعصاميَّته في تكوين عبقريَّته الدِّراميَّة، وهذا ما يصرِّح به لويللي هيوز في السُّونيتة[2] التَّالية:

«ولكنَّ أيَّام صيفك الأبديَّة لن تأفل أبدًا
ولن تفقد قنوتَها ممَّا لديك من جمال،
ولن يستطيع الموت نفسه أن يأخذك في ظلِّه
وأنت تكبر مع الزَّمن في تلك الأبيات الخالدة.
فما دام للبشر أنفاسٌ تتردَّد وعيونٌ تُبصِر
ستبقى هذه الأبيات حيَّةً، وستنفخ فيك الحياة.» ـ

(1) راجع السُّونيتة 38. (المترجم).
(2) هي السُّونيتة الشَّهيرة رقم 18 التي مطلعها: (هل أقارنك ببهاء يوم صيفٍ؟) مع التَّنويه بأنَّ صيف إنجلترا جميلٌ ولطيفٌ وقصير الأمد. (المترجم).

ويشير تعبير «الأبيات الخالدة» بكلِّ وضوحٍ إلى أبياتٍ وردت في مسرحيَّةٍ له كان يرسلها إليه في ذلك الوقت، تمامًا كما يشير المقطع الختاميُّ إلى ثقته في أرجحيَّة أن تؤدَّى نصوصه المسرحيَّة دائمًا على المسرح. وفي معرض خطابه المباشر لربَّة الشِّعر الدِّراميِّ، في السُّونيتة 100 والسُّونيتة 101، نجد المعنى نفسه:

«أين أنت يا ربَّة الشِّعر، يا من طال نسيانك
حتى نسيتِ الحديث عن ذاك الذي منحك كلَّ قدرتك؟
أهكذا تبدِّدينَ إلهامكِ على أغنيةٍ تافهةٍ،
وتطفئين قوَّتكِ لتسلِّطي النُّور على أمورٍ لا قيمة لها؟»[1]

وهكذا يظلُّ الشَّاعر ينتحب، ثمَّ يشرع في صبِّ اللَّوم على سيِّدة المأساة والملهاة لإهمالها فضح (الحقيقة المزيَّفة المتلبِّسة بلبوس الجمال) فيقول في السُّونيتة[2] التَّالية:

«ألأنَّه لا يحتاج إلى مدحِ مادحٍ، تقفين خرساء لا تنبسين بكلمة؟
لن أجد مبرِّرًا لصمتكِ، لأنَّ الاتِّكالَ عليكِ
في جعله يحيا أبعدَ من حدود القبور المذهَّبة،
ويبقى مديح المدَّاحين في قادم العصور.
قومي بواجبك، يا ربَّة الشَّعر، لأنَّني سأعلِّمكِ
كيف تجعلينه خالدًا كما هو في عيون البشر الآن».

(1) الأبيات الأربعة الأولى من السُّونيتة 100. (المترجم).
(2) الأبيات السِّتَّة الأخيرة من السُّونيتة 101. (المترجم).

ويبدو أنَّ شكسبير أولى هذه الفكرة اهتمامًا بالغاً، فنجده يعطيها تعبيرها الأتمَّ والأوضح في السُّونيتة 55. فأن نتصوَّر أنَّ قوله «القصيدُ الجزلُ» في البيت الثَّاني إنَّما يشير إلى السُّونيتة نفسها، هو أن نخطئ تمامًا ما أراد شكسبير قوله. لقد بدا لي أمرًا مرجَّحًا للغاية، بمواجهة المعنى العامّ للسُّونيتة، أنَّ شكسبير كان يقصد مسرحيَّةً بعينها، وأنَّ تلك المسرحيَّة لم تكن سوى روميو وجولييت.

«لا التَّماثيل المرمرُ، ولا تلك المذهَّبة
التي للأمراء، ستبقى إلى الأبد مثلما سيبقى هذا القصيدُ الجزلُ؛
بل إنَّك ستشعُّ بين هذه السُّطور
أكثر ممَّا ستشعُّ في تلك الحجارة المهجورة التي سيلطِّخها الزَّمن اللَّئيم.
وحين تندلع حروبٌ مدمِّرةٌ وتحطِّمُ التَّماثيل
وتدكُّ المعاركُ مبانيَ وصوامعَ،
لا الإله مارس ولا سيفه ولا نيران الحرب اللَّاهبة
يمكن أن يحرقوا سجلَّ ذكراك الباقي بيننا.
ضدَّ الموتِ وعدوانيَّةِ النِّسيان
سوف يمتدُّ ذكرُكَ، وسيبقى لمديحك مكانٌ
في عيون كلِّ الأجيال القادمة
الباقية في هذه الدُّنيا حتى فناء العالم.
هكذا، إلى أن تُبعثَ في يوم القيامة،

ستبقى تحيا في هذه الأشعار، وتسكن في عيون العشّاق».

وكان موحيًا للغاية أيضًا ملاحظةُ كيف أنَّ شكسبير، في هذه السُّونيتة كما في سونيتاتٍ أخرى، وعد ويللي هيوز بالخلود بشكلٍ يتوافق مع عيون البشر ـ أي بشكلٍ مشهديٍّ، بشكلِ نصٍّ مسرحيٍّ يُمثَّل على خشبة المسرح ويُتَفَرَّج عليه.

لمدَّة أسبوعين انكببتُ بجدٍّ على دراسة السُّونيتات، فلم أخرج أبدًا ورفضتُ جميع الدَّعوات. في كلِّ يومٍ كنت أكتشف شيئًا جديدًا، وأصبح ويللي هيوز بالنِّسبة إليَّ أشبه بوجودٍ روحيٍّ له سطوته الكاملة عليَّ. كان يُخيَّل إليَّ أنَّني أراه واقفًا عند نافذتي، كما صوَّره شكسبير تمامًا، بشعره الأشقر، وطلعته الجميلة الرَّقيقة كزهرةٍ، وعينيه الحالمتَين النَّاعستَين، وأطرافه المرهفةِ الحركات، ويديه البيضاوَين كالزَّنبق. اسمُه نفسُه سحرني: ويللي هيوز! ويللي هيوز! كم يبدو موسيقيًّا! نعم؛ من غيره كان من الممكن أن يكون سيِّدَ ـ معشوقةَ[1] شكسبير، سيِّدَ الغرام الذي افتتن به شكسبير وصار له عبدًا[2]، خليلَ اللَّذَّة المرهَف[3]، وردةَ كلِّ الدُّنيا[4]،

(1) تعبيرٌ غريبٌ (mistress ـ master) يمزج فيه شكسبير بين ذكورة جنس الممثِّل الشَّابِّ وأنوثة أدواره وإجادته تمثيل أدوار العاشقات في مسرحيَّات شكسبير، وقد ورد الوصف في السُّونيتة 20، البيت الثَّاني. (المترجم).

(2) يرد ذلك في السُّونيتة 26 ـ في البيتين الأوَّل والثَّاني ـ حيث يقول: (يا سيِّد الغرام، يا من استحقاقه أوثق التزامي نحوه بوثاق عبوديَّةٍ لا فكاك منها)، (Lord of Love, to whom in vassalage/ Thy merit hath my duty strongly knit). (المترجم).

(3) يرد ذلك في السُّونيتة 126، البيت التَّاسع: (O, thou minion of her pleasure). (المترجم).

(4) يرد ذلك في السُّونيتة 109، البيت الأخير: (Save thou, my rose, in it thou art all). (المترجم).

رسولَ الرَّبيع[1]، صاحبَ الحُلَّة المعطَّرة بعنفوان الشَّباب والكبرياء[2]، الفتى المحبوبَ صاحبَ أعذب صوتٍ موسيقيٍّ[3] في آذان السَّامعين، وصاحبَ الجمال الذي بات الكسوةَ لفؤاد شكسبير[4]، مثلما كان حجر العقد لقوَّته المسرحيَّة؟ فبعد هذا، كيف لا تكون مريرةً مأساة الهجر والعار! ـ العار الذي جمَّله وحبَّبه[5] بسحر شخصيَّته، ولكنَّه يبقى مع ذلك عارًا. ولكن، كما غفر له شكسبير، ألا يجب علينا أن نغفر له أيضًا؟ لم أكن مهتمًّا بمعرفة السِّرِّ وراء ارتكابه هكذا خطيئة.

كان تخلِّيه عن فرقة شكسبير المسرحيَّة مسألةً مختلفةً، وقد قمت بالتَّحقيق فيها باستفاضةٍ كبيرة. وأخيرًا، توصَّلت إلى استنتاجٍ مفاده أنَّ سيريل غراهام كان مخطئًا في اعتقاده أنَّ الكاتب المسرحيَّ المنافس لشكسبير والذي يلمِّح إليه في السُّونيتة 80 كان تشامبان. كان من الواضح أنَّ كريستوفر مارلو هو الملمَّح إليه. ففي الوقت الذي كُتِبَتْ فيه السُّونيتات، فإنَّ تعبيرًا مثل «وما شِعْرُه إلَّا ذلك الشِّراع المنتفخ بالهواء والكبرياء»[6]،

---

(1) يرد ذلك في السُّونيتة 1، البيت العاشر: (Only herald to the gaudy spring). (المترجم).

(2) يرد ذلك في السُّونيتة 2، البيت الثَّالث: (Thy's youth's proud livery so gazed on now). (المترجم).

(3) يرد ذلك في السُّونيتة 8، البيت الأوَّل: (Music to hear). (المترجم).

(4) يرد ذلك في السُّونيتة 22، في البيتين الخامس والسَّادس: (For all that beauty that doth cover thee\ Is but the seemly raiment of my heart). (المترجم).

(5) يرد ذلك في السُّونيتة 95، البيت الأوَّل: (How sweet and lovely dost thou make the shame). (المترجم).

(6) الحقيقة أنَّ هذا البيت لا يرد في السُّونيتة 80 كما يذكر أوسكار وايلد، وإنَّما في السُّونيتة 86. (المترجم).

لم يكن من الممكن استخدامه كتلميحٍ إلى أعمال تشامبان، وإنْ كان من الممكن تطبيقه على أسلوب مسرحيَّاته اليعقوبيَّة المتأخِّرة: لا، من الواضح أنَّ مارلو كان هو المسرحيَّ المنافس الذي كتب عنه شكسبير بعباراتٍ إطرائيَّةٍ كهذه، وذلك

«الشَّبح الودود والمألوف

الذي اعتادَ الاحتيال عليه في اللَّيالي بدهاء،»[1] -

لم يكن سوى مفستوفيليس في مسرحيَّته «الدُّكتور فاوست». ولا شكَّ أنَّ مارلو كان مفتونًا بجمال الممثِّل الشَّابِّ وأَلَقِهِ على المسرح، فقدَّم له الكثير من الإغراءات لسحب رجليه من فرقة شكسبير[2] عندما انتقلت إلى مسرح بلاكفرايرز[3]، ليمثِّل دور كافيزتون في مسرحيَّته «إدوارد الثَّاني»[4]،

---

(1) ورد هذان البيتان في السُّونيتة 86. (المترجم).

(2) يخطئ الرَّاوي هنا في فرضيَّته عن مارلو وإبعاده ويللي هيوز، عندما كان هذا الأخير يعمل مع شكسبير على مسرح بلاكفرايرز الذي أُسِّس عام 1596 بينما قُتل مارلو قبل ذلك، في عام 1593، والأرجح أنَّ وايلد لم ينتبه إلى ذلك لدى كتابته هذه القصَّة التي كثرت فيها الأخطاء التَّاريخيَّة. (المترجم).

(3) أُسِّسَ هذا المسرح عام 1596 من قِبل ريتشارد بيرباك، على الضِّفَّة الشَّماليَّة لنهر التايمز، بصفته مسرحًا خاصًّا للطَّبقات الثَّريَّة في لندن، على قطعة أرضٍ تابعةٍ للكنسية، بعد منع إقامة مسارح عامَّةٍ داخل أسوار مدينة لندن القديمة بأمرٍ من الملك هنري الثَّامن، وكان بناء مسرح بلاكفرايرز على أرضٍ كنسيَّةٍ التفافًا على القانون جعله بعيدًا عن سلطة بلديَّة لندن ما دام داخل حرمٍ كنسيٍّ، وقد امتلكت هذا المبنى فرقة شكسبير المسمَّاة «رجال تشامبرلين» والتي غيَّرت اسمها إلى «رجال الملك» نسبةً إلى الملك جيمس الأوَّل الذي تسلَّم العرش عام 1603، وبقيت تؤدِّي أعمالها المسرحيَّة على خشبته لمدَّة واحدٍ وعشرين عامًا، خاصَّةً في فصل الشِّتاء من كلِّ عامٍ، بينما كانت ترجع إلى مسرح الكلوب كلَّ صيف. (المترجم).

(4) من تأليف كريستوفر مارلو، وكافيزتون في النَّصِّ المسرحيِّ شخصيَّةٌ ذات ميولٍ جنسيَّةٍ

ولا يخفى أنَّ شكسبير كان له الحقُّ القانونيُّ في الاحتفاظ بويللي هيوز في فرقته الخاصَّة كما هو واضحٌ في السُّونيتة 87، حيث يقول: ـ

«الوداع! فأنتَ أعزُّ من أن أمتلكك
ويكفيني أنَّك تعرف قَدْرَكَ عندي:
إنَّ امتيازكَ يمنحك إعفاءً مطلقًا منِّي،
فأنت حِلٌّ اليومَ من كلِّ عقدٍ بيننا.
ثمَّ أنَّى لي المطالبة بحقٍّ ما لم تكن أنت مانحه؟
وأيُّ قانونٍ يبرِّر حقِّي في هذا الكنز؟
ما عاد عندي سببٌ يلزمك بهذا العطاء الجميل،
وهكذا يسقط حقِّي فيك ورُخصتي منك.
لقد وهبتني نفسَك عندما بخستَ قَدْرَ[1] نفسِك،
أو لعلَّك بالغتَ في تقديري فوهبتَنِيها،
ولهذا، على سوء التَّقدير نما عطاؤك العظيم،
فها هو يعود إلى مكانته ثانيةً بعدما اتَّخذتَ قرارًا أفضل.
وبهذا أكون قد حظيت بك كحلمٍ خدَّاعٍ،

منحرفةٍ وكان عشيقَ الملك إدوارد الثَّاني الذي كان مثليًّا، ولهذا ألحَّ مارلو على ويللي هيوز لأداء هذا الدَّور. (المترجم).

(1) يوجد خطأٌ في النَّصِّ السَّرديِّ عند أوسكار وايلد، فقد وردت الكلمة (عمل work) بدلًا من (قَدْر worth) فتغيَّر المعنى كليًّا، ويرجَّح أنَّه خطأٌ مطبعيٌّ. (المترجم).

فكنتُ في النَّوم ملِكًا، وعند اليقظة، فقدتُ كلَّ شيء.

ولكن من لم يستطع أن يناله بالحبِّ، لن يستطيع أن يناله بالقوَّة. وهكذا أصبح ويللي هيوز عضوًا في فرقة اللُّورد بامبروك المسرحيَّة، وربَّما اشترك في العروض المسرحيَّة المفتوحة في باحة حانة الدُّبِّ الأحمر مؤدِّيًا دور الصَّبيِّ النَّاعم: كافيزتون، عشيق الملك إدوارد الثَّاني، وعند وفاة مارلو يبدو أنَّ ويللي هيوز عاد إلى فرقة شكسبير الذي، وبغضِّ النَّظر عن موقف زملائه، سرعان ما تناسى ما كان من الممثِّل الشَّابِّ وغفر له خيانته.

وكم أجاد شكسبير، أيضًا، في تصوير مزاج الممثِّل المسرحيِّ، ففي إحدى سونيتاته يكون ويللي هيوز واحدًا من أولئك الذين:

«لا يفعلون ما يتظاهرون دومًا بأنَّهم سيفعلونه،

فيثيرون مشاعر الآخرين، ويبقون هم أنفسهم كالحجارة»[1]

فويللي هيوز يمكنه أن يمثِّل الحبَّ، ولكن لا يمكنه أن يشعر به؛ يمكنه أن يقلِّد حرارة المشاعر دون أن يدركها:

«في نظرات الكثرة الكاثرة ترون تاريخَ القلب المخادع

مُدوَّنًا في أمزجتهم وتقطيب وجوههم وتجاعيدهم الغريبة،»[2]

ولكن مع ويللي هيوز لم يكن الأمر كذلك، ذلك أنَّ «السَّماء»، كما يقول شكسبير في سونيتةٍ عن الحبِّ الأعمى المجنون:

«السَّماء، عندما خلقتكَ، شاءت

(1) ورد هذان البيتان في السُّونيتة 94. (المترجم).

(2) ورد هذان البيتان في السُّونيتة 93. (المترجم).

أن يسكن الحبُّ بكلِّ شهده أقطارَ محيَّاك،
وأيًّا كانت أفكارك أو ما يعتمل في قلبك،
لن تبوح نظراتك إلَّا بذلك الشَّهد نفسه.»[1]

في «فكره المتقلِّب»[2] و« قلبه المخادع» كان من السَّهل تمييز الرِّياء والخيانة اللَّذَين يبدو أنَّهما لا ينفصلان عن الطَّبيعة الفنِّيَّة المسرحيَّة، كما هو شأن حبِّه للمديح، تلك الرَّغبة في الاعتراف الفوريِّ التي تميِّز جميع الممثِّلين. ومع ذلك، كان ويللي هيوز محظوظًا أكثر من الممثِّلين الآخرين بتذوِّق شيءٍ من الخلود. لقد كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بمسرحيَّات شكسبير الخالدة، وكان يعيش فيها. وهذا ما أشار إليه شكسبير في السُّونيتة[3] التَّالية:

«فاسمك سيستمدُّ من أشعاري حياةً خالدةً،
مع أنَّني، بمجرَّد رحيلي، أمام العالم كلِّه سأكون ميِّتًا،
والأرض لن تمنَّ عليَّ سوى بقبرٍ كسائر القبور،
بينما أنتَ في لِحاظ البشر ستُلْحَد.
نصبُكَ سيكون أبياتي اللَّطيفة،
ولسوف تعيد قراءتها عيونٌ لم تُخْلَق بعدُ،
وتلهجُ بها ألسنةٌ مردِّدةً ذكركَ مرَّاتٍ ومرَّات،
حين يكون هذا الجيلُ كلُّه قد صار في عِداد الموتى.»

وهناك تلميحاتٌ لا حصر لها، أيضًا، إلى قوَّة تأثير ويللي هيوز على

---

(1) وردت هذه الأبيات الأربعة في السوُّنيتة رقم 93. (المترجم).
(2) ورد هذا الوصف: (inconstant mind)، في السُّونيتة 92. (المترجم).
(3) هي السُّونيتة 81. (المترجم).

جمهوره، «النَّظَّارة»، كما يسمِّيهم شكسبير؛ ولكن ربَّما كان أفضل وصفٍ لبراعة ويللي هيوز العجيبة في التَّمثيل المسرحيِّ ما ورد في قصيدة «شكوى عاشق» حيث يقول شكسبير:

«متأصِّلٌ فيه من كلِّ رَهيفٍ ما لا يُحصَى عدُّه،
وله في فنِّ الخداع والدَّجل ألف لونٍ يمارسُه،
ويظهر لكَ بكلِّ المظاهر الغريبة،
فتارةً في نار حمرة الخجل، وتارةً في ماء الدُّموع المنهمرات،
وتارةً في شحوب الإغماء. يتقمَّص هذا ويترك ذاك،
وفي كلتا الحالتين، يخدع بأتـمِّ إتقان،
فمهارته في حمرة الخجل تعادل مهارته في ذرف الدُّموع،
أو حتى تراه يشحب ويُغَمى عليه في العروض المأساويَّة.
وتجري على لسانه الآسـر
كلُّ فنون الحجج والأسئلة العميقة،
وعنده الجواب الحاضرُ والعقل الرَّشيد،
ذو عقلٍ يتَّقدُ ويُداجي حسبما يريد
يُسرُّ الباكي فيضحكه ويَغُمُّ المسرور فيُبكيه،
بمهارةٍ ولغةٍ ليس لها نظير
يأسرُ كلَّ ذي إحساسٍ متى شاءَ ببراعته.»

في إحدى المناسبات اعتقدتُ أنَّني وجدتُ ويللي هيوز حقًّا في الأدب الإليزابيثيِّ، ففي سردٍ تصويريٍّ بديعٍ للأيَّام الأخيرة لإيرل مدينة إيسكس العظيم، يخبرنا قسُّ المدينة، توماس نيل، أنَّه في اللَّيلة السَّابقة لوفاته (أرسلَ في طلب عازفه وليام هيوز ليعزف على آلة الفيرجينال ويغنِّي له. «أسمِعْني»، قال له، «أغنيتي المفضَّلة يا ويل هيوز، وسوف أغنِّيها لنفسي.» وفعل ذلك بفرحٍ كبيرٍ، ليس كإوزَّةٍ عوَّاء تولول على نهايتها الوشيكة، ولكن كقبَّرةٍ عذبة الصَّوت، رافعًا يديه وعينيه إلى إلهه، ومرتقيًا السَّماوات الكريستاليَّة، حتى بلغ بلسانه غير المتعَب أعلى السَّماوات). من المؤكَّد أنَّ هذا العازف الذي عزف على آلة الفيرجينال للمحتضر لم يكن سوى ويل هيوز الذي أهدى له شكسبير سونيتاته ووصفه بأنَّه «صاحب أعذب صوتٍ موسيقيٍّ». ولكنَّ هذا الإيرل توفِّي في عام 1576، عندما كان شكسبير في الثَّانية عشرة من العمر، وعلى هذا فمن المستحيل أن يكون ذلك العازف هو نفسه المشار إليه في سونيتات شكسبير بالسَّيِّد واو ـ هاء. أيكون صديق شكسبير الشَّابُّ هو ابن عازف الفيرجينال هذا؟ على الأقلِّ اكتشفنا أنَّ اسم «ويل هيوز» كان مألوفًا في العصر الإليزابيثي. وفي الواقع، يبدو أنَّ اسم العائلة «هيوز» كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالموسيقى والمسرح، فأوَّل ممثِّلةٍ إنجليزيَّةٍ كانت الجميلة مارغريت هيوز التي تعلَّق بها الأمير روبيرت بجنون. ما الذي كان من الممكن أن يربط بينها وبين عازف لورد إيسكس الذي أصبح الممثِّل الصَّبيَّ في مسرحيَّات شكسبير أكثر من هذا؟ ولكن البراهين، الرَّوابط، أين هي؟ مع الأسف، لم أستطع العثور عليها. أحيانًا كان يبدو لي أنَّني على وشك التَّحقُّق المطلق، ولكنَّني لم أستطع تحقيق ذلك مطلقًا.

ثمَّ من حياة ويللي هيوز انتقلتُ بسرعةٍ إلى التَّفكير في وفاته. كنتُ أتساءل كيف كانت نهايته.

ربَّما كان واحدًا من أولئك الممثِّلين الإنجليز الذين ذهبوا في عام 1604 عبر البحر إلى ألمانيا وقدَّموا عروضهم أمام الدُّوق العظيم، هنري يوليوس، دوق مدينة برونزويك، الذي كان هو نفسه كاتبًا مسرحيًّا لا بأس به، وكذلك في بلاط ذلك الأمير الغريب الأطوار، أمير براندنبورغ، الذي افتتن بجمال الممثِّل الشَّابِّ حتى قيل إنَّه اشترى له ابنَ تاجرٍ يونانيٍّ مسافرٍ ليكون له خادمًا ودفع ثمنه قَدْرَ وزنه من العنبر، كما أنَّه أقام المهرجانات تكريمًا لهذا الفتى طوال تلك السَّنة الرَّهيبة من المجاعة بين عامَي 1606 و1607، حين كان النَّاس يموتون من الجوع في الشَّوارع، وانحبس المطر سبعة أشهر. ونحن نعلم، على أيَّة حالٍ، أنَّ روميو وجوليت قد قُدِّمَت في دريسدن عام 1613 جنبًا إلى جنبٍ مع هاملت والملك لير، ولم يكن غير ويللي هيوز مَن جلب إلى ألمانيا في عام 1615، عن طريق أحد العاملين في السِّفارة البريطانية، قناعَ موتِ شكسبير، القناعَ الشَّاحبَ الذي يرمز إلى وفاة الشَّاعر العظيم الذي أحبَّه حبًّا جمًّا. في الواقع، كان من الممكن أن يكون هناك شيءٌ مناسبٌ إلى حدٍّ استثنائيٍّ في فكرة أنَّ الممثِّل الشَّابَّ، الذي كان جماله عنصرًا حيويًّا للغاية في مدَّي الواقعيَّة والرُّومانسيَّة عند شكسبير، هو أوَّل من أدخل بذرة الثَّقافة الجديدة إلى ألمانيا بل والرَّائد لما بات يعرف بعصر التَّنوير، Aufklarung بالألمانيَّة، في القرن الثَّامن عشر، تلك الحركة الرَّائعة التي مع أنَّها بدأت مع ليسنج وهيردر، وتوِّجت فيما بعد في أعمال جوته، إلَّا أنَّها سُونِدَتْ في جزءٍ كبيرٍ منها من قِبَل ممثِّلٍ آخر، هو فردريك شرودر، الذي أيقظ الوعي الشَّعبيَّ وربط الأدب بالحياة الواقعيَّة في ما يخصُّ محاكاة الانفعالات والسُّلوكيَّات

التي تُعرَض على خشبة المسرح. وإن كان الأمر كذلك ـ وبالتَّأكيد ليس هناك دليلٌ يفنِّد هذه الفرضيَّة، ـ فليس من غير المحتمل أن يكون ويللي هيوز واحدًا من أولئك الكوميديِّين الإنجليز (حُكاة بريطانيا، كما يسمِّيهم المؤرِّخون القدماء)، الذين قُتِلوا ذبحًا في نورمبرغ، في انتفاضة الشَّعب المفاجئة، ودُفِنوا سرًّا في كَرْمٍ صغيرٍ خارج المدينة من قِبَل بعض الشُّبَّان الألمان «الذين استمتعوا بأداء الفرقة ووجدوا في تلك العروض الملهمة المبشِّـرَ بولادة ثقافةٍ جديدة». وبالتَّأكيد لا يوجد مكانٌ يليق بذلك الذي قال له شكسبير: «أنتَ كلُّ فنِّي» أكثر من كَرْمِ عنبٍ صغيرٍ خارج أسوار المدينة. ألم تنبع المأساة الحقيقيَّة من أحزان ديونيسوس؟ ألم تُسمَع ضحكات الملهاة، ببهجتها اللَّامبالية وقفشاتها السَّريعة، لأوَّل مرَّةٍ على شفاه مزارعي الكروم الصِّقِلِّيِّين؟ بل أليست بقع رغوة النَّبيذ القرمزيَّة والحمراء التي تلوِّن وجوه وأعضاء الممثِّلين أوَّلَ إيحاءٍ بسحر وفتنة إخفاء الرَّغبة في تمويه الذَّات؛ أليست هي الإحساسَ بقيمة الموضوعيَّة كما أظهرت نفسها في بدايات الفنِّ؟ على أيَّة حالٍ، أينما كان مدفونًا، في الكَرْمِ الصَّغير عند أعتاب المدينة القوطيَّة، أو في مدينة لندن، في باحة إحدى كنائسها المظلمة، وسط ضوضاء وضجيج مدينتنا العتيدة، فإنَّه لا يوجد نصبٌ تذكاريٌّ مهيبٌ يدلُّ على مرقده الأخير. فقبره الحقيقيُّ، كما قال شكسبير، هو شِعرُ الشَّاعر، ونصبه التَّذكاريُّ الحقيقيُّ هو خلود المسرح. هكذا كان الحال دائمًا مع أولئك الذين أعطى جمالُهم دفعًا إبداعيًّا جديدًا للعصر الذي عاشوا فيه. يتعفَّن الجسد العاجيُّ للعبد البيثينيِّ في الطِّين الأخضر لنهر النيل، ويتناثر غبار الفتى الأثينيِّ على تلال سيراميكوس الصَّفراء، ولكنَّ أنطونيوس يبقى حيًّا في النَّحت، وخارميدس في الفلسفة.

III

بعد انقضاء ثلاثة أسابيع، قرَّرت توجيه رسالةٍ قويَّةٍ إلى إرسكين أناشده فيها إنصافَ ذكرى سيريل غراهام ووَضْعَ تأويله الجديد للسُّونيتات بين يدَي العالم ـ التَّأويل الوحيد الذي حلَّ المعضلة تمامًا. يؤسفني أن أقول إنَّه ليس لديَّ نسخةٌ من رسالتي، كما أنَّني لم أتمكَّن من استعادة الأصل؛ ولكنَّني أتذكَّر أنَّني فكَّرت في الأمر مرارًا وتكرارًا، وفرشتُ أوراقي على الأرض بتكرارٍ شغوفٍ للحجج والبراهين التي خلصت دراستي إليها. بدا لي أنَّني لم أكن أعيد سيريل غراهام إلى مكانه الصَّحيح في تاريخ الأدب فحسب، بل كنت أنقذ سمعة شكسبير نفسه من تهمة أنَّ السُّونيتات ما هي إلَّا قصائد مملَّة لا تجلب سوى العناء والتَّعب لدى قراءتها. لقد وضعت في الرِّسالة كلَّ حماسي. وضعتُ فيها كلَّ إيماني.

وفي الواقع، ما إن أرسلتها حتى اعتراني ردُّ فعلٍ غريبٌ. بدا لي أنَّني تخلَّيت عن قدرتي على الإيمان بنظريَّة ويللي هيوز عن السُّونيتات، وأنَّ شيئًا ما قد خرج منِّي، وأنَّني بتُّ غير مبالٍ بالموضوع برمَّته. ولكن ما الذي حدث؟ من الصَّعب، ربَّما، أن أجد التَّعبير المناسب لأقول إنَّني في سبيل شغفٍ استنفدتُ الشَّغفَ نفسه. فالقوى العاطفيَّة، مثل القوى الجسديَّة، لها حدودها الإيجابيَّة. لقد وجدتُ أنَّ الجهد المبذول لإقناع أيِّ شخصٍ بنظريَّةٍ ما إنَّما يقتضي بعض التَّخلِّي عن قوَّة الإيمان. أو ربَّما كنت ببساطةٍ قد سئمت الأمر برمَّته، وبعد أن خفَّ حماسي، تركتُ لعقلي أن يتَّخذ قراره دون تعصُّبٍ. ولكن أيًّا كان السَّبب، وطبعًا لا يمكنني التَّظاهر بقدرتي على تفسيره، لم يكن هناك شكٌّ في أنَّ ويللي هيوز قد أصبح فجأةً مجرَّد خُرافةٍ، حلمًا فارغًا، نزوةً صبيانيَّةً لشابٍّ كان،

مثل معظم الأرواح المتحمِّسة، أكثر حرصًا على إقناع الآخرين من إقناع نفسه.

ولأنَّني قلت بعض الأشياء الجائرة والمريرة لإرسكين في رسالتي الأخيرة، قرَّرت الذَّهاب لرؤيته دون تأخيرٍ وتقديم اعتذاري له عن سوء تصرُّفي معه. وهكذا، في صبيحة اليوم التَّالي، صعدتُ عربتي وتوجَّهت إلى بيردكيج ووك، ووجدتُ إرسكين جالسًا في مكتبه، وأمامه تلك الصُّورة المزيَّفة لويللي هيوز.

- «عزيزي إرسكين!» هتفتُ، «لقد جئتُ لأعتذر منك».

- «لتعتذر منِّي؟» قال، «وعمَّ تعتذر؟»

- «عن الرِّسالة التي أرسلتها إليك؟»

- «ليس في رسالتك ما ينبغي أن تعتذر عنه،» قال، «بل على العكس، لقد قدَّمت لي أعظم معروفٍ يمكنك أن تقدِّمه لي. لقد بيَّنتَ لي أنَّ نظرية سيريل غراهام متينةٌ تمامًا ولا غبار عليها».

- «هل تعني أنَّك تؤمن بوجود ويللي هيوز؟» صحتُ متعجِّبًا.

- «ولِمَ لا؟» ردَّ عليَّ، «لقد أثبتَّ لي ذلك. هل تعتقد أنَّني لا أعرف تقدير قيمة الدَّليل؟»

- «ولكن لا يوجد أيُّ دليلٍ على الإطلاق»، تأوَّهتُ وأنا أغوص في أريكتي، «عندما كتبت إليك، كنت واقعًا تحت تأثير حماسةٍ سخيفةٍ تمامًا. لقد تأثَّرتُ بقصَّة موت سيريل غراهام، وفي الوقت نفسه فتنتني نظريَّته الرُّومانسيَّة، وأسرني سحرُ الفكرة وجِدَّتُها، ولكنَّني أرى الآن أنَّ نظريَّته مبنيَّةٌ على وهم. فالدَّليل الوحيد على وجود ويللي هيوز هو تلك الصُّورة

التي أمامك، والصُّورة مزوَّرة. ولهذا أنصحك بألَّا تنساق وراء عاطفتك في هذا الأمر؛ لأنَّه مهما تكن رومانسيَّةً نظريَّةُ ويللي هيوز، فإنَّ المنطق ميِّتٌ حيالها».

ـ «الآن ما عدتُ أفهمك!» قال إرسكين وهو ينظر إليَّ باستغراب، «لماذا؟ أنت نفسك أقنعتني في رسالتك بأنَّ ويللي هيوز حقيقةٌ مطلقة. فلماذا غيَّرتَ رأيك؟ أم أنَّ كلَّ ما قلته لي مجرَّد مزحة؟»

ـ «لا أستطيع أن أشرح ذلك لك!» قلت له، «ولكنَّني أرى الآن أنَّه ليس هناك ما يمكن قوله لصالح تفسير سيريل غراهام. السُّونيتات مُهداةٌ إلى اللُّورد بامبروك، فبحقِّ السَّماء، لا تضيِّع وقتك في محاولةٍ حمقاء لإثبات وجود ممثِّلٍ شابٍّ عاش في العصر الإليزابيثيِّ لم يكن موجودًا قطُّ، ولجعلِ دميةٍ وهميَّةٍ مركزًا تدور حوله كلُّ سونيتات شكسبير».

ـ «أعتقد أنَّك لم تفهم النَّظريَّة»، ردَّ عليَّ.

ـ «يا عزيزي إرسكين،» صحتُ بصوتٍ عالٍ، «أتقول إنَّني لم أفهمها؟ يا إلهي، بل إنَّني أشعر كما لو أنَّني أنا مَن وضعَها. من المؤكَّد أنَّ رسالتي تُظهر لك أنَّني لم أتناول كلَّ جوانب المسألة فحسب، بل أنَّني قدَّمتُ أدلَّةً من كلِّ صنفٍ ونوع. ولكنَّ الثَّغرة الوحيدة في النَّظريَّة هي أنَّها تفترض مسبَّقًا وجود شخصٍ وجوده في حدِّ ذاته مثارُ نزاعٍ وخِلاف. فإذا سلَّمنا بوجود ممثِّلٍ شابٍّ في فرقة شكسبير المسرحيَّة باسم ويللي هيوز، لن يكون من الصَّعب حينئذٍ أن نجعله موضوعًا للسُّونيتات، ولكنَّنا نعلم أنَّه لم يكن هناك ممثِّلٌ بهذا الاسم في مسرح غلوب، وعلى هذا فمن العبث مواصلة البحث».

ـ «ولكن هذا هو بالضَّبط ما لا نعرفه،» قال إرسكين. «صحيحٌ تمامًا أنَّ اسمه لم يرد في قائمة الممثِّلين المطبوعة على الورقة الأولى، ولكن، كما أشار سيريل، هذا دليلٌ لصالح وجود ويللي هيوز أكثر من كونه دليلًا ضدَّه، خاصَّةً إذا نحن تذكَّرنا انشقاقه الغادر عن فرقة شكسبير من أجل كاتبٍ مسرحيٍّ منافس».

وناقشنا الأمر لساعاتٍ، ولكن لا شيء ممَّا قلته استطاع أن يثني إرسكين عن إيمانه بما جاءت به نظريَّة سيريل غراهام، بل العكس تمامًا، فقد أخبرني أنَّه ينوي تكريس حياته لإثبات النَّظريَّة، وأنَّه مصمِّمٌ على إنصاف ذكرى سيريل غراهام. استعطفته، وسخرتُ منه، وتوسَّلتُ إليه، ولكن بلا جدوى. وأخيرًا افترقنا، ليس غاضبَين تمامًا، ولكن بالتَّأكيد مع ظلِّ جفاءٍ بيننا. هو رآني سطحيًّا وأنا رأيته أحمقَ. حين اتَّصلت به مرَّةً أخرى، أخبرني خادمه أنَّه ذهب إلى ألمانيا.

وبعد مضيٍّ سنتين على رحيله، وبينما أنا في النَّادي، سلَّمني البوَّاب في الصَّالة رسالةً عليها دمغة بريدٍ خارجيٍّ. نعم، كانت الرِّسالة من إرسكين، وقد كتبها في أثناء إقامته في فندق إنجلترا في مدينة كان. وحين قرأت الرِّسالة، ملأني ما قرأته رعبًا، لأنَّني لم أتصوَّر أنَّه سيكون مجنونًا لدرجة تنفيذ ما عزم عليه. كان جوهر الرِّسالة أنَّه حاول بكلِّ طريقةٍ أن يتحقَّق من نظريَّة ويللي هيوز، وفشل، وأنَّه كما بذل سيريل غراهام حياته في سبيل هذه النَّظريَّة، فقد قرَّر هو أيضًا أن يبذل حياته في سبيل الهدف نفسه. كانت الكلمات الختاميَّة للرِّسالة كما يلي:

«ما زلتُ ثابتًا في إيماني بنظريَّة ويل هيوز؛ وبحلول الوقت الذي تستلم فيه رسالتي هذه، سأكون قد قتلتُ نفسي من أجل ويل هيوز، ومن أجل

سيريل غراهام الذي أعدُّ نفسي مسؤولًا عن موته بسبب شكوكي السَّطحيَّة وافتقاري الجَهُول للإيمان. لقد ظهرَت الحقيقةُ لك مرَّةً وأنكرتَها. ها هي تعود إليك الآن ملطَّخةً بدماء حياتَين، ـ فلا تُعرِضْ عنها».

كانت لحظةً مروِّعة. شعرت بالغثيان والبؤس، ومع ذلك لم أصدِّق ما قرأته. إنَّ الموت من أجل المعتقدات اللَّاهوتيَّة هو أسوأ ما يمكن لإنسانٍ أن يُقدِمَ عليه، ولكنَّ الموت من أجل نظريَّةٍ أدبيَّةٍ! بدا لي ذلك من المستحيلات.

نظرتُ إلى تاريخ الرِّسالة، فوجدت أنَّ أسبوعًا مرَّ على وصولها. حظٌّ مؤسفٌ جعلني أتغيَّب عن النَّادي طوال تلك الفترة، وإلَّا كنت ذهبت إليه وأنقذت حياته. ربَّما لم يفت الأوان بعد. توجَّهت إلى غرفتي وحزمت أمتعتي، وانطلقت ليلًا من محطَّة كروس تشيرنك. كانت الرِّحلة لا تُطاق، وحسبتُ أنَّني لن أصل أبدًا.

حالما وصلتُ توجَّهتُ إلى فندق إنجلترا وسألت عن إرسكين، فقيل لي إنَّه مات ودُفن قبل يومين في المقبرة الإنجليزيَّة. كان ثمَّة شيءٌ بشعٌ وشنيعٌ في هذه المأساة برمَّتها. فتفوَّهتُ بكلماتٍ مسعورةٍ وهمجيَّةٍ جعلت النَّاس في القاعة ينظرون إليَّ بفضول.

وفجأةً دخلت السَّيِّدة إرسكين الصَّالةَ في ثياب الحِداد، وحين رأتني جاءت إليَّ وتمتمت بشيءٍ عن ابنها المسكين وأجهشت بالبكاء. قدتُها إلى غرفة جلوسها، وكان هناك رجلٌ كبير السِّنِّ في انتظارها. ذلك الرَّجل كان الطَّبيبَ الإنجليزيَّ.

تحدَّثنا كثيرًا عن إرسكين، ولكنَّني لم أقل شيئًا عن دافعه إلى الانتحار.

كان واضحًا أنَّه لم يخبر والدته بأيِّ شيءٍ يتعلَّق بالسَّبب الحقيقيِّ الذي دفعه إلى مثل هذا التَّصرُّف الكارثيِّ والمجنون. ثمَّ نهضت السَّيِّدة إرسكين وقالت: «لقد ترك لك جورج شيئًا على سبيل الذِّكرى، شيئًا كان عزيزًا جدًّا عليه، وسوف آتيك به».

وبمجرَّد أن غادرَت الغرفة التفتُّ إلى الطَّبيب وقلتُ له: «يا لها من صدمةٍ مروِّعةٍ للسَّيِّدة إرسكين! أتعجَّب من قدرتها على تحمُّلها كما هو شأنها الآن!»

- «أوه، لقد عرفَتْ منذ شهورٍ أنَّ المصيبة قادمة»، أجابني الطَّبيب.

- «عرفَتْ منذ شهورٍ؟» صحتُ، «لماذا لم تمنعه إذن؟ لماذا لم تراقبه؟ لا بدَّ أنَّه كان مجنونًا».

حدَّق الطَّبيب في وجهي، ثمَّ قال: «لم أفهم ما ترمي إليه».

- «حسنًا،» قلتُ بصوتٍ عالٍ، «حين تعلم أمٌّ أنَّ ولدها سوف ينتحر...»

- «ينتحر؟» أجاب الطَّبيب، «إنَّ إرسكين المسكين لم يمت منتحرًا. لقد مات بالسُّلِّ. وقد جاء إلى هنا ليموت. في اللَّحظة التي رأيته فيها عرفتُ أنَّه لا أمل في شفائه. كانت إحدى رئتيه قد تلفت بالكامل تقريبًا، والأخرى تأثَّرت بشدَّة. سألني قبل وفاته بثلاثة أيَّام إن كان هناك أيُّ أمل، فأخبرته بكلِّ صراحةٍ أنَّه لا أمل على الإطلاق وأنَّ أيَّامه في الدُّنيا باتت معدودةً، فانكبَّ على كتابة بعض الرَّسائل، وحين فرغ من ذلك بدا مرتاحًا تمامًا، وبقي محتفظًا بحوَّاسه حتى آخر لحظة».

في تلك اللَّحظة، دخلت السَّيِّدة إرسكين وفي يدها صورة ويللي هيوز

القاتلة وقالت: «أوصاني جورج قبل وفاته بأن أعطيك هذه الصُّورة». حين أخذتها منها سقطت دموعها على يدي.

الصُّورة معلَّقةٌ الآن في مكتبتي، حيث تحظى بإعجابٍ كبيرٍ من قِبَل أصدقائي الفنَّانين. لقد خلصوا إلى أنَّها لا تشبه أسلوب كلويه بل أسلوب أوفري. لم أهتمَّ أبدًا بإخبارهم بتاريخها الحقيقيِّ. ولكن في بعض الأحيان، حين أنظر إليها، أعتقد حقًّا أنَّ هناك الكثير مِمَّا يمكن قوله عن نظريَّة ويللي هيوز وعلاقته بسونيتات شكسبير.

المجموعة الثَّانية

منزلُ الرُّمَّان وقصصٌ قصيرةٌ أخرى

هذه المجموعة مهداةٌ إلى كونستانس ماري وايلد

الملك الشَّابُّ

كانت اللَّيلةَ التي سبقت يومَ تتويجه، وكان الملك الشَّابُّ جالسًا بمفرده في غرفته الجميلة بعد أن استأذنه رجال البلاط وانصرفوا وهم يحنون له رؤوسهم حتى كادت تلامس الأرض، وفقًا لما كانت تمليه عليهم مراسمُ ذلك الوقت، ثمَّ عادوا إلى القاعة الكبرى في القصر الملكيِّ لتلقِّي الدُّروس الأخيرة من أستاذ قواعد وآداب التَّشريفات؛ ذلك أنَّه كان من بينهم نفرٌ ما يزالون يتصرَّفون على سجيَّتهم مع الملك، وهو ما لا أحتاج إلى التَّذكير بأنَّه إثمٌ عظيمٌ إن اقترفه واحدٌ من رجال البلاط.

لم يأسف الفتى - لأنَّه كان حقًّا فتىً لم يتجاوز عمره السَّادسة عشرة من العمر - على انصرافهم عنه بقدر ما تنفَّس الصُّعداء وشعر بالارتياح وهو يرتمي على الوسائد الوثيرة لأريكته المطرَّزة ويستلقي متأجِّجَ العينين وفاغرَ الفم مثل فاونٍ[1] أسمرَ يجوب البراري، أو مثل حيوانٍ برِّيٍّ يافعٍ علق فجأةً في فخِّ الصَّيَّادين.

وفي الحقيقة، كان الصَّيَّادون هم مَن عثر عليه، مصادفةً، عاري الأعضاء والنَّاي ما يزال في يده وهو يسوق قطيع راعي الماعز الفقير الذي قام بتربيته والذي اعتقد دائمًا أنَّه ابنٌ له. وكان ابنُ ابنةِ الملك الوحيدة هذا،

(1) كائنٌ ميثولوجيٌّ نصفه إنسانٌ ونصفه تيسٌ مذكورٌ في الميثولوجيا الرُّومانيَّة. (المترجم).

المولودُ من زواجٍ سرِّيٍّ برجلٍ من الطَّبقة الدُّنيا ـ رجلٍ أجنبيٍّ، حسب بعض الأقوال، سحرَ الأميرة الشَّابَّة بعزفه على النَّاي، فاستسلمت له وأعطته قلبها؛ وحسب أقوالٍ أخرى، أنَّه كان فنَّانًا من مدينة ريميني قدَّمت له الأميرة الكثير من التَّكريم، وقد اختفى بعد ذلك من المدينة تاركًا عمله في الكاتدرائيَّة غيرَ مكتملٍ ـ قد أُخِذَ من والدته، بينما كانت نائمةً، وهو ابن سبعة أيَّامٍ، وجُعِلَ في عهدةِ فلَّاحٍ وزوجته، ولم يكن لهذين أبناءٌ وكانا يعيشان في جزءٍ قصيٍّ من الغابة يبعد عن المدينة رحلةَ يومٍ واحدٍ على الحصان. ويقال إنَّ أمَّه ماتت كمدًا وغمًّا عليه، وبعض النَّاس يقولون إنَّها ماتت بالطَّاعون، وهذا ما صرَّح به طبيب البلاط، بينما يقول آخرون إنَّ هذه الفتاة البيضاء التي أنجبته قد ماتت بسمٍّ زعافٍ وُضِعَ لها في كأسٍ من النَّبيذ المتبَّل، سُمٍّ إيطاليٍّ قتلها بُعَيْدَ ساعةٍ من استيقاظها، وبينما كان الرَّسول الموثوق الذي حمل الطِّفل على سرجه ينزل عن حصانه المتعَب ويطرق البابَ الخشنَ لكوخ راعي الماعز، كان جثمان الأميرة يوضَع في قبرٍ مفتوحٍ حُفِرَ في باحة كنيسةٍ مهجورةٍ، خارج بوَّابات المدينة، قبرٍ يُقال إنَّ جثمانًا آخر كان مدفونًا فيه أيضًا، وهو يعود لشابٍّ ذي جمالٍ أجنبيٍّ لا يوصَف، وكانت يداه مقيَّدتين خلف ظهره بحبلٍ غليظٍ ذي عُقَدٍ، وصدره مثخنًا بجروحٍ حمراء كثيرة.

كانت هذه، على الأقلِّ، القصَّة التي كان النَّاس يتهامسون بها. ولكن ما لا ريب فيه أنَّ الملك العجوز، وهو على فراش الموت، ندمًا على خطيئته الكبرى، أو رغبةً في ألَّا تخرج المملكة من نسله، أرسل في طلب الصَّبيِّ، وفي حضور المجلس، اعترف به وريثًا له.

ويبدو أنَّه منذ اللَّحظة الأولى للاعتراف به، كان لجماله الفتَّان الوقع

الغريب في نفس كلِّ مَن رآه، ويبدو أنَّ هذا الجمال سيكون له تأثيرٌ كبيرٌ على حياته. وغالبًا ما تحدَّث أولئك الذين رافقوه إلى جناح الغرف المخصَّص لخدمته عن صيحة الفرح التي تدفَّقت من بين شفتيه وهو يرى الثِّياب النَّاعمة والمجوهرات النَّفيسة التي أُعِدَّت له، وعن البهجة الوحشيَّة التي اعترته وهو يطرح عنه سترته الجلديَّةَ القاسيةَ وشَمْلَتَهُ الخشنةَ المعمولةَ من جلد الغنم. وبطبيعة الحال، كان يفتقد أحيانًا الحرِّيَّةَ الرَّائعةَ التي اعتادها في حياة الغابة، ودائمًا ما كان يستاء من احتفالات البلاط المملَّة التي كانت تشغل الكثير من الوقت كلَّ يوم، ولكنَّ القصرَ الرَّائعَ ـ الماتعَ كما كانوا يطلقون عليه ـ الذي وجدَ نفسه سيِّدًا عليه، بدا له عالمًا جديدًا حديثَ الطِّراز لمباهجه؛ ولذلك، كان كلَّما استطاع التَّملُّص من مجلس البلاط ومن صالة الجمهور، يسرع نازلًا الدَّرَج الكبير، بأسُوده التي من برونزٍ مذهَّبٍ ودرجاته التي من رخامٍ سماقيٍّ لامعٍ، ويطوف من غرفةٍ إلى غرفةٍ ومن ممرٍّ إلى ممرٍّ، وكأنَّه يرى في الجمال بلسمًا للألم أو شفاءً من سقم.

وفي رحلات الاستكشاف هذه، كما كان يسمِّيها ـ وفي الواقع، كانت بالنِّسبة إليه رحلاتٍ حقيقيَّةً في أرض العجائب والغرائب ـ كان يرافقه أحيانًا مجموعةٌ من خدمه وهم يرتدون أجمل الملابس وأحلى الحلل، وأربطةٌ ملوَّنةٌ بديعةٌ تزيِّن ملابسهم؛ ولكنَّه في أغلب الأحيان كان يفضِّل أن يكون وحيدًا، لأنَّه كان يشعر، ربَّما بحدسه المتَّقد، أنَّ من الأفضل تعلُّم أسرار الفنِّ في السِّرِّ، وأنَّ الجمال، مثله مثل الحكمة، يحبُّ العابد المتوحِّد.

وقد حُكيت عنه العديد من الحكايات الغريبة في هذه الفترة. قيل إنَّ عمدة المدينة البدين جاء ذات يومٍ ليلقي خطابًا منمَّقًا نيابةً عن أهل المدينة،

فوقع نظره على الشَّابِّ وهو يركع في عبادةٍ حقيقيَّةٍ أمام صورةٍ رائعةٍ جُلِبَتْ للتَّوِّ من مدينة البندقيَّة، وبدا وكأنَّه كان يبشِّر بعبادة بعض الآلهة الجُدُد. وفي مناسبةٍ أخرى، فقدوه لساعاتٍ، وبعد بحثٍ طويلٍ وجدوه في غرفةٍ صغيرةٍ عند أحد الأبراج الشَّماليَّة للقصر، وكان يحدِّق، كامرئٍ في حالةِ انخطافٍ، في منحوتةٍ إغريقيَّةٍ للإله أدونيس. وذات مرَّةٍ شوهد وهو يضع شفتيه الدَّافئتين على حاجب تمثالٍ رخاميٍّ قديمٍ اكتُشِف في قاع النَّهر بينما كان العمَّال يبنون جسرًا حجريًّا، وكان منقوشًا على التِّمثال اسمُ أحد العبيد البيثينيِّين لهادريان. كما قيل إنَّه أمضى ليلةً كاملةً يراقب تأثير ضوء القمر على صورةٍ فضِّيَّةٍ لإنديميون.

كانت كلُّ الموادِّ النَّادرة والثَّمينة سحرًا كبيرًا بالنِّسبة إليه، ورغبةً منه في اقتنائها كان يرسل الكثير من التُّجَّار، بعضهم لشراء العنبر من صيَّادي بحار الشَّمال، وبعضهم إلى مصر للبحث عن الفيروز الأخضر الذي لا يوجد إلَّا في قبور الملوك، ويُقال إنَّ له خصائص سحريَّةً، وبعضهم إلى بلاد فارس ليجلبوا له السَّجَّاد الحريريَّ والخزف الملوَّن، وبعضهم الآخر إلى الهند ليشتروا له الشَّاش والعاج المزخرف وأحجار القمر وأساور اليشب وخشب الصَّندل والمينا الزَّرقاء وشالاتٍ من الصُّوف النَّاعم.

ولكنَّ أكثر ما كان يشغل باله هو الرِّداء الذي سيرتديه في حفل تتويجه، الرِّداء المنسوج بخيوط الذَّهب، والتَّاج المرصَّع بالياقوت، والصَّولجان المطعَّم بصفوفٍ وحلقاتٍ من اللُّؤلؤ. وفي الواقع، كان هذا هو ما يفكِّر فيه اللَّيلة وهو مستلقٍ على الأريكة الفخمة وعيناه تراقبان قطع خشب الصَّنوبر الكبيرة وهي تحترق في الموقد المفتوح. وكان أشهر الفنَّانين قد قدَّموا تصاميمهم قبل عدَّة أشهرٍ من ذلك، وأصدر الأوامر إلى كلِّ الحرفيِّين بأن

يكدحوا ليلًا ونهارًا لتنفيذها، وأوعز في أن يُجابَ العالَم كلُّه بحثًا عن المجوهرات التي تستحقُّ أن ترصَّع بها تصاميمهم. وذات ليلةٍ، رأى فيما يرى النَّائم أنَّه يقف على مذبح الكاتدرائيَّة العالي وهو يرتدي أبهى حلَّةٍ ملكيَّةٍ، وابتسامةٌ عذبةٌ تتراقص متلكِّئةً حول شفتيه الصِّبيانيَّتَين لتلقي ألقًا كالبريق على عينيه السَّوداوَين سوادَ غابةٍ مُعتمة.

بعد مرور بعض الوقت، نهض عن أريكته ومشى إلى المدخنة ليتَّكئ على إفريزها المنحوت وراح يجيل النَّظر في الغرفة ذات الإضاءة الخافتة. كانت الجدران مزيَّنةً بسجاجيد نفيسةٍ تجسِّد «انتصار الجمال». وفي أحد الأركان، كانت هناك خزانةٌ كبيرةٌ مرصَّعةٌ بالعقيق واللَّازورد، وقبالةَ النَّافذة خزانةٌ أخرى مكسوَّةٌ بلوحاتٍ خشبيَّةٍ مطليَّةٍ بالورنيش اللَّامع ومرصَّعةٍ بحبيباتٍ من الذَّهب، وقد وُضعَتْ عليها بعض الكؤوس من الزُّجاج الفينيسيِّ الرَّقيق وكأسٌ من العقيق اليمانيِّ، بينما ملأت تطريزاتٌ بأشكال الخشخاش الأصفر غطاءَ السَّرير الحريريَّ، فبدت وكأنَّها سقطت من أيدي النَّوم المتعَبة، ورفعت قصباتٌ طِوالٌ من العاج المخدَّد ظلَّةً مخمليَّةً انبثقت منها خصلاتٌ كبيرةٌ من ريش النَّعام فبدت الظِّلَّة وكأنَّها غيمةٌ بيضاء تحت سقف الغرفة بلونه الفضِّيِّ الباهت. وكان ثمَّة تمثالٌ من البرونز الأخضر للإله نرسيس يحمل ضاحكًا مرآةً مصقولةً فوق رأسه. وعلى الطَّاولة كانت هناك سلطانيَّةٌ مسطَّحةٌ من الجمشت.

في الخارج كان يرى القبَّة الضَّخمة للكاتدرائيَّة تلوح في الأفق مثل فقاعةٍ فوق المنازل المظلَّلة، كما كان يرى الحرسَ المرهَقين يسيرون جيئةً وذهابًا على رصيف النَّهر المغطَّى بالضَّباب. بعيدًا، في أحد البساتين، كان عندليبٌ يغنِّي. وعبقٌ خفيفٌ من الياسمين كان يأتيه عبر النَّافذة المفتوحة.

أزال خصلات شعره البنِّيَّة عن جبهته وتناول عـودًا وترك أصابعه تهيم على غير هدىً على أوتاره. تدلَّى جفناه الثَّقيلان وسرى خدرٌ غريبٌ في أنحاء جسمه. لم يسبق له أن شعر بسحر وغموض الأشياء الجميلة بمثل هذا القدر من النَّشوة أو البهجة الرَّائعة.

حين سمع دقَّات ساعة البرج تعلن منتصف اللَّيل، لمس جرسًا قريبًا منه، فسارع لخدمته نفرٌ من الخدم وبدأوا ينزعون عنه ملابسه وفق طقوسٍ ملكيَّةٍ كثيرةٍ، ثمَّ صبُّوا ماء الورد على يديه ونثروا الزُّهور على وسادته، وبعد لحظاتٍ قليلةٍ من مغادرتهم الغرفة، غطَّ في نومٍ عميق.

وبينما هو نائمٌ، رأى حلمًا غريبًا، وكان هذا حلمه:

رأى نفسه واقفًا في علِّيَّةٍ واطئةٍ وطويلةٍ وسط أزيزٍ وقعقعةِ العديد من الأنوال. كان ضوء النَّهار يدخل شاحبًا من النَّوافذ المدجَّجة بالحديد، ويكشف له الهيئات الهزيلة للنَّسَّاجين وهم منكبُّون على آلاتهم، بينما جلس أطفالٌ شاحبون ومريضون على عوارض خشبيَّةٍ ضخمةٍ، وعندما كانت المكاكيك تدورُ لإمرار خيط اللُّحمة، كان الأطفال يرفعون المشابك الخشبيَّة الثَّقيلة، وعندما كانت المكاكيك تتوقَّف، كان الأطفال يتركون تلك المشابك تسقط ثمَّ يرصُّون الخيوط بعضها إلى بعضٍ. كانت وجوههم منكمشةً من الجوع، وأيديهم الهزيلة ترتجف. وكانت بعض النِّساء الواهنات جالساتٍ إلى طاولةٍ يَخِطْنَ. رائحةٌ كريهةٌ ملأت المكان. كان الهواء فاسدًا وثقيلًا والرُّطوبة تتحلَّب وتسيل من الجدران.

اتَّجه الملك الشَّابُّ إلى أحد النَّسَّاجين ووقف بجانبه وراح يراقبه.

ولكنَّ النَّسَّاجَ نظر إليه بغضبٍ وقال: «لماذا تراقبني؟ هل أنت جاسوسٌ عيَّنكَ ربُّ عملنا علينا؟»

ـ «مَن يكون ربُّ عملكم؟» سأل الملك الشَّابُّ.

ـ «تريد أن تعرف من يكون ربُّ عملنا؟» صاح النَّسَّاج بمرارةٍ، «إنَّه إنسانٌ مثلي. وفي الحقيقة، لا فرق بيني وبينه سوى أنَّه يرتدي ملابس راقيةً وأنا أرتدي هذه الخِرَق، وأنَّه بينما أتضوَّر أنا من الجوع، يعاني هو كثيرًا من التُّخمة».

ـ «الأرض واسعةٌ»، قال الملك الشَّابُّ، «وأنت لست عبدًا لأحد».

ـ «ولكن في وقت الحرب،» أجاب النَّسَّاج، «يستعبد الأقوياءُ الضُّعفاء، وفي وقت السِّلم، يستعبدُ الأغنياءُ الفقراء. نحن علينا أن نعمل لنعيش، وهم يعطوننا أجرًا ضئيلًا لنموت. نحن نكدح لهم طوال اليوم، وهم يكدِّسون الذَّهب في خزائنهم، وأطفالنا يذوون قبل أوانهم، وتتخشَّب أمام أعيننا وجوه من نحبُّ. نحن نعصر العنب وغيرنا يشرب النَّبيذ. نحن نبذر البذارَ ومائدتنا تبقى فارغة. مقيَّدون نحن بأصفادٍ لا تراها العيون؛ عبيدٌ نحن مع أنَّ الأنام يدعوننا أحرارًا».

ـ «هل الأمر كذلك مع الجميع؟» سأل الملك الشَّابُّ.

ـ «نعم، الأمر كذلك مع الجميع،» أجاب النَّسَّاج، «الأمر كذلك مع شِيبنا وشبابنا، مع نسائنا ورجالنا، مع أطفالنا الذين لم يخبروا الحياة وكبارنا الذين عركتهم الحياة. التُّجَّار يطحنوننا ونحن مرغمون على الامتثال لطلباتهم. والكاهن يمرُّ بنا وهو يعدُّ خرزات مسبحته، ولا أحد يكترث لأمرنا. في أزقَّتنا غير المشمسة تزحف الفاقة بعيونها الجائعة، وتتبعها الخطيئة بوجهها المتبلِّد. يوقظنا البؤس في الصَّباح، والعارُ يجالسنا في المساء. ولكن ما علاقتك بهذه الأمور وأنت لست منَّا؟ فوجهك طافحٌ

بالسَّعادة». ثمَّ أشاح بوجهه ودفع المكُّوك إلى الجانب الآخر من النَّول، فرأى الملك الشَّابُّ أنَّ الخيوط التي تتخلَّله كانت كلُّها من الذَّهب.

فسرت في أوصاله رعشةُ خوفٍ عظيمٍ، وسأل النَّسَّاجَ: «لمَن هذا الرِّداء الذي تحوكه؟»

- «إنَّه رداءُ تتويج الملك الشَّابِّ،» أجاب النَّسَّاج، «ولكن ما علاقتك أنت بالأمر؟»

وأطلق الملك الشَّابُّ صيحةً مدوِّيةً واستيقظ. إنَّه ما يزال في غرفته الملكيَّة، ورأى من نافذته القمر العسليَّ المهيبَ معلَّقًا في الهواء الغسقيِّ الدَّاكن.

ثمَّ غطَّ ثانيةً في النَّوم وحَلُمَ، وكان هذا حلمه:

رأى نفسه مستلقيًا على سطح سفينةٍ ضخمةٍ يجدِّفها مئة عبدٍ. وعلى سجَّادةٍ بجانبه جلس سيِّد السَّفينة. كان أسود كخشب الأبنوس وعمامته من حريرٍ قرمزيِّ اللَّون. أقراطٌ عظيمةٌ من الفضَّة كانت تسحب إلى الأسفل شحمتَي أذنيه السَّميكتين، وفي يديه أساور من عاج.

كان العبيد عراةً سوى من قطعة قماشٍ مهترئةٍ تستر عوراتهم، وكان كلُّ رجلٍ منهم مقيَّدًا بسلسلةٍ إلى جاره. كانت الشَّمس تسفعهم بحرارتها اللَّاهبة، وكان نفرٌ من الزُّنوج يجوب بين صفوف العبيد وينهال عليهم ضربًا بسياطٍ من الجلد، وكان العبيد يمدُّون أذرعهم النَّحيلة ليدفعوا المجاديف الثَّقيلة في الماء، فيتطاير الرَّذاذ المالح من راحات المجاديف.

أخيرًا وصلوا إلى خليجٍ صغيرٍ، وبدأوا يسبرون الأغوار. هبَّت ريحٌ

خفيفةٌ من الشَّاطئ، وغطَّت سطحَ السَّفينة والشِّراعَ الكبيرَ المثلَّثَ الشَّكل بغبارٍ أحمر ناعم. شاهدهم ثلاثة أعرابٍ يمتطون حُمرًا برِّيَّةً، فرموهم بالرِّماح، فما كان من سيِّد السَّفينة إلَّا أن تناول القوس ورمى أحدهم بسهمٍ فأصابه في حلقه فسقط بشدَّةٍ في الماء واندفع رفيقاه مبتعدَين. تبعتهما ببطءٍ على جملٍ امرأةٌ تضع خمارًا أصفرَ، وكانت بين الفينة والفينة تلتفت إلى الوراء لتلقي نظرةً على الجثَّة.

حالما ألقوا المرساة ورفعوا الأشرعة، نزل الزُّنوج إلى عنبر السَّفينة وجلبوا سلَّمًا طويلًا من الحبال مثقَلًا بشكلٍ كبيرٍ بالرَّصاص. فما كان من سيِّد السَّفينة إلَّا أن ألقاه من أحد جوانب السَّفينة مثبِّتًا نهايتيه بسرعةٍ إلى دعامتين من الحديد، ثمَّ عمد الزُّنوج إلى أصغر العبيد سنًّا ففكُّوا وثاقه، ثمَّ ملأوا أنفه وأذنيه بالشَّمع، وربطوا حجرًا كبيرًا حول خصره. نزل السُّلَّمَ بجهدٍ جهيدٍ واختفى في البحر. ارتفعت بعض الفقاقيع حيث غاص. حدَّق بعض العبيد بفضولٍ إلى ما يجري عند جانب السَّفينة. عندَ مقدِّمة السَّفينة جلس ساحرُ أسماك القرش وكان يدقُّ بإيقاعٍ رتيبٍ على طبلة.

بعد مرور بعض الوقت، خرج الغوَّاص من الماء وتعلَّق بالسُّلَّم وهو يلهث وفي يده اليمنى لؤلؤة. انتزع الزُّنوج اللُّؤلؤة من يده ودفعوه إلى الخلف، بينما أغفى العبيدُ فوق مجاديفهم.

مرارًا وتكرارًا كان الغوَّاص يغطس ويطفو حاملًا معه في كلِّ مرَّةٍ لؤلؤةً جميلة. وكان سيِّد السَّفينة يزن اللآلئ ثمَّ يضعها في جرابٍ صغيرٍ من الجلد الأخضَر.

حاول الملك الشَّابُّ أن يتكلَّم، ولكنَّ لسانه التصق بسقف فمه ورفضت شفتاه أن تتحرَّكا. كان الزُّنوج يتجاذبون أطراف الحديث فيما

بينهم، وبدأوا يتشاجرون حول مسبحةٍ من الخرز البرَّاق، فيما راح كركيَّان يحومان ويحومان فوق السَّفينة.

ثمَّ ظهر الغوَّاص للمرَّة الأخيرة، وكانت اللُّؤلؤة التي أحضرها معه أجمل من كلِّ لآلئ مضيق هرمز، لأنَّها كانت أتمَّ استدارةً من قمرٍ مكتملٍ، وأشدَّ بياضًا من نجمة الصَّباح. ولكنَّ وجهه كان شاحبًا للغاية، وحين ارتمى على سطح السَّفينة تدفَّقت الدِّماء من أذنيه ومنخريه. ارتجف قليلًا، وبعد ذلك فارق الحياة. هزَّ الزُّنوج أكتافهم وألقوا بالجسد في البحر.

ضحك سيِّد السَّفينة ومدَّ يده وأخذ اللُّؤلؤة، وبعد أن حدَّق فيها مليًّا، ضغطها على جبهته وركع وهو يدمدم قائلًا: «يجب أن تكون لصولجان الملك الشَّابِّ»، وأشار إلى الزُّنوج أن يرفعوا المرساة.

وحين سمع الملك الشَّابُّ ذلك، أطلق صيحةً عاليةً واستفاق، ورأى من النَّافذة أصابعَ الفجر الرَّماديَّة الطَّويلة تنشب أظافرها في النُّجوم الباهتة.

ثمَّ غطَّ مرَّةً ثالثةً في النَّوم وحَلُمَ، وكان هذا حلمه:

رأى أنَّه يطوف في غابةٍ معتمةٍ تتدلَّى من أشجارها فواكه غريبةٌ وأزهارٌ جميلةٌ سامَّة. كانت الأفاعي تفحُّ عليه كلَّما مرَّ بقربها، بينما كانت ببَّغاواتٌ زاهيةُ الألوان تزعق وهي تطير من غصنٍ إلى غصن. سلاحف عملاقةٌ كانت تنام في الوحل الحارِّ، وكانت الأشجار تعجُّ بالقِرَدة والطَّواويس.

مشى ومشى حتى وصل إلى أطراف الغابة، وهناك، رأى حشدًا كبيرًا من الرِّجال يكدحون في مجرى نهرٍ جافٍّ. كانوا مجتمعين كالنَّمل عند صخرةٍ كبيرةٍ. بعضهم يحفر حفرًا عميقةً في الأرض وينزل فيها، وبعضهم يشقُّ الصُّخور بفؤوسٍ كبيرةٍ، وبعضهم الآخر يغوص في الرِّمال.

كانوا يقتلعون الصَّبَّار من جذوره، ويدوسون زهورًا بنفسجيَّةً وهم يركضون من مكانٍ إلى مكانٍ ويتصايحون، ولم يكن بينهم رجلٌ واحدٌ بلا عمل.

من ظلمة كهفٍ كان الموتُ والشَّراهة ينظران إليهم، فقال الموتُ: «لقد سئمتُ؛ أعطيني ثلثهم ودعيني أذهب»، ولكنَّ الشَّراهة هزَّت رأسها وأجابت: «إنَّهم عبيدي أنا».

ـ «ما هذا الذي في يدك؟» سألها الموت.

ـ «ثلاث حبَّات ذرة،» أجابت، «وما شأنك بذلك؟»

ـ «أعطيني واحدةً منها،» صاح الموت، «لكي أبذرها في حديقتي؛ واحدةً فقط وسأنصرف عنكِ».

ـ «لن أعطيك شيئًا،» قالت الشَّراهة، ثمَّ أخفت يدها في طيَّات ملابسها.

فضحك الموت، وأخذ طاسةً، وغمسها في بركة ماءٍ، ومن الطَّاسة خرجت الملاريا ومرَّت خلال الجمع الغفير، فمات ثلثه. كان ضبابٌ باردٌ يتبعها، وثعابينُ ماءٍ تزحف بجانبها.

وحين رأت الشَّراهة أنَّ ثلث الجمع قد مات لطمت صدرَها وأعوَلَتْ، ثمَّ راحت تلطم بطنها العاقرَ وهي تصرخ بصوتٍ عالٍ: «لقد قتلتَ ثلثَ عبيدي. انصرفْ من أمام وجهي. ثمَّة حربٌ في جبال طارطاريا وملوكُ كلِّ فريقٍ ينادونك. الأفغان قتلوا الثَّورَ الأسود وهم يزحفون الآن إلى المعركة. لقد ضربوا على دروعهم برماحهم ووضعوا الخُوَذَ الحديدَ. ماذا يغريك بواديَّ هذا لتتلكَّأ فيه؟ انصرفْ ولا تَعُدْ إلى هنا بعد الآن».

ـ «لا!» أجاب الموت، «لن أبرح هذا المكان حتى تعطيني حبَّةً واحدة».

ولكنَّ الشَّراهة أطبقت يدها وكزَّت على أسنانها مهمهمةً: «لن أعطيك شيئًا».

وضحك الموت ورفع حجرًا أسودَ وألقاه في الغابة، ومن أيكة الشُّوكران خرجت الحمَّى في رداءٍ من اللَّهب ومرَّت بين الحشود ولمستهم، وكلُّ مَن لمسته مات. كان العشب يجفُّ تحت قدميها وهي تمشي.

ارتعدت الشَّراهة وراحت تنثر الرَّماد على رأسها. «أنت قاسٍ،» صرخت، «أنت قاسٍ. ثمَّة مجاعةٌ في مدن الهند المحاطة بالأسوار، وآبارُ سمرقند نضبت. ثمَّة مجاعةٌ في مدن مصر المحاطة بالأسوار، والجراد خرج من الصَّحراء. النِّيل لم يفض عن جانبيه، والكهنة لعنوا إيزيس وأوزيريس. اذهب إلى الذين يحتاجون إليك واترك لي عبيدي».

ـ «لا!» أجاب الموت، «لن أبرح هذا المكان حتى تعطيني حبَّةً واحدة».

ـ «لن أعطيك شيئًا»، قالت الشَّراهة.

وضحك الموت مرَّةً أخرى، وصفَّر بأصابعه، فجاءت امرأةٌ تطير في الهواء وقد خُطَّت على جبهتها كلمة «طاعون»، وكان يرافقها سربٌ من النُّسور الهزيلة. غطَّت الوادي بجناحيها، فلم يبق أحدٌ على قيد الحياة.

وولَّت الشَّراهة هاربةً إلى أعماق الغابة وهي تصرخ، بينما امتطى الموت صهوة حصانه الأحمر وانطلق يسابق الرِّيح.

ومن الوحل في قاع الوادي خرجت تزحف تنانينُ ومخلوقاتٌ مرعبةٌ ذات حراشف، وجاءت بنات آوى تهرول على طول الرِّمال وهي تتشمَّم الهواء بخياشيمها.

فبكى الملك الشَّابُّ وقال: «ترى مَن كان هؤلاء الرِّجال؟ وعمَّ كانوا يبحثون؟»

ـ «عن الياقوت من أجل تاج الملك الشَّابِّ»، أجاب رجلٌ كان واقفًا خلفه.

جفل الملك الشَّابُّ واستدار، فرأى رجلًا بدا له حاجًّا وكان يمسك بيده مرآةً من الفضَّة.

فشحبَ وجهُ الملك الشَّابِّ وقال: «أيُّ ملك؟»

فأجاب الحاجُّ: «انظرْ في هذه المرآة تَرَه».

فلمَّا نظر في المرآة ورأى وجهه أطلق صرخةً مدوِّيةً واستيقظ، وكان ضوء الشَّمس السَّاطع يتدفَّق إلى داخل الغرفة، وعلى أشجار الحديقة كانت الطُّيور تغرِّد.

وسرعان ما دخل حاجب البلاط يرافقه كبار موظَّفي المملكة وقدَّموا لجلالته فروض الطَّاعة، وحضر الخدمُ يحملون معهم الرِّداء الملكيَّ الموشَّى بالذَّهب ووضعوا أمامه التَّاج والصَّولجان.

ونظر الملك الشَّابُّ إلى تلك الأشياء، وكانت جميلةً حقًّا، بل كانت أكثر جمالًا من أيِّ شيءٍ رآه في حياته. ولكنَّه تذكَّر أحلامه فقال لحاشيته: «أبعدوا هذه الأشياء عنِّي، لأنَّني لن أرتديها ولن تلمس جسدي».

فاندهش رجال البلاط، وبعضُهم ظنَّ أنَّه كان يمزح فضحكوا.

ولكنَّ الملك خاطبهم مرَّةً أخرى بصرامةٍ قائلًا: «أبعدوا هذه الأشياء عنِّي، وأخفوها عن ناظريَّ. فحتى لو كان هذا يوم تتويجي، لن ألبسها أو

ألمسها. لأنّه على نول الحزن وبأيدي الألم البيضاء نُسِجَ هذا الرِّداء، وفي قلب الياقوت دمٌ وفي قلب اللُّؤلؤ موتٌ». وقصّ عليهم رؤاه الثّلاث.

حين سمع رجال البلاط ذلك، نظر بعضهم إلى بعضٍ وتهامسوا قائلين: «لقد جُنَّ بالتَّأكيد! فما الحلم إلَّا حلمٌ وما الرُّؤيا إلَّا رؤيا. إنَّها ليست أشياء حقيقيَّةً لكي يكترث المرء لها. ثمَّ ما علاقتنا نحن بحياة أولئك الذين يكدحون لنا؟ هل علينا أن نمتنع عن أكل الخبز حتى نرى الزَّارع، وعن شرب النَّبيذ حتى نرى الكرَّام؟»

ثمَّ تحدَّث حاجبُ البلاط إلى الملك قائلًا: «يا مولاي، أناشدك أن تطرح هذه الأفكار السَّوداء جانبًا، وأن تلبس هذا الرِّداء الجميل وتضع هذا التَّاج على رأسك. فكيف سيعرف الشَّعب أنَّك ملكٌ إن لم تكن في حلَّةِ الملوك؟»

فنظر الملك الشَّابُّ إليه وسأله: «هل الأمر كذلك بالفعل؟ أحقًّا لن يعرفني الشَّعبُ كملكٍ إلَّا في حلَّة الملوك؟»

- «لن يعرفك الشَّعب، يا مولاي»، ردَّ الحاجب.

- «كنت أظنُّ أنَّ هناك رجالًا تحسبهم ملوكًا من سيماهم»، ردَّ على الحاجب، «ولكن ربَّما كان الأمر كما تفضَّلتَ بالقول. ومع ذلك، لن أرتدي هذا الرِّداء، ولن أضع هذا التَّاج، ولو تطلَّب الأمر أن أغادر القصر بالملابس التي جئت فيها».

وأمرهم جميعًا بمغادرة غرفته، باستثناء فتىً واحدٍ من وُصفائه كان يصغره بعامٍ. استبقاه معه ليقوم على خدمته، وبعد أن استحمَّ الملك الشَّابُّ في مياهٍ صافيةٍ، فتح صندوقًا كبيرًا ملوَّنًا، وأخرج منه سترةً جلديَّةً

قاسيةً وشَمْلَةً خشنةً من جلد الغنم اعتاد أن يرتديهما حين كان يركض وراء حيواناته التي كان يرعاها على سفوح الرَّوابي، فلبسهما، ثمَّ أخذ عصا الرَّاعي الغليظة بقبضة يده.

ففغر الخادم الصَّغير عينيه الزَّرقاوين الكبيرتين في دهشةٍ، وقال له مبتسمًا: «يا مولاي، إنِّي أرى رداءك وصولجانك، ولكن أين تاجك؟»

فما كان من الملك الشَّابِّ إلَّا أن قطف عسلوجًا مزهرًا من نباتٍ برِّيٍّ كان يتسلَّق شرفته، فثناه وعمل منه حلقةً ووضعه على رأسه.

- «هذا هو تاجي»، أجاب.

وبهذه الهيئة خرج من غرفته إلى الصَّالة الكبرى، حيث كان النُّبلاء وعلِّيَّة القوم في انتظاره.

فتندَّر النُّبلاء عليه، وصاح به بعضهم: «يا مولانا، النَّاس ينتظرون ملكهم وأنت تطلع عليهم بهيئة شحَّاذ؟»، وغضب آخرون وصاحوا: «إنَّه يجلب العار على مملكتنا، وهو لا يستحقُّ أن يكون سيِّدنا». ولكنَّه لم يأبه بهم ولم ينبس ببنت شفةٍ، بل مرَّ بهم ونزل الدَّرجَ السُّماقيَّ البرَّاق وخرج عبْرَ بوَّاباتٍ من البرونز وامتطى صهوة حصانه وراح يعدو نحو الكاتدرائيَّة، وكان خادمه اليافع بجانبه على حصانٍ آخر.

وضحك النَّاس لمَّا وقعت أنظارهم عليه، وقالوا: «ذلك مهرِّج الملك جاء ممتطيًا حصانه»، وسخروا منه.

فشدَّ الملك الشَّابُّ إليه لجامَ حصانه وقال: «لا، بل أنا الملك»؛ وقصَّ عليهم رؤاه الثَّلاث.

فخرج رجلٌ من بين الحشود وقال له بمرارةٍ: «أيْ مولاي، أما تعلم أنَّه

من ترف الأغنياء تأتي حياةُ الفقراء؟ من فخفختكم غذاؤنا، ومن رذائلكم خبزنا. إن الكدح لأجل سيِّدٍ قاسٍ أمرٌ مريرٌ، ولكنَّ الأكثر مرارةً هو ألَّا نجد سيِّدًا نكدح لأجله. أتظنُّ أنَّ الغربان ستطعمنا؟ وأيُّ علاجٍ معك لهذه الأمور؟ هل ستقول للمشتري: اشترِ هذا القَدْر، وللبائع: بعْ بهذا السِّعر. أنا لا أفهم. ولذلك، عُدْ إلى قصرك والبس أرجوانك وثوبكَ الكتَّان النَّاعم. فما شأنك بنا وبما نعانيه؟»

ـ «أليس الغنيُّ والفقير أخَوَين؟» سأل الملك الشَّابُّ.

ـ «نعم،» أجاب الرَّجل، «واسمُ الأخ الغنيِّ قايين».

فاغرورقت عينا الملك الشَّابِّ بالدُّموع وتابع طريقه وهو على حصانه وسط همهمةِ الحشود، وخاف الخادم الصَّغير وتركه.

وحين بلغ بوَّابة الكاتدرائيَّة استوقفه الحرَّاس بحرابهم وقالوا له: «ما جاء بك إلى هنا؟ لا أحد يدخل من هذا الباب إلَّا الملك».

فاحمرَّ وجهه من الغضب وقال لهم: «أنا الملك». فرفعوا حرابهم ودخل.

وحين رآه الأسقف العجوز مُقبِلًا في ثوب راعي الماعز، قام عن كرسيِّه متعجِّبًا وتوجَّه إليه وقال له: «يا بنيَّ، هل هذا لباس ملوكٍ؟ بأيِّ تاجٍ أتوِّجك؟ وأيَّ صولجانٍ أضع في يدك؟ ينبغي أن يكون هذا لك يوم فرحٍ وليس يوم ذلٍّ».

ـ «هل يرتدي الفرحُ ما حاكه الحزن؟»، قال الملك الشَّابُّ، ثمَّ قصَّ عليه رؤاه الثَّلاث.

وحين سمعها الأسقف قطَّب جبينه وقال: «يا بنيَّ، أنا شيخٌ كبيرٌ

وفي شتاء أيَّامي، وأعلم جيِّدًا أنَّ هناك الكثير من الشُّرور في هذا العالَم الشَّاسع. اللُّصوص المتوحِّشون ينزلون من الجبال ويخطفون أطفالنا ويبيعونهم إلى المغاربة، والأسُود تكمن للقوافل وتقفز على الإبل، والخنازير البرِّيَّة تقتلع الذُّرة في الوادي، والثَّعالب تقضم الكروم على التَّلَّة. القراصنة يهاجمون سكَّان السَّاحل ويحرقون مراكب الصَّيد وينهبون شِباكهم، وفي الأهوار يعيش المجذومون في أكواخٍ من القصب المضفور، ولا يقترب منهم أحد، والشَّحَّاذون يجوبون شوارع المدن ويأكلون مع الكلاب. هل يمكنك محو هذه الشُّرور؟ هل ستتَّخذ المجذوم رفيقًا يقاسمك الفِراش، والشَّحَّاذ نديمًا يقاسمك المائدة؟ هل سيطيعك الأسد ويمتثل لك الخنزير؟ أليس مَن خلق البؤس أكثر حكمةً منك؟ ولذلك لن أثني عليك على ما قمت به، بل سأوصيك بأن تعود إلى قصرك وتُبهج نفسك وترتدي ما يليق بملكٍ، وبتاجٍ من ذهبٍ سوف أتوِّجك، وصولجانًا مطعَّمًا باللُّؤلؤ سوف أناولك. أمَّا أحلامك، فلا تفكِّر بها بعد الآن، لأنَّ مآسي هذا العالَم أكبر من أن يتحمَّلها رجلٌ واحدٌ، وأحزان العالَم أثقل من أن يكابدها قلبٌ واحد».

- «أتقول هذا الكلام وأنت في هذا البيت؟» قال الملك الشَّابُّ، ثمَّ تجاوز الأسقفَ وصعد درجات المذبح ووقف أمام صورة المسيح.

وقف أمام صورة المسيح، وكانت أواني الذَّهب البديعة مصفوفةً عن يمينه وعن يساره، وبينها كأسُ القربان مع النَّبيذ الأصفر، وقارورة الزَّيت المقدَّس، فجثا على ركبتيه أمام صورة المسيح، وكانت الشُّموع الكبيرة مضاءةً ببهاءٍ بجوار الضَّريح المرصَّع بالجواهر، ودخان البخور يتلوَّى في

ألسنةٍ زرقاء رفيعةٍ صاعدًا إلى القبَّة. أحنى الملك الشَّابُّ رأسه للصَّلاة، بينما انسلَّ الكهنة بغفائرهم الخشنة تاركين المذبح له وحده.

وفجأةً سُمِعَتْ جلبةٌ رهيبةٌ آتيةٌ من الشَّارع، ودخل النُّبلاء بسيوفٍ مسلولةٍ ورِيَشٍ متدلِّيةٍ ودروعٍ من الفولاذ المصقول، وصاحوا: «أين هو حالم الأحلام هذا؟ أين الملك الذي يرتدي ملابس شحَّاذ ـ الصَّبيُّ الذي جلب العار على مملكتنا؟ سوف نقتله لا محالة، لأنَّه لا يستحقُّ أن يكون حاكمًا علينا».

وأحنى الملك الشَّابُّ رأسه مرَّةً أخرى وصلَّى، وحين انتهى من صلاته قام واستدار ونظر إليهم بحزنٍ.

ولكن انظرْ! من خلال النَّوافذ الملوَّنة دخل ضوء الشَّمس متدفِّقًا عليه، ونسجت أشعَّة الشَّمس حوله رداءً أبهى من الرِّداء الذي صُنِعَ لتتويجه. أزهرت العصا الميِّتة زنابقَ أنصع بياضًا من اللُّؤلؤ، وأزهر الشَّوك الجافُّ وردًا أقنى حمرةً من الياقوت. أنصع بياضًا من اللآَّلئ البديعة كانت الزَّنابق، ومن الفضَّة البرَّاقة كانت سيقانها. أقنى حمرةً من الياقوت كانت الورود، ومن الذَّهب المطروق كانت أوراقها.

وقف هناك في حليةِ ملكٍ يومَ تتويجه، وانفتحت أبواب الضَّريح المرصَّع بالجواهر، ومن بلَّور وعاء القربان المقدَّس المتلألئ شعَّ نورٌ عجيبٌ وغامضٌ. وقف هناك في حلية ملكٍ يومَ تتويجه، وملأ مجدُ الرَّبِّ المكان، وبدا أنَّ القدِّيسين في محاريبهم المنحوتة يتحرَّكون. في حليةِ ملكٍ وقف أمامهم، وجلجلَ الأرغُنُ بموسيقاه، ونفخ عازفو الأبواق في أبواقهم، وترنَّم الصِّبية المنشدون.

فخرَّ النَّاس على رُكَبِهم خشيةً ورهبةً، وأغمد النُّبلاء سيوفهم وقدَّموا له الولاء، وشحب وجه الأسقف وارتعدت يداه، وصرخ: «أعظم من أيِّ تتويجٍ كنت سأتوِّجك به»، وركع أمامه.

ونزل الملك الشَّابُّ عن المذبح العالي، ومرَّ وسط الجموع عائدًا إلى مسكنه. ولكنَّ أحدًا لم يجرؤ على النَّظر إلى وجهه، لأنَّه كان أشبه بوجه ملاك.

عيد ميلاد الإنفانتا

إلى زوجة السَّيِّد وليام هـ. كرنفيل، من بلاط تابلو

يحلُّ اليوم عيد ميلاد الإنفانتا[1]. لقد بلغت الثَّانية عشرة من عمرها، وكانت الشَّمس مشرقةً في حدائق القصر.

ومع أنَّها كانت أميرةً حقيقيَّةً وإنفانتا شرعيَّةً لإسبانيا، إلَّا أنَّها كانت تحتفل بعيد ميلادٍ واحدٍ فقط في العام، تمامًا مثل أطفال الفقراء، ولذلك كان من الأهمِّيَّة بمكانٍ بالنِّسبة إلى البلد بأكمله أن تحظى بيومٍ رائعٍ حقًّا بهذه المناسبة. وكان يومًا رائعًا حقًّا. فزهور التُّوليب الطويلة والمخطَّطة انتصبت على سيقانها مثل صفوفٍ طويلةٍ من الجنود، ونظرت بتحدٍّ، عبْرَ الحشائش، إلى الورود، وقالت لها: «ها نحن باهرات الجمال مثلكِ تمامًا»؛ والفراشات الأرجوانيَّة رفرفت بأجنحتها المكسوَّة بغبار الذَّهب، وهي تتنقَّل من زهرةٍ إلى زهرة؛ والسَّحالي الصَّغيرة تسلَّلت خارجةً من شقوق الجدران، وراحت تتشمَّس في الوهج الأبيض؛ وثمار الرُّمَّان تشقَّقت وتفتَّحت بسبب الحرارة كاشفةً عن قلوبٍ حمراء مُدَمَّاة؛ وحتى ثمار اللَّيمون الصَّفراء الشَّاحبة، تلك التي كانت تتدلَّى بوفرةٍ من التَّعريشات

---

(1) لقبٌ نبيلٌ يُمنَح لبنات ملوك إسبانيا أو البرتغال اللَّواتي لا يحقُّ لهنَّ وراثة العرش. (المترجم).

المهترئة وعلى امتداد الأروقة المعتمة، ظهرت في ذلك اليوم وكأنَّها اكتسبت لونًا أكثر سطوعًا من ضوء الشَّمس الباهر؛ بينما فتحت أشجار المغنوليا أزهارها المطويَّة ككراتٍ عاجيَّة اللَّون وملأت الهواء بعطرٍ ذكيٍّ وثقيل.

والأميرة الصَّغيرة نفسها جابت الحديقةَ ذهابًا وإيابًا مع صويحباتها، ولعبت معهنَّ لعبة الغمَّيضة مختبئةً تارةً وراء الأصص الحجريَّة وتارةً وراء تماثيل عَلَتْها طبقاتٌ من الطَّحالب الخضراء. في الأيَّام العاديَّة كان يُسمح لها باللَّعب مع أولادٍ من مرتبتها فحسب، ولذلك كان عليها دائمًا أن تلعب بمفردها، ولكنَّ عيد ميلادها كان يومًا استثنائيًّا، وقد أصدر الملك أوامره بأنَّه يحقُّ لها في هذا اليوم أن تدعو من تشاء من أصدقائها الذين تحبُّهم ليأتوا ويتسلَّوا معها. طلاوةٌ فخمةٌ كانت تكتنف الأطفال الإسبان النَّحيفين وهم يركضون هنا وهناك، الفتيان بقبَّعاتهم البنفسجيَّة الكبيرة ذات الأرياش ومعاطفهم القصيرة المرفرفة، والفتيات وهنَّ يمسكن بأطراف أثوابهنَّ الطَّويلة المقصَّبة ويحجبن الشَّمس عن أعينهنَّ بمراوح كبيرة سوداء وفضِّيَّة. ولكنَّ الإنفانتا كانت الأجمل والأكثر أناقةً على الإطلاق، وفقًا لموضة تلك الأيَّام التي تعيق الحركة إلى حدٍّ ما. كان معطفها من السَّاتان الرَّماديِّ، وكانت تنُّورتها والأكمام الواسعة المنتفخة مرصَّعةً بالفضَّة، ومشدُّ الخصر أيضًا كان مرصَّعًا بصفوفٍ من اللَّآلئ البديعة، وكانت تنتعل خُفًّا مزدانًا بورودٍ كبيرةٍ ورديَّة اللَّون تطلُّ من تحت فستانها وهي تمشي؛ ورديَّةً ومرصَّعةً باللَّآلئ كانت مروحتها الكبيرة المصنوعة من الشَّاش النَّاعم، وفي شعرها، الذي مثل هالةٍ من الذَّهب كان يبرز بقوَّةٍ حول وجهها الصَّغير الشَّاحب، كانت قد وضعت وردةً بيضاء جميلة.

من نافذته المطلّة على الحديقة، كان الملك الحزين والمنقبض النَّفس يراقبهم، وخلفه وقف أخوه الدُّون بيدرو، حاكم مقاطعة آراغون، الذي كان الملك يبغضه، وبجانبه جلس كبير قضاة محاكم التَّفتيش في مقاطعة غرناطة. ولكنَّ حزن الملك اليوم كان أكبر من المعتاد، لأنَّه وهو ينظر إلى الإنفانتا وهي تنحني لرجال البلاط المحتشدين هنا وهناك في الحديقة، أو وهي تضحك من وراء مروحتها على دوقة ألباكركي الكئيبة التي كانت ترافقها أينما ذهبت، كان يفكِّر كيف أنَّ الملكة الشَّابَّة، والدتها، التي كانت قبل ذلك بفترةٍ قصيرةٍ ـ كما بدا له ـ قد أتت من بلدٍ مبهجٍ كفرنسا، لم تتكيَّف مع أجواء إسبانيا الكئيبة وماتت بعد ستَّة أشهرٍ فقط من ولادة طفلتها، قبل أن ترى أشجار اللَّوز تزهر مرَّتين في البستان، ودون أن تنتظر لتقطف فاكهة العام الثَّاني من شجرة التِّين القديمة والكثيرة العقد التي تنتصب في وسط باحة القصر المزروعة الآن بالأعشاب. لقد كان حبُّه لها عظيمًا لدرجة أنَّه لم يتحمَّل أن يخفيها عن عينيه قبرٌ، فأمر بتحنيطها وقام طبيبٌ مغربيٌّ بذلك، ومنحه الملك لقاءَ تلك الخدمة حياته التي كان سيخسرها بالفعل بسبب اتِّهامه بالهرطقة وببعض الممارسات السِّحريَّة المثيرة للرِّيبة التي حُظِرَت، كما يقول النَّاس، من أجل التَّفرُّغ لواجبات الكنيسة فحسب، وكان جسدها المحنَّط ما يزال مسجًّىً على منصَّةٍ من الرُّخام الأسود في محراب كنيسة القصر، تمامًا كما حملها الرُّهبان في ذلك اليوم العاصف، من شهر آذار، قبل اثني عشر عامًا تقريبًا. مرَّةً كلَّ شهر، كان الملك يتلفَّع بعباءته السَّوداء ويحمل معه فانوسًا خافتَ الإضاءة ويمضي نحو تلك الرُّخامة السَّوداء، فيركع عندها ويظلُّ ينادي: «يا ملكتي! يا ملكتي!»، وأحيانًا كان يكسر الآداب الرَّسميَّة التي كانت تحكم في إسبانيا كلَّ مفصلٍ من مفاصل الحياة

وتضع حدودًا حتى لحزن الملك، ويمسك اليدين الباردتين الشَّاحبتين المزيَّنتين بالجواهر ويظلُّ يبكي بقلبٍ ملتاعٍ ويحاول أن يوقظ بقبلاته المجنونة الوجهَ الباردَ المطليَّ بالمساحيق.

ويبدو أنَّه عزم اليوم على رؤيتها مرَّةً أخرى، كما رآها أوَّل مرَّةٍ في قصر فونتينبلو، عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، وكانت هي أصغر منه، وكان القاصد البابويُّ قد خطبهما رسميًّا بحضور الملك الفرنسيِّ وجميع رجال البلاط، ثمَّ عاد إلى قصره في الإسكوريال حاملًا معه عقصةً صغيرةً من الشَّعر الأشقر وذكرى شفتين طفوليَّتين انحنتا لتقبِّلا يده وهو يهمُّ بركوب عربته، ثمَّ زواجهما الذي أُقيم بعجالةٍ في مدينة بورغوس، وهي بلدةٌ صغيرةٌ تقع على الحدود بين البلدين، ثمَّ دخولهما العلنيُّ المهيبُ إلى مدريد مع احتفالٍ حاشدٍ في كنيسة لا ـ آتوتشا وفقَ ما جرى به العُرف، وكان مع الموكب أيضًا جمعٌ من حوالي ثلاثمئةٍ من الهراطقة الذين سيعدمون حرقًا، وكان بينهم عددٌ كبيرٌ من الإنجليز الذين جرى تسليمهم إلى الذِّراع الدُّنيويَّة[1] لإحراقهم.

من المؤكَّد أنَّه أحبَّها بجنون، أحبَّها حتى على حساب خراب بلده، كما اعتقد الكثيرون، وكانت الحرب مستعرةً مع إنجلترا من أجل الاستيلاء على إمبراطوريَّة العالم الجديد. نادرًا ما كان يسمح بأن تغيب عن ناظريه، ويبدو أنَّه نسي، أو تناسى، كلَّ شؤون الدَّولة الكبيرة وأهمل مواطنيه بسبب حبِّه الأعمى لها؛ وبسبب هذا العمى الرَّهيب الذي تجلبه العاطفة على عبيدها، لم يلاحظ أنَّ الاحتفالات الواسعة التي سعى من خلالها

---

(1) Secular arm، السُّلطة القانونيَّة للسُّلطة المدنيَّة التي تحتجُّ لديها الكنيسة وتطلب منها معاقبة المخالفين. (المترجم).

إلى خلق الابتسامة على شفتيها قد أدَّت إلى تفاقم المرض الغريب الذي كانت تعانيه. وعندما ماتت، بقي لوقتٍ طويلٍ كمن فقد عقله، ولا شكَّ في أنَّه كان سيتنازل عن العرش ويعتكف في دير ترابيست العظيم في مدينة غرناطة، والذي كان بالفعل رئيسَه الشَّرفيَّ، لولا خوفه من ترك الإنفانتا الصَّغيرة تحت رحمة أخيه المعروف بقسوته حتى أمام شعبه، وكان يُشتبَه في أنَّه وراء موت الملكة بإعطائها زوجًا مسمومًا من القفَّازات قدَّمه لها هديَّةً بمناسبة زيارتها قلعته في أراغون. وحتى بعد انقضاء ثلاث سنواتٍ من الحداد العامِّ الذي كان قد أصدر أمرًا ملكيًّا به، ما كان ليهتمَّ بإجراء أيِّ محادثاتٍ مع وزرائه عن أيِّ تحالفاتٍ جديدة، وعندما أرسل إليه الإمبراطور الأعظم السُّفراءَ وقدَّم له يد أرشيدوقةِ بوهيميا الجميلة، ابنةِ أخيه، ليتزوَّجها، قال للسُّفراء الذين حملوا رسالة الإمبراطور أن يُبلِغوا سيِّدهم بأنَّ ملك إسبانيا متزوِّجٌ بالكآبة، ومع أنَّها زوجةٌ عاقرٌ إلَّا أنَّه أحبَّها أكثر ممَّا أحبَّ الجمال؛ إجابةٌ كلَّفت تاجَه كلَّ المقاطعات الهولنديَّة الغنيَّة التي ثارت ضدَّه بعد فترةٍ وجيزةٍ، بتحريضٍ من الإمبراطور، تحت قيادة بعض متعصِّبي الكنيسة الإصلاحيَّة.

بدا أنَّ حياته الزَّوجيَّة بأكملها، بأفراحها الشَّرسة الملتهبة الألوان وبالألم الرَّهيب لنهايتها غير المتوقَّعة، تعود إليه اليوم وهو يشاهد الإنفانتا تلعب في الحديقة. كان لديها أسلوب الملكة المشاكس نفسه، الطَّريقة الجامحة نفسها في إلقاء رأسها إلى الوراء، الفم المكوَّر الجميل والفخور نفسه، الابتسامة الفرنسيَّة الرَّائعة نفسها وهي تنظر بين الحين والآخر إلى النَّافذة، أو تمدُّ يدها الصَّغيرة ليقبِّلها رجالات إسبانيا الكبار. ولكنَّ الضَّحك الحادَّ للأطفال أزعج أذنيه، وأشعَّة الشَّمس السَّاطعة سخرت من حزنه، وبدا له ـ

أم خُيِّل إليه؟ - أنَّ رائحةً خفيفةً من البهارات الغريبة، كتلك التي يستخدمها المحنِّطون، تلطِّخ الهواءَ الصَّباحيَّ الصَّافي. دفن وجهه بين يديه، وعندما نظرت الإنفانتا إلى الأعلى مرَّةً أخرى، كانت السَّتائر قد أُسدِلَت واختفى الملك.

زمَّت شفتيها وهزَّت كتفيها بخيبة أمل. فبالتَّأكيد، كان الأجدر به أن يبقى معها في عيد ميلادها، وألَّا يذهب لقضاء شؤون المملكة التَّافهة. أم تُراه ذهب إلى تلك الكنيسة القاتمة حيث الشُّموع مشتعلةٌ على الدَّوام، وحيث لا يُسمح لها بالدُّخول البتَّة؟ يا له من تصرُّفٍ سخيفٍ منه الآن بينما الشَّمس مشرقةٌ ببهاءٍ، وكلُّ فردٍ في المملكة طافحٌ بالبِشر والسُّرور! وإلى جانب ذلك، ستفوته مصارعة الثِّيران الوهميَّة التي كان البوق قد أعلن انطلاقَها بالفعل، ناهيك عن عرض الدُّمى والأشياء الرَّائعة الأخرى. كان عمُّها وكبير قضاة محاكم التَّفتيش أكثر عقلانيَّةً منه، فقد نزلا إلى الحديقة ليقدِّما لها مجاملاتٍ لطيفةً تقبَّلتها بكلِّ سرورٍ وهي ترفع رأسها الجميل، ثمَّ أمسكت بيد الدُّون بيدرو وسارت معه ببطءٍ صاعدةً الدَّرجات نحو الجناح الطَّويل الموشَّى بالحرير الأرجوانيِّ والمُقام في نهاية الحديقة خصِّيصًا لهذه المناسبة، وتبعها الأطفال الآخرون بتراتبيَّةٍ صارمةٍ، فأولئك الذين لديهم أطول الأسماء يأتون أوَّلًا.

وخرج موكبٌ من أولاد النُّبلاء، يرتدون ملابس مصارعي الثِّيران، لمقابلتها، وتقدَّم منها كونتُ تييرَّا نويفا، الفتى الوسيمُ ابنُ الأربعة عشر عامًا، الحاملُ في دمه كلَّ ألق ونبل أصله الإسبانيِّ السَّامي، وقادها من يدها إلى عرشٍ مصغَّرٍ من الذَّهب والعاج وُضِع على منصَّةٍ مرتفعةٍ قليلًا عن أرض الميدان. تجمَّع الأطفال في جميع الأنحاء وهم يروِّحون بمراوحهم

اليدويَّة الكبيرة ويتهامسون فيما بينهم، بينما وقف عمُّها الدُّون بيدرو وكبيرُ قضاة محاكم التَّفتيش يضحكان عند المدخل، وحتى الدُّوقة، مسؤولة خزانة الملابس كما كانت تُدعَى، وهي امرأةٌ نحيفةٌ، متجهِّمة الملامح مع طوقٍ مكشكَشٍ أصفر، لم تبدُ سيِّئة المزاج كعادتها، وكان شيءٌ أشبه بابتسامةٍ مرتعشةٍ يرفرف على وجهها المتجعِّد ويقلِّص شفتيها الرَّقيقتين والشَّاحبتين.

لقد كانت حقًّا مصارعة ثيرانٍ رائعةً، بل كانت في نظر الإنفانتا أجمل بكثيرٍ من مصارعة الثِّيران الحقيقيَّة التي أخذوها لتشاهدها في مدينة إشبيلية بمناسبة زيارة دوق بارما لوالدها الملك. كان بعض الأولاد يتبخترون على ظهور أحصنةٍ خشبيَّةٍ مزركشةٍ ملوِّحين برماحٍ طويلةٍ ذات شرائط برَّاقةٍ، بينما كان بعضهم الآخر يتبخترون على الأقدام ملوِّحين بعباءاتهم القرمزيَّة أمام الثَّور وقافزين بخفَّةٍ فوق الحاجز كلَّما هاجمهم، أمَّا الثَّور نفسه فكان يشبه الثَّور الحقيقيَّ، ولكنَّه كان من الخوص والجلد المنفوخ، وكان أحيانًا يصرُّ على الرَّكض حول المضمار على قدميه الخلفيَّتين وحدهما، وهو ما لا يحلم به أيُّ ثورٍ حيٍّ. لقد خاض معركةً رائعةً حقًّا، بحيث أثار حماس جميع الأطفال الذين وقفوا على المقاعد ولوَّحوا بمناديلهم وصاحوا مشجِّعين: برافو تُورو، برافو تُورو! تمامًا كما لو كانوا أشخاصًا بالغين. وأخيرًا، وبعد معركةٍ طويلةٍ، نزفت خلالها الخيول الدِّماء المزيَّفة، وترجَّل عنها الفرسان، جعل كونتُ تييرًا نويفا الحديثُ السِّنِّ الثَّورَ يخرُّ على رُكَبه، وبعد أن استأذن الإنفانتا ليغرز سيفه الخشبيَّ في رقبة الثَّور، فصلَ بحركةٍ سريعةٍ وعنيفةٍ رأسَ الثَّور عن جسده، كاشفًا عن الوجه الضَّاحك لمسيو دي لورين الصَّغير، نجل السَّفير الفرنسيِّ في مدريد.

ثمَّ أُخلي المضمار وسط تصفيقٍ شديدٍ، وسُحِبَت الأحصنة الخشبيَّة الميِّتة بعيدًا من قِبَل خادمين مغربيَّين يرتديان زيًّا أسود وأصفر، وبعد فاصلٍ قصيرٍ، أدَّى خلاله أحد لاعبي الحركة الفرنسيِّين فقرةَ المشي على حبلٍ مشدود، قُدِّمت مسرحيَّة عرائس إيطاليَّةٌ كلاسِّيكيَّةٌ، بعنوان مأساة سَفَنْبَعْل، على مسرحٍ صغيرٍ أُنشئ مؤقَّتًا لهذا الغرض، وكان أداؤهم جيِّدًا وبدت إيماءاتهم طبيعيَّةً، لدرجة أنَّ عيني الإنفانتا اغرورقتا بالدُّموع في نهاية العرض. وفي الواقع، لقد بكى بعض الأطفال من شدَّة التَّأثُّر، فكان لا بدَّ من تهدئتهم ببعض الحلوى، كما تأثَّر كبير قضاة محاكم التَّفتيش أيضًا لدرجة أنَّه لم يستطع منع نفسه من أن يقول للدُّون بيدرو إنَّ قلبه لا يحتمل أن يرى عرائس مصنوعةً من الخشب والشَّمع الملوَّن، وتتحرَّك ميكانيكيًّا بواسطة أسلاكٍ، تعيسةً للغاية وتواجه مثل هذه المآسي الرَّهيبة.

بعد ذلك بدأ مشعوذٌ إفريقيٌّ عَرْضَه، فأحضر سلَّةً كبيرةً مسطَّحةً ومغطَّاةً بقطعة قماشٍ حمراء، ووضعها في وسط المضمار، ثمَّ أخرج من عمامته نايًا غريبًا من القصب وراح ينفخ فيه، وما هي إلَّا لحظاتٌ حتى بدأت قطعة القماش تتحرَّك، ومع ارتفاع نغمة النَّاي أكثر فأكثر، أخرج ثعبانان أخضران وذهبيَّان رأسيهما الغريبَين الشَّبيهَين بإسفينَين صغيرَين وأخذا يرتفعان ببطءٍ شديدٍ ويتمايلان ذات اليمين وذات الشِّمال مع الموسيقى تمايُلَ نباتٍ في الماء. ولكنَّ الأطفال خافوا إلى حدٍّ ما من رأسيهما المرقَّطَين ولسانيهما الوثَّابَين كسهمَين سريعَين، وكانوا أكثر سعادةً عندما جعل المشعوذُ شجرة برتقالٍ صغيرةً تخرج من الرِّمال وتحمل أزهارًا بيضاء جميلةً ومجاميعَ من ثمارٍ حقيقيَّةٍ؛ وعندما أخذ مروحةَ الابنة الصُّغرى لماركيز لاس توريس، وحوَّلها إلى طائرٍ أزرق راح يطير في جميع أنحاء الحديقة ويغرِّد، لم تكن

فرحة الأطفال ودهشتهم لتعرفان حدودًا؛ كما سحرتهم رقصة المينويت الهادئة التي أدَّاها صِبيةُ كنيسة «سيِّدة بيلار» الرَّاقصون. وفي الواقع، لم يسبق للإنفانتا أن شاهدت هذا الاحتفال الرَّائع الذي يُقام في شهر أيَّار من كلِّ عامٍ، أمام مذبح السَّيِّدة العذراء، على شرفها؛ وبالفعل، لم يدخل أيُّ فردٍ من أفراد العائلة المالكة في إسبانيا كاتدرائيَّة سرقسطة العظيمة منذ أن حاول كاهنٌ مجنونٌ كان يعمل سرًّا، كما يُقال، لحساب إليزابيث ملكة إنجلترا، أن يعطي أمير أستورياس رقاقةً مسمومة. ولذلك كانت الإنفانتا تعرف من خلال ما كانت تسمعه فحسب عن «رقصة سيِّدتنا العذراء، كما كانت تُسَمَّى، وكان بالتَّأكيد مشهدًا يبهج النَّاظرين. كان الصِّبية الرَّاقصون يرتدون ملابس البلاط التَّقليديَّة المصنوعة من المخمل الأبيض، ويضعون قبَّعاتٍ غريبةً ثلاثيَّة الزَّوايا موشَّاةً بالفضَّة وتعلوها ريشةٌ طويلةٌ من ريش النَّعام، ومن ذلك البياض المبهر لأزيائهم، وهم يتمايلون في ضوء الشَّمس، برزت وجوههم الدَّاكنة البشرة وشعرهم الأسود الطَّويل. كان الجميع مفتونًا بالوقار المهيب الذي كانوا يؤدُّون به حركات الرَّقصة المعقَّدة، وبالتَّناسق المتقَن لإيماءاتهم البطيئة وانحناءاتهم الفخمة، وحين انتهوا من أدائهم ورفعوا للإنفانتا قبَّعاتهم ذات الأرياش، قابلت هذه الأخيرة صنيعهم بكلِّ تقديرٍ وامتنانٍ وتعهَّدت بأنَّها سترسل شمعةً كبيرةً إلى ضريح «سيِّدة بيلار» عرفانًا منها بالسُّرور الذي أدخلوه على قلبها.

ثمَّ دخلت المضمارَ مجموعةٌ من الرَّاقصين المصريِّين ـ كما كان يُطلق على الغجر في تلك الأيَّام ـ وجلسوا في حلقةٍ متصالبي الأرجل، وبدأوا يعزفون على القانون ويتمايلون مع الموسيقى ويدندنون، بصوتٍ خافتٍ، لحنًا بطيئًا حالمًا. وحين وقعت أبصارهم على الدُّون بيدرو

اكفهرَّت وجوههم، وبدا بعضهم مرعوبًا، لأنَّه قبل بضعة أسابيع فحسب أمر بشنق اثنين من أبناء قبيلتهم بتهمة ممارسة الشَّعوذة في سوق إشبيلية، ولكنَّ الإنفانتا الجميلة فتنتهم وهي تميل قليلًا وترمقهم بعينيها الزَّرقاوَين السَّاحرتَين من وراء مروحتها، وشعروا بالثِّقة في أنَّ مخلوقًا جميلًا مثلها لا يمكن أن يُلحق الأذى بأيِّ شخص. ولذلك استمرُّوا في العزف برقَّةٍ كبيرةٍ لامسين الأوتار بأظافرهم الطَّويلة المدبَّبة بينما رؤوسهم تميل كأنَّما أخذهم النَّوم. ولكن فجأةً، مع صيحاتٍ عاليةٍ جعلت جميع الأطفال يُصابون بالذُّهول وجعلت الدَّون بيدرو يمسك بمقبض خنجره المرصَّع بالعقيق، قفزوا على أقدامهم وراحوا يدورون بجنونٍ في المضمار المسيَّج وهم يضربون الدُّفوف ويغنُّون أغاني الغزل الجامحة بلغتهم الجشَّاء الغريبة. ثمَّ، وعند إشارةٍ أخرى، ألقوا بأنفسهم إلى الأرض وظلُّوا ساكنين تمامًا، حيث كانت همهمات آلات القانون الباهتة هي الصَّوت الوحيد الذي يكسر الصَّمت. وبعد أن فعلوا ذلك عدَّة مرَّاتٍ، اختفوا للحظةٍ وعادوا يقودون بسلسلةٍ دبًّا بنِّيًّا أشعث، ويحملون على أكتافهم بعض القرود البربريَّة الصَّغيرة. وقف الدُّبُّ على رأسه بأقصى قدرٍ من التَّوازن، وقامت القرود بشتَّى أنواع الحيل برفقة صبيَّين غجريَّين بدا أنَّهما سيِّداها، كما أنَّها تبارزت بسيوفٍ صغيرةٍ وأطلقت النَّار من بنادق صغيرةٍ وأدَّت حركاتٍ يؤدِّيها كلُّ جنديٍّ أوَّل انخراطه في الجنديَّة، مثلما هو الأمر بالنِّسبة إلى الحرس الشَّخصيِّ للملك. في الواقع، لقد حقَّق الغجر نجاحًا باهرًا.

ولكنَّ الفقرةَ الأكثر إضحاكًا بين جميع فقرات ذلك الصَّباح كانت بلا شكٍّ رقصة القزم الصَّغير. فعندما دخل المضمار متعثِّرًا، يتمايل على ساقيه المعقوفتين ويهزُّ رأسه الضَّخم المشوَّه من جانبٍ إلى آخر، أطلق الأطفال

صيحة فرحٍ عاليةً، والإنفانتا نفسها ضحكت كثيرًا لدرجة أنَّ مسؤولة خزانة الملابس اضطرَّت إلى تذكيرها بأنَّه على الرَّغم من وجود العديد من السَّوابق في إسبانيا لابنة ملكٍ تبكي أمام نظيراتها، لم يحدث أبدًا أنَّ أميرةً يجري في عروقها دم الملوك ضحكت أمام من هم أقلُّ شأنًا منها، مولدًا ومكانة. ولكنَّ القزم كان حقًّا شيئًا لا يُقاوَم، فحتى في البلاط الإسبانيِّ، المعروف بولعه بكلِّ ما هو شنيع، كانت هذه المرَّة الأولى التي يُشاهَد فيها مثل هذا المسخ الرَّائع. وكان هذا أوَّل ظهورٍ له، أيضًا. فقد عُثر عليه قبل يومين فحسب وهو يركض في الغابة، إذ صادفه اثنان من النُّبلاء كانا يصطادان في الجزء الأبعد من غابة الفلِّين الشَّاسعة التي تحيط بالمدينة، فحملاه معهما إلى القصر كمفاجأةٍ للإنفانتا، ويبدو أنَّ والده، وكان فحَّامًا فقيرًا، كان سعيدًا للغاية بالتَّخلُّص من طفلٍ قبيحٍ وعديم الفائدة. وربَّما كان أفضل ما في هذا القزم هو عدم إدراكه لقباحة مظهره، فقد بدا سعيدًا جدًّا ومفعمًا بالحيويَّة. حين كان الأطفال يضحكون، كان يضحك باسترسالٍ وبهجةٍ كأيٍّ واحدٍ منهم، وفي ختام كلِّ رقصةٍ كان ينحني لكلٍّ منهم أظرف انحناءةٍ، مبتسمًا وموميًّا برأسه، كما لو كان حقًّا واحدًا منهم وليس مجرَّد شيءٍ ضئيلٍ مشوَّهٍ صاغته الطَّبيعة، في نزوةٍ مُزاحٍ، ليكون مَضحكةً للآخرين. أمَّا بالنِّسبة إلى الإنفانتا، فقد فَتَنَتْه تمامًا ولم يستطع تحويل ناظريه عنها، وبدا وكأنَّه كان يرقص لها وحدها، وحين تذكَّرت في ختام العرض كيف رأت سيِّدات البلاط المرموقات يلقين بباقات الزَّهر إلى كافَّاريلِّي، السُّوبرانو الإيطاليِّ الشَّهير الذي أرسله بابا روما من جوقته الخاصَّة إلى مدريد لكي يعالج برخامة صوته كآبةَ الملك، نزعت من شعرها الوردة البيضاء الجميلة التي تزيِّنه، وعلى سبيل الدُّعابة من ناحيةٍ، ولمضايقة

مسؤولة خزانة الملابس من ناحيةٍ أخرى، ألقت بها إليه عبْرَ المضمار وهي ترسم ابتسامةً جميلةً على شفتيها، فأخذ هو الأمر على محمل الجدِّ وجعل يضغط الوردة على شفتيه الخشنتين الغليظتين ثمَّ وضع يده على قلبه ونزل جاثيًا على ركبةٍ واحدةٍ وابتسامته من الأُذن إلى الأُذن، وعيناه الصَّغيرتان تشعَّان بهجةً وحبورًا.

زاد هذا الفعل من جاذبيَّة الإنفانتا التي استمرَّت في الضَّحك لفترةٍ طويلةٍ بعد أن خرج القزم من المضمار، وأعربت لعمِّها عن رغبتها في إعادة هذه الرَّقصة في الحال. ولكنَّ مسؤولة خزانة الملابس تدخَّلت ومنعت ذلك بدعوى أنَّ حرارة الشَّمس كانت قد اشتدَّت، وقرَّرت أنَّ من الأفضل أن تعود صاحبة السُّموِّ دون تأخيرٍ إلى القصر، حيث أُعِدَّت وليمةٌ فاخرةٌ على شرفها، بما في ذلك كعكة عيد ميلادٍ حقيقيَّةٌ معمولٌ عليها بقطعٍ محلَّاةٍ بالسُّكَّر الحروف الأولى من اسمها، وعلمٌ فضِّيٌّ جميلٌ يرفرف على قمَّتها، فما كان من الإنفانتا، إلَّا أن نهضت بكلِّ مهابتها وأعطت أوامرها للقزم بأن يرقص لأجلها مرَّةً أخرى بعد قيلولة الظَّهيرة، ولم تنس أن توجِّه شكرها الجزيل إلى كونت تييرًا نويفا الشَّابِّ على استقباله السَّاحر لها، ثمَّ عادت إلى جناحها وتبعها الأطفال بالتَّرتيب نفسه الذي دخلوا به.

وحين سمع القزم أنَّ هناك جولة رقصٍ أخرى سيؤدِّيها أمام الإنفانتا، وبأمرٍ صريحٍ منها شخصيًّا، أخذه الزَّهو لدرجة أنَّه ركض إلى الحديقة وهو يقبِّل الوردة البيضاء بنشوةٍ مثيرةٍ للضَّحك، ويصنع أكثر حركات التَّعبير عن الفرح سُخفاً وفظاظةً.

ولكنَّ الأزهار غضبت للغاية من جرأته على اقتحام منزلها الجميل،

وحين رأينه يقفز جيئةً وذهابًا، ويلوِّح بذراعيه فوق رأسه بطريقةٍ سخيفةٍ، لم يعد بإمكانهنَّ كبح جماح مشاعرهنَّ أكثر من ذلك.

ـ «إنَّه من القُبح بحيث ما كان ينبغي أن يُسمَح له باللَّعب في أيِّ مكانٍ نوجد فيه نحن»، صاحت أزهار التُّوليب.

ـ «كان ينبغي أن يشرب شرابَ الخشخاش وينام ألف عام»، قالت الزَّنابق القرمزيَّة الكبيرة وقد بلغ بهنَّ الغضب مبلغًا بعيدًا.

ـ «إنَّه الشَّناعة بعينها»، صاح الصَّبَّار، «ألا ترون؟ إنَّه مكوَّرٌ وقصيرٌ، ورأسه غير متناسبٍ أبدًا مع ساقيه. حقًّا إنَّه يجعلني أشعر بالوخز في كلِّ موضعٍ من جسدي، وإذا اقترب منِّي فسوف ألسعه بأشواكي».

ـ «لقد حصل بالفعل على وردةٍ من أجمل ورودي»، صاحت شجرة الورد البيضاء، «لقد أعطيتها للإنفانتا بنفسي هذا الصَّباح، كهديَّةٍ منِّي بمناسبة عيد ميلادها، وقد سرقها منها،» ثمَّ راحت تصيح بأعلى صوتها، «حرامي، حرامي، حرامي!»

حتى أزهار الغرنوقيِّ الحمراء التي نادرًا ما كانت تتعالى على أحدٍ وكان لها الكثير من العلاقات بمن هم أدنى منزلةً منها، التفَّت على نفسها اشمئزازًا حين وقع نظرها عليه، وحين قالت لها أزهار البنفسج بوداعةٍ إنَّ تلك البساطة المفرطة أمرٌ متأصِّلٌ فيه لا يقدر على تغييره، رددن بحجَّةٍ معاكسةٍ فيها قدرٌ كبيرٌ من الإنصاف بأنَّ ذلك هو عيبه الرَّئيس، وأنَّه لا يوجد مبرِّرٌ يدعو المرء إلى الإعجاب بشخصٍ ما لمجرَّد أنَّه غير قابلٍ للشِّفاء؛ وبالفعل شعرت بعض البنفسجات أنَّ قُبح القزم كان تفاخريًّا إلى حدٍّ ما، وأنَّه كان سيُظهر ذوقًا أفضل بكثيرٍ لو بدا حزينًا، أو على الأقلِّ متأمِّلًا،

بدلًا من القفز هنا وهناك بمرحٍ ورمي نفسه إلى مثل هذه المواقف الغريبة والسَّخيفة.

أمَّا السَّاعة الشَّمسيَّة القديمة، وكانت شخصيَّةً مرموقةً للغاية، ذلك أنَّها في إحدى المرَّات أخبرت بالوقت شخصًا لا يقلُّ مكانةً عن مكانة الإمبراطور تشارلز الخامس، فقد تفاجأت بمظهر القزم الصَّغير لدرجة أنَّها نسيت أن تشير إلى دقيقتين كاملتين بإصبعها الظَّليل الطَّويل، ولم تستطع منع نفسها من أن تقول لأنثى الطَّاووس البيضاء كالحليب، والتي كانت تتشمَّس على الدَّرابزين، إنَّ الجميع يعرف أنَّ الملوك لا يلدون إلَّا ملوكًا والفحَّامين لا يلدون إلَّا فحَّامين، وإنَّ من العبث التَّظاهر بعكس ذلك، وقد وافقت أنثى الطَّاووس على كلامها، وصاحت: «نعم، بالتَّأكيد، نعم، بالتَّأكيد!» بصوتٍ أجشَّ وعالٍ سمعته الأسماك الذَّهبيَّة التي كانت تعيش في حوض النَّافورة المنعشة، فأخرجت رؤوسها من الماء وسألت تماثيل التِّرايتون الحجريَّة الضَّخمة عمَّا يجري على الأرض.

ولكن بطريقةٍ ما أحبَّته الطُّيور. لقد رأته كثيرًا في الغابة يرقص هنا وهناك مثل جنِّيٍّ صغيرٍ وراء الأوراق المدوِّمة في الرِّيح، أو جاثمًا في جوف إحدى أشجار البلُّوط القديمة يتقاسم الجوز مع السَّناجب. لم تجد الطُّيور غضاضةً في كونه قبيحًا بعض الشَّيء، وحتى أنثى العندليب نفسها، التي طالما غنَّت في اللَّيل بعذوبةٍ في بساتين البرتقال، لدرجة أنَّ القمر نفسه كان ينحني ليستمع إلى غنائها، لم تكن لتبالي بقبحه؛ ناهيك عن أنَّ القزم كان لطيفًا معهم، ففي عزِّ ذلك الشِّتاء القارس، عندما لم يكن هناك توتٌ على الأشجار، وكانت الأرض جامدةً كالحديد، ونزلت الذِّئاب إلى بوَّابات

المدينة بحثًا عن الطَّعام، لم ينسهم أبدًا، بل كان يعطيهم دائمًا الفتات من كسرات خبزه الأسود، ويقاسمهم أيَّ إفطارٍ بسيطٍ يتناوله.

ولذلك جاءت الطُّيور تطير حوله، بل وتلمس خدَّه بأجنحتها في أثناء مرورها به، ولم تتوقَّف عن الزَّقزقة، وكان القزم مسرورًا جدًّا لدرجة أنَّه أظهر لها الوردة البيضاء الجميلة وأخبرها أنَّ الإنفانتا أعطته إيَّاها لأنَّها أحبَّته.

لم تفهم الطُّيور كلمةً واحدةً ممَّا قاله لها، ولكنَّ ذلك لم يكن مهمًّا، فقد أمالت رؤوسها بشكلٍ جانبيٍّ، وبدت حكيمةً، وهذا في حدِّ ذاته أمرٌ جيِّدٌ كفهمِ الشَّيء تمامًا، بل وأسهل بكثير.

أمَّا السَّحالي فقد اهتممن بالقزم كثيرًا، فحين تعب من الرَّكض وارتمى على العشب ليرتاح قليلًا، أتين ليلعبن ويتجوَّلن حوله، وحاولن تسليته بأفضل طريقةٍ ممكنةٍ، ورحن يقلن: «ليس بوسع كلِّ مخلوقٍ أن يكون جميلًا كالسَّحالي. سيكون ذلك أكثر من المتوقَّع، ولكنَّه ليس قبيحًا جدًّا بعد كلِّ شيءٍ، مع أنَّ من السُّخف قول ذلك، طبعًا بشرط أن يغمض المرء عينيه ولا ينظر إليه». كانت السَّحالي بطبيعتها ميَّالةً إلى التَّفلسف، وكثيرًا ما كنَّ يجلسن معًا ويفكِّرن لساعاتٍ وساعات، خاصَّةً عندما لا يكون هناك شيءٌ آخر ليفعلنه، أو عندما يكون الطَّقس ماطرًا ويتعذَّر عليهنَّ الخروج».

ولكنَّ الأزهار انزعجت بشدَّةٍ من تصرُّفها ومن تصرُّف الطُّيور أيضًا، وقلن: «هذا يُظهر شيئًا واحدًا فحسب. إنَّه يُظهر الجوهر المبتذَل لهذا الاندفاع المستمرِّ ولذاك الطَّيران. أمَّا بنات الحسب والنَّسب فيحافظن دائمًا على البقاء في المكان نفسه، تمامًا كما نفعل نحن. فلم يحدث أن رآنا

أحدٌ مرَّةً نقفز جيئةً وذهابًا في الممرَّات، أو نركض بجنونٍ خلف يعسوب. فإن أردنا التَّغيير أرسلنا وراء البستاني، وهو يحملنا إلى مسكبةٍ أخرى. هذا هو الوقار، وهذا ما يجب أن يكون. أمَّا الطُّيور والسَّحالي فليس لديها أيُّ إحساسٍ بالرَّفاهية، بل إنَّ الطُّيور، في الواقع، لا تملك حتى عنوانًا دائمًا. إنَّهم متشرِّدون كالغجر، ويجب أن يُعامَلوا بالطَّريقة نفسها تمامًا». وهكذا، شمخت الأزهار بأنوفهنَّ وبدون متعجرفاتٍ للغاية، وكانت سعادتهنَّ غامرةً حين رأين، بعد فترةٍ من الوقت، القزمَ الصَّغيرَ ينهض مندفعًا من بين العشب ويشقُّ طريقه عبْرَ الحديقة إلى القصر.

ـ «لا شكَّ أنَّ مخلوقًا بمثل قباحته يجب أن يظلَّ سجينًا طوال حياته. انظروا إلى ظهره المحدودب وساقيه المعقوفتين!»، قلن ورحن يضحكن ضحكاتٍ مكبوتة.

ولكنَّ القزم الصَّغير كان غافلًا عن كلِّ هذا. لقد أحبَّ الطُّيور والسَّحالي كثيرًا، وكان يرى أنَّ الزُّهور هي أروع شيءٍ في العالم، طبعًا باستثناء الإنفانتا، ولكنَّها أعطته الوردة البيضاء الجميلة، وأحبَّته، وقد أحدث هذا فرقًا كبيرًا. كم يتمنَّى لو أنَّه رجع معها إلى القصر! لكانت بالتَّأكيد أجلسته على يمينها، وابتسمت له، وما كان ليبرح جانبها أبدًا، بل كان سيجعلها رفيقته في اللَّعب، وسيعلِّمها كلَّ الحِيَل المبهجة. صحيحٌ أنَّه لم يعش في قصرٍ قَطُّ، إلَّا أنَّه كان يعرف الكثير من الأمور الرَّائعة. يمكنه، مثلًا، أن يصنع من الأسل أقفاصًا صغيرةً للجنادب لتغنِّي بداخلها، وأن يعمل من الخيزران الطَّويل نايًا يطيب للإله «بان» نفسه أن يستمع إلى أنغامه. وكان يعرف نداء كلِّ طائر، ويمكنه أن ينادي الزَّرازير لتأتيه من أعالي الشَّجر، أو البلاشين لتأتيه من أيَّة بركة ماء، كما كان يعرف أثر كلِّ حيوان، ويمكنه تتبُّع

الأرانب من آثار أقدامها اللَّطيفة، والخنازير من أوراق الشَّجر المدوسة. كلُّ الرَّقصات البرِّيَّة كان يعرفها، الرَّقصة المجنونة بالثِّياب الحمراء في فصل الخريف، والرَّقصة الخفيفة بالأخفاف الزَّرقاء في حقول الذُّرة، وتلك الرَّقصة مع أكاليل الثَّلج البيضاء في فصل الشِّتاء، ورقصة الأزهار في البساتين في فصل الرَّبيع. كان يعرف أين يبني حمام الغابات أعشاشه، وذات مرَّةٍ، أوقع أحد صيَّادي الطُّيور الحمامات الكبيرة في فخاخه، فقام بتربية الزَّغاليل بنفسه وصنع لها فجوةً في جذع شجرة دردارٍ مقطوعةِ التَّاج، وكانت الزَّغاليل وديعةً وأليفةً، حتى إنَّها كانت تأكل من يديه كلَّ صباح. كانت الإنفانتا ستحبُّهم، وكانت ستحبُّ الأرانب وهي تركض بسرعةٍ في السَّرخس الطَّويل، وطيورَ أبي زُرَيق وهي تتهادى بريشها الصُّلب ومناقيرها السَّوداء، والقنافذَ وهي تتكوَّر على أنفسها مثل كراتٍ شائكة، والسَّلاحفَ الحكيمةَ الضَّخمةَ التي تمشي الهوينى وتهزُّ برؤوسها وتقضم الأوراق الغضَّة. نعم، يجب على الإنفانتا من كلِّ بدٍّ أن تأتي إلى الغابة وتلعب معه. كان سيعطيها سريره الصَّغير، وسيسهر هو عند النَّافذة حتى الفجر، ليتأكَّد من أنَّ الماشية البرِّيَّة ذات القرون لن تؤذيها، وأنَّ الذِّئاب الهزيلة لن تقترب من الكوخ؛ وعند انبلاج الفجر، سيدقُّ على مصراع النَّافذة ويوقظها ليخرجا ويرقصا معًا طوال النَّهار. لم يكن وحيدًا أبدًا في الغابة. فأحيانًا، كان الأسقف يمرُّ في الغابة راكبًا بغلته البيضاء وهو يقرأ في كتابٍ مصوَّر. وأحيانًا، كان الصَّقَّارون يمـرُّون بقبَّعاتهم المخمليَّة الخضراء وستراتهم القصيرة المصنوعة من جلود الغزلان المدبوغة، حاملين الصُّقور المقنَّعة على معاصمهم. وأحيانًا أخرى، في موسم محصول العنب، كان يأتي هارسو العنب، وقد تلوَّنت أيديهم وأرجلهم بلونٍ بنفسجيٍّ، ووضعوا على

رؤوسهم أكاليل اللَّبلاب اللَّامع، حاملين قِرَبًا جلديَّةً يقطر منها النَّبيذ؛ وفي اللَّيل يجلس الفحَّامون حول مجامرهم الضَّخمة ويراقبون احتراق جذوع الأشجار الجافَّة وهي تتفحَّم ببطءٍ في النَّار، ويحمِّصون حبَّات الكستناء في الرَّماد السَّاخن، ليأتي بعد ذلك اللُّصوص من كهوفهم ويقضي الجميع معًا أوقاتًا ممتعة. وذات مرَّةٍ، أيضًا، رأى موكبًا جميلًا يطوي الطَّريق التُّرابيَّ الطَّويلَ متَّجهًا إلى طُلَيْطِلَة، وكان الرُّهبان يتقدَّمون الموكب وهم يترنَّمون بعذوبةٍ، حاملين راياتٍ زاهية الألوان وصلبانًا من الذَّهب، وفي مؤخِّرة الموكب جاء الجنود بدروعهم الفضِّيَّة وبنادقهم وحرابهم، بينما توسَّط الموكبَ ثلاثة رجالٍ حفاةٍ يرتدون ثيابًا صفراء غريبةً رُسِمَتْ عليها أشكالٌ رائعةٌ، وكانوا يحملون بأيديهم شموعًا مضاءة. بالتَّأكيد هناك الكثير من الأشياء التي تستحقُّ المشاهدة في الغابة، وعندما تتعب، سوف يجد لها كومةً ناعمةً من الطَّحالب، أو سوف يحملها بين ذراعيه، لأنَّه كان قويًّا جدًّا، مع أنَّه كان يعلم أنَّه لم يكن طويل القامة. كان سيصنع لها طوقًا من ثمار الفاشِرى الحمراء، وسيكون طوقًا بديعًا كما لو كان مصنوعًا من الثِّمار البيضاء المطرَّزة على فستانها، وعندما تملُّ من هذا الطَّوق، فسيكون بإمكانها أن تتخلَّص منه، وسيجد لها حبَّاتٍ أخرى يصنع لها منها طوقًا أجمل. كان سيجلب لها أقماع البلُّوط، وشقائقَ النُّعمان المبلَّلة بالنَّدى، والدِّيدانَ الصَّغيرةَ المتوهِّجةَ لتكون نجومًا في شعرها الذَّهبيِّ الفاتح.

ولكن أين هي؟ سأل الوردةَ البيضاءَ فلم تُحِر جوابًا. بدا القصر بأكمله نائمًا، وحتى في الأماكن التي لم تُغلق فيها المصاريع، كانت السَّتائر الثَّقيلة قد أُسدِلَت على النَّوافذ لتحجب وهج الشَّمس. تجوَّل في كلِّ مكانٍ بحثًا عن مدخلٍ يمكنه الدُّخول منه، وفي النِّهاية، رأى بابًا صغيرًا مفتوحًا، فانسلَّ

منه وإذا هو في قاعةٍ رائعةٍ، قاعةٍ خشي أن تكون أكثر روعةً من الغابة نفسها، فكلُّ شيءٍ هناك كان مطليًّا بالذَّهب، وحتى الأرضيَّة كانت من أحجارٍ بديعةٍ ملوَّنةٍ نُضِّد بعضُها إلى بعضٍ في نمطٍ هندسيٍّ يخلب الألباب. ولكنَّ الإنفانتا الصَّغيرة لم تكن هناك. لم يكن هناك سوى بعض التَّماثيل البيضاء الفائقة الجمال التي راحت تنظر إليه بازدراءٍ من فوق قواعدها التي من حجر اليشب، بعيونٍ فارغةٍ حزينةٍ وشفاهٍ مبتسمةٍ بشكلٍ غريب.

في نهاية القاعة كانت تتدلَّى ستارةٌ مطرَّزةٌ من المخمل الأسود المرشوش بالشُّموس والنُّجوم، شعارَي الملك المفضَّلَين، وموشَّاةٌ باللَّون الذي يفضِّله على بقيَّة الألوان. أتُراها كانت مختبئةً وراء السِّتارة؟ سيحاول على أيِّ حال.

اقترب بحذرٍ من السِّتارة وأزاحها قليلًا. لا أحد؛ لم يكن هناك سوى غرفةٍ أخرى، غرفةٍ أجمل من هذه التي غادرها للتَّوِّ. كانت الجدران مكسوَّةً بقماشٍ أخضر مزدانٍ برسومٍ مشغولةٍ بالإبرة تمثِّل رحلة صيدٍ، وكانت من عمل الفنَّانين الفلمنكيِّين الذين أمضوا أكثر من سبع سنواتٍ في إنجازها. كانت هذه الغرفة في يومٍ من الأيَّام غرفة جان لو فو، كما كان يُدعَى ذلك الملك المجنون الذي كان مفتونًا بالصَّيد، والذي حاول كثيرًا في هذيانه أن يمتطي الخيول الضَّخمة الجامحة ويسحب الوعل الذي كانت كلاب الصَّيد الكبيرة تقفز عليه، وهو ينفخ ببوق الصَّيد ويغرز خنجره في الوعل الأصفر المرتمي في الهواء. ولكنَّ الغرفة صارت الآن مكانًا لعقد الاجتماعات، فعلى الطَّاولة الكبيرة التي في وسط القاعة كانت ترقد الحقائب الوزاريَّة الحمراء، مختومةً بزهرة التُّوليب الذَّهبيَّة، رمز العرش الإسبانيِّ، وبأسلحة وشعارات آل هابسبورغ.

أجال القزم الصَّغير نظره بدهشةٍ، وكان نصف خائفٍ من الاستمرار في ذلك. فقد بدا له الفرسان الصَّامتون الغريبون الذين كانوا يركضون بسرعةٍ كبيرةٍ عبْرَ الفسحات الطَّويلة، دون أن يُحدِثوا أيَّ ضوضاء، مثل الأشباح المخيفين الذين سمع الفحَّامين يتحدَّثون عنهم، الكومبراخوس الذين يصطادون في اللَّيل فحسب، وإذا صادفوا رجلًا حوَّلوه إلى وعلٍ وطاردوه. ولكنَّه فكَّر بالإنفانتا الجميلة، فتبدَّدت مخاوفه وتحلَّى بالشَّجاعة. أراد أن يجدها بمفردها، ويخبرها أنَّه أحبَّها كما أحبَّته. ربَّما كانت في الغرفة التي على الجانب الآخر.

ركض على السَّجَّاد المغربيِّ النَّاعم، وفتح الباب. لا أحد! كانت الغرفة فارغةً تمامًا.

كانت تلك غرفةَ العرش التي يُستقبَل فيها السُّفراء الأجانب حين يوافق الملك، وهذا أمرٌ نادر الحدوث، على منحهم مقابلةً شخصيَّة؛ وهي الغرفة نفسها التي ظهر فيها، قبل سنواتٍ عديدةٍ، مبعوثون من إنجلترا لإجراء التَّرتيبات اللَّازمة لزواج ملكتهم الكاثوليكيَّة بالابن الأكبر للإمبراطور. كانت السَّجاجيد المعلَّقة على الجدران من الجلد القرطبيِّ المذهَّب، ومن السَّقف الأسود والأبيض تدلَّت ثريًّا ثقيلةٌ مذهَّبةٌ بفروعٍ تحمل ثلاثمئة شمعةٍ مضاءة. وتحت مظلَّةٍ كبيرةٍ من قماشٍ ذهبيٍّ طُرِّزَت عليه باللُّؤلؤ أُسودُ وأبراجُ قشتالة، انتصب العرش نفسه، مغطًّى بستارٍ من المخمل الأسود المطرَّز بأزهار التُّوليب الفضِّيَّة، والمرصَّع بإتقانٍ بالفضَّة واللُّؤلؤ. وعلى الدَّرجة الثَّانية من الدَّرجات المؤدِّية إلى العرش وُضِعَ كرسيُّ الرُّكوع الخاصُّ بالإنفانتا، مع وسادةٍ من القماش الفضِّيِّ، وإلى الأسفل، وخارج حدود المظلَّة، وُضِعَ كرسيُّ القاصد البابويِّ، وهو الوحيد الذي

كان لديه الحقُّ في الجلوس في حضرة الملك في أيِّ احتفالٍ عامٍّ، وأمام الكرسيِّ طاولةٌ صغيرةٌ يضع عليها نيافة الكادرينال قبَّعته ذات الشُّرَّابات القرمزيَّة المتشابكة. أمَّا على الجدار المقابل للعرش، فقد عُلِّقَتْ لوحةٌ زيتيَّةٌ بالحجم الطَّبيعيِّ للملك تشارلز الخامس وهو بلباس الصَّيد وبجانبه كلب درواسٍ ضخمٍ، بينما احتلَّت لوحةٌ للملك فيليب الثَّاني، وهو يتلقَّى الولاء الهولنديَّ، منتصفَ الجدارِ الآخر. وبين النَّافذتين كانت هناك خزانةٌ خشبيَّةٌ من الأبنوس الأسود، مطعَّمةٌ برقائق من العاج نُقِشَتْ عليها أشكالٌ مأخوذةٌ من لوحة «رقصة الموت» لِهولباين، منفَّذةٌ، كما يُقال، بيد الفنَّان الشَّهير نفسه.

ولكنَّ القزم الصَّغير لم يأبه بأيِّ مظهرٍ من مظاهر الأبَّهة هذه. لم يكن ليعطي وردته البيضاء مقابل كلِّ اللَّآلئ الموجودة على مظلَّة العرش، بل ولا حتى بتلةً واحدةً منها مقابل العرش نفسه. كلُّ ما كان يريده هو أن يرى الإنفانتا قبل أن تنزل إلى خيمة الحفل ويطلب منها أن تذهب معه حين ينتهي من أداء رقصته. فهنا، في القصر، كان الهواء ضيِّقًا وثقيلًا، أمَّا في الغابة فالرِّيح تلعب على هواها، وضوءُ الشَّمس يحرِّك بأيدٍ ذهبيَّةٍ تائهةٍ أوراق الشَّجر المرتعشة. وكانت هناك أزهارٌ، أيضًا، في الغابة، ربَّما ليست أجمل من الأزهار التي تزخر بها حديقة الملك، ولكنَّها أزكى عطرًا منها؛ فهناك أزهار الياقوتيَّة التي تُغرق الوديان والهضاب المعشوشبة بلونها البنفسجيِّ في بواكير الرَّبيع؛ وهناك زهور الرَّبيع الصَّفراء التي تتجمَّع بشكل أعشاشٍ صغيرةٍ حول الجذور العقديَّة لأشجار البلُّوط؛ وهناك أزهار بقلة الخطاطيف الصَّفراء، وزهور الحواشي السَّماويَّة اللَّون، وأزهار السَّوسن اللَّيلكيَّة والذَّهبيَّة. وهناك نورات البندق الرَّماديَّة، وأزهار القمعيَّة

الأرجوانيَّة المتدلِّية من وطأة اتِّخاذ النَّحل بيوتًا لها فيها. وكان لأشجار الكستناء، هنا، أبراجها من النُّجوم البيضاء، ولأشجار الزُّعرور أقمارها الرَّماديَّة الجميلة. نعم: بالتَّأكيد سوف تذهب معه، ولكن عليه أن يعثر عليها أوَّلًا! سوف تذهب معه إلى الغابة الجميلة، وسوف يرقص طوال النَّهار ليدخل السُّرور على قلبها. أضاءت ابتسامةٌ عينيه حين فكَّر في ذلك، وفي الحال توجَّه إلى الغرفة المجاورة.

من بين جميع الغرف كانت هذه أجمل الغرف وأشدَّها سطوعًا. كانت الجدران مغطَّاةً بقماشٍ من البروكار الدِّمشقيِّ مطرَّزٍ بأزهارٍ ورديَّة اللَّون، ومزخرفٍ بالطُّيور وبزنابق فضِّيَّةٍ بديعةٍ؛ وكان الأثاث من قطعٍ ثقيلةٍ من الفضَّة منقوشةٍ بأكاليل الزُّهور وبصور كيوبيد وهو يتأرجح في الهواء؛ وأمام موقدين كبيرين عُلِّقت ستائر ضخمةٌ مطرَّزةٌ بصور البَّبغاوات والطَّواويس؛ أمَّا الأرضيَّة، وكانت من العقيق الأخضر البحريِّ، فبدت وكأنَّها تمتدُّ إلى ما لا نهاية. ولم يكن وحيدًا في الغرفة، ففي الطَّرف القصيِّ منها، في ظلِّ المدخل، رأى هيئةً صغيرةً تراقبه، فارتعدت فرائصه وشعر بقلبه ينبض بشدَّةٍ، وانطلقت صيحة فرحٍ من شفتيه، وخرج إلى ضوء الشَّمس، ولكن وهو يركض خارجًا، حذت تلك الهيئة حذوه وخرجت هي الأخرى، وهناك رآها بوضوح.

إنَّها الإنفانتا! لقد كانت وحشًا، أبشع وحشٍ رأته عيناه على الإطلاق. لم تكن سويَّة الهيئة، مثل سائر البشر، بل كانت حدباء، ملتوية الأطراف، مع رأسٍ ضخمٍ متدلٍّ وشعرٍ أسود كشعر الحصان. عبس القزم الصَّغير، وعبس الوحش أيضًا. ضحك القزم، وضحك الوحش أيضًا، واضعًا يديه على جانبيه مثلما فعل القزم تمامًا. وحين انحنى له القزم انحناءةَ استهزاء، ردَّ

على انحناءته بانحناءة احترامٍ منخفضة. فلمَّا تقدَّم القزم منه بضع خطواتٍ إلى الأمام، تقدَّم ذلك الوحش منه أيضًا، ناسخًا كلَّ خطوةٍ قام بها، وحين توقَّف القزم، توقَّف هو أيضًا. صاح القزم مبتهجًا بهذه التَّسلية، ثمَّ ركض إلى الأمام ومدَّ يده، فلمست يدُ ذلك الوحش يدَه، وكانت باردةً كالثَّلج، فاعتراه الخوف وسحبَ يده، فسحب الوحشُ يدَه بسرعة. حاول أن يضغط على ذلك الشَّيء، ولكنَّ شيئًا أملسَ وصلبًا أوقفه. أصبح وجه الوحش قريبًا من وجهه، وبدا مليئًا بالرُّعب. مسح القزم عينيه بكلتا يديه، ففعل الوحش مثله. ضربه، فردَّ له الوحش الضَّربة بضربةٍ مثلها. اشمأزَّ القزم منه، فكشَّر الوحش تكشيرة اشمئزازٍ مماثلة. تراجع القزم إلى الخلف، وكذلك تراجع الوحش.

ما تُراه يكون هذا الشَّيء؟ فكَّر للحظةٍ وهو يُجيل النَّظر في بقيَّة أجزاء الغرفة. كان الأمر غريبًا، ولكن، كلُّ ما في هذه الغرفة بدا مضاعفًا في هذا الجدار غير المرئيِّ المصوغ من ماءٍ صافٍ. نعم! اللَّوحة الزَّيتية هنا تتكرَّر في الجدار بلوحةٍ مطابقةٍ لها، والأريكة بأريكةٍ طبق الأصل؛ وحتى ذلك الفاون النَّائم، المضطجع في كوَّةٍ بالجدار عند مدخل الغرفة، كان له في الجدار توأمه النَّائم أيضًا؛ وفينوس الفضِّيَّة المنتصبة في ضوء الشَّمس كانت تمدُّ ذراعيها لفينوس أخرى جميلةٍ مثلها.

أتُراها ربَّة الصَّدى؟ كان قد ناداها ذات مرَّةٍ في الوادي، فردَّت على كلمةٍ من كلماته بكلمةٍ مثلها. أبإمكانها أن تحاكي المرئيَّات مثلما تحاكي الأصوات؟ أبإمكانها أن تخلق عالمًا يحاكي تمامًا عالمنا الحقيقيَّ؟ أيمكن لظلال الأشياء أن تمتلك لونًا وحياةً وحركة؟ أيمكن لذلك أن يكون...؟

أجفلَ وانتزع من صدره الوردة البيضاء الجميلة واستدار وقبَّلها. رأى

أنَّ ذلك الوحش كان يحمل وردةً بيضاء أيضًا، وكلُّ بتلةٍ منها كانت طبق الأصل من البتلة المقابلة لها في وردته. وقد قبَّلها مثلما قبَّلها هو، وضغطها على صدره بالحركات القميئة نفسها.

حين بزغت شمسُ الحقيقة عليه، أطلق صيحة يأسٍ مسعورةً وانكبَّ منتحبًا على الأرض. لقد أدرك أنَّ ذلك المشوَّه الأحدب، ذلك المخلوق البشع والكريه المظهر، ليس إلَّا هو نفسه. كان هو نفسه ذلك الوحش، هو نفسه ذلك القبيح الذي كان الأطفال يضحكون عليه؛ والأميرة الصَّغيرة التي كان يعتقد أنَّها أحبَّته، كانت هي الأخرى تضحك على قبحه، وتستهزئ بساقيه المعقوفتين. لماذا لم يتركوه في الغابة حيث لا توجد مرايا تخبره كم هو قبيح؟ لماذا لم يقتله أبوه بدلًا من بيعه للخزي والهوان؟ انسكبت الدُّموع حَرَّى على وجنتيه، وتناول الوردة البيضاء وقطَّعها، وفعل الوحش الذي أمامه الشَّيء نفسه ناثرًا البتلات الشَّاحبة في الهواء. حبا الوحش على الأرض، وحين نظر القزم إليه، رآه يراقبه بوجهٍ أضناه الألم، فزحف لئلَّا يراه، وغطَّى عينيه بيديه. زحف، مثل حيوانٍ جريحٍ، إلى الظِّلِّ، وقبعَ هناك يئنُّ.

في هذه اللَّحظة، دخلت الإنفانتا بصحبة رفاقها من النَّافذة المفتوحة، وحين رأوا القزم الصَّغير القبيح ممدَّدًا على الأرض ويضرب الأرض بقبضتيه، انفجروا ضحكًا وهم يصيحون بطريقةٍ خرقاء ومبالغٍ فيها، ثمَّ تحلَّقوا حوله يتفرَّجون عليه.

ـ «يا للرَّقصة المسلِّية التي يؤدِّيها!» قالت الإنفانتا، «ولكنَّ تمثيله هو الأكثر تسليةً! إنَّه بمهارة الدُّمى المتحرِّكة تقريبًا! وإن لم يكن طبيعيًّا تمامًا طبعًا»، ثمَّ هزَّت مروحتها وصفَّقت.

ولكنَّ القزم الصَّغير لم ينظر إلى الأعلى أبدًا، وأخذت تنهُّداته تضعف أكثر فأكثر، وفجأةً زفر زفرةً غريبةً وهو يضع يده على ضلوعه، ثمَّ سقط مرَّةً أخرى وتمدَّد على الأرض بلا حراك.

ـ «هذا رائع!» قالت الإنفانتا بعد فترةٍ من الصَّمت، «ولكن الآن، عليك أن ترقص لأجلي».

ـ «نعم!» هتف جميع الأطفال، «يجب أن تنهض وترقص، فأنت بارعٌ كالقرود البربريَّة، بل وأكثر إضحاكًا منها»، ولكنَّ القزم الصَّغير لم يُحِر إجابة.

ضربت الإنفانتا الأرض بقدمها ونادت عمَّها الذي كان يتمشَّى في الجوار مع حاجب الملك وهو يقرأ بعض الرَّسائل التي وصلت للتَّوِّ من المكسيك حيث أسَّسوا أخيرًا مقرًّا مقدَّسًا للدَّولة، وصاحت: «لقد حرد قزمي الصَّغير! تعال أوقظه وقل له أن يرقص لأجلي».

ابتسم العمُّ ومرافقه لها ومشيا الهوينى نحوها، ثمَّ انحنى الدُّون بيدرو وصفع القزم على خدِّه بقفَّازه المطرَّز قائلًا: «انهض وارقص، أيُّها الوحش التَّافه الصَّغير! فالإنفانتا، أميرة إسبانيا وجزر الهند الشَّرقيَّة، تريدك أن تسلِّيها».

ولكنَّ القزم لم يحرِّك ساكنًا.

ـ «فلترسلوا في طلب القائم بالجَلْد ليجلُدَه»، قال الدُّون بيدرو بضجرٍ، ثمَّ عاد إلى الممشى، ولكنَّ حاجب الملك انتبه للأمر، فانحنى على القزم ووضع يده على قلبه، ثمَّ نهض وهزَّ كتفيه، وبعد أن قدَّم انحناءة إجلالٍ واحترامٍ للإنفانتا، قال لها: «سيِّدتي الأميرة الجميلة، إنَّ قزمك الصَّغير

المضحك لن يرقص مرَّةً أخرى أبدًا. إنَّه أمرٌ مؤسفٌ للغاية، فلقد كان من القبح بحيث كان من الممكن أن يجعل ملكنا الحزين يبتسم».

ـ «ولكن لماذا لن يرقص مرَّةً أخرى؟» سألت الإنفانتا وهي تضحك.

ـ «لأنَّ قلبه مكسـورٌ الآن»، أجابها حاجب الملك.

عبست الإنفانتا وزمَّت شفتيها الصَّغيرتين، الجميلتين كوردتين، في استياءٍ محبَّبٍ، وصاحت قائلةً: «إذن في المرَّة القادمة، دع أولئك الذين يأتون للَّعبِ يكونون بلا قلوب».

وركضت إلى الحديقة.

بين صيّاد السَّـــمك وروحه

مهداةٌ إلى هاء.إس. هاء. أليس ـ أميرة موناكو

كلَّ مساءٍ كان الصَّيَّاد الشَّابُّ يخرج إلى البحر ويُلقي بشباكه في الماء.

عندما كانت الرِّياح تهبُّ من جهة البرِّ، لم يكن يصطاد شيئًا، أو كان يصطاد القليل في أحسن الأحوال، لأنَّها كانت رياحًا عاتيةً وذات أجنحةٍ سوداء، وكانت أمواجٌ هائجةٌ ترتفع لتُصادمها، ولكن عندما كانت الرِّياح تهبُّ إلى الشَّاطئ من جهة البحر، كانت الأسماك تأتي من الأعماق لتدخل في عيون شباكه، فيأخـذ ثمرة صيده إلى السُّوق ليبيعها.

كان يخرج إلى البحر كلَّ مساء، ولكن في إحدى الأمسيات كانت الشَّبكة ثقيلةً للغاية لدرجة أنَّه لم يستطع سحبها إلى القارب، فضحك وقال في نفسه: «لا بدَّ أنَّني اصطدتُ كلَّ أسماك البحر، أو ربَّما وقع في شباكي وحشٌ بليدٌ سيكون أعجوبةً للنَّاس، أو مخلوقٌ مرعبٌ سترغب الملكة العظيمة بشدَّةٍ في اقتنائه»، وهكذا بذل غاية جهده في شدِّ الحبال الغليظة حتى نتأت العروق الطَّويلة في ذراعيه، فبدت كخطوط المينا الزَّرقاء على زهريَّةٍ من البرونز. ثمَّ راح يشدُّ الحبال الرَّفيعة، وشيئًا فشيئًا طفت على السَّطح حلقات الفلِّين المسطَّحة، ثمَّ ارتفعت الشَّبكة أخيرًا إلى سطح الماء.

ولكن لم يكن فيها أيُّ سمكةٍ على الإطلاق، ولا كان فيها وحشٌ عجيبٌ ولا مخلوقٌ مرعب. لم يكن فيها سوى حوريَّة بحرٍ صغيرةٍ كانت تغطُّ في نومٍ عميق.

كان شعرها كجزَّة صوفٍ مبلَّلةٍ من الذَّهب، وكانت كلُّ شعرةٍ منه أشبه بخيطٍ من الذَّهب الخالص في كأسٍ من زجاج. كان جسدها كالعاج الأبيض، وذيلها من الفضَّة واللُّؤلؤ. نعم، من الفضَّة واللُّؤلؤ كان ذيلها، وقد التفَّت حوله حشائش البحر الخضراء. ومثل صدفتي بحرٍ كانت أذناها، ومثل قطعتي مرجانٍ حمراوَين كانت شفتاها. وكانت أمواج البحر الباردة تتدافع على ثدييها الباردَين، والملحُ يتلألأ على جفنيها.

كانت جميلةً جدًّا لدرجة أنَّ الصَّيَّاد الشَّابَّ اعتراه الذُّهول حين رآها، فمدَّ يده وصار يجذب الشَّبكة إليه، ثمَّ انحنى فوق حذفار المركب، وأمسكها بذراعيه. ولكن ما إن لمسها حتى صاحت كنورسٍ مُجفِلٍ واستيقظت ونظرت إليه بعينين من الجمشت الأرجوانيِّ يملؤهما الرُّعب، وعبثًا حاولت التَّملُّص من قبضته، فقد قبض عليها بإحكامٍ ورفعها إليه ولم يسمح لها بالرَّحيل.

وحين أدركت أنَّها لا تستطيع الإفلات منه بأيِّ شكلٍ من الأشكال، بدأت تبكي، وخاطبته قائلةً: «أتوسَّل إليك أن تُخلي سبيلي، لأنِّي الابنة الوحيدة لوالدي، وهو ملكٌ وحيدٌ وطاعنٌ في السِّنِّ».

ولكنَّ الصَّيَّاد الشَّابَّ أجاب: «لن أُخلي سبيلك إلَّا إن وعدتِني بأنَّك ستأتين وتغنِّين لي كلَّما ناديتُكِ، وعندئذٍ، ابتهاجًا بسماعها أغنيةَ أهل البحر، ستأتي الأسماك جماعاتٍ وفُرادى لتملأ شِباكي».

- «هل ستدعني أذهب حقًّا إن وعدتكَ بذلك؟»، قالت الحوريَّة.

- «بكلِّ صدقٍ سأدعك تذهبين»، أجابها الصَّيَّاد الشَّابُّ.

فأعطته الوعد الذي أراده حالفةً له يمينَ أهل البحر، فأرخى قبضته عنها، وعلى الفور غاصت في الماء وهي ترتعش من خوفٍ غريب.

وهكذا، كان الصَّيَّاد الشَّابُّ يخرج كلَّ مساءٍ إلى البحر، وينادي الحوريَّة، فتخرج من الماء وتغنِّي له، وكانت الدَّلافين تسبح حولها، ونوارس البحر تحوم فوق رأسها.

وكان غناؤها رائعًا، لأنَّها غنَّت عن أهل البحر الذين يقودون قطعانهم من كهفٍ إلى كهفٍ ويحملون العجول الصَّغيرة على أكتافهم؛ وعن التِّرايتونات الذين لديهم لحىً خضراء طويلةٌ وصدورٌ مُشعرةٌ وينفخون في محاراتٍ معقوفةٍ عندما يمرُّ الملك؛ وعن قصر الملك المشيَّد بالكامل من العنبر مع سقفٍ من الزُّمرُّد الصَّافي وبلاطٍ من اللُّؤلؤ البرَّاق؛ وعن حدائق البحر حيث مراوح المرجان الضَّخمة والزُّمرُّديَّة تتمايل طوال اليوم، والأسماك تندفع كطيورٍ فضِّيَّةٍ، وشقائق النُّعمان تتشبَّث بالصُّخور، والبراعم الورديَّة تتفتَّح في الرِّمال الصَّفراء العنيدة. غنَّت عن الحيتان الضَّخمة التي تنزل من بحار الشَّمال وما تزال رقاقات الجليد الحادَّة عالقةً بزعانفها؛ وعن السِّيرانات اللَّواتي يغنِّين أشياء ساحرةً تجعل التُّجَّار يسدُّون آذانهم بالشَّمع لئلَّا يسمعوها ويقفزوا في الماء ويغرقوا؛ وعن القوادس الغارقة، بأشرعتها الضَّخمة وصواريها الباسقات وبحَّارتها الذين تجمَّدوا وهم متشبِّثون بحبال أشرعتها، بينما أسماك الإسقمريِّ تدخل وتخرج عبْرَ الكُوَى المفتوحة؛ وعن أصداف البرنقيل الصَّغيرة، تلك المسافرة العظيمة التي تتشبَّث بغواطس السُّفن وتطوف حول العالم؛ وعن الحبَّارات التي

تعيش على جوانب الحيود الصَّخريَّة وتمدُّ أذرعها السَّوداء الطَّويلة، ويمكنها أن تجعل اللَّيل يأتي متى شاءت. غنَّت عن حيوان النُّوتيِّ الذي لديه قاربٌ خاصٌّ به منحوتٌ من حجر الأوبال وموجَّهٌ بشراعٍ حريريٍّ؛ وعن غرانق البحر الذين يعزفون على قياثرهم ألحانًا تسحر وتنوِّم أعتى وحوش الكراكن؛ وعن الأطفال الذين يمسكون بالخنازير البحريَّة الزَّلقة ليمتطوها ضاحكين؛ وعن عرائس البحر اللَّواتي يستلقين في الزَّبد الأبيض ويمددن أيديهنَّ للبحَّارة؛ وعن أسُود البحر بأنيابها الطَّويلة المعقوفة، وأفراس البحر بأعرافها المنسابة مع الماء.

وبينما كانت تغنِّي، كانت جميع أسماك التُّونة تأتي من الأعماق لتستمع إلى غنائها، فيُلقي الصَّيَّاد الشَّابُّ شباكه عليها ويصطادها، ويصطاد أسماكًا أخرى بالحربة. وعندما كان قاربه يمتلئ بحمولةٍ وفيرةٍ، كانت حوريَّة البحر تبتسم له وتغوص في البحر.

ومع ذلك لم تكن تقترب منه أبدًا ليلمسها، وكثيرًا ما كان يناديها ويتوسَّل إليها أن تقترب ولكنَّها لم تفعل، وحين حاول الإمساك بها، غاصت في الماء، مثل أيَّة فقمةٍ، ولم يرها مرَّةً أخرى في ذلك اليوم. وكلَّ يومٍ كانت عذوبة صوتها تزداد في أذنيه. لقد كان صوتها من العذوبة بحيث أنساه شِباكه ومهارته وجعله غير مهتمٍّ بحرفته. فصارت أسماك التُّونة ذات الزَّعانف القرمزيَّة والعيون الذَّهبيَّة تمرُّ به أفواجًا فلا يأبه لها. بل إنَّه طرح حربته جانبًا ولم يعد يستخدمها، وباتت سلاله المصنوعة من أغصان الصَّفصاف فارغةً، وصار يقضي وقته فاغر الفم، ذابل العينين، جالسًا السَّاعات في قاربه يستمع إلى غنائها إلى أن يزحفَ ضباب البحر عليه ويلطِّخَ القمرُ أطرافَه البنِّيَّة بالفضَّة.

وذات مساءٍ، ناداها وقال لها: «أيَّتها الحوريَّة الصَّغيرة، أيَّتها الحوريَّة الصَّغيرة! إنَّني متيَّمٌ بكِ، فهلَّا تأخذينني زوجًا لكِ لأنِّي أحبُّكِ».

ولكنَّ الحوريَّة هزَّت رأسها وأجابته: «كيف وأنت تملك روحًا بشريَّة؟ إنْ أنت تخلَّصت من روحك البشريَّة، فعندئذٍ وحسب يمكنني أن أحبَّك».

فقال الصَّيَّاد الشَّابُّ في نفسه: «وما فائدة روحي لي؟ فأنا لا أراها، ولا أستطيع أن ألمسها، ولا أعرف كنهها. سوف أتخلَّص منها بلا أيِّ تردُّدٍ وأحصل مقابل ذلك على سعادةٍ لا حدَّ لها»، وأفلتت صيحةُ فرحٍ من شفتيه وانتصب واقفًا في قاربه الملوَّن ومدَّ ذراعيه إلى الحوريَّة، وقال: «سأتخلَّص من روحي، وستكونين عروسي وأكون عريسك، وفي أعماق البحر سيكون بيتنا، وكلُّ ما غنَّيته لي ستُرينني إيَّاه، وسأفعل كلَّ ما تريدين، ولا شيء سيفرِّق بين حياتينا».

وضحكت الحوريَّة الصَّغيرة فَرِحَةً وأخفت وجهها بيديها.

ـ «ولكن كيف أتخلَّص من روحي؟» صاح الصَّيَّاد الشَّابُّ! ثمَّ أردف، «علِّميني كيف أفعل ذلك، ثمَّ انظري كيف سأنفِّذ الأمر».

ـ «واأسفاه، لا أعرف كيف السَّبيل إلى ذلك!» قالت حوريَّة البحر الصَّغيرة، «لأنَّه ليس لأهل البحر أرواح»، وغاصت إلى الأعماق وهي تنظر إليه بحزنٍ.

وفي وقتٍ مبكِّرٍ من صباح اليوم التَّالي، قبل أن تصعد الشَّمس مقدار شبرٍ من كفِّ إنسانٍ فوق التِّلال، ذهب الصَّيَّاد الشَّابُّ إلى بيت الكاهن وطرق الباب ثلاث مرَّات.

نظر الرَّاهب المبتدئ من كوَّة الكوخ قبل أن يرفع المزلاج ويقول له: «ادخل».

ودخل الصَّيَّاد الشَّابُّ الكوخ وركع على الأرضيَّة التي تفوح منها رائحةٌ عطرةٌ وقال للكاهن الذي كان يقرأ في الكتاب المقدَّس: «أيْ أبتاه، لقد وقعت في حبِّ واحدةٍ من أهل البحر، وروحي تقف حائلًا بيني وبين رغبتي. أخبرني كيف أتخلَّص من روحي، فأنا في الحقيقة لست في حاجةٍ إليها. فما قيمة روحي لي وأنا لا أراها ولا أستطيع لمسها ولا أعرف كنهها؟»

ضرب الكاهن بيده على صدره وأجاب الفتى: «ويحكَ، ويحكَ، أنت إمَّا جُننت وإمَّا أكلت بعض الأعشاب السَّامَّة. إنَّ الرُّوح أنبل ما يمكن أن يملكه بشر، وهي هبة الرَّبِّ لنا لنستعملها بنبلٍ وشرف. لا يوجد شيءٌ أغلى من الرُّوح البشريَّة، وليس في الأرض ما يعادلها. إنَّها أثمن من كلِّ ذهب الدُّنيا، بل أغلى من كلِّ ياقوت الملوك! ولذلك، يا ولدي، كفَّ عن التَّفكير في هذا الأمر، لأنَّه خطيئةٌ لا تُغتفَر. وأمَّا أهل البحر، يا ولدي، فإنَّهم قومٌ ضالُّون، وكلُّ من يتعامل معهم يضلُّ سواءَ السَّبيل، ومثلهم كمثل دوابِّ الحقول التي لا تعرف الخير من الشَّرِّ، وبالنِّسبة إليهم الرَّبُّ لم يمت».

اغرورقت عينا الصَّيَّاد الشَّابِّ بالدُّموع حين سمع كلمات الكاهن اللَّاذعة، فقام من ركعته، وقال له: «يا أبتاه، الفاونات يعيشون في الغابة وهم سعداء، وغرانق الماء يجلسون على الصُّخور مع قياثرهم المصنوعة من الذَّهب الأحمر وهم سعداء أيضًا. فاسمح لي أن أكون مثلهم، أتوسَّل إليك، فأيَّامهم كأيَّام الزُّهور. وأمَّا روحي، فماذا تنفعني روحي إذا هي وقفت بيني وبين ما أحبُّ؟»

ـ «اعلم يا فتى أنَّ الحبَّ الجسديَّ شيءٌ دنيءٌ»، قال الكاهن وهو يقطِّب جبينه، «ودنيئةٌ وأثيمةٌ الأشياء الوثنيَّة التي يتألَّم الرَّبُّ من طوافها في عالمه. ملعونون فاوناتُ الغابات، وملعوناتٌ مغنِّياتُ البحر! لقد سمعتُهنَّ يغنِّين في اللَّيالي، وقد حاولن إغوائي وإمالتي عن التَّسبيح. ينقرن على النَّوافذ ويضحكن. يهمسن في أذنيَّ حكاياتٍ عن ملذَّاتهنَّ المحفوفة بالمخاطر، ويغرينني بكلِّ صنوف الإغراء، وعندما أصلِّي يستهزئن بي. إنَّهم على ضلالةٍ، أقول لك، إنَّهم على ضلالةٍ. فهم لا يؤمنون بجنَّةٍ ولا بنارٍ، ولا يسبِّحون اسمَ اللّه».

ـ «لا يا أبتاه»، صاح الصَّيَّاد الشَّابُّ، «أنت لا تعلم ما تقول. دعني أخبرك، ذات يومٍ وقعت في شبكتي ابنة أحد الملوك، وهي أجمل من نجمة الصَّباح، وأشدُّ بياضًا من القمر. لأجل جسدها سأهب روحي، ولقاءَ الفوز بحبِّها سأتخلَّى عن الجنَّة. أجبني على سؤالي، ودعني أرحل بسلام».

ـ «ارحل! ارحل!»، صاح الكاهن، «إنَّ مَن تحبُّ ضالَّةٌ وسوف تضلُّكَ معها». ولم يباركه، بل أخرجه من بيته.

ونزل الصَّيَّاد الشَّابُّ إلى السُّوق، وكان يمشي ببطءٍ، مطأطئ الرَّأس، كمن أثقلته الهموم.

وحين رآه التُّجَّار قادمًا صاروا يتهامسون، ثمَّ انبرى أحدهم للكلام معه، فناداه باسمه وسأله: «ماذا لديك للبيع؟»

ـ «سأبيعكم روحي»، أجاب. «أتوسَّل إليكم أن تشتروها منِّي، لأنِّي تعبتُ منها. ما فائدة روحي لي وأنا لا أراها ولا أستطيع لمسها ولا أعرف كنهها؟».

ولكنَّ التُّجَّار سخروا منه قائلين: «وماذا نجني من روح إنسانٍ إن اشتريناها؟ إنَّها لا تساوي قطعةً منبعجةً من الفضَّة! بِعنا جسدك كعبدٍ لنا، وسوف نُلبسك أرجوانَ البحر، ونعطيك خاتمًا تضَعه في إصبعك، ونجعلك معشوق الملكة الكبرى. أمَّا الرُّوح فكُفَّ عن الحديث عنها، لأنَّها لا تساوي عندنا قطميرًا ولا تخدمنا في شيءٍ البتَّة».

فقال الصَّيَّاد الشَّابُّ في نفسه: «ما أعجب هذا الأمر! قبل قليلٍ قال لي الكاهن إنَّ الرُّوح أثمن من كلِّ ذهب العالم، والآن يقول لي التُّجَّار إنَّها لا تساوي قطعةً منبعجةً من الفضَّة!»، ثمَّ غادر السُّوق قاصدًا شاطئ البحر وهو يفكِّر فيما ينبغي أن يفعل.

وفي الظَّهيرة، تذكَّر أنَّ أحد رفاقه، من الذين يجمعون الأُشنان، أخبره ذات مرَّةٍ عن ساحرةٍ شابَّةٍ تعيش في كهفٍ عند رأس الخليج، وكانت بارعةً في السِّحر، فاتَّجه إليها راكضًا، وكلُّه شوقٌ إلى التَّخلُّص من روحه، وتبعته سحابةٌ من الغبار وهو يركض مسرعًا على رمال الشَّاطئ. وبحكَّةٍ في كفِّها عرفت السَّاحرة الشَّابَّة بمَقْدمِه، فراحت تضحك وتسوِّي شعرها الأحمر، وبعد أن انسدل شعرها حول جسدها، وقفت عند فتحة الكهف، وفي يدها غصنٌ مزهرٌ من الشُّوكران البرِّيِّ.

ـ «ما حاجتك؟ ما حاجتك؟»، صاحت بأعلى صوتها وهو يصعد المنحدر لاهثًا، حتى إذا ما وصل إليها انحنى أمامها، «سَمَكٌ لشبكتك عندما تشتدُّ الرِّيح؟ عندي مزمارٌ صغيرٌ من القصب، وعندما أنفخ فيه تأتي أسراب البوريِّ إلى مياه الخليج، ولكنَّه بثمنٍ، أيُّها الفتى الجميل، فهل معك ثمنه؟ ما حاجتك؟ ما حاجتك؟ عاصفةٌ تحطِّم السُّفن وتجرف صناديق الكنوز النَّفيسة إلى الشَّاطئ؟ أملك من العواصف أكثر ممَّا تملك الرِّيح،

لأنِّي أخدم مَن هو أقوى من الرِّيح، فبغربالٍ وبدلوٍ من الماء يمكنني إغراق القوادس الضَّخمة، ولكنَّها بثمنٍ، أيُّها الشَّابُّ الجميل، فهل معك ثمنها؟ ما حاجتك؟ ما حاجتك؟ أعرف زهرةً تنمو في الوادي، لا أحد يعرفها إلَّا أنا. لها وريقاتٌ أرجوانيَّةٌ، ونجمةٌ في قلبها، وعصيرها أبيض كالحليب. إن لمست هذه الزَّهرة شفتَي الملكة القاسيتَين، فإنَّها ستتبعك إلى كلِّ أصقاع الأرض. ولكنَّها بثمنٍ، أيُّها الفتى الجميل، فهل معك ثمنها؟ ما حاجتك؟ ما حاجتك؟ يمكنني أن أطحن علجومًا في هاون، وأصنع منه مرقًا، ثمَّ أحرِّك المرق بيد رجلٍ ميِّتٍ، فإن سكبتَ منه قطرةً واحدةً على عدوِّك حوَّله إلى أفعىً سوداء لن تتوانى أمُّه نفسُها عن قتله. يمكنني بدولابٍ أن أسحب القمر من السَّماء، وببلَّورةٍ أن أريك الموت. ما حاجتك؟ ما حاجتك؟ أخبرني ببُغيتك وسوف أنوِّلك إيَّاها، ولكن عليك أن تدفع لي ثمنها، أيُّها الفتى الجميل، عليك أن تدفع لي ثمنها».

ـ «ما أبغيه أمرٌ جدُّ يسير»، قال الصَّيَّاد الشَّابُّ، «ومع ذلك، غضب الكاهن منِّي وطردني من بيته. ما أطلبه جدُّ يسير؛ ومع ذلك، سخر التُّجَّار منِّي وأنكروني. ولهذا قصدتكِ، بصرف النَّظر عن وصفهم لكِ بأنَّك شرِّيرة، ومهما كان الثَّمن الذي سأدفعه».

ـ «ما حاجتك؟»، سألت السَّاحرة وهي تقترب منه.

ـ «أريد أن أتخلَّص من روحي»، أجاب الصَّيَّاد الشَّابُّ.

اصفرَّ وجه السَّاحرة وارتجفت وأخفت وجهها في عباءتها الزَّرقاء، ثمَّ تمتمت قائلةً: «أيُّها الفتى الجميل! أيُّها الفتى الجميل! إنَّ ما تطلبه لشيءٌ فظيع!»

أزاح خصلات شعره البنِّيَّة عن جبينه وضحك، ثمَّ أجاب: «روحي لا شيء بالنِّسبة إليَّ، فأنا لا أراها ولا أستطيع لمسها ولا أعرف كنهها».

ـ «ماذا تعطيني إن أخبرتك؟»، سألته السَّاحرة وهي تنظر إليه بعينيها الجميلتين.

ـ «خمس قطعٍ ذهبيَّةٍ»، قال، «إضافةً إلى شِباكي وكوخي المضفور الذي أعيش فيه وقاربي الملوَّن الذي أبحر فيه. حسبُكِ أن تقولي لي كيف أتخلَّص من روحي وسأعطيكِ كلَّ ما أملك».

ضحكت ساحرةً منه وضربته بغصن الشُّوكران، وقالت: «يمكنني إن شئتُ أن أحوِّل أوراق الخريف إلى ذهب، وأشعَّة القمر الشَّاحبة إلى فضَّة، لأنَّ السَّيِّد الذي أخدمه أغنى من جميع ملوك الأرض، بل هو ملك الملوك ومالكهم».

ـ «فماذا أعطيكِ إذا لم يكن الثَّمن ذهبًا ولا فضَّة؟»، قال.

داعبت السَّاحرة شعره بيدها البيضاء الرَّقيقة، وهمست: «أريدك أن ترقص معي أيُّها الفتى الجميل»، وكانت تبتسم وهي تقول له ذلك.

ـ «لا شيء غير ذلك؟»، هتف الصَّيَّاد الشَّابُّ متعجِّبًا وهو ينتصب على قدميه.

ـ «لا شيء غير ذلك»، ردَّت عليه وهي تبتسم له مرَّةً أخرى.

ـ «إذن، عند غروب الشَّمس، في مكانٍ سرِّيٍّ سنرقص معًا»، أجابها، «وبعد الرَّقصة، ستخبرينني بما طلبت منك معرفته».

هزَّت رأسها وتمتمت: «عندما يكتمل القمر، عندما يكتمل القمر»، ثمَّ أجالت النَّظر وأرهفت السَّمْعَ. طار طائرٌ أزرق من عشِّه وهو يزعق زعيقًا عاليًا ثمَّ حلَّق فوق الكثبان الرَّمليَّة، واندفعت ثلاثة طيورٍ رقطاء

عبْرَ الحشائش الرَّماديَّة الخشنة، وكلٌّ منها يصفِّر للآخر، ثمَّ ساد صمتٌ لم يكن يتخلَّله سوى صوت الأمواج وهي تحرِّك الحصيِّ الملساء في الأعماق. فمدَّت السَّاحرة يدها وقرَّبت الصَّيَّاد الشَّابَّ منها ووضعت شفتيها الجافَّتين على أذنه.

ـ «عليك أن تأتي اللَّيلة إلى قمَّة الجبل»، همست، «إنَّه يوم السَّبت، وهو نفسه سيكون هناك».

جفل الصَّيَّاد الشَّابُّ وحدَّق فيها، فافترَّت عن أسنانها البيض ضاحكةً.

ـ «مَن الذي تتكلَّمين عنه؟»، سألها.

ـ «لا يهمُّ»، أجابته. «اذهب اللَّيلة وقِفْ تحت أغصان شجرة الشَّرد وانتظرْ مجيئي. فإذا رأيت كلبًا أسود يعدو نحوك، اضربه بقضيبٍ من الصَّفصاف وسيولِّي هاربًا. وإذا كلَّمتك بومةٌ فلا تكلِّمها أبدًا. فإذا اكتمل القمر وافيتك ورقصنا على العشب معًا».

ـ «ولكن هل تقسمين لي أنَّك ستخبرينني كيف أتخلَّص من روحي؟»، سألها.

خرجت إلى ضوء الشَّمس، فداعبت الرِّيح شعرَها الأحمر. ثمَّ أجابته: «أقسم بأظلاف الماعز أنَّني سأفعل».

ـ «أنت أفضل السَّاحرات»، هتف الصَّيَّاد الشَّابُّ، «وبالتَّأكيد سأرقص معك اللَّيلة على قمَّة الجبل. كنت أحسب أنَّك ستطلبين منِّي ذهبًا أو فضَّةً، ولكن ما دمتِ لا تريدين سوى هذا الشَّيء التَّافه، فليكن كما تريدين»؛ ثمَّ رفع قبَّعته لها وانحنى أمامها وركض عائدًا إلى البلدة والدُّنيا لا تسعه من الفرح.

وبقيت السَّاحرة تراقبه وهو يركض حتى اختفى عن ناظريها، وعندئذٍ دخلت الكهف وأخرجت مرآةً من صندوقٍ قديمٍ من خشب الأرز المحفور، ووضعتها في إطارٍ، ثمَّ أحرقت أمامها حزمةً من نبات رِعْيِ الحَمَام على جمرةٍ مشتعلةٍ، وراحت تُنعم النَّظر في الدُّخان المتصاعد، وبعد فترةٍ من الوقت، أطبقت قبضتيها بغضبٍ، وتمتمت قائلةً: «هذا الفتى كان ينبغي أن يكون لي. أنا جميلةٌ مثلها».

وفي ذلك المساء، حين بزغ القمر، صعد الصَّيَّاد الشَّابُّ إلى قمَّة الجبل ووقف تحت أغصان شجرة الشَّرد. مثل صفيحةٍ من معدنٍ مصقولٍ كان البحر المستدير عند سفح الجبل، ومثل الظِّلال كانت قوارب الصَّيد في مياه الخليج الصَّغير. نادت بومةٌ كبيرةٌ، ذات عينين كبريتيَّتَي الصُّفرة، باسمه، ولكنَّه لم يردَّ عليها. ثم رأى كلبًا أسود يركض نحوه مزمجرًا، فضربه بقضيب الصَّفصاف، فانصرف وهو يئنُّ.

عند منتصف اللَّيل، أقبلت جموع السَّاحرات يطرن في الهواء كالخفافيش، ثمَّ صرخن وهنَّ ينزلن إلى الأرض: «تُفٍّ! هناك شخصٌ غريبٌ لا نعرفه هنا!»، ورحن يتشمَّمن الهواء ويتهامسن ويلوِّحن بالإشارات، وأخيرًا جاءت السَّاحرة الشَّابَّة وشعرها الأحمر يتدفَّق في الرِّيح، وكانت ترتدي فستانًا من نسيجٍ ذهبيٍّ مطرَّزٍ بعيون الطَّواويس، وتضع قبَّعةً صغيرةً من المخمل الأخضر على رأسها.

- «أين هو؟ أين هو؟»، صاحت السَّاحرات عندما رأينها، ولكنَّها ضحكت فحسب، ثمَّ اتَّجهت مسرعةً إلى شجرة الشَّرد، وأمسكت الصَّيَّاد الشَّابَّ بيده وقادته إلى ضوء القمر وبدآ يرقصان.

دارا ودارا، ورقص الجميع، وبلغت الفرحة بالسَّاحرة أنَّها قفزت عاليًا في الهواء لدرجة أنَّه تمكَّن من رؤية الكعب القرمزيِّ لحذائها. ثمَّ من بين جموع الرَّاقصات تناهى إلى مسمعه صوتُ حصانٍ يعدو، ولكن لم يكن ثمَّة حصانٌ، فاعتراه الخوف.

- «أسْرَع!» صاحت به السَّاحرة وألقت ذراعيها حول رقبته حتى أحسَّ بأنفاسها الحرَّى تلفح وجهه. «أسْرَع، أسْرَع!»، صاحت، وبدت الأرض وكأنَّها تدور تحت قدميه، وتشوَّش عقله، واستولى عليه رعبٌ عظيمٌ، وأحسَّ بأنَّ شيئًا شرِّيرًا كان يراقبه، وأخيرًا انتبه إلى وجود هيئةٍ تحت ظلِّ صخرةٍ، هيئةٍ لم تكن موجودةً هناك من قبل.

كان رجلًا يرتدي بدلةً من المخمل الأسود، مصمَّمةً وفق الموضة الإسبانيَّة، وكان شاحب الوجه بشكلٍ غريبٍ جدًّا، ولكنَّ شفتيه كانتا كزهرةٍ حمراء مكتنزةٍ. بدا عليه الإعياء، وكان مائلًا إلى الوراء ويده تداعب بفتورٍ مقبض خنجره. على العشب، بجانبه، وضع قبَّعته المزيَّنة بالرِّيش، وزوجًا من قفَّازات ركوب الخيل، مزمومًا برباطين مذهَّبين، ومدروزًا باللُّؤلؤ على شكل شعارٍ غريبٍ. وكانت تتدلَّى على كتفه عباءةٌ قصيرةٌ مبطَّنةٌ بفرو السَّمُّور، وكانت يداه البيضاوان الرَّقيقتان مزيَّنتَين بالخواتم، وقد تدلَّى جفناه الثَّقيلان على عينيه.

حدَّق الصَّيَّاد الشَّابُّ فيه كالمسحور، وأخيرًا التقت أعينهما، وحيثما كان يرقص بدا له أنَّ عينَي الرَّجل كانتا مسلَّطتَين عليه، ثمَّ سمع السَّاحرة تضحك، فأمسكها من خصرها، وصار يدوِّرها بجنون.

وفجأةً نبح كلبٌ في الغابة، فتوقَّفت الرَّاقصات عن الرَّقص، وصعدن

اثنتين اثنتين، وركعن على الأرض، ورحن يقبّلن يدَي الرَّجل. وفي أثناء قيامهنَّ بذلك، لامست ابتسامةٌ خفيفةٌ شفتيه المكتنزتين، مثلما يلامس جناح طائرٍ الماءَ ويجعله يضحك. ولكن كان فيها شيءٌ من الازدراء. وطوال ذلك الوقت لم يرفع عينيه عن الصَّيَّاد الشَّابِّ.

ـ «تعال معي، تعال نمارس طقوس عبادتنا!»، همست السَّاحرة في أُذن الصَّيَّاد الشَّابِّ، وقادته إلى الأعلى، فاعترته رغبةٌ عارمةٌ في فعل ما وسوست به إليه، وسار في إثرها. ولكن عندما اقترب، ودون أن يعرف لماذا فعل ذلك، رسم على صدره علامة الصَّليب، ونطق بالاسم المقدَّس.

لم يكد يفعل ذلك حتى زعقت السَّاحرات كالصُّقور وطرن بعيدًا، ورأى الوجهَ الشَّاحبَ الذي كان يراقبه يرتعش في نوبةٍ من الألم. ثمَّ صعد الرَّجل إلى الغابة الصَّغيرة وأطلق صفيرًا، فجاء إليه راكضًا حصانٌ عليه سرجٌ مزركشٌ، فقفز على صهوته وجلس على السَّرج ثمَّ استدار ونظر إلى الصَّيَّاد الشَّابِّ بحزن.

وحاولت السَّاحرة ذات الشَّعر الأحمر أن تطير بعيدًا أيضًا، ولكن الصَّيَّاد الشَّابَّ أمسكها من معصميها وجذبها نحوه بقوَّةٍ.

ـ «اتركني»، صرخت، «دعني أذهب، فلقد سمَّيتَ ما لا ينبغي أن تسمِّيه، ورسمتَ العلامة التي لا ينبغي النَّظر إليها».

ـ «لا»، ردَّ عليها، «لن أتركك ترحلين حتى تخبريني بالسِّرِّ».

ـ «أيُّ سرٍّ؟»، قالت السَّاحرة وهي تصارع بين قبضتيه مثل قطَّةٍ وحشيَّةٍ، وتعضُّ على شفتيها الملطَّختين بالرَّغوة.

ـ «تعلمين ما أقصد»، ردَّ عليها.

اغرورقت عيناها الخضراوان بالدُّموع، وقالت للصَّيَّاد: «اسألني ما شئت إلَّا هذا!»

ضحكَ وأحكمَ قبضتيه على معصميها.

وحين رأت أنَّه لا فكاك لها منه، همست له: «لا شكَّ في أنَّني جميلةٌ مثل بنات البحر وبهيَّةٌ مثل أولئك السَّاكنات في المياه الزَّرقاء»، وراحت تتودَّد إليه وتقرِّب وجهها من وجهه.

ولكنَّه أبعدها عنه عابسًا وقال لها: «إن لم تفي بالوعد الذي قطعتِهِ لي، سأقتلكِ بوصفكِ ساحرةً زائفة».

ارمدَّ وجهها حتى صار بلون أزهار شجرة يهوذا، وانتفضت متمتمةً وهي ترتجف: «افعل ما شئت إذن. إنَّها روحك وليست روحي، فافعل بها ما تشاء»، وأخرجت من نطاقها سكِّينًا صغيرةً ذات مقبضٍ من جلد ثعبانٍ أخضر وأعطته إيَّاها.

ـ «ماذا أصنع بها؟»، سألها مستغربًا.

بقيت صامتةً لبضع لحظاتٍ، وملامح الرُّعب باديةٌ على وجهها، ثمَّ أزاحت خصلات شعرها عن جبهتها، وابتسمت له ابتسامةً غريبةً، ثمَّ قالت: «ما يسمِّيه النَّاس خيال الجسد ليس خيالَ الجسد، بل هو جسد الرُّوح. قف على شاطئ البحر، وأعطِ ظهرك للقمر، ثمَّ اقطع من حول قدميك خيالك الذي هو جسد روحك، واطلب من روحك أن تغادرك، وستفعل ذلك».

ارتعش الصَّيَّاد الشَّابُّ وقال بصوتٍ أقرب إلى الهمس: «حقًّا؟».

- «نعم، وليتني لم أخبرك بذلك»، صاحت قائلةً، ثمَّ تشبَّثت بركبتيه باكيةً.

أبعدها عنه وتركها على العشب الرَّطب، ثمَّ توجَّه إلى حافة الجبل وقد وضع السِّكِّين في نطاقه، ثمَّ بدأ بالنُّزول.

ولكنَّ روحه التي بين جوانحه نادته قائلةً: «يا هذا! لقد عشت معك كلَّ هذه السِّنين، وكنت لك الخادم الأمين، فلا تتخلَّى عنِّي. أيُّ ذنبٍ اقترفتُ لتفعل بي هذا؟»

ضحكَ الصَّيَّاد الشَّابُّ وردَّ عليها: «أنتِ لم تقترفي أيَّ ذنبٍ، ولكنِّي لست في حاجةٍ إليكِ! أرض اللّه واسعةٌ، وهناك جنَّةٌ أيضًا، وهناك الجحيم، وهناك بيت الشَّفق المعتم الذي يقع بينهما. اذهبي حيثما شئتِ، ولكن لا تزعجيني، لأنَّ حبِّي يناديني».

توسَّلت إليه روحه مستدرَّةً شفقته، ولكنَّه لم يكترث لحالها، واستمرَّ في النُّزول، قافزًا من صخرةٍ إلى صخرةٍ، مثل ماعزٍ جبليٍّ واثق الخطوة، حتى بلغ الأرض المستوية وسار إلى الشَّاطئ الرَّمليِّ الأصفر.

مثل تمثالٍ إغريقيٍّ قُدَّت أجزاؤه من البرونز ولُحِمَتْ جيِّدًا، وقف على الرِّمال وأعطى ظهره للقمر، وسرعان ما خرجت من الزَّبد ذراعان بيضاوان تلوِّحان له، ومن الأمواج برزت هيئاتٌ قاتمةٌ صارت تنحني له إجلالًا. كان أمامه ظلُّه الذي هو جسد روحه، وخلفه كان القمر معلَّقًا في هواءٍ بلون العسل.

فقالت له روحه: «إن كنت عقدتَ العزم حقًّا على طردي منك، فلا ترسلني بلا قلبٍ. العالم قاسٍ ولا يرحم، فأعطني قلبك لآخذه معي».

هزَّ رأسه وقال مبتسماً: «إن أعطيتك قلبي، فبم أحبُّ حبيبتي؟»

ـ «لا، أرجوك، ارأف بحالي»، قالت له روحه، «أعطني قلبك، لأنَّ العالم قاسٍ، وأنا خائفة».

ـ «قلبي ملك حبيبتي»، أجابها، «فلا تتلكَّئي وانصرفي».

ـ «أفلا يحقُّ لي أن أحبَّ أنا أيضًا؟»، سألته روحه.

ـ «اغربي عن وجهي، فأنا لست في حاجةٍ إليكِ»، صاح عليها الصَّيَّاد الشَّابُّ ثمَّ استلَّ سكِّينه ذات المقبض المصنوع من جلد ثعبانٍ أخضر وراح يقطع بها ظلَّه من حول قدميه، فنهض الظِّلُّ منتصبًا أمامه ونظر إليه، وكان هو نفسه.

تراجع إلى الوراء، ثمَّ دفع السِّكِّين في نطاقه، واعتراه شعورٌ بالرَّهبة، فغمغم: «انصرفي عنِّي، لا أريد أن أرى وجهكِ بعد الآن».

ـ «لا، بل سنلتقي مرَّةً أخرى»، قالت الرُّوح، وكان صوتها خافتًا جدًّا وشبيهًا بصوت النَّاي، ولم تتحرَّك شفتاها وهي تتكلَّم.

ـ «وكيف سنلتقي؟»، صاح الصَّيَّاد الشَّابُّ، «هل تنوين أن تتبعيني إلى أعماق البحر؟»

ـ «نعم، مرَّةً كلَّ عامٍ سوف آتي إلى هذا المكان وأناديك»، قالت الرُّوح، «فربَّما تكون في حاجةٍ إليَّ».

ـ «وأيُّ حاجةٍ ستكون لي بكِ؟»، صاح الصَّيَّاد الشَّابُّ، «ولكن، ليكن لكِ ما طلبتِ»، ثمَّ ارتمى في الماء، فنفخت التِّرايتونات في أبواقها، وسبحت الحوريَّة الصَّغيرة نحو الأعلى لملاقاته، ووضعت ذراعيها حول رقبته وقبَّلته على فمه.

وظلَّت روح الصَّيَّاد الشَّابِّ واقفةً على الشَّاطئ المنعزل تراقبهما، وحين غاصا في البحر، ذهبت إلى الأهوار وبكت هناك.

وبعد مضيٍّ عامٍ، نزلت الرُّوح إلى شاطئ البحر ونادت الصَّيَّاد الشَّابَّ، فصعد من الأعماق، وقال: «هل ناديتِني؟»

وأجابت الرُّوح: «ادنُ لأتكلَّم معك، لأنِّي رأيت أمرًا عجبًا».

فدنا واضطجع في المياه الضَّحلة، وأسند رأسه إلى راحة يده وأصغى إليها.

فقالت له الرُّوح: «عندما تركتك، يمَّمت وجهي نحو الشَّرق ورحلت. فمن الشَّرق يأتي كلُّ ما فيه حكمة. ستَّة أيَّام سافرتُ، ولكن في صبيحة اليوم السَّابع، وصلتُ إلى تلٍّ يقع في بلاد التَّتار، فجلست في فيء شجرة طرفاء أتَّقي الشَّمس. كانت الأرض جافَّةً ومحترقةً من الرَّمضاء، وكان النَّاس يموجون جيئةً وذهابًا في السَّهل كسربٍ من الذُّباب يزحف على قرصٍ من النُّحاس المصقول.

«وحين كان الزَّوال، ارتفعت سحابةٌ من الغبار الأحمر من الجهة المسطَّحة للأرض، وعندما رآها التَّتار، شدُّوا أوتار أقواسهم الملوَّنة وامتطوا صهوات خيولهم الصَّغيرة، وانطلقوا لاستقبالها، بينما هرعت النِّساء إلى العربات صارخاتٍ ومُعْوِلاتٍ واختبأن وراء السَّتائر.

«وعند الشَّفق، عاد التَّتار وقد خسروا خمسة رجالٍ، وعددٌ ليس بقليلٍ ممَّن عادوا كانوا مثخنين بالجراح. ربطوا خيولهم إلى العربات وولَّوا في عرباتهم مسرعين. خرجت ثلاثٌ من بنات آوى من أحد الكهوف وشيَّعتهم بنظراتها، ثمَّ تشمَّمت الهواء بخياشيمها وركضت في الاتِّجاه المعاكس.

«عندما بزغ القمر، رأيت نار مخيَّمٍ مشتعلةً في السَّهل، فتوجَّهت نحوها. وجدت زمرةً من التُّجَّار جالسين على السَّجَّاد حول النَّار، وكانت جِمَالُهم معقولةً خلفهم، بينما انهمك عبيدهم من الزُّنوج في نصب خيامٍ من الجلد المدبوغ على الرِّمال، وفي رفع ساترٍ عالٍ من الصُّبَّير.

«فلمَّا اقتربت منهم، نهض كبير التُّجَّار مستلًّا سيفه وسألني عمَّا أفعله هناك.

«فأجبته أنَّني كنت أميرًا في أرضي، وأنَّني هربت من التَّتار الذين أرادوا اتِّخاذي عبدًا لهم، فابتسم كبير التُّجَّار وأراني خمسة رؤوسٍ مرفوعةٍ على أعوادٍ طويلةٍ من الخيزران.

«ثمَّ سألني من هو نبيُّ اللّه، فأجبته محمَّد.

«فلمَّا سمع اسم النَّبيِّ، انحنى وأمسك بيدي وأجلسني بجانبه، ثمَّ أحضر لي زنجيٌّ شيئًا من حليب فرسٍ في إناءٍ من الخشب، وقطعةً مشويَّةً من لحم الضَّأن.

«ومع انبلاج الفجر بدأنا رحلتنا. ركبتُ جملًا أحمر الشَّعر بجانب كبير التُّجَّار، وركض أمامنا عدَّاءٌ يحمل رمحًا. كان رجالٌ مدجَّجون بالسِّلاح يسيرون عن يميننا، ومثلهم عن يسارنا، وخلفنا سارت البغال تحمل البضائع. كانت القافلة مكوَّنةً من أربعين جملًا وضعف ذلك من البغال.

«وغادرنا بلاد التَّتار إلى بلاد أولئك الذين يلعنون القمر. رأينا الغريفونات رابضين على صخورٍ بِيْضٍ يحرسون ذَهَبَهم، والتَّنانين الحرشفيَّة نائمةً في كهوفهم. وعندما سرنا فوق الجبال حبسنا أنفاسنا مخافةَ أن تتساقط علينا الثُّلوج، وقد عقدَ كلُّ رجلٍ خمارًا من الشَّاش فوق عينيه، وبينما كنَّا نقطع

الوديان، أمطرنا الأقزامُ بوابلٍ من السِّهام من خَلَلِ الأشجار، وفي اللَّيل سمعنا البدائيِّين يدقُّون الطُّبول. عندما وصلنا إلى برج القرود، وضعنا الفاكهة أمامهم فلم يؤذونا، وعندما وصلنا إلى برج الثَّعابين، أعطيناهم حليبًا دافئًا في جفناتٍ من النُّحاس، فسمحوا لنا بالعبور. ثلاث مرَّاتٍ في رحلتنا وصلنا إلى ضفاف نهر أوكسوس، وعبرناها على عوَّاماتٍ خشبيَّةٍ رُبطت إليها أكياسٌ كبيرةٌ من الجلد المنفوخ. هاجمتنا أفراس النَّهر وحاولت قتلنا. حين رأتها الجِمال ارتعدت فرائصها.

«كان ملكُ كلِّ مدينةٍ يفرض علينا إتاوةً، ولكن دون السَّماح لنا بدخول أبوابها. كانوا يرمون لنا الخبز وكعكات الذُّرة المخبوزة بالعسل وكعكات الدَّقيق المنقَّى المحشوَّة بالتَّمر من فوق الجدران؛ ومقابل كلِّ مئة سلَّةٍ كنَّا نعطيهم خرزةً من الكهرمان.

«عندما كان سكَّان القرى يروننا قادمين، كانوا يسمِّمون الآبار ثمَّ يهربون إلى قمم التِّلال. تحاربنا مع الماجاديِّين الذين يولدون كبارًا في السِّنِّ ويظلُّون يصغرون عامًا بعد عامٍ ويموتون وهم أطفالٌ صِغار؛ ومع اللَّاكتريِّين الذين يدَّعون أنَّهم من نسل النُّمور، ويصبغون أجسادهم باللَّونين الأصفر والأسود؛ ومع الأورانتيِّين الذين يدفنون موتاهم على قمم الأشجار، ويعيشون في كهوفٍ مظلمةٍ لئلَّا تقتلهم الشَّمس التي هي إلههم؛ ومع الكريمنيِّين الذين يعبدون التِّمساح ويقدِّمون له قربانًا أقراطًا من الزُّجاج الأخضر ويطعمونه الزُّبْدَ والطَّرائد الطَّريَّة؛ ومع الأغازونبيِّين الذين وجوههم وجوه كلابٍ؛ ومع السِّيبانيِّين الذين لهم حوافر خيلٍ ويركضون أسرع من الخيول. مات ثلث جماعتنا في هذه المعارك، ومات ثلثٌ آخر من الجوع، وظلَّ الثُّلث الأخير يدمدم عليَّ ويقول إنَّني جلبت عليهم الحظَّ

السَّيِّئ، فالتقطتُ أفعىً قرناءَ من تحت حجرٍ وجعلتها تلدغني. وعندما رأوا أنَّني لم أمرض اعتراهم الخوف.

«وصلنا في الشَّهر الرَّابع إلى مدينة إيلِّيل. كان الوقت ليلًا حين دخلنا بستانًا يقع خارج أسوار المدينة، وكان الجوُّ شديد الحَرِّ، لأنَّ القمر كان في برج العقرب. قطفنا بعض ثمار الرُّمَّان النَّاضجة من الأشجار، وكسرناها وشربنا عصائرها الحلوة، ثمَّ استلقينا على سجَّاداتنا وانتظرنا طلوع الفجر.

«وعند الفجر نهضنا وقرعنا على بوَّابة المدينة. كانت البوَّابة مصنوعةً من البرونز الأحمر، ومنقوشٌ عليها تنانين بحريَّةٌ وتنانين مجنَّحة. نظر الحرَّاس إلينا من أعلى الأسوار وسألونا عمَّا نريد. فقال لهم ترجمان القافلة إنَّنا جئنا محمَّلين بالبضاعة من جزيرة سوريا، ولكنَّهم أخذوا بعضنا رهائن وقالوا لنا إنَّهم سيفتحون لنا البوَّابة عند الظَّهيرة، وأمرونا أن ننتظر حتى ذلك الحين.

«عند الظَّهيرة فتحوا البوَّابة فدخلنا المدينة وخرج النَّاس من بيوتهم حشودًا ليتفرَّجوا علينا، وطاف منادٍ في أرجاء المدينة نافخًا في محارة. وقفنا في السُّوق، وفكَّ الزُّنوج بالات الأقمشة المزركشة وفتحوا الصَّناديق المصنوعة من خشب الجمَّيز المحفور. وعندما أنجز العبيد مهمَّتهم، تقدَّم التُّجَّار ليعرضوا بضاعتهم الغريبة، الكتَّان المشمَّع من مصر، والكتَّان الملوَّن من إثيوبيا، والإسفنج الأرجوانيَّ من صُوْر، والسَّجَّاد الزُّخرفيَّ الأزرق من صيدا، وأقداح الكهرمان الأبيض والأواني الزُّجاجيَّة البديعة وأواني الخزف الغريبة الأشكال. كانت نساء المدينة ينظرن إلينا من أسطح المنازل، وكانت إحداهنَّ تضع قناعًا من الجلد المذهَّب.

«في اليوم الأوَّل جاء كهنة المدينة وقايضونا، وفي اليوم الثَّاني جاء الأشراف، وفي اليوم الثَّالث وفد إلينا الحرفيُّون والعبيد، وذلك هو ديدن السُّكَّان مع كلِّ التُّجَّار طوال فترة مكوث هؤلاء في مدينتهم.

«ومكثنا هناك قرابة شهرٍ قمريٍّ، وحين بدأ القمر يتضاءل، سئمتُ ورحت أتجوَّل في شوارع المدينة ووصلتُ إلى حديقة إلهها. رأيتُ الكهنة بأرديتهم الصَّفراء يطوفون بصمتٍ بين الأشجار الخضراء، وعلى أرضيَّةٍ من المرمر الأسود انتصبَ البيت الأحمر الورديُّ الذي يسكن فيه الإله. كانت أبواب البيت مطليَّةً بالورنيش ومزخرفةً بثيرانٍ وطواويس من ذهبٍ نافرٍ ومصقول، أمَّا السَّقف المائل فكان من البورسلين الأخضر المزرَقِّ، وقد زُيِّنت أفاريزه بأجراسٍ صغيرةٍ، فعندما كانت الحمائم البيضاء تطير، كانت تضرب الأجراس بأجنحتها وتجعلها ترنُّ.

«أمام المعبد كانت هناك بركةٌ من الماء الصَّافي مرصوفةٌ بالعقيق اليمانيِّ. اضطجعتُ بجانبها ورحت ألمس بأصابعي الشَّاحبة الأوراق العريضة لإحدى الأشجار. اقترب منِّي أحد الكهنة ووقف خلفي. كان ينتعل خفَّين مختلفين، أحدهما من جلد الثُّعبان النَّاعم والثَّاني من ريش الطُّيور، ويضع على رأسه قلنسوةً من الصُّوف الأسود مزخرفةً بأهلَّةٍ فضِّيَّةٍ، كما طُرِّز رداؤه بسبعة أهلَّةٍ صفراء، وكان شعره الأسود ملطَّخًا بحجر الكُحل.

«بعد قليلٍ تكلَّم معي وسألني عن رغبتي.

«فقلت له إنَّني أرغب في رؤية الرَّبِّ.

«فقال الكاهن وهو ينظر إليَّ بغرابةٍ بعينيه الصَّغيرتين المائلتين: إنَّ الرَّبَّ في رحلة صيدٍ.

«فأجبته: قل لي في أيِّ غابةٍ وسأمتطي صهوة حصاني وأتبعـه.

مشَّطَ شراريب ردائه الكهنوتيِّ النَّاعمة بأظافره الطَّويلة المدبَّبة وتمتم: الرَّبُّ نائمٌ.

«فقلت له: قل لي على أيِّ أريكةٍ وسأسهر بجانبه.

«فقال لي: الرَّبُّ في عيدٍ.

«فقلت له: إن كان الخمر حلوًا شربتُه معه، وإن كان مرًّا شربتُه معه أيضًا.

«فأحنى رأسه متعجِّبًا، ثمَّ أمسكني بيدي وأنهضني وقادني إلى الهيكل.

«في الغرفة الأولى رأيت صنمًا جالسًا على عرشٍ من يشبٍ تحفُّه لآلئ شرقيَّةٌ ضخمةٌ. كان منحوتًا من خشب الأبنوس، وبقامةٍ تعادل قامةَ رجلٍ عاديٍّ، وكانت على جبينه ياقوتةٌ حمراء، وزيتٌ كثيفٌ كان يقطر من شعره على فخذيه. كانت قدماه ملطَّختَين بدم طفلٍ مذبوحٍ حديثًا، وقد طُوِّقَ حقواه بنطاقٍ نحاسيٍّ مرصَّعٍ بسبع قطعٍ من الزَّبَرجَد الأخضر.

«فقلت للكاهن: أهذا هو الرَّبُّ؟ فأجابني: هذا هو الرَّبُّ.

«فصحتُ: أرني الرَّبَّ وإلَّا قتلتكَ حتمًا.

«ولمستُ يده فذبلَتْ.

«فقال لي الكاهن متوسِّلًا: ليشفِ مولايَ عبدَه وأنا أريه الرَّبَّ.

«ونفختُ بأنفاسي على يده، فعادت إلى هيئتها الأولى، وارتجف وقادني إلى الغرفة الثَّانية، فرأيت صنمًا آخر يقف على زهرة لوتسٍ من اليشم عُلِّقَتْ بها زمرُّداتٌ كبيرة الحجم، وكان الصَّنم منحوتًا من العاج،

وبقامةٍ تعادل ضعف قامةِ رجلٍ عاديٍّ، وكانت على جبينه زبرجدةٌ زيتونيَّةٌ، وقد مسحوا ثدييه بالمرِّ والقرفة، وكان يحمل بيدٍ صولجانًا معقوفًا من اليشب، وبالأخرى كرةً من البلَّور، وينتعل جزمةً نصفيَّةً من النُّحاس، وقد طُوِّقت عنقه الغليظة بقلادةٍ من أحجار السِّيلينيت.

«فقلت للكاهن: أهذا هو الرَّبُّ؟ فأجابني: هذا هو الرَّبُّ.

«فصحتُ: أرني الرَّبَّ وإلَّا قتلتكَ حتمًا.

«ولمستُ عينيه فذهب بصرُه في الحال.

«فقال لي الكاهن متوسِّلًا: ليشفِ مولايَ عبدَه وأنا أريه الرَّبَّ.

«فنفختُ بأنفاسي على عينيه، فعاد إليهما البصرُ، وارتجف مرَّةً أخرى وقادني إلى الغرفة الثَّالثة، ولم يكن فيها صنمٌ، ولا صورةٌ من أيِّ نوعٍ، بل فقط مرآةٌ من المعدن موضوعةٌ على مذبحٍ حجريٍّ.

«فقلت للكاهن: أين الرَّبُّ؟

«فأجابني: لا ربَّ سوى هذه المرآة التي تراها، ذلك أنَّها مرآة الحكمة. وهي تعكس كلَّ ما في السَّماوات والأرض، إلَّا وجه من ينظر إليها، فهي لا تعكسه حتى يكون من ينظر إليها حكيمًا، وهناك العديد من المرايا هنا، ولكنَّها مرايا الرَّأي، وهذه وحدها مرآة الحكمة، ومن يملك هذه المرآة يعرف كلَّ شيءٍ ولا يخفى عليه شيء، ومن لا يملكها لا يملك شيئًا من الحكمة؛ ولذلك هي الرَّبُّ ونحن نعبده.

«ثمَّ نظرتُ في المرآة، وكان الأمر كما قال لي.

«ثمَّ فعلتُ أمرًا غريبًا، مع أنَّ ما فعلته لم يكن ذا شأنٍ، ففي وادٍ لا يبعد

سوى مسيرة يومٍ واحدٍ عن هذا المكان أخفيتُ مرآة الحكمة، فإن سمحتَ لي بأن أحلَّ فيك ثانيةً وأكون خادمتك، جعلتكَ أحكم من جميع حكماء الأرض، وكانت الحكمة لك. دعني أحلُّ فيك ولن يكون أحدٌ في الأرض أحكم منك».

ولكنَّ صيَّاد السَّمك ضحك وقال: «الحبُّ أفضل من الحكمة، وحوريَّة البحر الصَّغيرة تحبُّني».

- «كلَّا، لا يوجد ما هو أفضل من الحكمة»، قالت الرُّوح.

- «بل الحبُّ أفضل»، ردَّ الصَّيَّاد الشَّابُّ، ثمَّ غاص إلى الأعماق وذهبت الرُّوح تبكي فوق الأهوار.

وبعد انقضاء السَّنة الثَّانية، نزلت الرُّوح ثانيةً إلى شاطئ البحر وراحت تنادي الصَّيَّاد الشَّابَّ حتى صعد من الأعماق وسألها: «لمَ تنادينني؟»

فأجابت الرُّوح: «ادنُ لأتكلَّم معك، لأنِّي رأيت أمرًا عجبًا».

فدنا واضطجع في المياه الضَّحلة، وأسند رأسه إلى راحة يده وأصغى إليها.

فقالت له الرُّوح: «عندما تركتك، يمَّمت وجهي نحو الجنوب ورحلت. فمن الجنوب يأتي كلُّ ما هو نفيس! ستَّة أيَّامٍ سافرتُ على طول الفِجاج التي تؤدِّي إلى مدينة آشتر. على طول فِجاجٍ مغبرَّةٍ بترابٍ أحمر يسلكها الحجَّاجُ سافرتُ. وفي صبيحة اليوم السَّابع، رفعت عينيَّ وإذا المدينةُ أسفل قدميَّ وأنا أنظر إليها من علٍ، ذلك أنَّها في وادٍ عميقٍ كانت.

«للمدينة تسع بوَّاباتٍ، وأمام كلِّ بوَّابةٍ حصانٌ من البرونز يصهل عندما

ينزل البدو من الجبال، والجدران مغطَّاةٌ بالنُّحاس الأصفر، وأبراج المراقبة الموضوعة على الأسوار مسقوفةٌ بالنُّحاس الأحمر، وفي كلِّ برجٍ يقف رامٍ يحمل قوسًا في يده. عند شروق الشَّمس، يُطلق سهمًا على جرسٍ قرصيٍّ ضخمٍ، وعند غروبها، ينفخ في قرن حيوان.

«حين هممتُ بالدُّخول، استوقفني الحرَّاس وسألوني من أكون، فقلت لهم إنَّني درويشٌ من الدَّراويش وأنا في طريقي إلى مدينة مكَّة حيث توجد ستارةٌ خضراء كبيرةٌ يُقال إنَّ القرآن مطرَّزٌ عليها بأحرفٍ فضِّيَّةٍ بأيدي الملائكة، فتعجَّبوا من كلامي وسمحوا لي بالدُّخول.

«المدينة في الدَّاخل بازارٌ حقيقيٌّ. كم تمنَّيت لو كنتَ معي. عبْرَ أزقَّتها الضَّيِّقة تختلج الفوانيس الورقيَّة الزَّاهية كأنَّها فراشاتٌ كبيرةٌ، وعندما تهبُّ الرِّيح على الأسطح ترتفع وتنخفض كما تفعل الفقَّاعات الملوَّنة. أمام أكشاكهم يجلس التُّجَّار على سجَّادٍ من حرير. لحاهم سوداء مستقيمةٌ، وعمائمهم موشَّاةٌ بالتِّرتر الذَّهبيِّ، وبين أصابعهم الباردة تنزلق مسابح طويلةٌ من الكهرمان وبذور الدُّرَّاق المنحوتة. بعضهم يبيع صمغَ الحِلبينةِ والنَّاردين، وعطورًا غريبةً جلبوها من جزر البحر الهنديِّ، وزيتَ الورد الأحمر الكثيفَ، والمرَّ وأعواد القرنفل التي تشبه المسامير، وحين يتوقَّف المرء ليتحدَّث إليهم، يرمون حفناتٍ من اللُّبان في مجامر فحمٍ، فيعبق الهواء بطيبها. رأيتُ سوريًّا يمسك بيديه عصًا طويلةً مثل القصبة، وكانت تنبعث منها خيوطٌ رماديَّةٌ من الدُّخان، ورائحتها في أثناء احتراقها كرائحة اللَّوز الورديِّ في الرَّبيع. وبعضهم الآخر يبيع أساور فضِّيَّةً مرصَّعةً في كلِّ موضعٍ منها بأحجارٍ كريمةٍ من الفيروز الأزرق، وخلاخيلَ من النُّحاس المفتول والمهدَّب بحبَّاتٍ صغيرةٍ من اللُّؤلؤ، ومخالبَ نمورٍ مطليَّةً

بالذَّهب، ومخالبَ ذلك القطِّ المذهَّب، الفهد، المطليَّة بالذَّهب أيضًا، وأقراطًا من الزُّمرُّد المخرَّم، وخواتمَ من اليشم المجوَّف. من المقاهي يتناهى إلى المسامع صوت القيثار، ومدخِّنو الأفيون بوجوههم البيضاء المبتسمة ينظرون إلى المارَّة.

«حقًّا كان يجب أن تكون معي. رأيتُ باعة النَّبيذ يشقُّون طريقهم وسط الحشود مع قِرَبٍ سوداء كبيرةٍ على أكتافهم. معظمهم يبيعون نبيذ شيراز، وهو حلوٌ كالعسل، ويقدِّمونه في أكوابٍ معدنيَّةٍ صغيرةٍ ناثرين عليه بعض أوراق الورد. في السُّوق يقف باعة الفاكهة الذين يبيعون جميع أنواع الفاكهة: التِّينَ النَّاضجَ، بلبِّه الأرجوانيِّ المهروس، والبطِّيخَ المسكيَّ الرَّائحة والأصفرَ صفرةَ التُّوباز، والكبَّادَ والتُّفَّاحَ الورديَّ وعناقيد العنب الأبيض والبرتقالَ الأحمر الذَّهبيَّ واللَّيمون البيضويَّ بلونه الأخضر الذَّهبيِّ. ذات مرَّةٍ رأيتُ فيلًا يمرُّ. كان خرطومه مطليًّا بالقرمز والكركم، وعلى أذنيه شبكةٌ من خيوط الحرير القرمزيَّة. توقَّف أمام أحد الأكشاك وراح يأكل البرتقال، ولم يفعل الرَّجل سوى أنَّه ضحك فحسب. لا يمكنك تصوُّر مدى غرابة النَّاس هناك. فعندما يفرحون، يذهبون إلى باعة الطُّيور ويشترون منهم طائرًا في قفصٍ، ثمَّ يطلقون سراحه لتصير فرحتهم أكبر؛ وعندما يحزنون، يجلدون أنفسهم بالأشواك لئلَّا يقلَّ حزنهم.

«ذات مساءٍ، صادفتُ زنوجًا يحملون محفَّةً ثقيلةً ويطوفون في البازار. كانت مصنوعةً من الخيزران المذهَّب، وأعمدتها مطليَّةٌ بورنيشٍ بنفسجيٍّ مرصَّعٍ بطواويس من النُّحاس الأصفر، وعلى نوافذها عُلِّقَتْ ستائر خفيفةٌ من الموسلين الموشَّى بأجنحة الخنافس واللَّآلئ الصَّغيرة، ومع مرورها نظر إلى الخارج وجهٌ شركسيٌّ شاحبٌ وابتسم لي. مشيت وراء المحفَّة،

فحثَّ الزُّنوج خطاهم وعبسوا. ولكنِّي لم أعبأ بهم. فقد شعرت بفضولٍ كبيرٍ يستولي عليَّ.

«توقَّفوا أخيرًا عند بيتٍ أبيض مربَّع الشَّكل. لم تكن له نوافذ، سوى بابٍ صغيرٍ كفتحة قبر. أنزلوا المحفَّة إلى الأرض، وطرقوا الباب ثلاثًا بمطرقةٍ من نحاسٍ، فأطَلَّ رجلٌ أرمنيٌّ يرتدي قفطانًا جلديًّا أخضر من خَوْخَةِ الباب، وحين رَآهم فتح لهم، ثمَّ مدَّ سجَّادةً على الأرض، فخرجت امرأةٌ من المحفَّة. وبينما كانت تدخل البيت استدارت وابتسمت لي ثانيةً. لم أرَ في حياتي وجهًا شاحبًا كوجهها.

«عندما بزغ القمر، عدتُ إلى المكان نفسه وبحثتُ عن ذلك البيت، ولكنَّه لم يعد موجودًا. وعندما رأيتُ ذلك، عرفتُ من تكون المرأة ولماذا ابتسمت لي.

«كم تمنَّيت لو كنت معي. في عيد اكتمال القمر، يخرج الإمبراطور الشَّابُّ من قصره ويدخل المسجد ليؤدِّي الصَّلاة. كان شعره ولحيته مخضَّبَين بأوراق الورد، ووجنتاه ممسوحتَين بذَرُورٍ ذهبيٍّ ناعمٍ، وكانت يداه وقدماه صُفرًا من صبغة الزَّعفران.

«عند شروق الشَّمس يخرج من قصره مرتديًا حلَّةً فضِّيَّةً، وعند الغروب يعود إليه مرتديًا حلَّةً ذهبيَّةً. وفي ذهابه وإيابه يرتمي النَّاس على الأرض ويخفون وجوههم، ولكنِّي لم أفعل ذلك، بل وقفت بجانب كشكٍ يبيع التَّمر وانتظرت. عندما رآني الإمبراطور، رفع حاجبيه وتوقَّف. لم أحرِّك ساكنًا، ولم أسجد له. فتعجَّب النَّاس من جرأتي وأشاروا عليَّ بأن أهرب من المدينة. لم أكترث لنصيحتهم، بل مضيت وجلست عند باعة الآلهة

الغريبة الذين كانوا مكروهين بسبب مهنتهم هذه، وعندما أخبرتهم بما فعلته، أعطاني كلُّ بائعٍ منهم إلهاً وتوسَّلوا إليَّ أن أتركهم.

«في تلك اللَّيلة، بينما كنت مستلقيةً على أريكةٍ في المقهى الواقع في شارع الرُّمَّان، دخل حرَّاس الإمبراطور واقتادوني إلى القصر. كلُّ بابٍ كانوا يُدخلونني منه كانوا يغلقونه خلفي ويضعون عليه السَّلاسل. كان البلاط في الدَّاخل فسيحًا ومحفوفًا من جميع الجهات برواقٍ مقنطرٍ، وكانت الجدران من المرمر الأبيض المرصَّع هنا وهناك برقاقاتٍ زرقاء وخضراء، أمَّا الأعمدة فكانت من المرمر الأخضر، بينما بُلِّطت الأرضيَّة برخامٍ بلون زهر الدُّرَّاق. لم أر في حياتي شيئًا مثل ذلك من قبل.

«وبينما كنت أعبر بلاط القصر، نظرَتْ سيِّدتان محجَّبتان إليَّ من شرفةٍ ولعنتاني. فحثَّ الحرَّاس خطاهم وضربوا بأعقاب رماحهم على الأرضيَّة المصقولة، ففُتِحَت لهم بوَّابةٌ من العاج المشغول، ووجدت نفسي في حديقةٍ مشعشعةٍ لها سبع مصاطب مزروعةٌ بأكواب التُّوليب وأزهار القمر ونباتات الألُوَّة المفضَّضة، وفيها عين ماءٍ تنبجس في الهواء كقصبةٍ رفيعةٍ من الكريستال، وكانت أشجار السَّرو أشبه بمشاعل متَّقدة، وفي إحداها كان عندليبٌ يغنِّي.

«في نهاية الحديقة كان ثمَّة سرادقٌ صغيرٌ، وحين اقتربنا منه خرج اثنان من الخصيان لاستقبالنا، وكان جسداهما السَّمينان يهتزَّان ويتمايلان مع حركتهما، وكانا ينظران إليَّ بفضولٍ بعيونٍ مصفرَّة الأجفان. سحب أحدهما قائدَ الحرس جانبًا وهمس إليه بحديثٍ، بينما استمرَّ الآخر بمضغ أقراصٍ معطَّرةٍ كان يأخذها، بحركةٍ متكلِّفةٍ، من علبةٍ بيضويَّةٍ مطليَّةٍ بمينا ليلكيَّةِ اللَّون.

«بعد لحظاتٍ، سمح قائد الحرس لجنوده بالانصراف، فرجعوا إلى القصر، بينما سار الخصيَّان ببطءٍ وراءهم وكانا يقطفان التُّوت الحلو من الأشجار في أثناء مرورهما. التفت أكبرهما سنًّا إليَّ وابتسم لي ابتسامةً خبيثة.

«ثم أمرني قائد الحرس، بحركةٍ من يده، بأن أدخل ذلك السُّرادق، فمشيت دون أن أرتجف، وأزحت السِّتارة الثَّقيلة جانبًا ودخلت.

«كان الإمبراطور الشَّابُّ مضطجعًا على أريكةٍ مصبوغةٍ من جلد الأسد، وقد جثم صقرٌ على معصمه، ووقف خلفه حارسٌ نوبيٌّ يضع على رأسه تُربانًا من النُّحاس، عاريًا حتى الخصر، وأقراطٌ ثقيلةٌ تتدلَّى من أذنيه. على طاولةٍ بجانب الأريكة وُضِعَ سيفٌ عظيمٌ معقوفٌ من الفولاذ.

«فلمَّا رآني الإمبراطور عبس وقال لي: ما اسمك؟ ألا تعلم أنَّني إمبراطور هذه المدينة؟

«فلم أحر جوابًا.

«فأشار بإصبعه إلى السَّيف المعقوف، فأمسكه النُّوبيُّ واندفع نحوي ضاربًا بالسَّيف بعنفٍ ووحشيَّةٍ. أزَّ النَّصل وهو يتخلَّلني، ولكنَّه لم يُلحق بي أيَّ أذى. سقط الحارس ممدَّدًا على الأرض، وعندما نهض كانت أسنانه تصطكُّ من الرُّعب، وذهب ليختبئ وراء الأريكة.

«قفز الإمبراطور واقفًا على قدميه، وتناول حربةً من مِنْصَب أسلحةٍ بجانبه، ورمى بها نحوي، فأمسكت بها وهي في الهواء وكسرتُ قضيبها إلى قطعتين. ثمَّ رماني بسهمٍ، ولكنَّني رفعت يديَّ فتوقَّف في الهواء. ثمَّ استلَّ خنجرًا من نطاقٍ من الجلد الأبيض، وطعن النُّوبيَّ في عنقه لئلَّا يبوح

العبدُ لأحدٍ بفضيحته. تلوَّى الرَّجل مثل ثعبانٍ مَدُوسٍ، وخرجت رغوةٌ حمراء من شفتيه.

«حالما لفظ العبدُ نفَسَه الأخيرَ التفت الإمبراطور إليَّ، وبعد أن مسح قطرات العرق المتلألئة عن جبينه، بمنديلٍ صغيرٍ من الحرير الأرجوانيِّ المزركش، قال لي: هل أنت نبيٌّ فلا يمكنني إيذاءك، أم ابن نبيٍّ فلا أستطيع طعنك؟ أرجوك أن تغادر مدينتي اللَّيلة، لأنَّني لم أعد سيِّدها ما دمتَ فيها.

«فأجبته: سأغادر بنصف ثروتك. أعطني نصف ثروتك وسوف أغادر.

«أخذني من يدي وقادني إلى الحديقة، فتعجَّب قائد الحرس حين رآني، وحين رآني الخَصِيَّان ارتعدت فرائصهما وسقطا على الأرض هلعًا.

«في القصر غرفةٌ لها ثمانية جدرانٍ من الرُّخام السُّماقيِّ الأحمر وسقفٌ مختومٌ بالنُّحاس الأصفر تتدلَّى منه المصابيح. لمس الإمبراطور أحد الجدران فانفتح، فدخلنا عبْرَ ممرٍّ أضيء بالعديد من المشاعل. في كُوَىً على كلا الجانبين كانت توجد جِرارُ نبيذٍ كبيرةٌ ممتلئةٌ حتى حوافِّها بقطعٍ نقديَّةٍ من الفضَّة، فلمَّا وصلنا إلى منتصف الممرِّ، لفظ الإمبراطور كلمةً سرِّيَّةً فانفتح له جدارٌ من الجرانيت على ينبوعٍ سرِّيٍّ، فوضع الإمبراطور يديه أمام وجهه لئلَّا تنبهر عيناه.

«لا يمكنك أن تتصوَّر كم كان بديعًا ذلك المكان. كانت هناك أصدافُ سلاحفَ ضخمةٌ مليئةٌ باللَّآلئ، وأحجارُ قمرٍ كبيرةٌ مجوَّفةٌ مُلئت بالياقوت الأحمر. وكان الذَّهب مكنوزًا في صناديق مصنوعةٍ من جلد الفيل، وغبارُ الذَّهب في قنانٍ جلديَّةٍ. وكان هناك الأوبال والياقوت الأزرق، الأوَّل مكنوزًا في أكوابٍ من الكريستال، والآخر في أكوابٍ من اليشب. أمَّا

أحجار الزُّمرُّد الأخضر المستديرة فكانت منضودةً باتِّساقٍ على صحونٍ رقيقةٍ من العاج، وفي إحدى الزَّوايا كانت هناك أكياسٌ حريريَّةٌ مُلئ بعضها بأحجار الفيروز، وبعضها الآخر بأحجار البريل. كانت قرون العاج طافحةً بالجمشت الأرجوانيِّ، وقرونٌ نحاسيَّةٌ بالعقيق الأبيض والعقيق الأحمر. وكانت أعمدة الممرِّ من خشب الأرز المطعَّم بأحجار عين الوشق الصَّفراء. كما كوِّمَتْ في تروسٍ بيضاويَّةٍ مسطَّحةٍ أكداسٌ من العقيق الخمريِّ والعقيق الحشائشيِّ اللَّون. وكلُّ هذا ما هو إلَّا غيضٌ من فيض.

«وحين أبعد الإمبراطور يديه من أمام وجهه، قال لي: هذا هو بيت كنزي، ونصف ما فيه لك، كما وعدتك، وسأعطيك أيضًا جِمالًا وحُداةً يأتمرون بأمرك ويحملون نصيبك من الكنز إلى أيِّ مكانٍ في الأرض ترغب في الذَّهاب إليه، ويجب أن يتمَّ هذا الأمرُ اللَّيلة، لأنَّني لا أريد أن يرى إله الشَّمس، وهو والدي، أنَّ في مدينتي رجلًا لا أستطيع قتله.

«ولكنِّي أجبته: الذَّهب الذي هنا مُلكٌ لك، والفضَّة كذلك مُلكٌ لك، ومُلكٌ لك أيضًا كلُّ الأحجار الكريمة والمجوهرات. فأنا لست في حاجةٍ إلى أيٍّ منها على الإطلاق، ولن آخذ منك سوى ذلك الخاتم الصَّغير الذي تضعه في إصبعك.

«فعبس الإمبراطور وصاح: ما هو إلَّا حلقةٌ من الرَّصاص لا قيمة لها. فلتأخذ نصف الكنز وتنصرف من مدينتي.

«فأجبته: لا، لن آخذ سوى ذلك الخاتم الرَّصاص، فأنا أعرف ما هو مكتوبٌ عليه ولأيِّ غرض.

«فارتعد الإمبراطور وتضرَّع إليَّ قائلًا: خذ الكنز كلَّه وغادر مدينتي. النِّصف الذي لي يكون لك أيضًا.

«وفعلتُ أمرًا غريبًا، مع أنَّ ما فعلته لم يكن ذا شأنٍ، ففي كهفٍ لا يبعد سوى مسيرة يومٍ واحدٍ عن هذا المكان أخفيتُ خاتم الثَّروة. إنَّه لا يبعد سوى مسيرة يومٍ واحدٍ من هنا، وهو هناك في انتظار مجيئك. من يمتلك هذا الخاتم يصبح أغنى من كلِّ ملوك العالم. فتعال معي إلى هناك وخذه، وستكون كلُّ ثروات الدُّنيا مُلك يديك.

«ولكنَّ الصَّيَّاد الشَّابَّ ضحك وصاح: الحبُّ أفضل من الثَّراء، وحوريَّة البحر الصَّغيرة تحبُّني.

ـ «كلَّا، لا يوجد ما هو أفضل من الثَّراء»، قالت الرُّوح.

ـ «بل الحبُّ أفضل»، ردَّ الصَّيَّاد الشَّابُّ، ثمَّ غاص إلى الأعماق وذهبت الرُّوح تبكي فوق الأهوار.

وبعد انقضاء السَّنة الثَّالثة، نزلت الرُّوح إلى شاطئ البحر وراحت تنادي الصَّيَّاد الشَّابَّ حتى صعد من الأعماق وسألها: «لِمَ تنادينني؟»

فأجابت الرُّوح: «ادنُ لأتكلَّم معك، لأنِّي رأيت أمرًا عجبًا».

فدنا واضطجع في المياه الضَّحلة، وأسند رأسه إلى راحة يده وأصغى إليها.

فقالت له الرُّوح: «في مدينةٍ أعرفها، توجد حانةٌ على ضفَّة نهرٍ. جلست هناك مع بحَّارةٍ شربوا نبيذَين مختلفَين في اللَّون، وأكلوا خبزًا مصنوعًا من الشَّعير وقليلًا من السَّمك المملَّح المقدَّم مع أوراق الغار بالخلِّ. وبينما كنَّا جالسين نمرح إذ دخل علينا رجلٌ عجوزٌ يحمل سجَّادةً من الجلد وعودًا له قرنان من الكهرمان. وبعد أن مدَّ السَّجَّادة على الأرض، راح يضرب

بالرِّيشة على أوتار العود، وسرعان ما جاءت فتاةٌ محجَّبةٌ وبدأت ترقص أمامنا. كان وجهها منقَّبًا بنقابٍ من شاشٍ خفيفٍ، ولكنَّ قدميها كانتا عاريتين. كانت قدماها عاريتين، وكانتا تتحرَّكان فوق السَّجَّادة كحمامتين صغيرتين بيضاوَين. لم أرَ في حياتي شيئًا بمثل هذا الجمال، والمدينة التي ترقص فيها لا تبعد سوى مسيرة يومٍ واحدٍ عن هذا المكان».

الآن، حين سمع الصَّيَّاد الشَّابُّ كلمات روحه، تذكَّر أنَّ حوريَّة البحر الصَّغيرة ليس لها قدمان ولا تستطيع الرَّقص، فاجتاحته رغبةٌ عارمةٌ في الذَّهاب إلى هناك، وقال في نفسه: «ما هي إلَّا رحلة يومٍ واحدٍ، ويمكنني أن أعود إلى حبيبتي»، ثمَّ ضحك ووقف في المياه الضَّحلة وسار باتِّجاه الشَّاطئ.

فلمَّا بلغ الشَّاطئ الجافَّ ضحك مرَّةً أخرى، ومدَّ ذراعيه لروحه، فصاحت روحه صيحة فرحٍ عاليةً وركضت لتعانقه، ودخلت فيه، فرأى الصَّيَّاد الشَّابُّ أمامه، ممدودًا على الرِّمال، ظلَّ الجسد الذي هو جسدُ الرُّوح.

فخاطبته روحه قائلةً: «هلمَّ بنا، دعنا لا نتلكَّأ، ولننطلق في الحال، لأنَّ آلهة البحر غيورون، ولديهم وحوشٌ تأتمر بأمرهم».

فحثَّا الخطى، وسافرا طوال تلك اللَّيلة تحت القمر، وسحابةَ النَّهار التَّالي تحت الشَّمس، وفي المساء وصلا إلى إحدى المدن.

فقال الصَّيَّاد الشَّابُّ لروحه: «أهذه هي المدينة التي ترقص فيها من حدَّثتِني عنها؟»

فأجابت روحه: «لا، هذه مدينةٌ أخرى، ولكن دعنا ندخلها».

فدخلا وسارا في شوارعها، وبينما كانا يتمشَّيان في شارع الجواهريِّين، رأى الصَّيَّاد الشَّابُّ كوبًا فضِّيًا جميلًا في إحدى الدَّكاكين، فقالت له روحه: «خذ الكوب الفضِّيَّ وخبِّئه».

فأخذ الكوب وخبَّأه في ثنايا ثوبه وخرجا مسرعَين من المدينة.

وبعد أن ابتعدا مسافة فرسخٍ عن المدينة، عبس الصَّيَّاد الشَّابُّ وألقى الكوب الفضِّيَّ بعيدًا، وقال لروحه: «لماذا طلبتِ منِّي أن آخذ هذا الكوب وأخبِّئه؟ إنَّه عملٌ أثيمٌ».

فأجابته روحه: «اهدأ، اهدأ».

وفي مساء اليوم الثَّاني وصلا إلى مدينةٍ أخرى، فسأل الصَّيَّاد الشَّابُّ روحه: «أهذه هي المدينة التي ترقص فيها من حدَّثتِني عنها؟»

فأجابت روحه: «لا، هذه مدينةٌ أخرى، ولكن دعنا ندخلها».

فدخلا وسارا في شوارعها، وبينما كانا يتمشَّيان في شارع بائعي الصَّنادل، رأى الصَّيَّاد الشَّابُّ طفلًا واقفًا بجانب جرَّة ماءٍ، فقالت له روحه: «اضرب هذا الطِّفل ضربًا مبرِّحًا»، فضرب الطِّفلَ حتى بكى، ثمَّ خرجا مسرعَين من المدينة.

وبعد أن ابتعدا مسافة فرسخٍ عن المدينة، غضبَ الصَّيَّاد الشَّابُّ، وقال لروحه: «لماذل طلبتِ منِّي أن أضرب الطِّفل؟ إنَّه عملٌ أثيمٌ».

فأجابته روحه: «اهدأ، اهدأ».

وفي مساء اليوم الثَّالث وصلا إلى مدينةٍ أخرى، فسأل الصَّيَّاد الشَّابُّ روحه: « أهذه هي المدينة التي ترقص فيها من حدَّثتِني عنها؟»

فأجابت روحه: «قد تكون هذه هي المدينة، فدعنا ندخلها».

فدخلا وسارا في شوارعها، ولكنَّ الصَّيَّاد الشَّابَّ لم يجد نهرًا ولا حانةً في أيِّ مكانٍ، وصار أهل المدينة ينظرون إليه بفضولٍ، فخاف منهم وقال لروحه: «فلنخرج من هذه المدينة، لأنَّ تلك التي ترقص بقدمين بيضاوَين ليست هنا».

ولكنَّ روحه أجابت: «لا، دعنا نتريَّث، لأنَّ اللَّيل دامسٌ وسيكون هناك لصوصٌ في الطَّريق».

فجلس في السُّوق ليستريح، وبعد فترةٍ من الوقت مـرَّ به تاجرٌ يضع قلنسوةً ويرتدي زيَّ التَّتار ويحمل فانوسًا من قرنٍ مخرَّمٍ مثبَّتٍ في نهاية قصبةٍ، فقال له التَّاجر: «لماذا جلوسك في السُّوق وقد أُغلِقَت الدَّكاكين ورُبِطَت البالات؟»

فأجابه الصَّيَّاد الشَّابُّ: «لم أعثر على حانةٍ في هذه المدينة، وليس لي أقرباءٌ هنا آوي إليهم».

فقال له التَّاجر: «ألسنا جميعًا أقرباء؟ ألم يخلقنا إلهٌ واحدٌ؟ تعال معي، ففي منزلي غرفةٌ للضُّيوف».

فنهض الصَّيَّاد الشَّابُّ وتبع التَّاجر إلى منزله، وبعد أن اجتازا حديقة الرُّمَّان ودخلا المنزل، أحضر له التَّاجر ماء الورد في طبقٍ نحاسيٍّ ليغسل يديه، ثمَّ قدَّم له بطِّيخًا طازجًا ليطفئ عطشه، ثمَّ وضع أمامه سلطانيَّةً فيها أرُزٌّ وقطعٌ من لحم الجدي المشويِّ.

وبعد أن أنهى عشاءه، قاده التَّاجر إلى غرفة الضُّيوف وطلب منه أن ينام

ويرتاح، فشكره الصَّيَّاد الشَّابُّ وقبَّل الخاتم الذي كان في يده، ثمَّ ارتمى على سجَّادةٍ من شعر الماعز المصبوغ وغطَّى نفسه بغطاءٍ أسود ناعمٍ من الصُّوف وغطَّ في نومٍ عميق.

ولكن قبل انبلاج الفجر بثلاث ساعاتٍ، وبينما الوقت ما يزال ليلًا، أيقظته روحه وقالت له: «قم واذهب إلى غرفة التَّاجر، إلى الغرفة التي ينام فيها، واذبحه وخذ ذهبه، لأنَّنا في حاجةٍ إليه».

فنهض الصَّيَّاد الشَّابُّ وتسلَّل إلى غرفة التَّاجر، فوجد سيفًا معقوفًا عند قدمي التَّاجر، وصينيَّةً فيها تسع صررٍ من الذَّهب عند رأسه، فمدَّ يده إلى السَّيف، وما إن لمسه حتى فزع التَّاجر واستيقظ، وبقفزةٍ واحدةٍ انتزع السَّيف من يد الصَّيَّاد الشَّابِّ وصاح به: «أتردُّ الإحسان بالإساءة والمعروفَ الذي أسديته لك بسفك دمي؟»

ولكنَّ روح الصَّيَّاد الشَّابِّ قالت له: «إضربه»، فضربه، فسقط مغشيًّا عليه، فأخذ صرر الذَّهب التِّسع وهرب بسرعةٍ عبر حديقة الرُّمَّان ميمِّمًا وجهه نحو النَّجمة التي هي نجمة الصَّباح.

وبعد أن ابتعدا مسافة فرسخٍ عن المدينة، لطم الصَّيَّاد الشَّابُّ صدره وقال لروحه: «لماذا طلبتِ منِّي أن أقتل التَّاجر وأسرق الذَّهب؟ إنَّه عملٌ أثيمٌ».

فأجابته روحه: «اهدأ، اهدأ».

فصرخ الصَّيَّاد الشَّابُّ في وجهها: «لا، لن أهدأ وقد أكرهتِني على فعل ما أكره. وأنتِ أيضًا أكرهكِ، وأطلب منكِ أن تخبريني لماذا تتصرَّفين هكذا معي؟»

فأجابته روحه: «عندما أرسلتني إلى العالم لم تعطني أيَّ قلبٍ، فتعلَّمتُ أن أفعل كلَّ هذه الأشياء وأن أحبَّها».

ـ «ماذا تقولين؟»، غمغمَ الصَّيَّاد الشَّابُّ.

ـ «أنتَ تعلم»، أجابت روحه، «أنتَ تعلم جيِّدًا أنَّك لم تعطني قلبًا، أنسيت؟ أشكُّ في ذلك. لذلك لا تُتعب نفسك وتُتعبني، بل اهدأ، لأنَّه لا يوجد ألمٌ لا يمكن التَّخلُّص منه ولا لذَّةٌ لا يمكن الحصول عليها».

فلمَّا سمع الصَّيَّاد الشَّابُّ هذه الكلمات ارتعد وقال لروحه: «لا، بل أنتِ روحٌ آثمةٌ، وقد أنسيتِني حبيبتي، وأغريتِني بالمغريات، ووضعتِ قدميَّ على دروب الخطيئة».

فردَّت عليه روحه: «لا تنس أنَّك عندما أرسلتني إلى العالم لم تعطني قلبًا. هلمَّ بنا نذهب إلى مدينةٍ أخرى ونبتهج ما دام معنا تسع صررٍ من الذَّهب».

ولكن الصَّيَّاد الشَّابَّ أخذ صرر الذَّهب التِّسع ورماها على الأرض وراح يدوسها بقدميه وهو يصيح: «لا، هنا تنتهي علاقتي بك ولن أواصل الرِّحلة معكِ إلى أيِّ مكان، وكما نبذتكِ بالأمس سأنبذكِ اليوم، لأنَّك لم تجلبي لي أيَّ خيرٍ». ثمَّ أعطى ظهره للقمر، وبالسِّكِّين الصَّغيرة ذات المقبض المصنوع من جلد ثعبانٍ أخضر هَمَّ بقطع ظلِّ الجسد الذي هو جسد الرُّوح.

ولكنَّ روحه لم تتزحزح عنه، ولم تعبأ بأوامره، بل قالت له: «لن تنفعك بعد الآن التَّعويذة التي علَّمتك إيَّاها السَّاحرة، لأنَّني لن أتركك، ولن تستطيع إخراجي منك. مرَّةً واحدةً فحسب يمكن للإنسان أن يُخرج

روحه منه، ولكنَّ من يستردُّ روحه يحتفظ بها إلى الأبد، وهذا هو عقابه ومكافأته».

فشحبَ الصَّيَّاد الشَّابُّ وأطبق قبضتيه غيظًا وصرخ: «إنَّها ساحرةٌ كاذبةٌ لأنَّها لم تخبرني بذلك».

ـ «لا»، أجابت الرُّوح، «لقد كانت صادقةً مع من كرَّست نفسها لعبادته، وستبقى خادمةً له إلى الأبد».

فلمَّا أدرك الصَّيَّاد الشَّابُّ أنَّه لم يعد قادرًا على التَّخلُّص من روحه، وأنَّها كانت روحًا شرِّيرةً وستبقى معه إلى الأبد، سقط على الأرض وبكى بمرارةٍ.

عندما بزغ النَّهار، نهض الصَّيَّاد الشَّابُّ وقال لروحه: «سأربط يديَّ بوثاقٍ حتى لا أنفِّذ أوامرك، وسأُطبِق شفتيَّ حتى لا أردِّد كلامك، وسأعود إلى حيث تقيم حبيبتي. إلى البحر سأعود، إلى الخليج الصَّغير حيث اعتادت أن تغنِّي، وسأناديها وأخبرها بكلِّ شرٍّ فعلتُه وبكلِّ شرٍّ فعلتِهِ بي».

فأغوته روحه قائلةً: «من تكون حبيبتك حتى تعود إليها؟ الدُّنيا مليئةٌ بنساءٍ يفقنها جمالًا. هناك فتيات السَّامرة الرَّاقصات واللَّواتي يرقصن على طريقة جميع أنواع الطَّير والوحيش. أقدامهنَّ مخضَّبةٌ بالحنَّاء، وبأيديهنَّ أجراسٌ نحاسيَّةٌ صغيرةٌ، ويضحكن وهنَّ يرقصن، وضحكاتهنَّ أصفى من ضحكات الماء. تعال معي وسأريكهنَّ. ما مشكلتك مع الأشياء التي تتعلَّق بالخطيئة؟ أليس معمولًا ليؤكَل ما طاب مأكلًا؟ أهناك سمٌّ فيما لذَّ مشربًا؟ لا تعذِّب نفسك، بل تعال معي إلى مدينةٍ أخرى، فهناك مدينةٌ صغيرةٌ قريبةٌ من هنا، وفيها حديقةٌ غنَّاء من أشجار الماغنوليا، وفي الحديقة طواويس

بيضاء وطواويس زرقاء الصَّدر، ذيولُها عندما تنشرها في الشَّمس تبدو كأقراصٍ عاجيَّةٍ وأقراصٍ مذهَّبة، وتلك التي تطعمهم ترقص إرضاءً لهم، فتارةً ترقص على يديها وتارةً على قدميها. عيناها مكحَّلتان بالإثمد ومنخراها على شكل جناحَي سنونوةٍ، ومن كُبشةٍ في أحد المنخرين تتدلَّى لؤلؤةٌ نُحِتَتْ على شكل زهرة. تملأ الدُّنيا بضحكاتها وهي ترقص، والحلقات الفضِّيَّة التي تدور حول كاحليها ترنُّ كأجراسٍ من الفضَّة. ولهذا أقول لك، لا تعذِّب نفسك أكثر، بل تعال معي إلى هذه المدينة».

لم يردَّ الصَّيَّاد الشَّابُّ على روحه، بل ختم شفتيه بختم الصَّمت وبحبلٍ مكينٍ أوثق يديه، وعاد إلى المكان الذي أتى منه، إلى الخليج الصَّغير حيث اعتادت حبيبته أن تغنِّي، وحاولت روحه بشتَّى الوسائل أن تغويه، ولكنَّه لم ينبس ببنت شفة، ولم يفعل أيَّ شرٍّ حاولت أن تستميله إليه، وكانت قوَّة الحبِّ التي بداخله عظيمةً جدًّا.

عندما وصل إلى شاطئ البحر، فكَّ الحبل عن يديه، وأزال ختم الصَّمت عن شفتيه، ونادى حوريَّة البحر الصَّغيرة، ولكنَّها لم تلبِّ نداءه، مع أنَّه مكث يناديها ويتوسَّل إليها طوال النَّهار.

وسخرت منه روحه قائلةً: «واضحٌ أنَّك لم تجنِ سوى القليل من الفرح من هذا الحبِّ. أنت كمن يسكب الماءَ ساعةَ الموتِ في إناءٍ مكسور. أنت تعطي كلَّ ما تملك ولا تجني شيئًا بالمقابل، ولهذا حريٌّ بك أن تأتي معي، لأنِّي أعرف أين يقع وادي الملذَّات وما هي الأشياء التي تحدث هناك».

ولكنَّ الصَّيَّاد الشَّابَّ لم يردَّ على روحه، وفي شقٍّ بإحدى الصُّخور بنى لنفسه بيتًا من الأغصان المجدولة، وأقام فيه طوال سنةٍ كاملة، وفي كلِّ

صباحٍ كان ينادي الحوريَّة، وفي كلِّ ظهيرةٍ كان يكرِّر النِّداء، وفي اللَّيل كان يردِّد اسمها، ولكنَّها لم تخرج أبدًا من البحر للقائه، ولم يعثر عليها في أيِّ مكانٍ من البحر مع أنَّه بحث عنها في الكهوف، وفي المياه الخضراء، وفي بركِ المدِّ والجزر، وحتى في الآبار التي في قيعان الأعماق.

وظلَّت روحه تغويه بالشَّرِّ وتوسوس له بأشياء فظيعةٍ، ولكنَّها لم تقوَ عليه، فقوَّة حبِّه كانت عظيمة.

وبعد انقضاء السَّنة، قالت الرُّوح تخاطب نفسها: «لقد أغويت سيِّدي بالشَّرِّ، ولكنَّ حبَّه أقوى منِّي. ولذلك سأغويه الآن بالخير، علَّه يأتي معي».

فالتفتت إلى الصَّيَّاد الشَّابِّ وقالت له: «لقد أخبرتك عن متع الدُّنيا ولكنَّك أعطيتني أذنًا صمَّاء. فدعني الآن أخبرك عن آلام العالم، علَّك تصغي إليَّ. ذلك أنَّ الألم هو بحقٍّ سيِّد العالم، ولا أحد يستطيع الإفلات من شبكته. هناك من يُعوزه الملبس، وهناك من يُعوزه المأكل. هناك أرامل متَّشحاتٌ بالأرجوان وأرامل متَّشحاتٌ بالأسمال. المجذومون يطوون المستنقعات جيئةً وذهابًا، وهم قساةٌ بعضهم على بعضٍ. والمتسوِّلون يطوون الفِجاجَ غدوًّا ورواحًا وجيوبهم فارغة. المجاعة تجوب شوارع المدن، والطَّاعون يجلس بعتبات أبوابها. فتعال معي لنصلح هذه الأشياء ونجعلها أثرًا بعد عين. فلماذا عليك أن تبقى هنا تنادي حبيبةً لا تجيب نداءك؟ ثمَّ ما هو الحبُّ حتى تعلِّق أهمِّيَّةً كبيرةً عليه؟»

ولكنَّ الصَّيَّاد الشَّابَّ لم ينبس ببنت شفة، فقد كانت قوَّة حبِّه كبيرةً جدًّا. وفي كلِّ صباحٍ كان ينادي الحوريَّة، وفي كلِّ ظهيرةٍ كان يكرِّر النِّداء، وفي اللَّيل كان يردِّد اسمها، ولكنَّها لم تخرج أبدًا من البحر للقائه، ولم

يعثر عليها في أيِّ مكانٍ من البحر مع أنَّه بحث عنها في أنهار البحر، وفي الوديان التي تحت الأمواج، وفي البحر الذي يجعله اللَّيل بنفسجيًّا، وفي البحر الذي يغادره الفجرُ رماديًّا.

وبعد انقضاء السَّنة الثَّانية، قالت الرُّوح للصَّيَّاد الشَّابِّ ليلًا، وكان يجلس وحيدًا في بيته المصنوع من أغصانٍ مجدولةٍ: «انظر، لقد أغويتك بالشَّرِّ وأغويتك بالخير، ولكنَّ حبَّك أقوى منِّي. ولذلك لن أغويك بعد الآن، ولكنَّني أتوسَّل إليك أن تسمح لي بدخول قلبك حتى نكون أنا وأنت واحدًا كما كنَّا من قبل».

ـ «بالتَّأكيد يمكنك الدُّخول»، قال الصَّيَّاد الشَّابُّ، «فلا بدَّ أنَّك عانيتِ الأمرَّين في تلك الأيَّام التي جبتِ فيها العالم بلا قلبٍ».

ـ «واحسرتاه!»، صرخت الرُّوح، «لا أجد مكانًا للدُّخول، فقلبك هذا مطوَّقٌ بالحبِّ».

ـ «ومع ذلك، أتمنَّى أن أتمكَّن من مساعدتك»، قال لها الصَّيَّاد الشَّابُّ.

وبينما كان يتكلَّم، خرجت صرخة حزنٍ عظيمةٌ من البحر، كتلك الصَّرخة التي يسمعها النَّاس عند وفاة أحد أهل البحر، ففزع الصَّيَّاد الشَّابُّ وخرج من بيته المتهالك وهرع إلى الشَّاطئ. وأتت الأمواج السَّوداء مسرعةً إلى الشَّاطئ وهي تحمل شيئًا أكثر بياضًا من الفضَّة، شيئًا أبيض كالزَّبد، وكزهرةٍ كانت تتقاذفه الأمواج. أخذته الأمواج من الأمواج، ثمَّ أخذه الزَّبد، ثمَّ استقبله الشَّاطئ، فرأى الصَّيَّاد الشَّابُّ جثَّة حوريَّة البحر الصَّغيرة ملقاةً عند قدميه. ميِّتةً كانت تستلقي عند قدميه.

ارتمى بجانبها وهو يبكي مذبوحًا من الألم، وقبَّل الحمرةَ الباردةَ

لشفتيها، وداعب كهرمانَ شعرها المبلَّل. ارتمى بجانبها على الرِّمال وهو يبكي كمن يختلج من الفرح، وبذراعيه السَّمراوَين ضمَّها إلى صدره. كانت شفتاها باردتَين، ولكنَّه قبَّلهما. مالحًا كان عسلُ شعرها، ولكنَّه تذوَّقه بفرحٍ ممزوجٍ بالمرارة. قبَّلَ جفنيها المطبقَين، وكان الرَّذاذ الوحشيُّ على ذينك الكوبَين أقلَّ ملوحةً من دموعه.

ثمَّ راح يعترف للجسد المسجَّى أمامه، فسكب نبيذَ حكايته اللَّاذع في صدفتَي أذنيه، ووضع اليدين الصَّغيرتين حول رقبته، وبأصابعه لمس قصبة الحنجرة الرَّقيقة. مريرةً، مريرةً كانت فرحتُه، ومليئًا بفرحٍ غريبٍ كان ألمُه.

اقترب البحر الأسود، وتنهَّد الزَّبد الأبيض تنهُّدَ المجذوم، وبمخالب الزَّبد البيضاء تشبَّثَ البحرُ بالشَّاطئ. من قصر ملك البحر صعدت صرخة الحِداد مرَّةً أخرى، وبعيدًا في البحر نفخت التِّرايتونات العملاقة بقوَّةٍ في أبواقها.

فصاحت روحه: «اهرب بسرعةٍ، لأنَّ البحر يقترب شيئًا فشيئًا، وإذا تلكَّأت فسوف يقتلك. اهرب، فأنا خائفةٌ إذ أرى قلبك موصَدًا دوني بسبب عظمة حبِّك. اهرب إلى مكانٍ آمنٍ. فأنت لن ترسلني بلا قلبٍ إلى عالمٍ آخر، أليس كذلك؟»

ولكنَّ الصَّيَّاد الشَّابَّ لم يصغِ إلى روحه، بل نادى حوريَّة البحر الصَّغيرة وقال لها: «الحبُّ خيرٌ من الحكمة، وأغلى من كلِّ ثروات الأرض، وأجمل من بنات بني البشر. لا يمكن لكلِّ حرائق الأرض أن تدمِّره، ولا لكلِّ المياه أن تُطفئه. ناديتكِ عند الفجر ولم تجيبي ندائي. القمر سمع اسمكِ وأنتِ لم تسمعيني. لأنَّني بقسوةٍ تركتكِ ولسوء حظِّي رحلتُ عنكِ. ومع ذلك،

بقي حبُّكِ دائمًا بداخلي، وكان دائمًا قويًّا بحيث لم يستطع شيءٌ الانتصار عليه، مع أنَّني رأيتُ الشَّرَّ ورأيتُ الخير. والآن وقد متِّ فإنَّني سأموت معكِ أيضًا».

وطلبت منه روحه أن يغادر المكان، ولكنَّه رفض، فقد كان حبُّه جارفًا. واقترب البحر، وكاد يغطِّيه بأمواجه، وحين أدرك أنَّ نهايته وشيكةٌ، جعل يقبِّل بشفتين مجنونتين شفتَي حوريَّة البحر الباردتَين حتى انفطر قلبه، فوجدت الرُّوح منفذًا ودخلت، وأصبحت وهو واحدًا كما كانا من قبل، وغطَّى البحر الصَّيَّادَ الشَّابَّ بأمواجه.

وفي الصَّباح خرج الكاهن ليباركَ البحر لأنَّه كان مضطربًا، وذهب معه الرُّهبان والموسيقيُّون وحاملو الشُّموع ومؤرجحو المباخر ورفقةٌ كبيرة.

وحين وصل الكاهن إلى الشَّاطئ، رأى الصَّيَّاد الشَّابَّ ممدَّدًا وقد غطَّاه الزَّبد، وجسدُ حوريَّة البحر الصَّغيرة بين ذراعيه، فتراجع عابسًا ورسمَ إشارة الصَّليب وصاح بصوتٍ عالٍ وقال: «لن أبارك البحر ولا ما فيه. ملعونون أهل البحر وملعونٌ كلُّ من يتعامل معهم. أمَّا من ترك الرَّبَّ من أجل الحبِّ، والذي ترونه ممدَّدًا هنا مع عشيقته المقتولة بحكمِ الرَّبِّ، فاحملوا جسده وجسد عشيقته، وادفنوهما في ركنٍ من حقل القصَّارين ولا تضعوا شاهدًا على قبرهما، ولا علامةً من أيِّ نوعٍ، حتى لا يعرف أحدٌ موضعَ مرقدهما، لأنَّهما ملعونَين كانا في حياتهما، وملعونَين يكونان أيضًا في مماتهما».

ففعل النَّاس كما أمرهم، وفي ركنٍ من حقل القصَّارين، حيث لا تنمو أيُّ عشبةٍ طيِّبةٍ، حفروا حفرةً عميقةً ودفنوا فيها الميِّتَين.

فلمَّا انقضت السَّنة الثَّالثة، وفي يومٍ مقدَّسٍ، مضى الكاهن إلى الكنيسة ليبيِّن للنَّاس جروح الرَّبِّ ويحدِّثهم عن غضب اللّه.

ولمَّا ارتدى رداءه الكهنوتيَّ ودخل وركع أمام المذبح، رأى المذبح مغطًّى بأزهارٍ غريبةٍ لم يسبق أن رأى لها مثيلًا. كانت أزهارًا غريبة المظهر، ذات جمالٍ عجيبٍ، وقد شوَّش جمالُها أفكاره، وكان شذاها حلوًا في أنفه. وشعر بالسَّعادة، ولم يفهم لماذا كان سعيدًا.

وبعد ذلك فتح بيت القربان، وبخَّرَ وعاء القربان المقدَّس الذي بداخله، وأظهر رقاقةَ الخبز المقدَّسة للنَّاس، ثمَّ خبَّأها مرَّةً أخرى وراء حجاب الحُجُب، ثُّم بدأ يتحدَّث إلى الرَّعيَّة وهو راغبٌ في أن يكون حديثه إليهم عن غضب اللّه، ولكنَّ جمال الأزهار البيضاء شوَّش أفكاره، وكان شذاها حلوًا في أنفه، فخرجت كلماتٌ أخرى من شفتيه، ولم يتحدَّث عن غضب اللّه بل عن اللّه الذي اسمه الحُبُّ. أمَّا لماذا تكلَّم هكذا، فهو نفسه لم يكن يعلم.

وحين أنهى كلمته بكى النَّاس، وعاد الكاهن إلى غرفة الملابس المقدَّسة وامتلأت عيناه بالدُّموع. ودخل الشَّمامسة وساعدوه في خلع الرِّداء الكهنوتيِّ، فأخذوا منه القميصَ والنِّطاق، الذِّراعةَ والبطرشيل، وكان طوال الوقت واقفًا كالحالم.

وبعد أن فرغوا من خلع ردائه، نظر إليهم وقال: «ما تلكم الأزهار التي على المذبح؟ ومن أين أتت؟»

فقالوا له: «لا نعرف ما تلك الأزهار، ولكنَّها أتت من ركنٍ في حقل القصَّارين»، فارتعد الكاهن وعاد إلى بيته وصلَّى.

وفي الصَّباح، وبينما كان الوقت ما يزال فجرًا، خرج مع الرُّهبان والموسيقيِّين وحاملي الشُّموع ومؤرجحي المباخر ورفقةٍ كبيرةٍ، وتوجَّه إلى شاطئ البحر وباركَ البحر وكلَّ الكائنات البرِّيَّة التي فيه. وباركَ الفاونات أيضًا، وكلَّ الكائنات الصَّغيرة التي ترقص في الغابة، والكائناتِ ذات العيون البرَّاقة والتي تحدِّق خللَ أوراق الأشجار. بارك كلَّ مخلوقات اللّه في العالم، وامتلأ النَّاس فرحًا وعجبًا. ولكن مع ذلك، لم تنمُ منذ ذلك الحين أزهارٌ من أيِّ نوعٍ في حقل القصَّارين، بل ظلَّ الحقل يبابًا كما كان من قبل، ولم يعد أهل البحر يأتون إلى الخليج كما كانوا يفعلون من قبل، لأنَّهم غادروا إلى جهةٍ أخرى من البحر.

الطِّفلُ النَّجمةُ

القصَّة مهداةٌ إلى الآنسة مارغوت تينانت

ذات مرَّةٍ، في قديم الزَّمان، كان حطَّابان فقيران يشقَّان طريقهما إلى المنزل عبر غابة صنوبرٍ كبيرة. كان الفصل شتاءً، واللَّيلُ قارسَ البرودة. وكان الثَّلج كثيفًا على الأرض وعلى أغصان الأشجار، وباستمرارٍ كان الصَّقيع يكسِّر الغُصَينات الصَّغيرة على جانبيهما في أثناء مرورهما، وعندما بلغا الجبل وجدا الشَّلَّال معلَّقًا بلا حراكٍ في الهواء لأنَّ ملكة الجليد قبَّلته.

كان الجوُّ شديد البرودة لدرجة أنَّه حتى حيوانات وطيور الغابة لم تعرف كيف تتصرَّف إزاءه.

- «أفٍّ!»، زمجرَ الذِّئب وهو يتقدَّم ببطءٍ عبْرَ الأجمة وذيله بين رجليه، «إنَّه طقسٌ فظيعٌ للغاية. لماذا لا تنظر الحكومة في الأمر؟»

- «تيو! تيو! تيو!»، سقسقَ الحسُّون الأخضر، «لقد ماتت الأرض العجوز وكفَّنوها بكفنها الأبيض».

- «الأرض سوف تتزوَّج، وهذا فستان عرسها!»، تهامست القماريُّ، وكان الصَّقيع قد لسع أقدامهنَّ الورديَّة الصَّغيرة، ولكنهنَّ شعرن بأنَّ من واجبهنَّ أن يُضفين نظرةً رومانسيَّةً على المشهد.

- «كلامٌ فارغٌ!»، زمجرَ الذِّئب، «أقول لكنَّ إنَّ هذا كلَّه خطأ الحكومة،

وإن لم تصدِّقنني فسوف ألتهمكنَّ واحدةً واحدة». لقد كان للذِّئب عقلٌ عمليٌّ تمامًا، وما كانت تُعوزه القدرة على إقامة الحجَّة والإقناع.

ـ «حسنًا، أمَّا من وجهة نظري»، قال نقَّار الخشب، وكان فيلسوفًا بالفطرة، «ففي بعض الحالات لا يكون للتَّفسيرات أيُّ أهمِّيَّة. إن كان الأمر كذلك، فهو كذلك، وفي الوقت الحاضر الجوُّ باردٌ للغاية».

والحقُّ أنَّ الجوَّ كان باردًا بشكلٍ لا يُطاق، حتى إنَّ السَّناجب الصَّغيرة التي كانت تعيش داخل شجرة الشُّوح الباسقة استمرَّت في فرك أنوف بعضها بعضًا لتدفِّئ نفسها، بينما التفَّت الأرانب على نفسها في جحورها ولم تجرؤ حتى على النَّظر إلى الخارج. المخلوقات الوحيدة التي بدا أنَّ الأمر يروقها هي البومات القرناء الكبيرة. كان ريشها متجمِّدًا من الصَّقيع، ولكنَّها لم تكترث للأمر، بل بقيت تدوِّر عيونها الصَّفراء الكبيرة وتنادي إحداهنَّ الأخرى عبْرَ الغابة: «هووو! هووو! هووو! هووو! يا له من طقسٍ رائعٍ هذا الذي نِتمتَّع به الآن».

مشى الحطَّابان ومشيا، وهما ينفخان بقوَّةٍ في كفَّيهما ويدوسان الثَّلج المتجمِّد بجزمتيهما الحديديَّتَين. فتارةً كانا يغوصان في حفرةٍ عميقةٍ ويخرجان منها أبيضَين كما يخرج الحجَّارون بعد طحن الحجارة؛ وتارةً كانا ينزلقان على الجليد الصَّلب الأملس حيث تجمَّدت مياه الأهوار، فتنفلت الأحطاب من حزمها ويُضطرَّان إلى جمعها وحزمها معًا مرَّةً أخرى؛ وتارةً أخرى كان يُخيَّل إليهما أنَّهما ضلَّا طريقهما، فيستولي عليهما خوفٌ كبيرٌ لأنَّهما كانا يعلمان علم اليقين أنَّ ملكة الثَّلج لا ترحم مَن ينام بين ذراعيها، ولكنَّهما وضعا ثقتهما في القدِّيس مارتن الطَّيِّب الذي يكلأ بعطفه جميع المسافرين، وانقلبا على عقبيهما، وتقدَّما بحذرٍ حتى وصلا

في النِّهاية إلى أطراف الغابة وشاهدا من بعيدٍ أنوارَ القرية التي كانا يعيشان فيها تومض في الوادي أسفلهما.

وشعرا بسعادٍ غامرةٍ لوصولهما سالمَين، وضحكا بصوتٍ عالٍ، وبدت لهما الأرض كزهرةٍ من فضَّة والقمر كزهرةٍ من ذهب.

ولكن، بعد أن ضحكا خيَّم عليهما الحزن إذ تذكَّرا فقرهما، وقال أحدهما للآخر: «لماذا فرحنا ونحن نرى أنَّ الحياة للأغنياء وليس لأمثالنا؟ لكان خيرًا لنا لو أنَّنا متنا من البرد في الغابة، أو لو أنَّ بعض الوحوش البرِّيَّة انقضَّت علينا وافترستنا».

ـ «كلامك صحيحٌ»، ردَّ عليه رفيقه، «الكثير نصيب قلَّةٍ من البشر، والفتات نصيب الآخرين. الظُّلم هو الذي قسَّم العالم، ولا يوجد شيءٌ قُسِّمَ بالتَّساوي عدا الحزن».

ولكن بينما هما يندبان حظَّهما العاثر، حدث هذا الأمر الغريب. وقعت من السَّماء نجمةٌ لامعةٌ جدًّا وجميلةٌ. انزلقت على خاصرة السَّماء، متجاوزةً النُّجوم الأخرى في طريقها، وبدا لهما وهما يراقبانها في ذهولٍ أنَّها وقعت خلف أجمةٍ من أشجار الصَّفصاف القريبة من زريبة غنمٍ صغيرةٍ لا تبعد عنهما أكثر من مرمى حجر.

ـ «أوه! هناك جرَّةٌ من الذَّهب لمن يعثر عليها»، صاحا وانطلقا راكضَين، وكلاهما متلهِّفٌ للحصول على الذَّهب.

وركض أحدهما أسرع من رفيقه، فتجاوزه، وشقَّ طريقه بين أشجار الصَّفصاف، وخرج من الجانب الآخر، ويا للدَّهشة! ثمَّة حقًّا قطعةٌ من الذَّهب ملقاةٌ على الثَّلج الأبيض. فأسرع نحوها وانحنى ووضع يديه

عليها، فرأى أنَّها رداءٌ من نسيجٍ ذهبيٍّ مزيَّنٍ بنجومٍ عجيبةٍ ومطويٌّ عدَّة طيَّاتٍ، فنادى صاحبه أنَّه عثر على الكنز الذي وقع من السَّماء، فلمَّا جاء صاحبه، جلسا على الثَّلج وراحا يبسطان الرِّداء ليتقاسما قطع الذَّهب، ولكن، واأسفاه! لم يكن فيه ذهبٌ ولا فضَّةٌ ولا كنزٌ من أيِّ نوعٍ، بل طفلٌ نائمٌ فحسب.

فقال أحدهما للآخر: «يا لها من نهايةٍ مريرةٍ للأمل الذي خامرنا، بل إنَّ الحظَّ لم يكن أساسًا في صفِّنا، إذ ما نفع طفلٍ لرجلين مثلنا؟ الأفضل أن نتركه هنا ونمضي في طريقنا، لأنَّنا فقيران ولدينا أطفالٌ لا نستطيع إعطاء خبزهما لطفلٍ آخر».

فردَّ عليه صاحبه: «لا! بل من الإثم ترك الطِّفل يهلك هنا في الثَّلج، ومع أنَّني فقيرٌ مثلك وعندي أفواهٌ كثيرةٌ لأطعمها، والزَّاد قليل، إلَّا أنَّني سآخذه معي إلى المنزل وسترعاه زوجتي».

وحمل الطِّفلَ بحنوٍّ كبيرٍ ولفَّه بالرِّداء ليحميه من شدَّة البرد، وشقَّ طريقه نازلًا الرَّابيةَ إلى القرية وسط دهشة صاحبه الشَّديدة من حماقته ورقَّة قلبه.

فلمَّا بلغا القرية، قال له صاحبه: «أنت أخذت الطِّفل، فأعطني الرِّداء، تلك قسمة حقٍّ بيننا».

فأجابه: «لا، الرِّداء ليس لي ولا لك، بل للطِّفل وحده»، وسأله أن يذهب في رعاية اللّه وحفظِه، وغذَّ السَّير إلى بيته وطرق الباب.

وحين فتحت زوجته الباب ورأت زوجها وقد عاد إليها سالمًا، وضعت ذراعيها حول رقبته وقبَّلته، ثمَّ أخذت حزمة الحطب عن ظهره وأزالت بفرشاةٍ الثَّلج عن جزمته، ثمَّ دعته إلى الدُّخول.

فقال لها: «لقد عثرتُ على شيءٍ في الغابة، وقد أتيت به إليكِ لتعتني به»، ولم يتزحزح عن العتبة.

ـ «ما هو؟»، قالت، «أرني إيَّاه، لأنَّ البيت خالٍ، ونحن في حاجةٍ إلى أشياء كثيرةٍ»، فسحب الرِّداء إلى الوراء وأراها الطِّفل النَّائم.

ـ «ويحك، يا زوجي الطَّيِّب»، دمدمت، «ألا يكفينا ما عندنا من أطفالٍ حتى تجلب لنا طفلًا لقيطًا يشاركنا دفء موقدنا؟ وماذا إن جلب لنا الحظَّ السَّيِّئ؟ وكيف نعتني به؟»، وسخطت عليه.

فأجابها: «رويدكِ، إنَّه ابن نجمةٍ»، وأخبرها كيف عثر على هذا الطِّفل.

ولكنَّها لم تهدأ، بل سخرت منه وتحدَّثت بغضبٍ وصرخت: «أطفالنا لا يشبعون الخبز، وتريدنا أن نطعم أطفال الغير؟ من يهتمُّ بنا نحن؟ من يعطينا لقمةً واحدة؟»

ـ «رويدكِ، اللّه يكلأ حتى العصافير ويطعمها»، أجابها.

ـ «ألا تموت العصافير من الجوع في الشِّتاء؟»، سألته، «ألسنا في الشِّتاء الآن؟»

فلم يجبها زوجها بشيءٍ بل ظلَّ واقفًا بعتبة الباب ولم يتزحزح.

وهبَّت ريحٌ صرصرٌ من الغابة ودخلت من الباب المفتوح وجعلتها ترتجف، فارتجفت وقالت له: «ألن تغلق الباب؟ لقد دخلت ريحٌ صرصرٌ إلى المنزل وأنا أرتجف من البرد؟»

ـ «في منزلٍ فيه قلبٌ من حجرٍ ألا تدخل الرِّيح الصَّرصر دائمًا؟»، سأل.
ولم تجبه المرأة بشيءٍ، بل زحفت أقرب إلى النَّار.

وبعد فترةٍ استدارت ونظرت إليه بعينين مغرورقتين بالدُّموع، فأسرع إليها ووضع الطِّفل بين ذراعيها، فقبَّلته ووضعته في سريرٍ صغيرٍ حيث كان يرقد أصغر أبنائهما. وفي الصَّباح، أخذ الحطَّاب الرِّداء الذَّهبيَّ ووضعه في صندوقٍ كبيرٍ، بينما أخذت زوجته سلسلةً من الكهرمان كانت حول عنق الطِّفل ووضعتها في الصُّندوق أيضًا.

وهكذا نشأ الطِّفل مع أبناء الحطَّاب، وجلس معهم على المائدة نفسها، وكان رفيقهم في اللَّعب. وفي كلِّ عامٍ كان يصبح أجملَ من ذي قبل، حتى امتلأ كلُّ أهل القرية دهشةً وعجبًا، لأنَّه بينما كان أبناء الحطَّاب سُمرًا وسُودَ الشَّعر، كان هو أبيضَ وناعمًا كالعاج المصقول وشعره المجعَّد كحلقات النَّرجس البرِّيِّ، أمَّا شفتاه فكانتا كبتلات زهرةٍ حمراء، وعيناه كبنفسجتين عند نهرٍ عذبٌ ماؤه، وجسده كنرجس حقلٍ لا تدخله مِحَشَّة.

ولكنَّ جماله هذا قاده إلى منزلق الشَّرِّ، فقد نما متكبِّرًا وقاسيًا وأنانيًّا، وكان يحتقر أبناء الحطَّاب وأولاد القرية الآخرين ويقول لهم إنَّهم من أرومةٍ وضيعةٍ أمَّا هو فنبيلٌ من محتد النُّجوم، وجعل نفسه سيِّدًا عليهم وسمَّاهم خدمًا له. ولم يكن يشفق على الفقراء أو العميان أو المقعَدين أو أيًّا ما كان مصابهم، بل كان يرميهم بالحجارة ويطردهم من القرية ليتسوَّلوا الخبز في أماكن أخرى، ولذلك لا أحد، باستثناء الخارجين على القانون، كان يعود مرَّتين إلى القرية طلبًا للصَّدقات. والحقيقة أنَّه كان مولعًا بالجمال، وكان يسخر من الضُّعفاء وسيِّئي الحظِّ ويتَّخذهم هُزُوًا، وكان يحبُّ نفسه حبًّا جمًّا، ففي الصَّيف، حين تكون الرِّيح ساكنةً، كان يضطجع بجانب بئرٍ في بستان الكاهن ويتأمَّل أعجوبةَ وجهه المنعكسِ على صفحة الماء، ويضحك مسرورًا بما عنده من حسنٍ وجمال.

وكثيرًا ما كان الحطَّاب وزوجته يوبِّخانه ويقولان له: «لم نعاملك كما تعامل أولئك المحرومين الذين لا يملكون من يقوم بأودهم. لماذا كلُّ هذه القسوة على كلِّ مَن يحتاج إلى الشَّفقة؟»

وكثيرًا ما كان الكاهن العجوز يستدعيه ويحاول أن يعلِّمه حُبَّ الكائنات الحيَّة قائلًا له: «حتى الذُّباب أخوةٌ لك، فلا تؤذهم. والطُّيور البرِّيَّة التي تطوف في الغابة لها حرِّيَّتها، فلا تصطدها من أجل المتعة فحسب. لقد خلق اللّه الخُلد كما خلق الدُّودة العمياء، وجعل لكلٍّ منهما مسكنه. من أنت حتى تعذِّب مخلوقات اللّه؟ حتى الأنعام في الحقل تسبِّح للّه.

ولكنَّ الطِّفلَ النَّجمةَ لم يكترث لكلماتهم، بل كان يتجهَّم ويهزأ ثمَّ ينقلب إلى رفاقه ليمارس طغيانه عليهم، وكان رفاقه يطيعونه لأنَّه كان جميلًا ورشيقَ الخطوةِ ويُجيد الرَّقص والعزف والغناء. وحيثما كان يقودهم كانوا يتبعونه، وأيًّما كان ما يأمرهم به كانوا يفعلونه. فعندما سملَ بقصبةٍ حادَّةٍ عينَي الخُلد المعتمتَين ضحكوا، وعندما رمى مجذومًا بالحجارة ضحكوا أيضًا. فحكمهم في كلِّ شيءٍ حتى صارت قلوبهم قاسيةً كقلبه.

وذات يومٍ، مرَّت في القرية امرأةٌ فقيرةٌ متسوِّلة، وكانت رثَّة الثِّياب وقدماها تنزفان من وعورة الطَّريق الذي سارت عليه، وكانت في حالةٍ يرثى لها، فجلست تحت شجرة كستناء لتستريح.

فلمَّا رآها الطِّفلُ النَّجمةُ قال لأصحابه: «انظروا إلى تلك الشَّحَّاذة الحقيرة الجالسة تحت تلك الشَّجرة الخضراء الجميلة. هلمُّوا بنا لنطردها من هذا المكان، فهي قذرةٌ وقبيحة».

فاقترب منها وصار يرميها بالحجارة ويهزأ بها، فنظرت إليه بعينين ملؤهما الرُّعب ولم تحرِّك بصرها عنه، وعندما رأى الحطَّاب، الذي كان

يقطع الحطب في مكانٍ قريبٍ، ما كان يفعله الطِّفلُ النَّجمة، هرع إليه ووبَّخه قائلًا له: «إنَّك بالتَّأكيد قاسي القلب ولا تعرف الرَّحمة! ما الذي فعلته هذه المرأة لك حتى تعاملها بهذه الطَّريقة؟»

فاستشاط الولدُ غضبًا حتى احمرَّت أوداجه، وضرب الأرض بقدمه، وقال: «من تكون أنت حتى تسألني عمَّا أفعله؟ أنا لست ابنك حتى تُملي عليَّ أوامرك».

ـ «كلامك صحيحٌ»، أجاب الحطَّاب، «ولكنَّني أشفقت عليك عندما وجدتكَ في الغابة».

وما إن سمعت المرأة هذا الكلام حتى صرخت صرخةً عاليةً وسقطت مغشيًّا عليها، فحملها الحطَّاب إلى بيته واعتنت زوجته بها، وحين أفاقت من غيبوبتها وضعا أمامها اللَّحم والشَّراب وطلبا منها أن ترتاح.

ولكنَّها لم تأكل ولم تشرب، بل قالت للحطَّاب: «أقلت إنَّك وجدتَ هذا الولد في الغابة؟ ألم تمض عشر سنين على ذلك؟»

فأجاب الحطَّاب: «نعم، لقد وجدته في الغابة، وقد مضت عشر سنين على ذلك».

ـ «وما العلامات التي وجدتها معه؟»، صاحت، «هل وجدت حول رقبته قلادةً من كهرمان؟ هل كان مقمَّطًا برداءٍ من نسيجٍ ذهبيٍّ مزيَّنٍ بالنُّجوم؟»

ـ «هذا صحيحٌ»، ردَّ الحطَّاب، «كان الأمرُ كما قلتِ تمامًا»، وأحضر الرِّداء وقلادة الكهرمان من الصُّندوق حيث كانا موضوعَين وأراهما لها.

فلمَّا رأتهما المرأة صاحت صيحةَ فرحٍ وقالت: «إنَّه ابني الصَّغير الذي فقدته في الغابة. أرجوك، ناده بسرعةٍ، لأنِّي جبتُ العالم كلَّه بحثًا عنه».

فخرج الحطَّاب وامرأته ونا‌ديا الطِّفلَ النَّجمةَ وقالا له: «ادخل البيت، وهناك تجد أمَّك في انتظارك».

فركض إلى الدَّاخل ممتلئًا بالذُّهول وبفرحٍ عظيمٍ، ولكن حين رأى التي كانت تنتظره، ضحك بازدراءٍ وقال: «ولكن، أين أمِّي؟ لأنَّني لا أرى هنا سوى هذه المتسوِّلة الحقيرة».

فأجابته المرأة: «أنا أمُّك».

فصرخ الطِّفلُ النَّجمةُ في وجهها غاضبًا: «لقد فقدتِ عقلكِ لتقولي هذا الكلام. أنا لست ابنك، فأنت متسوِّلةٌ وقبيحةٌ ورثَّة الثِّياب، ولهذا ارحلي من هنا فورًا ودعيني لا أرى وجهكِ الكريه بعد الآن».

ـ «لا، أنت حقًّا ابني الصَّغير الذي ولدته في الغابة»، صاحت وخرَّت على ركبتيها مادَّةً ذراعيها إليه، «اللُّصوص سرقوك منِّي وتركوك تموت»، تمتمَتْ، «ولكنِّي عرفتك أوَّلَ ما رأيتك، وعرفتُ العلامات أيضًا، الرِّداء الذي من نسيجٍ ذهبيٍّ وقلادة الكهرمان. فأرجوك يا ولدي، تعال معي، فقد جبتُ العالم كلَّه بحثًا عنك، تعال معي يا ولدي، فأنا في حاجةٍ إلى حُبِّك».

ولكنَّ الولد لم يتزحزح من مكانه، وأوصد أبواب قلبه دونها، فخيَّم صمتٌ لم يكن يُسمع فيه سوى نحيب المرأة الخارج من قلبٍ يتألَّم.

وأخيرًا تكلَّم وكان صوته قاسيًا ومرًّا كالعلقم: «إن كنتِ حقًّا والدتي، فقد كان من الأفضل لو بقيتِ بعيدةً ولم تأتي إلى هنا لتجلبي لي العار، فقد كنت أحسب نفسي ابنًا لنجمةٍ ما، وليس لمتسوِّلةٍ كما تقولين لي الآن، فارحلي من هنا ولا أريد أن أرى وجهك بعد الآن».

ـ «وا أسفاه، يا ولدي»، صاحت، «ألا تقبِّلني قبل أن أذهب؟ لقد عانيت الأمرَّين لأجدك».

ـ «لا»، ردَّ عليها الطِّفلُ النَّجمة، «فأنت قبيحةٌ بحيث لا يمكنني النَّظر إليكِ، وأفضِّل أن أقبِّل أفعىً أو علجومًا على أن أقبِّلك».

فنهضت المرأة ومضت إلى الغابة وهي تبكي بمرارةٍ، وحين رأى الطِّفلُ النَّجمةُ أنَّها قد رحلت، تنفَّس الصُّعداء وابتهج، وركض عائدًا إلى رفاق اللَّعب ليلعب معهم.

ولكن حين رأوه قادمًا سخروا منه وقالوا: «مهلًا! إنَّك قذرٌ كعلجومٍ، وكريهٌ كأفعى! انصرف عنَّا، فنحن لن نسمح لك باللَّعب معنا بعد الآن»، وطردوه من البستان.

فعبس الطِّفلُ النَّجمةُ وقال في نفسه: «ما هذا الذي يقولونه لي؟ سأذهب الآن إلى البئر وأنظر في مائه، وسيخبرني بجمالي».

وهكذا ذهب إلى البئر ونظر في مائه. فماذا رأى؟ كان وجهه بالفعل كوجه علجومٍ، وجسده قشريًّا كجسد أفعى، فارتمى على العشب وأجهش بالبكاء وهو يقول في نفسه: «يقينًا لم يصبني هذا إلَّا بسبب خطيئتي، لأنَّني أنكرت والدتي، وطردتها، وكنت فظًّا وقاسيًا معها، ولذلك سأمضي وأبحث عنها في العالم كلِّه ولن يهدأ لي بالٌ حتى أجدها».

وهنا أقبلت عليه ابنة الحطَّاب الصُّغرى ووضعت يدها على كتفه وقالت: «ما همَّ إن فقدتَ جمالك؟ ابق معنا ولن أسخر منك».

فقال لها: «بل لقد قسوتُ على أمِّي، وكعقابٍ لي سُلِّطَت هذه اللَّعنة عليَّ. ولذلك يجب أن أرحل وأجوب العالم حتى أجدها وأطلب منها المغفرة».

فركض هائمًا على وجهه في الغابة وهو ينادي أمَّه أن تأتي إليه، ولكنَّه لم يلق جوابًا. ناداها طوال النَّهار، وعندما غربت الشَّمس استلقى لينام على فراشٍ من أوراق الشَّجر، ولكنَّ الطُّيور والحيوانات تذكَّرت قسوته فهربت منه، وبقي وحيدًا مع العلجوم الذي كان يحدِّق فيه والأفعى البطيئة التي كانت تزحف بجانبه.

وفي الصَّباح، نهض وقطف بعض التُّوت المرِّ من الشُّجيرات وأكلها، ثمَّ شقَّ طريقه في الغابة الشَّاسعة وهو يبكي بكاءً مريرًا. وكان يسأل كلَّ ما يقابله في طريقه إن كان قد رأى والدته مصادفةً.

قال للخُلد: «أنت تستطيع أن تمشي تحت الأرض، فقل لي، هل والدتي هناك؟»

فأجابه الخُلد: «لقد سملتَ عينيَّ، فكيف لي أن أعرف؟»

وقال للحسُّون: «أنت تستطيع الطَّيران فوق قمم الأشجار الباسقات، ويمكنك أن ترى العالم كلَّه من فوق، فقل لي، هل يمكنك رؤية أمِّي؟»

فأجابه الحسُّون: «لقد قصصت جناحيَّ من أجل المتعة، فكيف أطير؟»

وقال للسِّنجاب الصَّغير الذي كان يعيش وحيدًا في شجرة الشُّوح: «أين أمِّي؟»

فأجابه السِّنجاب: «لقد قتلتَ أمِّي، فهل تبحث عن أمِّك لتقتلها أيضًا؟»

فبكى الطِّفلُ النَّجمةُ وأطرق برأسه، وتوسَّل إلى الكائنات التي خلقها الله أن تسامحه وتغفر له، ومضى عبْرَ الغابة باحثًا عن المرأة المتسوِّلة. وفي اليوم الثَّالث، بلغ الجانب الآخر من الغابة ونزل إلى السَّهل.

وكلَّما مرَّ في قريةٍ سخر منه الأطفال ورموه بالحجارة، ولم يسمح له

القرويُّون بالنَّوم حتى في مخازن الحبوب لئلَّا يجلب العفن الفطريَّ إلى الذُّرة المخزَّنة، فقد كان من المريع النَّظر إليه، وطرده رجالهم من كلِّ مكانٍ ولم يرأف بحاله أحد. ولم يسمع في أيِّ مكانٍ شيئًا عن المرأة المتسوِّلة التي هي أمُّه، مع أنَّه ضرب في الآفاق ثلاث سنواتٍ بحثًا عنها، وكثيرًا ما خُيِّل إليه أنَّه يراها في الطَّريق أمامه، وكان يناديها ويركض وراءها حتى تدمى قدماه من حجارة الصَّوَّان الحادَّة، ولكنَّه لم يستطع إدراكها، وأولئك الذين كان يصادفهم في طريقه كانوا ينكرون تمامًا أنَّهم رأوها أو رأوا أيَّ امرأةٍ تشبهها، وكانوا يسخرون من حزنه.

لمدَّة ثلاث سنواتٍ ضرب في الآفاق، ولم يكن هناك في العالم محبَّةٌ ولا عطفٌ ولا إحسانٌ، بل كان عالمًا لا يختلف في شيءٍ عن العالم الذي صنعه هو نفسُه في أيَّام زهوه العظيم.

وذات مساءٍ، وصل إلى بوَّابة مدينةٍ قويَّة الأسوار تقع على أحد الأنهار، وكان مرهقًا وقد تقرَّحت قدماه، فهمَّ بدخولها، ولكنَّ حرس البوَّابة استوقفوه وسدُّوا المدخل بحرابهم، وقالوا له بقسوةٍ: «ما شغلك في هذه المدينة؟»

فأجابهم: «إنَّني أبحث عن أمِّي. أرجوكم دعوني أمرُّ، فقد تكون في هذه المدينة».

ولكنَّهم سخروا منه وهزَّ أحدهم لحيته السَّوداء ووضع ترسه على الأرض وصرخ في وجهه: «أتريد الحقيقة؟ حتى أمُّك لن تكون سعيدةً حين تراك، لأنَّك أقبح من علجوم المستنقعات وأحقر من أفعى الأهوار. هيَّا اذهب، اذهب، فأمُّك لا تعيش في هذه المدينة».

ولكنَّ حارسًا آخر سأله، وكان يحمل في يده رايةً صفراء: «من تكون أمُّك، ولماذا تبحث عنها؟»

فأجابه: «أمِّي متسوِّلةٌ مثلي، وقد عاملتها بقسوةٍ، ولذلك أرجوكم أن تدعوني أدخل كي أطلب منها المغفرة، فربَّما كانت تجوب شوارع هذه المدينة»، ولكنَّهم لم يسمحوا له بالدُّخول ووخزوه بحرابهم.

وبينما كان يبتعد باكيًا، جاء حارسٌ ذو درعٍ مرصَّعةٍ بزهورٍ مذهَّبةٍ، وعلى خوذته أسدٌ مجنَّحٌ، وسأل عنه رفاقه الحرَّاس فأجابوه: «إنَّه متسوِّلٌ يبحث عن أمِّه المتسوِّلة وقد طردناه».

فصاح ضاحكًا: «مهلًا، تعالوا نبيع هذا الشَّيء القبيح كعبدٍ، وبثمنه نبتاع لأنفسنا جرَّة نبيذٍ حلوٍ».

وصادف أنَّ رجلًا عجوزًا وجهه يقطر خبثًا كان مارًّا بقربهم فصاح: «أنا أشتريه بهذا الثَّمن»، وبعد أن دفع الثَّمن، أخذ الولد من يده، وقاده إلى المدينة.

وسارا في شوارع المدينة حتى وصلا إلى بابٍ صغيرٍ في جدارٍ مغطًّى بأغصان شجرة رمَّان، فلمس العجوز البابَ بخاتمٍ من اليشب المحفور، فانفتح الباب، ونزلا خمس درجاتٍ من النُّحاس الأصفر إلى حديقةٍ مليئةٍ بأزهار الخشخاش الأسود وبجرارٍ خضراء من الصَّلصال، ثمَّ مدَّ العجوز يده إلى عمامته وأخرج وشاحًا من الحرير المطرَّز، وعصب به عيني الولد، ثمَّ قاده أمامه. وحين رفع العجوز الوشاحَ عن عينيه، وجد الولد نفسه في زنزانةٍ مضاءةٍ بسراجٍ من قرن حيوان.

ووضع العجوز أمامه خبزًا متعفِّنًا على صينيَّةٍ خشبيَّةٍ وقال له: «كُلْ»؛

وبعضَ الماء الآجن في كوبٍ وقال له: «اشربْ»؛ فلمَّا أكل وشرب، خرج العجوز وأغلق الباب خلفه مُحْكِمًا ذلك بسلسلةٍ حديديَّة.

وفي الصَّباح، جاء الرَّجل العجوز، وكان بحقٍّ أمهر سحرة ليبيا وقد تعلَّم السِّحر من ساحرٍ كان يعيش في مقابر النِّيل، فعبس في وجهه وقال: «في الغابة، عند بوَّابة مدينة الكفَّار، هناك ثلاث قطعٍ من الذَّهب، واحدةٌ من الذَّهب الأبيض، وأخرى من الذَّهب الأصفر، والثَّالثة من الذَّهب الأحمر. واليوم، عليك أن تُحضر لي قطعة الذَّهب الأبيض، وإن رجعت خالي الوفاض، سأجلدك مئة جلدة. هيَّا بسرعة، وعند غروب الشَّمس سأكون في انتظارك عند باب الحديقة. عليك أن تأتيني بقطعة الذَّهب الأبيض وإلَّا نلت منِّي عقابًا شديدًا، لأنَّك عبدي وقد اشتريتك بثمن جرَّةٍ من النَّبيذ». وعصب عينيه بالوشاح الحريريِّ المطرَّز، وقاده إلى خارج البيت وعبْرَ حديقة الخشخاش، ثمَّ أصعده الدَّرجات الخمس، وفتح له الباب الصَّغير بخاتمه، وأخرجه إلى الشَّارع.

وخرج الطِّفلُ النَّجمةُ من بوَّابة المدينة متوجِّهًا إلى الغابة التي حدَّثه عنها السَّاحر.

كانت الغابة جميلةً جدًّا للنَّاظر إليها من الخارج، وبدت مليئةً بالطُّيور المغرِّدة والأزهار الفوَّاحة، فدخلها الطِّفلُ النَّجمةُ بسعادة. ولكنَّ جمالها لم ينفعه إلَّا قليلًا، لأنَّه أينما توجَّه كانت الأشواك الحادَّة تخرج من الأرض وتحيط به، فالقرَّاص اللَّعين يلسعه، والقصوان اللَّئيم يطعنه بخناجره، فكان في ضائقةٍ شديدة. كما أنَّه لم يستطع العثور على قطعة الذَّهب الأبيض التي تحدَّث عنها السَّاحر، مع أنَّه بحث عنها من الصَّباح حتى الظَّهيرة، ومن

الظَّهيرة حتى غروب الشَّمس، وعند الغروب، توجَّه نحو البيت وهو يبكي بمرارةٍ لأنَّه كان يعلم ما يخبِّئه له القدَر.

ولكن عندما وصل إلى أطراف الغابة، سمع نحيباً آتياً من أجمةٍ قريبةٍ كنحيب شخصٍ يتألَّم، فنسـي حزنه وعاد راكضًا إلى مصدر الصَّوت، فرأى أرنبًا صغيرًا عالقًا في فخٍّ نصبه له أحد الصَّيَّادين.

فأشفق الطِّفلُ النَّجمةُ عليه وأطلق سراحه وقال له: «أنا نفسي لستُ سوى عبدٍ، ومع هذا أعطيك حرِّيَّتك».

فقال الأرنب الصَّغير: «لقد أعطيتني حرِّيتي، فماذا أعطيك بالمقابل؟»

فأجاب الطِّفلُ النَّجمةُ: «إنَّني أبحث عن قطعة ذهبٍ أبيض، ولا أعثر عليها في أيِّ مكانٍ، وإذا لم أحضرها لسيِّدي فسوف يضربني».

فقال الأرنب: «تعال معي وسأقودك إليها، فأنا أعرف أين خُبِّئَتْ ولأيِّ غرض».

فذهب الطِّفلُ النَّجمةُ مع الأرنب، وسرعان ما وجد في شقٍّ في شجرة بلُّوطٍ كبيرةٍ قطعة الذَّهب الأبيض التي كان يبحث عنها، فامتلأ فرحًا وأمسكها وقال للأرنب: «الخدمة التي قدَّمتها لك رددتها إليَّ مضاعفةً عشرات المرَّات واللُّطف الذي أريته لك أدَّيته إليَّ مضاعفًا مئات المرَّات».

ـ «لا»، أجاب الأرنب، «ولكن كما عاملتني عاملتُك»، وركض مبتعدًا بسرعةٍ، وتوجَّه الطِّفلُ النَّجمةُ نحو المدينة.

وعند بوَّابة المدينة صادف رجلًا مصابًا بالجذام. كان وجهه مغطًّى بقلنسوةٍ من الكتَّان الرَّماديِّ، ومن خلال ثقبين كانت عيناه تشعَّان كجمرتين مشتعلتين؛ وعندما رأى الطِّفلَ النَّجمةَ قادمًا، ضرب على وعاءٍ

خشبيٍّ، ودقَّ جرسه، وناداه قائلًا: «أعطني قطعة نقودٍ وإلّا متُّ من الجوع. لقد طردوني من المدينة، وليس لي من يرحمني».

ـ «واأسفاه!»، صاح الطِّفلُ النَّجمةُ، «ليس لديَّ سوى قطعةٍ واحدةٍ من المال في محفظتي، وإذا لم أحضرها إلى سيِّدي فسوف يضربني، لأنَّني عبده».

ولكنَّ المجذوم راح يستعطفه ويتوسَّل إليه حتى أشفق الطِّفلُ النَّجمةُ عليه وأعطاه قطعة الذَّهب الأبيض.

وعندما وصل إلى بيت السَّاحر، فتح له هذا الأخير البابَ وأدخله وقال له: «أين قطعة الذَّهب الأبيض؟»، فأجاب الطِّفلُ النَّجمةُ: «لم أستطع الحصول عليها»، فانهال عليه السَّاحر ضربًا، ثمَّ وضع أمامه صينيَّةً خشبيَّةً فارغةً وقال له: «كُلْ»؛ وكوبًا فارغًا وقال: «اشربْ»؛ ثمَّ ألقاه مرَّةً أخرى في الزِّنزانة.

وفي صباح اليوم التَّالي، جاء السَّاحر إليه وقال له: «إن لم تأتني اليوم بقطعة الذَّهب الأصفر فسوف أبقيك عبدًا لي وأجلدك ثلاثمئة جلدة».

فانطلق الطِّفلُ النَّجمةُ إلى الغابة، وبحث طوال النَّهار عن قطعة الذَّهب الأصفر، ولكنَّه لم يعثر عليها في أيِّ مكانٍ، وعند غروب الشَّمس جلس وراح يبكي، وبينما هو كذلك، جاء إليه الأرنب الصَّغير الذي أنقذه من الفخِّ وقال له: «لماذا تبكي؟ وما الذي تبحث عنه في الغابة؟»

فأجابه الطِّفلُ النَّجمةُ: «أبحث عن قطعةٍ من الذَّهب الأصفر مخبَّأةٍ هنا، وإذا لم أجدها سيضربني سيِّدي ويُبقيني عبدًا له».

ـ «اتبعني»، صاح الأرنب، وراح يركض عبْرَ الغابة حتى وصل إلى بركة ماء، وفي قاع البركة كانت قطعة الذَّهب الأصفر ملقاةً.

ـ «كيف أشكرك؟»، قال الطِّفلُ النَّجمةُ، «فهذه المرَّة الثَّانية التي تنقذني فيها».

ـ «لا عليك، فأنت رحمتني أوَّلًا»، قال الأرنب وركض مبتعدًا بسرعة.

وأخذ الطِّفلُ النَّجمةُ قطعة الذَّهب الأصفر ووضعها في محفظته وأسرع إلى المدينة، ولكنَّ المجذوم رآه قادمًا فهرع إليه وجثا على ركبتيه قائلًا: «أعطني قطعة نقودٍ وإلَّا متُّ من الجوع».

فقال له الطِّفلُ النَّجمةُ: «ولكن ليس في محفظتي سوى قطعةٍ واحدةٍ من الذَّهب الأصفر وإذا لم أحضرها لسيِّدي فسوف يضربني ويُبقيني عبدًا له».

ولكنَّ المجذوم توسَّل إليه بمرارةٍ حتى رقَّ قلب الطِّفلِ النَّجمةِ عليه وأعطاه قطعة الذَّهب الأصفر.

وعندما وصل إلى بيت السَّاحر، فتح له هذا الأخير البابَ وأدخله وقال له: «أين قطعة الذَّهب الأصفر؟»، فأجاب الطِّفلُ النَّجمةُ: «لم أستطع الحصول عليها»، فانهال عليه السَّاحر ضربًا بالسَّوط وقيَّده بالأصفاد ثمَّ ألقاه في الزِّنزانة.

وفي صباح اليوم التَّالي، جاء السَّاحر إليه وقال له: «إذا أحضرت لي اليوم قطعة الذَّهب الأحمر فسوف أعتقك، ولكن إذا لم تأت بها فسأقتلك بالتَّأكيد».

فانطلق الطِّفلُ النَّجمةُ إلى الغابة، وبحث طوال النَّهار عن قطعة الذَّهب الأحمر، ولكنَّه لم يعثر عليها في أيِّ مكانٍ، وفي المساء جلس يبكي، وبينما

هو كذلك، جاء إليه الأرنب الصَّغير وقال له: «قطعة الذَّهب الأحمر التي تبحث عنها مخبَّأةٌ في مغارةٍ خلف ظهرك، فلا تبكِ وابتهجْ».

ـ «كيف أجازيك؟»، قال الطِّفلُ النَّجمةُ، «فهذه المرَّة الثَّالثة التي تنقذني فيها».

ـ «لا عليك، فأنت رحمتني أوَّلًا»، قال الأرنب وركض مبتعدًا بسرعة.

ودخل الطِّفلُ النَّجمةُ المغارةَ، وفي أقصى ركنٍ منها وجد قطعة الذَّهب الأحمر، فوضعها في محفظته وأسرع إلى المدينة. ولكنَّ المجذوم رآه قادمًا فوقف له في منتصف الطَّريق وصاح قائلًا له: «أعطني قطعة الذَّهب الأحمر وإلَّا متُّ». فرقَّ قلب الطِّفلِ النَّجمةِ مرَّةً أخرى لحاله وأعطاه قطعة الذَّهب الأحمر قائلًا له: «إنَّ حاجتك أعظم من حاجتي»، ولكنَّ قلبه كان مثقلًا بالغمِّ لأنَّه كان يعرف المصير الأسود الذي ينتظره.

ولكن فجأةً، وفيما هو يجتاز بوَّابة المدينة، جثا له الحرَّاس وسجدوا قائلين: «ما أجمل سيِّدنا!»، وتبعه حشدٌ من أهل المدينة وهم يهتفون: «حقًّا ليس في العالم كلِّه أجمل من سيِّدنا!»، فبكى الطِّفلُ النَّجمةُ وقال في نفسه: «إنَّهم يستهزئون بي ويسخرون من بؤسي»، وتعاظمَ تجمُّعُ النَّاس من حوله حتى فقد خيوطَ طريقه ووجد نفسه أخيرًا في ساحةٍ كبيرةٍ فيها قصر الملك.

ثمَّ فُتِحَ باب القصر، وخرج الكهنة وأشرافُ المدينة لاستقباله، وخشعوا له قائلين: «أنت سيِّدنا الذي كنَّا ننتظره وابن ملكنا».

فأجابهم الطِّفلُ النَّجمةُ: «لستُ ابن ملكٍ من الملوك، بل ابن امرأةٍ فقيرةٍ متسوِّلة. وكيف تقولون إنِّي جميلٌ وأنا أعلم أنَّني قبيح الصُّورة؟»

ثمَّ تقدَّم الرَّجل الذي كانت درعه مرصَّعةً بالزُّهور المذهَّبة وعلى

خوذته أسدٌ مجنَّحٌ، فرفع ترسه أمام وجه الطِّفلِ النَّجمةِ وصاح: «كيف يقول سيِّدي إنَّه ليس جميلًا؟»

فنظر الطِّفلُ النَّجمةُ، ويا للمفاجأة! كان وجهه ذات الوجه الذي كان له في الماضي، وعاد إليه رونقه وجماله، ورأى في عينيه ما لم يره فيهما من قبل.

فجثا الكهنة وأشراف المدينة على ركبهم وقالوا له: «هناك نبوءةٌ قديمةٌ تقول إنَّه في هذا اليوم يأتي من سيكون ملكًا علينا، فليأخذ سيِّدنا هذا التَّاج وهذا الصَّولجان وليكن بعدله ورحمته ملكًا علينا».

فقال لهم: «أنا لا أستحقُّ هذا لأنَّني أنكرت أمِّي التي ولدتني، ولن أرتاح حتى أجدها وأنال غفرانها. ولذلك اسمحوا لي أن أذهب، لأنَّ عليَّ أن أجوب العالم مرَّةً أخرى، ولا يجوز لي أن أبقى هنا حتى لو أعطيتموني التَّاج والصَّولجان»، وبينما كان يتكلَّم أدار وجهه عنهم نحو بوَّابة المدينة، ويا للعجب! هناك بين الحشود المتجمِّعة التي تراصَّت حول الجنود، رأى المتسوِّلة التي كانت أمَّه، وكان يقف بجانبها المجذوم الذي اعتاد الجلوس على قارعة الطَّريق.

وانفجرت من شفتيه صيحة فرحٍ، وأطلق ساقيه للرِّيح، وجثا على ركبتيه يقبِّل الجروح في قدمَي أمِّه ويغسلهما بدموعه. وأحنى رأسه في التُّراب وهو يبكي كمن انفطر قلبه ويقول: «أيْ أمِّي، لقد أنكرتكِ في ساعةِ تكبُّري فاقبليني الآن في ساعةِ تواضعي. أيْ أمِّي، لقد أعطيتك الكراهية، فهلَّا تعطيني الحبَّ. أيْ أمِّي، لقد رفضتكِ، فهلَّا تَقْبَلين طفلكِ الآن».
ولكنَّ المرأة المتسوِّلة لم تنبس ببنت شفة.

فمدَّ يديه وعانق قدمَي المجذوم البيضاوَين وقال له: «ثلاث مرَّاتٍ أحسنتُ إليك. اطلب من والدتي أن تكلِّمني ولو لمرَّةٍ واحدة». ولكنَّ المجذوم لم ينبس ببنت شفة.

ثمَّ بكى مرَّةً أخرى وقال: «أيْ أمِّي، إنَّ ألمي أعظم ممَّا أستطيع تحمُّله، فاغفري لي خطيئتي ودعيني أرجع إلى الغابة»، فوضعت المرأة المتسوِّلة يدها على رأسه وقالت له: «انهضْ»؛ ووضع المجذوم يده على رأسه وقال له: «انهضْ»، أيضًا.

فنهض واقفًا على قدميه ونظر إليهما وإذا هما ملكٌ وملكة.

فقالت له الملكة: «هذا هو أبوك الذي أحسنت إليه».

وقال له الملك: «هذه هي أمُّك التي غسلت قدميها بدموعك».

ثمَّ عانقاه وقبَّلاه وأخذاه إلى القصر وألبساه ثياباً جميلةً ووضعا التَّاج على رأسه والصَّولجان في يده، وصار حاكمَ المدينة الواقعة قرب النَّهر وسيِّدَها المُطاع، وكان عادلًا ورحيمًا مع الجميع، ونفى السَّاحر الشِّرِّير من المدينة، وأرسل إلى الحطَّاب وامرأته الهدايا والعطايا النَّفيسة، ورفع أولادهما مكانًا عليًّا، ولم يسمح لأحدٍ بأن يكون قاسيًا على الطُّيور أو البهائم، بل علَّم النَّاس الحبَّ والرَّحمة والإحسان، وأعطى الفقراءَ الخبزَ والعراةَ الكساءَ، وعمَّ السَّلامُ والوفرةُ الأرض.

ولكنَّ حكمهِ لم يدم طويلًا، فقد كانت آلامه كبيرةً جدًّا، وقاسيةً جدًّا كانت نارُ تجربته، فلم تمض ثلاث سنواتٍ حتى قضى نحبه، والذي جاء بعده حكمَ بالشَّرِّ.

المجموعة الثَّالثة

جريمة اللُّورد آرثر سافيل
وقصصٌ أخرى

جريمة اللُّورد آرثر سافيل

درسٌ في الواجب

الفصل الأوَّل

كان هذا آخر حفل استقبالٍ تقيمه السَّيِّدة ويندرمير قبل حلول عيد الفصح، وكان قصر بينتينك أكثر ازدحامًا من المعتاد، وكان ستَّة وزراء من الحكومة قد وصلوا لتوِّهم من حفلةٍ أقيمت في بيت رئيس مجلس العموم، وهم بكامل نجومهم ونياشينهم، وارتدت جميع النِّساء الجميلات أجمل فساتينهنَّ، وهناك، في أقصى قاعة اللَّوحات، وقفت الأميرة صوفيا، أميرة مقاطعة كارلسروه، وهي سيِّدةٌ ذات مظهرٍ تتاريٍّ ثقيلٍ بعينيها السوداوَين الصَّغيرتين وزمرُّداتها الرَّائعة، وكانت تتحدَّث فرنسيَّةً ركيكةً بأعلى صوتها وتطلق ضحكاتها بلا حياءٍ على كلِّ ما كان يُقال لها.

لقد كان حقًّا مزيجًا رائعًا من البشر، تجاذبت فيه زوجات النُّبلاء بأنسٍ ودماثةٍ أطرافَ الحديث مع دعاة الرَّاديكاليَّة الشَّرسين، وتعلَّق فيه وعَّاظٌ مشهورون بأذيال سترات مشكِّكين مرموقين، ودأبت فيه عصبةٌ كاملةٌ من الأساقفة على تعقُّب خطوات مغنِّية أوبرا بدينةٍ من غرفةٍ إلى غرفة، ووقف فيها على الدَّرج عددٌ كبيرٌ من أعضاء المجلس الأكاديميِّ الملكيِّ، متنكِّرين في زيِّ الفنَّانين، ويُقال إنَّ قاعة العشاء كانت تغصُّ بالعباقرة في

وقتٍ من الأوقات. في الواقع، كانت ليلةً من أفضل ليالي السَّيِّدة ويندرمير، وقد بقيت الأميرة حتى الحادية عشرة والنِّصف تقريبًا.

وفورَ رحيلها، عادت السَّيِّدة ويندرمير إلى قاعة اللَّوحات حيث كان أحد الاقتصاديِّين السِّياسيِّين المشهورين يشرح بأسلوبٍ مهيبٍ نظريَّته العلميَّة عن الموسيقى لفنَّانٍ ممتعضٍ من المجر، ثمَّ انتقل في حديثه إلى دوقةِ بيزلي التي بدت جميلةً جدًّا بجيدها العاجيِّ الجليل وعينيها الواسعتين الزَّرقاوَين وخصلات شعرها الذَّهبيَّة الكثيفة. ولا أقصد لون القشِّ الباهت الذي يغتصب في أيَّامنا هذه الاسم الكريم للذَّهب، بل لون الذَّهب المحبوك من أشعَّة الشَّمس أو المخبَّأ في الكهرمان العجيب. وكانت خصلات شعرها تضفي على محيَّاها شيئًا من هيئة قدِّيسة، ولو مع شيءٍ من سحر امرأةٍ آثمة. كانت بحدِّ ذاتها تصلح موضوعًا لدراسةٍ نفسيَّةٍ طريفة. لقد اكتشفت في وقتٍ مبكِّرٍ من حياتها الحقيقة الجوهريَّة التي مفادها أنَّه لا شيء يشبه البراءة كطيش الشَّباب؛ وعبْرَ سلسلةٍ من الأفعال الطَّائشة، نصفها على الأقلِّ غير ضارٍّ، اكتسبت كلَّ أوصاف شخصيَّتها المميَّزة. لقد غيَّرت زوجها أكثر من مرَّةٍ؛ وفي الواقع، ينسب إليها دبريت ثلاث زيجاتٍ إلى حدِّ الآن؛ ولكن لأنَّها لم تغيِّر عشيقها أبدًا، فقد كفَّ النَّاس منذ فترةٍ طويلةٍ عن الحديث عن فضائحها. كانت الآن في الأربعين من عمرها، بلا أطفالٍ، مع ولعٍ مفرطٍ بالمتعة التي هي سرُّ بقائها شابَّة.

وفجأةً أجالت النَّظر بنفاد صبرٍ في القاعة وقالت بصوتها الصَّافي الرَّنَّان: «أين الكايرومانتيست[1] خاصَّتي؟»

(1) تحويرٌ لكلمة chiromancer وتعني «قارئ الكف». (المترجم).

«أين مَن، يا غلاديس؟»، صاحت الدُّوقة منتفضةً بشكلٍ لاإراديٍّ.

«الكايرومانتيست خاصَّتي، أيَّتها الدُّوقة؛ لا أستطيع العيش من دونه هذه الأيَّام».

«أوه يا عزيزتي غلاديس! أنت دائمًا تبحثين عن الأصالة في كلِّ شيء»، تمتمت الدُّوقة وهي تحاول أن تتذكَّر ما كانت تعنيه حقًّا كلمة كايرومانتيست، آملةً ألَّا يكون لها معنى كلمة كايروبوديست[1] نفسه.

«إنَّه يأتي إلى هنا بانتظامٍ مرَّتين في الأسبوع ليقرأ لي كفِّي»، تابعت السَّيِّدة ويندرمير، «وهو الشَّيء الأكثر تشويقًا في كلِّ حفل».

«يا إلهي!»، قالت الدُّوقة لنفسها، «إنَّه ضربٌ من الكايروبوديست بعد كلِّ شيء! هذا مروِّع! آمل أن يكون أجنبيًّا على أيَّة حال. لن يكون الأمر بذلك السُّوء عندئذٍ».

«عليَّ أن أقدِّمه لكِ من كلِّ بدٍّ».

«تقدِّمينه لي؟»، صاحت الدُّوقة، «هل تقصدين أنَّه هنا بيننا؟»، وبدأت تبحث عن مروحتها اليدويَّة الصَّغيرة المصنوعة من صدفة سلحفاةٍ وعن شالها المخرَّم، لتكون مستعدَّةً للذَّهاب في أيَّة لحظة.

«بالطَّبع هو هنا. فأنا لا أتخيَّل إقامة حفلٍ من دونه. لقد أخبرني أنَّ لديَّ كفًّا روحانيَّةً خالصة، وأنَّه لو كان إبهامي أقصر قليلًا لكنتُ متشائمةً بكلِّ تأكيدٍ، ولكنتُ ترهبنتُ في أحد الأديرة».

«أوه، فهمت!»، قالت الدُّوقة وهي تتنفَّس الصُّعداء، «هو يقرأ حسن الطَّالع كما أظنُّ، أليس كذلك؟»

(1) طبيب الأقدام. (المترجم).

«وسوء الطَّالع أيضًا»، أجابت السَّيِّدة ويندرمير، «بكلِّ أنواعه. في العام المقبل، على سبيل المثال، أنا في خطرٍ كبيرٍ، في البرِّ أو في البحر، ولهذا سأعيش في منطادٍ وأسحب عشائي في سلَّةٍ كلَّ مساء. كلُّ ذلك مكتوبٌ في بُنصري، أو في راحة يدي، نسيتُ في أيِّهما».

«ولكنَّ ذلك خداعٌ للمشيئة الإلهيَّة يا عزيزتي غلاديس».

«يا عزيزتي الدُّوقة، بالتَّأكيد تستطيع المشيئة الإلهيَّة أن تعاند الخداع في ذلك الوقت. أعتقد أنَّ كلَّ إنسانٍ ينبغي أن يلجأ لقراءة الكفِّ مرَّةً واحدةً في الشَّهر لكي يعرف ما عليه أن يتجنَّبه. صحيحٌ أنَّ المرء يفعل ذلك طوال الوقت، ولكن من المستحسن أن يأخذ حذره. والآن، إذا لم يذهب أحدهم ويُحضر السَّيِّد بودجرز في الحال، سأكون مضطرَّةً إلى الذَّهاب بنفسي».

«اسمحي لي بأن أذهب أنا يا سيِّدة ويندرمير»، قال شابٌّ طويلٌ وسيمٌ كان يقف بجانبها يستمع إلى المحادثة بابتسامةِ شخصٍ مستمتعٍ.

«شكرًا جزيلًا يا عزيزي اللُّورد آرثر؛ ولكن أخشى أنَّك لن تميِّزه من بين الحضور».

«إن كان رائعًا كما تقولين، يا سيِّدة ويندرمير، فبالتَّأكيد لن أخطئه. صفيه لي وسأحضره لكِ في الحال».

«حسنًا، إنَّه لا يشبه قارئ الكفِّ في شيء. أعني أنَّه ليس غامضًا أو باطنيًّا أو رومانسيَّ المظهر. إنَّه رجلٌ قصيرٌ قويُّ البنية، له رأسٌ صلعاء مثيرةٌ للضَّحك، ويضع نظَّاراتٍ كبيرةً ذهبيَّةَ الإطار. شيءٌ بين طبيب الأسرة والمدَّعي العام. أنا آسفةٌ حقًّا، ولكنَّها ليست غلطتي. النَّاس مزعجون جدًّا. كلُّ أصدقائي عازفي البيانو يشبهون الشُّعراء تمامًا، وكلُّ أصدقائي الشُّعراء

يشبهون عازفي البيانو تمامًا، وأتذكَّر أنَّني في الموسم الماضي دعوت أحد أفظع الدَّسَّاسين إلى حفلة عشاء، وهو رجلٌ بهرَ الكثير من النَّاس، وكان يرتدي دائمًا سترةَ ساعي بريدٍ ويُخفي خنجرًا في رُدن قميصه؛ وهل تعلم أنَّه عندما جاء بدا وكأنَّه رجل دينٍ عجوزٌ ولطيف، وكان يُطلق النِّكات طوال الأمسية؟ بالطَّبع، كان مسلِّيًا للغاية، ولكنَّني شعرت بخيبة أملٍ كبيرة؛ وعندما سألته عن سترة رجل البريد، ضحك فحسب، وقال إنَّ الجوَّ باردٌ جدًّا في إنجلترا بحيث لا يمكنه ارتداؤه هناك. آه، ها هو السَّيِّد بودجرز! والآن، يا سيِّد بودجرز، أريدك أن تقرأ كفَّ دوقةِ بيزلي. أيَّتها الدُّوقة، اخلعي فردةَ قفَّازكِ. لا، ليس اليد اليسرى، الأخرى».

«لا أعتقد أنَّ هذا لائقٌ تمامًا يا عزيزتي غلاديس»، قالت الدُّوقة وهي تفكُّ بتوانٍ أزرار قفَّازها الشَّبيه بقفَّاز طفلٍ متَّسخ.

«لا يوجد ما يلفت الانتباه أبدًا»، قالت السَّيِّدة ويندرمير، «هكذا تسير الدُّنيا الآن. ولكن يجب أن أقدِّمه لكِ: أيَّتها الدُّوقة، هذا هو السَّيِّد بودجرز، قارئ كفِّي المدلَّل. عزيزي السَّيِّد بودجرز، هذه هي دوقة بيزلي، وإن قلتَ إنَّ لديها جبل قمرٍ[1] أكبر من ذاك الذي لديَّ، فلن أصدِّقك بعد الآن».

«أنا متأكِّدةٌ، يا غلاديس، أنَّه لا يوجد شيءٌ من هذا القبيل في يدي»، قالت الدُّوقة بجدِّيَّة.

(1) لفنِّ قراءة الكفِّ مصطلحاته الخاصَّة، ومنها جبل القمر Moon or Luna Mount وهو تلك العضلة البارزة المقابلة للإبهام والقريبة من موضع اتِّصال الكفِّ بالرُّسغ وتسمَّى في علم التَّشريح Hypothenar Muscle؛ وتدلُّ منطقة جبل القمر في التَّنجيم على هيمنة الحدس وقوَّة المخيِّلة والقدرة الإبداعيَّة؛ ويهمُّنا في هذا السِّياق أن نشير إلى عمق اطِّلاع أوسكار وايلد على أساسيَّات قراءة الكفِّ والتَّنجيم. (المترجم).

«سموُّكِ محقَّةٌ تمامًا»، قال السَّيِّد بودجرز وهو يلقي نظرةً خاطفةً على اليد الصَّغيرة بأصابعها القصيرة المربَّعة، «جبل القمر لديكِ لم يتطوَّر. ومع ذلك فخطُّ الحياة ممتاز، اثني معصمكِ لطفًا. شكرًا لكِ. لديك ثلاثة خطوطٍ مميَّزةٍ في منطقة اتِّصال الرُّسغ بالكفِّ، وهذا يعني أنَّك ستعيشين حياةً طويلة، أيَّتها الدُّوقة، وستكونين سعيدةً للغاية. الطُّموح ـ متواضعٌ جدًّا. خطُّ العقل غير مبالغٍ فيه، خطُّ القلب ـ »

«الآن، يا سيِّد بودجرز، أريدك أن تكون فضوليًّا قليلًا»، صاحت السَّيِّدة ويندرمير.

«لا شيء أحبُّ إليَّ من ذلك»، قال السَّيِّد بودجرز وهو ينحني، «إن كان الأمر كذلك بالنِّسبة إلى الدُّوقة، ولكن يؤسفني القول إنَّني أرى رسوخًا قويًّا للعاطفة مع إحساسٍ قويٍّ بالواجب».

«أرجوك تابعْ، يا سيِّد بودجرز»، قالت الدُّوقة وقد بدت سعيدةً للغاية.

«الاقتصاد ليس من خصال سعادتك»، واصل السَّيِّد بودجرز، وانفجرت السَّيِّدة ويندرمير في نوباتٍ من الضَّحك.

«الاقتصاد أمرٌ محمودٌ للغاية»، قالت الدُّوقة برضًا عن النَّفس، «عندما اقترنتُ بدوق بيزلي، كان لديه أحد عشر قصرًا، ولم يكن لديه منزلٌ واحدٌ يصلح للعيش فيه».

«والآن لديه اثنا عشر منزلًا، وليس لديه قصرٌ واحد»، علَّقت السَّيِّدة ويندرمير بأعلى صوتها.

«حسنًا، يا عزيزتي»، ردَّت الدُّوقة، «أودُّ أن ـ »

«إنَّها الرَّفاهية»، قال السَّيِّد بودجرز، «الرَّفاهية والتَّغييرات الحديثة

والماء السَّاخن في كلِّ غرفة نوم. أنت محقَّةٌ تمامًا يا سيِّدتي. الرَّفاهية هي الأمر الوحيد الذي يمكن أن تقدِّمه لنا حضارتنا».

«لقد تكلَّمتَ عن شخصيَّة الدُّوقة بشكلٍ مثيرٍ للإعجاب، يا سيِّد بودجرز، والآن هات ما عندك عن شخصيَّة السَّيِّدة فلورا»، واستجابةً لإيماءةٍ من المضيفة المبتسمة، تقدَّمت بخطواتٍ مرتبكةٍ من وراء الأريكة فتاةٌ طويلةٌ ذات شعرٍ إسكتلنديٍّ رمليٍّ ولوحَي كتفَين مرتفعَين ومدَّت يدًا طويلةً ناتئة العظام ومِلْوَقيَّةَ الأصابع.

«آه، عازفة بيانو، كما أرى»، قال السَّيِّد بودجرز، «عازفة بيانو ممتازةٌ، ولكن ربَّما ليست محترفة. متحفِّظةٌ للغاية، ومحتشمةٌ للغاية، وتحبُّ الحيوانات حبًّا جمًّا».

«صحيحٌ تمامًا!»، هتفت الدُّوقة ملتفتةً إلى السَّيِّدة ويندرمير، «صحيحٌ تمامًا! لدى فلورا عشرون كلبًا من كلاب الكولي في ماكلوسكي، وستحوِّل منزلنا إلى حديقة حيواناتٍ إن سمح لها والدها بذلك».

«حسنًا، هذا هو ما أفعله في منزلي مساءَ كلِّ خميس»، صاحت السَّيِّدة ويندرمير ضاحكةً، «ولكنَّني أفضِّل الأسُود[1] على كلاب الكولي».

«خطؤك الوحيد، يا سيِّدة ويندرمير»، قال السَّيِّد بودجرز مع انحناءةٍ احتفاليَّة.

---

(1) في الأوساط الثَّقافيَّة الإنجليزيَّة التي كانت سائدةً في المجتمع الفكتوريِّ أنَّ الأسُود تعني (الكتَّاب الشَّباب) الذين يحتاجون إلى الرِّعاية والتَّشجيع، حتى إنَّهم ابتدعوا فعلًا ليدلَّ على هذه الظَّاهرة، فعندما يُقال: (أن يجعل من أحدهم أسدًا) يُقصَد بذلك (أن يحتفي به ككاتبٍ ويدعمه ويرعاه): to lionize a writer: to fete am=nd champion him. (المترجم).

«إذا لم تستطع المرأة أن تجعل أخطاءها ساحرةً فهي مجرَّد أنثى»، هكذا جاء الجواب، «ولكن عليك أن تقرأ المزيد من الأيدي لنا. هلمَّ يا سيِّد توماس، أرِ السَّيِّد بودجرز كفَّك»؛ وتقدَّم سيِّدٌ عجوزٌ لطيف المظهر، يرتدي صدريَّةً بيضاء، ومدَّ يدًا خشنةً متغضِّنةً ذاتَ سبَّابةٍ طويلةٍ جدًّا.

«ذو طبيعةٍ مُغامرة؛ أربع رحلاتٍ بحريَّةٍ طويلةٍ في الماضي، وواحدةٌ قادمة. تحطَّمت السَّفينة ثلاث مرَّاتٍ. لا، مرَّتين فقط، ولكنَّك في خطر أن تتحطَّم سفينتك في الرِّحلة القادمة. سياسيٌّ محافظٌ قويٌّ، دقيقٌ جدًّا في مراعاة المواعيد، وعندك ولعٌ في جمع التُّحف النَّادرة. عانيتَ مرضًا شديدًا بين سنِّ السَّادسة عشرة والثَّامنة عشرة. ورثتَ ثروةً كبيرةً عندما كنت في الثَّلاثين. لديك نفورٌ شديدٌ من القطط والرَّاديكاليِّين».

«هذا استثنائيٌّ!»، صاح السِّير توماس، «اسمع، أريدك أن تقرأ كفَّ زوجتي أيضًا».

«زوجتك الثَّانية»، قال السَّيِّد بودجرز بهدوءٍ وهو ما يزال ممسكًا بكفِّ السِّير توماس، «زوجتك الثَّانية. هذا من دواعي سروري»؛ ولكنَّ السَّيِّدة مارفيل، وهي امرأةٌ كئيبة المظهر، ذات شعرٍ كستنائيٍّ ورموشٍ حزينةٍ، رفضت تمامًا الكشف عن ماضيها أو مستقبلها؛ ولا شيء كان بإمكان السَّيِّدة ويندرمير أن تفعله لحثِّ السَّيِّد دي كولوف، السَّفير الرُّوسيِّ، حتى على خلع قفَّازه. في الواقع، بدا الكثير من النَّاس خائفين من مواجهة الرَّجل القصير الغريب بابتسامته النَّمطيَّة ونظَّارته الذَّهبيَّة وعينيه الصَّغيرتين كخرزتين؛ وعندما أخبر السَّيِّدة فيرمور، أمام الجميع، أنَّها ليست مولعةً بالموسيقى، وإنَّما بالموسيقيِّين فحسب، ساد شعورٌ عامٌّ بأنَّ قراءة الكفِّ من أخطر العلوم، وبأنَّ على المرء ألَّا يتشجَّع عليها إلَّا في محادثاتٍ ثنائيَّةٍ مغلقة.

ولكنَّ اللُّورد آرثر سافيل الذي لم يسمع شيئًا عن قصَّة السَّيِّدة فيرمور المؤسفة، والذي كان يشاهد السَّيِّد بودجرز باهتمامٍ كبيرٍ، كان مليئًا بفضولٍ كبيرٍ لقراءة كفِّه، ولشعوره بالخجل من التَّقدُّم إلى قارئ الكفِّ مباشرةً، عبر القاعة إلى حيث كانت تجلس السَّيِّدة ويندرمير وسألها، بتورُّدٍ عذبٍ، إن كان السَّيِّد بودجرز سيمانع.

«بالطَّبع لن يمانع»، قالت السَّيِّدة ويندرمير، «إنَّه هنا من أجل هذا الغرض. كلُّ أُسُودي، يا لورد آرثر، يتصرَّفون كأُسُود، وهم يقفزون عبْرَ الأطواق كلَّما طلبتُ منهم. ولكن يجب أن أحذِّرك مسبقًا من أنَّني سأخبر سيبيل بكلِّ شيء. سوف تأتي لتناول الغداء معي غدًا وسنتحدَّث عن القبَّعات، فإذا كشف السَّيِّد بودجرز اليوم أنَّك سيِّئ الطِّباع، أو أنَّك ستصاب بالنُّقرس، أو أنَّ لديك زوجةً تعيش في بايزواتر، فإنَّني سأخبرها بذلك بكلِّ تأكيد».

ابتسم اللُّورد آرثر وهـزَّ رأسـه وقال: «لست خائفًا. سيبيل تعرفني كما أعرفها».

«آه، أنا آسفةٌ قليلًا لسماعك تقول ذلك. الأساس الصَّحيح للزَّواج هو سوء الفهم المتبادل![1] لا، أنا لا أسخر على الإطلاق، ولكنَّني صاحبة خبرةٍ فحسب، وهما الشَّيء نفسه إلى حدٍّ كبير. يا سيِّد بودجرز، إنَّ اللُّورد آرثر يكاد يموت تلهُّفًا إلى قراءة كفِّه. لا تقل له إنَّه تقدَّم لخطبة واحدةٍ من أجمل فتيات لندن، لأنَّ هذا الخبر ظهر في مورنينغ بوست قبل شهر».

---

(1) ترد هذه العبارة كثيرًا في كتابات وايلد، وهي مقتبسةٌ حرفيًّا أو بتصرُّفٍ أحيانًا من رواية هنري جيمس «بورتريه سيِّدة»؛ والعبارة تمثِّل سخرية الكاتب من مؤسَّسة الزَّواج. (المترجم).

«عزيزتي السَّيِّدة ويندرمير»، صاحت ماركيزةُ جيدبيرغ، «اسْتَبْقِي السَّيِّد بودجرز فترةً أطول قليلًا. لقد أخبرني للتَّوِّ أنَّني سأعتلي خشبة المسرح، والأمر يستهويني كثيرًا».

«إن كان قد أخبركِ بذلك حقًّا، يا سيِّدة جيدبيرغ، فسوف أطرده بالتَّأكيد. تعال في الحال، يا سيِّد بودجرز، واقرأ كفَّ اللُّورد آرثر».

«حسنًا»، قالت السَّيِّدة جيدبيرغ وهي تزمُّ شفتيها قليلًا وتنهض عن الأريكة، «إذا لم يُسمح لي باعتلاء خشبة المسرح، يجب أن يُسمَح لي بأن أكون جزءًا من الجمهور على أيَّة حال».

«بالتَّأكيد»، قالت السَّيِّدة ويندرمير، «سنكون جميعًا جزءًا من الجمهور. والآن، يا سيِّد بودجرز، احرص على أن تخبرنا أمرًا لطيفًا، لأنَّ اللُّورد آرثر من الأثيرين عندي».

ولكن ما إن نظر السَّيِّد بودجرز في كفِّ اللُّورد آرثر حتى شحب وجهه بشكلٍ غريبٍ ولم ينبس ببنت شفة. أخذته قشعريرةٌ، واختلج حاجباه الكثيفان بشكلٍ تشنُّجيٍّ وغريبٍ ومثيرٍ للأعصاب، وهذا ما يحدث له عادةً عندما يقع في حيرة. ثمَّ سالت بعض قطرات العرق الكبيرة على جبهته الصَّفراء، كأنَّها قطرات ندىً سامٍّ، وأصبحت أصابعه السَّمينة باردةً ورطبة.

لم تفت اللُّوردَ آرثر ملاحظةُ علامات الاضطراب الغريبة هذه، ولأوَّل مرَّةٍ في حياته، شعر بالخوف. كان ردُّ فعله الأوَّل أن يغادر الغرفة فورًا، ولكنَّه كبح جماح نفسه. كان من الأفضل أن يعرف الأسوأ، مهما كان، على أن يبقى في حالة عدم اليقين الفظيعة تلك.

«إنَّني أنتظر يا سيِّد بودجرز»، قال.

«نحن جميعًا ننتظر»، صاحت السَّيِّدة ويندرمير بأسلوبها المتسرِّع ونفاد صبرها، ولكنَّ قارئ الكفِّ لم ينبس ببنت شفة.

«أعتقد أنَّ آرثر سوف يعتلي خشبة المسرح»، قالت السَّيِّدة جيدبيرغ، «ولكن بعد توبيخك، يخشى السَّيِّد بودجرز أن يخبره بذلك.

وفجأةً أسقط السَّيِّد بودجرز يدَ اللُّورد آرثر اليمنى، وأمسك بيده اليسرى، وانحنى عليها يتفحَّصها حتى كاد إطار نظَّارته الذَّهبيُّ يلامس كفَّ اللُّورد. ثمَّ تحوَّل وجهه للحظةٍ إلى قناعٍ أبيض من الرُّعب، ولكنَّه سرعان ما استعاد رباطة جأشه ونظر إلى السَّيِّدة ويندرمير وقال بابتسامةٍ قسريَّةٍ: «إنَّها كفُّ شابٍّ ساحر».

«بالطَّبع هي كذلك»، أجابت السَّيِّدة ويندرمير، «ولكن هل سيكون زوجًا ساحرًا؟ هذا ما أريد أن أعرفه».

«كلُّ الشَّباب السَّاحرين أزواجٌ ساحرون»، قال السَّيِّد بودجرز.

«لا أعتقد أنَّ الزَّوج يجب أن يكون ساحرًا للغاية»، غمغمت السَّيِّدة جيدبيرغ باستغراقٍ، «إنَّه أمرٌ في غاية الخطورة».

«لم يكونوا يومًا ساحرين للغاية، يا طفلي العزيز»، صاحت السَّيِّدة ويندرمير، «ولكن ما أريده هو التَّفاصيل. التَّفاصيل هي الشَّيء الوحيد الذي يهمُّنا. ماذا سيحدث للُّورد آرثر؟»

«حسنًا، في غضون الأشهر القليلة المقبلة سيذهب اللُّورد آرثر في رحلةٍ بحريَّةٍ ـ »

«أوه نعم، شهر العسل بالطَّبع!»

«ثمَّ سيفقد أحد أقربائه».

«أوه، آمل ألَّا تكون أخته»، قالت السَّيِّدة جيدبيرغ بنبرةٍ حزينة.

«بالتَّأكيد ليست أخته»، أجابها السَّيِّد بودجرز مع تلويحة استنكارٍ بيده، «مجرَّد قريبٍ غير وثيق القرابة».

«حسنًا، أشعر بخيبة أملٍ كبيرة»، قالت السَّيِّدة ويندرمير، «ليس لديَّ أيُّ شيءٍ على الإطلاق لأقوله لسيبيل غدًا. لا أحد يهتمُّ بأقربائه الأباعد في هذه الأيَّام. لقد خرجوا من الموضة منذ سنوات. ومع ذلك، أعتقد أن عليها أن تضع شريط حريرٍ أسود، فهذا ما يفعله المرء دائمًا عندما يذهب إلى الكنيسة. ولكن دعونا نذهب إلى العشاء. من المؤكَّد أنَّهم أكلوا كلَّ شيءٍ، ولكنَّنا قد نجد بعض الحساء السَّاخن. لقد اعتاد فرانسوا أن يصنع حساءً ممتازًا في الماضي، ولكنَّه منزعجٌ جدًّا من السِّياسة في الوقت الحاضر، ولهذا ما عدت أطمئنُّ إليه. حبَّذا لو يخفض الجنرال بولانجر صوته قليلًا. أنامتأكِّدةٌ من أنَّك متعَبَةٌ أيَّتها الدُّوقة، أليس كذلك؟»

«لا على الإطلاق، يا عزيزتي غلاديس»، أجابت الدُّوقة وهي تتقدَّم بصعوبةٍ نحو الباب، «لقد استمتعت كثيرًا اليوم، وطبيب الأكفِّ هذا، أعني قارئ الكفِّ، هو الأكثر إثارةً للاهتمام في الحفل. أين مروحتي اليدويَّة المصنوعة من صدفة سلحفاة يا فلورا؟ أوه، شكرًا جزيلاً يا سير توماس. أين وشاحي الدَّانتيل يا فلورا؟ أوه، شكرًا يا سير توماس، هذا لطفٌ كبيرٌ منك، لطفٌ كبيرٌ ولا شك»؛ وتمكَّنت المخلوقة الجليلة أخيرًا من نزول الدَّرج إلى الطَّابق السُّفليِّ دون إسقاط زجاجة عطرها أكثر من مرَّتين.

طوال ذلك الوقت، ظلَّ اللُّورد آرثر سافيل واقفًا قرب الموقد دون أن يفارقه لحظةً واحدةً الشُّعور بالجزع والإحساس المثير للغثيان بشرٍّ وشيك. ابتسم ابتسامةً حزينةً لأخته وهي تمرُّ به متأبِّطةً ذراع اللُّورد بليمدال، وقد بدت ساحرةً بالبروكار الورديِّ واللُّؤلؤ، ولم يسمع نداء السَّيِّدة ويندرمير حين طلبت منه أن يتبعها. كان يفكِّر بسيبيل ميرتون، ومجرَّد تفكيره في احتمال أن يقع أيُّ شيءٍ بينهما جعل عينيه تغرورقان بالدُّموع.

كان يمكن للنَّاظر إليه أن يقول إنَّ نِمِسيس قد سرقت درع بالاس وأظهرت له وجه غُرغونةٍ[1]، فتحوَّل إلى حجرٍ وبدا وجهه مثل رخامةٍ في حزنه. لقد عاش حياة رغدٍ وترفٍ، حياةً رائعةً في تحرُّرها من الرِّقابة الدَّنيئة وفي لامبالاتها الصِّبيانيَّة الجميلة، فعائلته عائلةٌ نبيلةٌ والقدر ابتسم له، ولكن الآن، ولأوَّل مرَّةٍ في حياته، يدرك غموض الأقدار الرَّهيب والمعنى الفظيع للموت.

كم بدا الأمر جنونيًّا وبشعًا! أيمكن أن يكون ذلك مكتوبًا على راحة يده بحروفٍ لا يستطيع قراءتها بنفسه، ولكن يمكن لشخصٍ آخر أن يفكَّ شفرتها؟ أتُراه سرُّ خطيئةٍ مخيفٌ، أم علامةٌ حمراء على جريمة؟ أليس هناك أيُّ مهربٍ ممكن؟ أحقًّا لسنا أكثر من بيادق شطرنجٍ تحرِّكنا قوىً

(1) نِمِسيس هي إلهةٌ حارسةٌ للأقدار في الميثولوجيا الإغريقيَّة وحاميةٌ للآلهة من رذائل البشر. أمَّا بالاس فهو أحد العمالقة وُلد من قطرات دم أبيه أورانوس عند إخصائه وقد قامت الإلهة أثينا بسلخ بالاس بعد انتصارها في الحرب بين أرباب الأولمب والعمالقة واتَّخذت من جلده درعًا. أمَّا الغُرغونة فهي إحدى الشَّقيقات الثَّلاث اللَّواتي شعرهنَّ عبارة عن أفاعٍ ويحوِّلن من ينظر إليهنَّ إلى حجر. (المترجم).

خفيَّةٌ، أو أوعية فخَّارٍ يشكِّلها الخزَّاف على هواه، فإمَّا نكرَّم وإمَّا نُهان؟ ثار عقله على هذه الفكرة، ومع ذلك شعر أنَّ هناك مأساةً تلوح في الأفق، وأنَّه قد طُلب منه فجأةً أن يتحمَّل ما لا طاقة له به. الممثِّلون محظوظون حقًّا. يمكنهم أن يختاروا إن كانوا سيظهرون في مأساةٍ أو في ملهاة، وإن كانوا سيعانون أو سيفرحون، سيضحكون أو سيذرفون الدُّموع. ولكنَّ الأمر مختلفٌ في الحياة الواقعيَّة، فمعظم الرِّجال والنِّساء يُجبَرون على أداء أدوارٍ ليسوا أهلًا لها، فنحن نتوقَّع من غيلدسترن، مثلًا، أن يلعب دور هاملت، ومن هاملت أن يمزح كالأمير هال، العالم مسرحٌ، ولكنَّ المسرحيَّة سيِّئة التَّمثيل.

وفجأةً دخل السَّيِّد بودجرز الغرفة، وحين رأى اللُّوردَ آرثر فزع وتحوَّل لون وجهه الغليظ المكتنز إلى درجةٍ من درجات الأصفر المخضَرِّ. التقت عيونهما، وساد الصَّمت للحظةٍ.

«أوه! اللُّورد آرثر! لقد نسيت الدُّوقة قفَّازاتها هنا وطلبت منِّي أن أحضرها لها»، قال السَّيِّد بودجرز أخيرًا، «آه، إنَّها على الأريكة! عمتَ مساءً».

«أريدك أن تعطيني جوابًا صريحًا على سؤالٍ سأطرحه عليك، وأنا أصرُّ على ذلك يا سيِّد بودجرز».

«في وقتٍ آخر، يا لورد آرثر، فالدُّوقة قلقة. أخشى أنَّ عليَّ أن أذهب».

«لن أتركك تغادر. الدُّوقة ليست على عجلةٍ من أمرها».

«ليس من شيم الرُّجولة تركُ السَّيِّدات ينتظرن، يا لورد آرثر»، قال السَّيِّد بودجرز بابتسامةٍ واهنةٍ، «فالجنس اللَّطيف من طبعه قلَّة الصَّبر».

زمَّ اللُّورد آرثر شفتيه المنحوتتين بدقَّةٍ في ازدراءٍ شديدٍ، ففي هذه اللَّحظة بدت له الدُّوقة المسكينة قليلة الأهمِّيَّة، وسار عبْرَ القاعة إلى حيث كان يقف السَّيِّد بودجرز وفتح له كفَّه.

«أخبرني ماذا ترى هنا»، قال، «أخبرني الحقيقة. يجب أن أعرف. أنا لست طفلًا».

رمشت عينا السَّيِّد بودجرز من وراء نظَّارته ذات الإطار الذَّهبيِّ، وتحرَّك بشكلٍ غير مريحٍ من قدمٍ إلى الأخرى، بينما كانت أصابعه تلعب بعصبيَّةٍ بسلسلة ساعته المزيَّفة.

«ما الذي يجعلك تعتقد أنَّني رأيت في كفِّك أكثر ممَّا أخبرتك به، يا لورد آرثر؟»

«أعلم أنَّك رأيت أكثر من ذلك، وأصرُّ على إخباري بما رأيت. سأدفع لك. سأعطيك شيكًا بمبلغ مئة باوند».

ومضت عيناه الخضراوان للحظةٍ ثمَّ عادتا باهتتَين من جديد.

«مئة جنيه؟» قال السَّيِّد بودجرز أخيرًا بصوتٍ خافت.

«بالتَّأكيد. سأرسل لك شيكًا غدًا. ما عنوان رابطتك؟»

«ليس لديَّ رابطة، أعني ليس حتى اللَّحظة. أمَّا عنواني فهو ـ ولكن اسمح لي أن أعطيك بطاقتي»؛ وأخرج السَّيِّد بودجرز من جيب صُدرته بطاقةً مذهَّبة الإطار وقدَّمها، مع انحناءةٍ كبيرةٍ، إلى اللُّورد آرثر الذي قرأ فيها:

السَّيِّد سبتيموس آرْ. بودجرز

قارئ كفٍّ محترف

103أ ـ شارع ويست مون

«ساعات عملي من العاشرة حتى الرَّابعة، وأقدِّم تخفيضًا للعائلات»؛ غمغم السَّيِّد بودجرز بصورةٍ ميكانيكيَّة.

«أسْرِعْ»، صاح اللُّورد آرثر وقد بدا شاحبًا جدًّا وهو يمدُّ يده.

نظر السَّيِّد بودجرز بعصبيَّةٍ حوله، وأسدل السِّتارة الثَّقيلة على الباب.

«سيستغرق الأمر بعض الوقت، يا لورد آرثر، فمن الأفضل أن تجلس».

«أسْرِعْ، أيُّها السَّيِّد»، صاح اللُّورد آرثر ثانيةً وهو يضرب قدمه بغضبٍ على الأرض اللَّامعة.

ابتسم السَّيِّد بودجرز وسحب من جيب صُدرته عدسةً مكبِّرةً صغيرة، ومسحها بعنايةٍ بمنديله.

«أنا جاهزٌ الآن»، قال.

الفصل الثَّاني

بعد عشر دقائق، بوجهٍ شاحبٍ من الرُّعب، وعينَين محمومتَين من الحزن، غادر اللُّورد آرثر سافيل قصر بينتينك شاقًّا طريقه عبْرَ حشدٍ من جنود المشاة المتلفِّعين بمعاطف الفراء والواقفين حول المظلَّة الكبيرة المخطَّطة، كأنَّه لا يرى ولا يسمع شيئًا. كان اللَّيل شديد البرودة، وكانت مصابيح الغاز حول السَّاحة تتوهَّج وتومض بفعل الرِّياح القويَّة، ولكنَّ يديه كانتا محمومتَين وجبهته تشتعل كالنَّار. مشى ومشى مشيةَ رجلٍ مخمورٍ، فرمقه أحد رجال الشُّرطة باستغرابٍ وهو يمرُّ به، وأصاب الهلعُ متسوِّلًا، كان قد انحدر نحوه من مجازٍ مقنطرٍ ليطلب الصَّدقة، حين رأى في ملامحه بؤسًا أكبر من بؤسه. توقَّف تحت مصباحٍ ونظر إلى يديه، فخُيِّل إليه أنَّه استطاع أن يرى بقعة الدَّم عليهما، فانطلقت من شفتيه المرتعشتين صرخةٌ خافتة.

جريمة قتل! هذا ما رآه قارئ الكفِّ هناك. جريمة قتل! بدا اللَّيل وكأنَّه يدري بها، وكذلك الرِّيح الموحشة التي كانت تعوي في أذنه. وحتى زوايا الشَّوارع والأزقَّة المعتمة كانت على درايةٍ بجريمته. كانت جريمته تضحك هازئةً به من فوق أسطح المنازل.

أوَّلًا، وصل إلى المتنزَّه[1]، فبدا مسحورًا بغابته المعتمة. اتَّكأ متعَبًا على

(1) المقصود متنزَّه هايد بارك الشَّهير طالما أنَّ اللُّورد آرثر اتجَّه شمالاً منطلقًا من المنطقة

سياجه الحديديّ وبرّد جبينه على المعدن النّديان وأصغى إلى الصّمت المرتعش للأشجار. «قَتْلٌ! قَتْل!»، بقي يردّد تلك الكلمة كما لو أنّ تردادها يمكن أن يخفّف من فظاعتها. ولكنّ رنين صوته جعله يرتجف، مع أنّه تمنّى لو أنّ ربّة الصّدى تسمعه وتوقظ المدينة الغافية من أحلامها. شعر برغبةٍ جنونيّةٍ في إيقاف المارّة وإخبارهم بكلّ شيء.

ثمّ طوى شارع أكسفورد متسكّعًا في أزقّته الضّيّقة. سخرت منه امرأتان بوجهيهما المطليّين بالمساحيق حين مرّ بهما. ومن فناءٍ مظلمٍ تناهى إلى مسمعه صوت سِبابٍ وصفعاتٍ تلته صرخاتٌ حادّة، وعند عتبة بابٍ كئيبٍ رأى هيئات الفقر والشّيخوخة متجمّعةً بظهورها المنحنية، فأخذته شفقةٌ غريبة. هل هم أبناء الخطيئة والبؤس المرصودون لحتفهم مثلما هو مرصودٌ لحتفه؟ هل هم مثله دمىً متحرّكةٌ في عرضٍ وحشيّ؟

ومع ذلك، لم يكن السّرّ هو الذي صدمه، بل مهزلة المعاناة؛ عبثيّتها المطلقة وافتقارها الغريب إلى المعنى. كم بدا له كلّ شيءٍ متنافرًا! كم بدا له فاقدًا كلّيًا للانسجام! شعر بالذّهول من التّنافر بين النّزعة التّفاؤليّة السّطحيّة لهذا العصر وبين حقائق الوجود الرّاسخة. كان ما يزال شابًّا.

وبعد فترةٍ وجد نفسه أمام كنيسة مرليبون. بدا الطّريق الصّامت كأنّه شريطٌ طويلٌ من الفضّة المصقولة، مرقّطٌ هنا وهناك بزخرفةٍ قاتمةٍ من الظّلال المتموّجة. كان صفُّ مصابيح الغاز الوامضة يمتدّ متقوّسًا إلى ما لا نهاية، وخارج منزلٍ صغيرٍ محاطٍ بسياجٍ منخفضٍ توقّفت بانزواءٍ عربةٌ

القريبة من ساحة بيلكريف، ثمّ اتّجه نحو الجنوب الشّرقيّ وهو كما يبدو يخوض رحلةً حقيقيّةً تكشف عن واقعٍ اجتماعيٍّ معيّن. (المترجم).

يجرُّها حصانان، وكان الحوذيُّ نائمًا في داخلها. غذَّ السَّير باتِّجاه شارع بورتلاند بليس وهو ينظر حوله بين الحين والآخر وكأنَّه يخشى أن يكون هناك مَن يقتفي أثره. عند ركنٍ من شارع ريتش وقف رجلان يقرآن لافتةً صغيرةً معلَّقةً على سورٍ خشبيٍّ مؤقَّت. خامره فضولٌ غريبٌ لمعرفة ما كان مكتوبًا عليها، فعبرَ الشَّارع، وحين بات على مقربة، إذا بكلمة «قَتْل»، مطبوعةً بأحرفٍ سوداء، تصدم ناظريه. جفلَ، وظهرت حمرةٌ داكنةٌ على خدِّه. كان إعلانًا يعرض مكافأةً على أيِّ معلومةٍ تؤدِّي إلى القبض على رجلٍ متوسِّط القامة، بين الثَّلاثين والأربعين من عمره، يضع قبَّعةً سوداء مستديرةً، ويرتدي معطفًا أسود وبنطالًا بترابيع، ولديه أثر جرحٍ على خدِّه الأيمن. قرأ الإعلان مرارًا وتكرارًا، وتساءل إن كانوا سيلقون القبض على ذلك المسكين، وكيف أُصيب بذلك الجرح. ربَّما، في يومٍ من الأيَّام، سيُلصَق اسمه على جدران لندن. في يومٍ من الأيَّام، قد يُحدَّد سعرٌ لرأسه أيضًا.

جعلته هذه الفكرة يشحب من الرُّعب، فاستدار على عقبيه وغذَّ السَّير في ظلام اللَّيل.

لم يعرف أين قادته قدماه. كانت لديه ذكرى باهتةٌ عن التَّجوُّل في متاهةٍ من البيوت المظلمة، والضَّياع في شبكةٍ عملاقةٍ من الشَّوارع الكئيبة، وكان الفجر قد انبلج حين وجد نفسه أخيرًا في ميدان البيكاديللي. وبينما كان يتمشَّى نحو ساحة بيلجريف قاصدًا بيته، صادف العربات الكبيرة المتوجِّهة إلى سوق كوفنت جاردن. كان سائقو العربات بثيابهم البيضاء، ووجوههم اللَّطيفة المسفوعة بالشَّمس، وشعورهم الخشنة المجعَّدة، يخطون بخطواتٍ كبيرةٍ ثابتةٍ بين عرباتهم وهم يضربون سياطهم في الهواء وينادون

بعضهم بعضًا بين الحين والآخر؛ وعلى صهوة حصانٍ رماديٍّ ضخمٍ، قائدِ فرقة المخشخشين، جلس صبيٌّ ممتلئٌ، مع باقةٍ من زهور الرَّبيع في قبَّعته الممزَّقة، متشبِّثًا بقوَّةٍ بعرف الحصان بيديه الصَّغيرتين وهو يضحك؛ وبدت أكوام الخضراوات الكبيرة مثل كتلٍ من اليشب مقابل سماء الصَّباح، مثل كتلٍ من اليشب الأخضر مقابل البتلات الورديَّة لبعض الورود الرَّائعة. حرَّك المشهد مشاعر اللُّورد آرثر بشكلٍ غريبٍ، ولم يستطع معرفة السَّبب. كان هناك شيءٌ ما في الجمال الرَّقيق لذلك الفجر، شيءٌ بدا له شجيًّا بشكلٍ لا يوصف، وفكَّر في كلِّ النَّهارات التي تبدأ جميلةً وعاصفة. فكَّر في هؤلاء الرِّيفيِّين أيضًا، بأصواتهم الخشنة المرحة، وأساليبهم اللَّامبالية، وأيُّ لندن غريبةٍ تلك التي اعتادوا رؤيتها! لندن خاليةٍ من خطيئة اللَّيل ودخان النَّهار، مدينةٍ شاحبةٍ أشبه بمدينة أشباح، مدينةِ قبورٍ مهجورة! وتساءل عن رأيهم فيها، وإن كانوا يعرفون شيئًا عن روعتها وعارها، عن لذَّاتها الحمراء العنيفة، وشهوتها الرَّهيبة، وعن كلِّ ما تصنعه وتُفسده من الصَّباح إلى المساء. ربَّما كانت بالنِّسبة إليهم مجرَّد سوقٍ يحضرون إليه ثمارهم ليبيعوها، ويمكثون فيه بضع ساعاتٍ على الأكثر، تاركين الشَّوارع صامتةً والبيوت نائمة. كان مبعث سرورٍ له رؤيتهم وهم يمرُّون. ومع أنَّهم كانوا فظِّين، بأحذيتهم المثقلة بالمسامير، ومشيتهم الخرقاء، ولم يكونوا يحملون معهم من الزَّاد والمال إلَّا القليل، إلَّا أنَّه شعر أنَّهم عاشوا في كنف الطَّبيعة الأمِّ، وأنَّ هذه علَّمتهم السَّلام، وحسدهم على كلِّ ما لم يعرفوه.

في الوقت الذي وصل فيه إلى ساحة بيلجريف، كانت السَّماء قد تلوَّنت بلونٍ أزرق باهت، وبدأت الطُّيور تغرِّد في الحدائق.

الفصل الثَّالث

عندما استيقظ اللُّورد آرثر كانت السَّاعةُ تشير إلى الثَّانية عشرة، وكانت شمس الظَّهيرة تتدفَّق إلى غرفته عبر ستائر الحرير العاجيَّة اللَّون. نهض ونظر من النَّافذة، كانت سحابةٌ باهتةٌ من الهواء السَّاخن تغشى المدينة العظيمة، وبدت أسطح المنازل كالفضَّة الباهتة. في الاخضرار الوامض للسَّاحة كان بعض الأطفال يرفرفون مثل فراشاتٍ بيضاء، وكان الرَّصيف مزدحمًا بأشخاصٍ يشقُّون طريقهم إلى المتنزَّه. أبدًا لم تبدُ له الحياة أجمل ممَّا بدت عليه اليوم؛ أبدًا لم تبدُ له الشُّرور أبعد.

وبعد حينٍ، أحضر له خادمه كوبًا من الشُّوكولاتة على صينيَّةٍ، فشربها، ثمَّ قام وأزاح ستارة الباب المخمليَّة الثَّقيلة ذات اللَّون الخوخيِّ، ودخل الحمَّام. كان الضَّوء يتسلَّل بنعومةٍ من الأعلى، عبْرَ ألواحٍ رقيقةٍ من العقيق الشَّفَّاف، وكان الماء يتلألأ كحجر القمر في الحوض الرُّخاميِّ. غطس فيه بسرعةٍ حتى لامست الموجات الصَّغيرة حنجرته وشعره، ثمَّ غطَّ رأسه كلِّيًّا في الماء وكأنَّه يريد أن يغسل درنَ بعض الذِّكريات الشَّائنة. حين خرج من الماء كان يشعر ببعض الرَّاحة. فحالته الجسديَّة الرَّائعة آنذاك سيطرت عليه، كما يحدث غالبًا لدى الأشخاص ذوي الطَّبائع الحسَّاسة، لأنَّ الحواسَّ، مثل النَّار، يمكن أن تطهِّر مثلما يمكن أن تدمِّر.

بعد الإفطار، ارتمى على أريكةٍ وأشعل سيجارة. على رفِّ الموقد،

محاطةً بإطارٍ من الدِّيباج القديم الأنيق، انتصبت صورةٌ فوتوغرافيَّةٌ لسيبيل ميرتون، كما رآها لأوَّل مرَّةٍ في حفلةٍ راقصةٍ لدى اللِّيدي نويل. الرَّأسُ الصَّغيرُ الرَّائعُ التَّكوين يميل قليلًا بصورةٍ جانبيَّةٍ، كما لو أنَّ العنق الرَّقيق، مثل قصبةٍ، غير قادرٍ على حمل كلِّ ذلك الجمال؛ وكانت الشَّفتان منفرجتين قليلًا، وبدتا كما لو أنَّهما مخلوقتين من أجل موسيقى عذبة؛ وكلُّ نقاء الصِّبا الرَّقيق كان يتدفَّق من عينيها الحالمتين. بفستانها الكْرِيْب النَّاعم الملتصق بجسدها ومروحتها الكبيرة التي على شكل أوراق الشَّجر، بدت كواحدةٍ من تلك التَّماثيل الصَّغيرة التي يجدها المرء في غابات الزَّيتون قرب تاناجرا. كان ثمَّة لمسةٌ من الجمال الإغريقيِّ في وضعيَّتها ووقفتها. ومع ذلك، لم تكن صغيرة القدِّ. كانت ببساطةٍ متَّسقة الجسم بشكلٍ رائعٍ، وهو أمرٌ نادرٌ في عصرٍ كانت فيه العديد من النِّساء إمَّا فوق الحجم الطَّبيعيِّ وإمَّا ضئيلات.

في تلك اللَّحظة، بينما كان اللُّورد آرثر ينظر إليها، أخذته شفقةٌ رهيبةٌ نابعةٌ من حبِّه لها. شعر أنَّ الزَّواج بها، مع قَدَر القتل المعلَّق فوق رأسه، سيكون خيانةً مثل خيانة يهوذا، وخطيئةً أكبر إثمًا من أيِّ خطيئةٍ حلمَ آل بورجيا باقترافها. أيُّ سعادةٍ تنتظرهما بينما في أيَّة لحظةٍ قد يستدعيه القدر لينفِّذ النُّبوءة المروِّعة المكتوبة في كفِّه؟ وأيَّ حياةٍ يمكن أن يبنياها معًا بينما القدر ما يزال يضع في ميزانه هذا المصير المخيف؟ يجب تأجيل الزَّواج بأيِّ ثمن. كان مصمِّمًا تمامًا على هذا. فمع أنَّه كان يحبُّ الفتاة بجنونٍ، ومع أنَّ مجرَّد لمسةٍ من أصابعها، عندما يجلسان معًا، كانت تجعل كلَّ عصبٍ من جسده يرتعش بفرحٍ لا مثيل له، إلَّا أنَّه كان يعرف بوضوحٍ أين يقع واجبه، وكان مدركًا تمامًا لحقيقة أنَّه لن يكون له الحقُّ في الزَّواج

بها حتى يرتكب الجريمة. وعند إتمام مهمَّته، يمكنه الوقوف أمام المذبح مع سيبيل ميرتون وتقديم حياته لها دون خوفٍ من ارتكاب أيِّ خطأ. عند إتمام مهمَّته، يمكنه أن يأخذها بين ذراعيه وهو على يقينٍ من أنَّها لن تُضطرَّ أبدًا إلى الاستحياء منه، ولا إلى دفن رأسها في العار. ولكن لا بدَّ من تنفيذ النُّبوءة أوَّلًا، وكلَّما أسرعَ، كان ذلك أفضل لكليهما.

الكثير من الرِّجال، لو كانوا في مكانه، لفضَّلوا دربَ العبث المفروش بأزهار الرَّبيع على مرتفعات الواجب الوعرة، ولكنَّ اللُّورد آرثر كان حيَّ الضَّمير لدرجة أنَّه لم يستطع أن يقدِّم المتعة على المبادئ. كان في حبِّه لها أكثر ممَّا هو مجرَّد هيام؛ وكانت سيبيل بالنِّسبة إليه رمزًا لكلِّ ما هو طيِّبٌ ونبيل. للحظةٍ اعتراه نفورٌ طبيعيٌّ ممَّا طُلب منه فعله، ولكنَّ هذا الشُّعور سرعان ما اختفى. حدَّثه قلبه بأنَّها ليست خطيئةً، بل تضحية؛ وذكَّره عقلُه بأنَّه لا يوجد مسارٌ آخر مفتوحٌ أمامه. كان عليه أن يختار بين العيش لأجل نفسه والعيش لأجل الآخرين. ومع أنَّ المهمَّة الموكلة إليه كانت رهيبةً بلا أدنى شكٍّ، إلَّا أنَّه كان يعلم أنَّ عليه ألَّا يسمح للأنانيَّة بأن تنتصر على الحُبِّ. عاجلًا أو آجلًا، سنُطالب جميعًا بالبتِّ في القضيَّة نفسها ـ علينا جميعًا، سيُطرَح السُّؤال نفسُه. ولكنَّ الفرق هو أنَّ الأمر مع آرثر وقعَ وهو ما يزال في مقتبل العمر، قبل أن تفسد فطرته بكلبيَّة منتصف العمر الماكرة، أو يتآكل قلبه بالأنانيَّة السَّطحيَّة العصريَّة التي تنتشر في أيَّامنا هذه، فلم يشعر بالتَّردُّد في أداء واجبه. ومن حسن حظِّه أيضًا أنَّه لم يكن حالمًا أو هاويًا متبطِّلًا. فلو كان كذلك، لكان تردَّد، مثل هاملت، وترك الحيرة تُفسد هدفه. ولكنَّه كان عمليًّا في الأساس، وكانت الحياة بالنِّسبة إليه تعني الأفعال أكثر ممَّا تعني الأقوال. كان لديه أندر الأشياء، الحسُّ السَّليم.

كلُّ المشاعر العاصفة والمضطربة التي تناهبته في اللَّيلة الماضية تلاشت تمامًا الآن، وشعر بالخزي عندما التفت إلى الوراء متذكِّرًا تجواله المجنون من شارعٍ إلى شارع، وصراعَه العاطفيَّ العنيف. فصدقُ معاناته جعل تلك المشاعر تبدو له غير واقعيَّةٍ الآن. تساءل كيف أمكنه أن يكون من الحماقة لدرجة أن يصرخ ويشتكي ممَّا لا مفرَّ منه. السُّؤال الوحيد الذي كان يزعجه هو مَن الذي سيتخلَّص منه؛ فهو لم يكن أعمى عن حقيقة أنَّ القتل، كما في أديان العالم الوثنيِّ، يتطلَّب ضحيَّةً مثلما يتطلَّب كاهنًا. ولكونه ليس عبقريًّا، لم يكن لديه أعداء، وكان يشعر حقًّا بأنَّ هذا لم يكن الوقت المناسب لإطفاء أيِّ غلٍّ شخصيٍّ أو كرهٍ، لأنَّ المهمَّة التي هو بصدد تنفيذها كانت على قدرٍ كبيرٍ وخطيرٍ من السُّموِّ والمهابة. وبناءً على ذلك، أعدَّ قائمةً بأسماء أصدقائه وأقاربه على ورقة ملاحظاتٍ، وبعد دراسةٍ متأنِّيةٍ، وقع اختياره على السَّيِّدة كليمنتينا بوشامب، وهي سيِّدةٌ عجوزٌ عزيزةٌ على قلبه تعيش في شارع كرزون، وهي ابنة خاله من الدَّرجة الثَّانية، وكان دائمًا مولعًا جدًّا باللِّيدي كليم، كما اعتاد كلُّ شخصٍ أن يدعوها، ولأنَّه كان ثريًّا للغاية، بعد أن ورث كلَّ أملاك اللُّورد روجبي حالما بلغ سنَّ الرُّشد، لم يكن هناك أيُّ احتمالٍ لجنيه أيَّ فائدةٍ ماليَّةٍ مبتذلةٍ من موتها. في الواقع، كلَّما فكَّر في الأمر أكثر، ازداد يقينًا بأنَّها الشَّخص الوحيد المناسب، وإذ شعر أنَّ أيَّ تأخيرٍ سيكون ظالمًا لسيبيل، قرَّر أن يقوم بترتيباته في الحال.

وطبعًا كان أوَّل شيءٍ يجب عليه القيام به هو تسوية الأمر مع قارئ الكفِّ؛ ولذلك جلس على طاولة كتابةٍ صغيرةٍ من طراز شيراتون، كانت قريبةً من النَّافذة، وكتب شيكًا بقيمة 105 جنيهًا إسترلينيًّا، يُدفَع لأمر السَّيِّد

سيبتيموس بودجرز، ووضعه في ظرفٍ، وأمر خادمه بأن يأخذه إلى شارع ويست مون. ثمَّ اتَّصل هاتفيًّا بالإسطبل من أجل إعداد عربته الخاصَّة ذات الحصان الواحد، وارتدى ملابسه للخروج. وبينما كان يغادر غرفته، ألقى نظرةً على صورة سيبيل ميرتون، وأقسم أنَّه، مهما حدث، لن يخبرها أبدًا بما كان يفعله لأجلها، بل سيُبقي سرَّ تضحيته مخبوءًا دائمًا في قلبه.

في طريقه إلى باكنغهام، توقَّف عند بائع زهورٍ وأرسل إلى سيبيل سلَّةً جميلةً من النَّرجس، ببتلاتٍ بيضاء رقيقةٍ، مع أزهار أدونيس برَّاقةٍ كعيون التَّدرُج. وعند وصوله إلى النَّادي، توجَّه مباشرةً إلى المكتبة وقرع الجرس وأمر النَّادل بأن يأتيه بكأسٍ من اللَّيمون مع الصُّودا، وبكتابٍ عن علم السُّموم. كان قد حسم أمره بأنَّ السُّمَّ هو أفضل وسيلةٍ يتَّخذها في هذه المهمَّة الشَّاقَّة. كان أيُّ عملٍ ينطوي على عنفٍ جسديٍّ مقيتًا للغاية بالنِّسبة إليه، فضلًا عن أنَّه كان حريصًا جدًّا على عدم قتل السَّيِّدة كليمنتينا بطريقةٍ قد تجذب اهتمام النَّاس، لأنَّه كان يكره فكرة أن يكون من بين أسُود اللَّيدي ويندرمير، أو أن يرى اسمه على صفحات الجرائد المبتذلة. كان عليه أيضًا أن يفكِّر في والد سيبيل ووالدتها، اللَّذَين كانا من الطِّراز القديم إلى حدٍّ ما، وربَّما يرفضان زواجه بابنتهما إن وقعت فضيحةٌ ما، مع أنَّه كان على يقينٍ من أنَّهما سيكونان أوَّل من يقدِّر الدَّوافع التي دفعته إلى ذلك إن أخبرهما بحقائق القضيَّة. كانت لديه كلُّ الأسباب، إذن، ليقع اختياره على السُّمِّ. فهو آمنٌ وموثوقٌ وهادئٌ ويلغي أيَّ حاجةٍ إلى المشاهد المؤلمة التي كان لديه، مثل معظم الإنجليز، اعتراضٌ متجذِّرٌ عليها.

لم يكن يفقه شيئًا على الإطلاق في علم السُّموم، ولأنَّ النَّادل لم يعثر في المكتبة إلَّا على «دليل راف» و«مجلَّة بايلي»، فقد قام بتفتيش رفوف

المكتبة بنفسه، فوجد أخيرًا إصدارًا أنيقًا لكتاب «الأقْرَبَاذِين» ونسخةً من كتاب «علم السُّموم» لإرسكين، من تحرير السِّير ماثيو رايد، رئيس الكلِّيَّة الملكيَّة للأطبَّاء، وأحد أقدم أعضاء نادي باكنغهام، بعد أن انتُخب عن طريق الخطأ بدلًا من شخصٍ آخر، وهو خطأٌ أثار غضب اللَّجنة بحيث أنَّه عندما حضر الرَّجل الحقيقيُّ، صوَّتوا ضدَّه بالإجماع.

كان اللُّورد آرثر في حيرةٍ شديدةٍ حيال المصطلحات العلميَّة في كلا الكتابَين، وكان قد بدأ يأسف لأنَّه لم يولِ المزيد من الاهتمام للأعمال الكلاسِّيكيَّة في أثناء دراسته في أكسفورد، عندما وجد في المجلَّد الثَّاني من كتاب إرسكين مادَّةً دسمةً وشرحًا وافيًا وممتعًا للغاية عن خصائص الأكونيتين، مكتوبًا بلغةٍ إنجليزيَّةٍ واضحةٍ إلى حدٍّ ما، فبدا له أنَّ هذه المادَّة هي السُّمُّ الذي يريده بالضَّبط. فهي سريعة المفعول، بل فوريَّة المفعول تقريبًا، ولا تؤلم أبدًا، وعند تناولها بشكل كبسولةٍ من الجيلاتين، الشَّكل الذي يوصي به السِّير ماثيو، فإنَّها لا تكون غير مستساغةٍ بأيِّ حالٍ من الأحوال.

وبناءً عليه، دوَّن اللُّورد آرثر ملاحظةً، على طرف كُمِّه، عن المقدار الضَّروريِّ لجرعةٍ قاتلة، ثمَّ أعاد الكتب إلى أماكنها وخرج. سار في شارع سانت جيمس قاصدًا مختبرَ بيستل وهامبي، أفضل كيميائيِّين في لندن. وهناك، تفاجأ السَّيِّد بيستل، الصَّيدلانيُّ الشَّخصيُّ للأرستقراطيِّين، كثيرًا من هذا الطَّلب، وبطريقةٍ محترمةٍ للغاية تمتم بشيءٍ حول ضرورة الحصول على شهادةٍ طبِّيَّة. ولكنَّ اللُّورد آرثر شرح له أنَّه كان مضطرًّا إلى التَّخلُّص من كلب الدِّرواس النَّرويجيِّ الضَّخم، حيث ظهرت عليه الأعراض الأوَّليَّة لداء الكلب، وقد قام بالفعل بعضِّ مدرِّبه مرَّتين في ربلة السَّاق،

فعبَّر له السَّيِّد بيستل عن اقتناعه التَّامِّ بضرورة اللُّجوء إلى ذلك، وأثنى على اللُّورد آرثر لمعرفته الرَّائعة بالسُّموم، وصنع له الوصفة الطِّبِّيَّة على الفور.

وضع اللُّورد آرثر الكبسولة في علبة ملبَّسٍ صغيرةٍ، فضِّيَّة اللَّون، وقعت عيناه عليها في واجهة أحد المحالِّ في شارع بوند، وألقى بعلبة الدَّواء القبيحة التي أخذ السُّمَّ فيها من مختبر بيستل وهامبي، وانطلق في الحال إلى بيت اللِّيدي كليمنتينا.

«أهلًا أيُّها الحقير»، صاحت السَّيِّدة كليمنتينا حين دخل غرفتها، «لماذا لم تأت لتراني كلَّ هذه المدَّة الطَّويلة؟»

«عزيزتي، سيِّدة كليم، ليس عندي وقتٌ حتى لنفسي»، قال اللُّورد آرثر مبتسمًا.

«طبعًا! أحسب أنَّك تقضي سحابةَ يومك مع الآنسة سيبيل ميرتون وتشتري لها الشِّيفون وكلَّ تلك الأشياء التَّافهة. لا أستطيع أن أفهم لماذا يثير النَّاس مثل هذه الضَّجَّة حول الزَّواج. في أيَّامنا لم نكن نحلم أبدًا بالمغازلة والمناغاة في الأماكن العامَّة، بل ولا حتى في خلواتنا».

«أوكِّد لك، يا سيِّدة كليم، أنَّني لم أر سيبيل منذ أربعٍ وعشرين ساعة. فبحسب معرفتي، هي تقضي معظم وقتها مع بائعات القبَّعات».

«طبعًا! ولهذا السَّبب جئت تزور امرأةً عجوزًا وقبيحةً مثلي. أتعجَّب كيف أنَّكم لا تتَّعظون يا معشر الرِّجال! أيَّامَ زمانٍ كاد الرِّجال يفقدون عقولهم لأجلي، وها أنا اليوم مخلوقٌ روماتيزميٌّ مسكين، بهذا المزاج السَّيِّئ والشَّكل القبيح. ولولا فضل اللِّيدي جانسن العزيزة التي أرسلت لي أسوأ ما استطاعت أن تجده من الرِّويات الفرنسيَّة، لما عرفتُ كيف

أقضي يومي. لا فائدة من الأطبَّاء على الإطلاق، باستثناء تقاضي الأموال من النَّاس. إنَّهم لا يستطيعون حتى علاج حرقة المعدة».

«لقد جلبت لك علاجًا لذلك يا سيِّدة كليم»، قال اللُّورد آرثر بكلِّ جدِّيَّة، «إنَّه علاجٌ رائعٌ اخترعه رجلٌ أمريكيٌّ».

«لا أعتقد أنَّني أحبُّ الاختراعات الأمريكيَّة يا آرثر. أنا على يقينٍ تامٍّ من أنَّني لا أحبُّها. لقد قرأت بعض الرِّوايات الأمريكيَّة في الفترة الأخيرة، وكانت هراءً بكلِّ معنى الكلمة».

«أوه، ولكن لا هراء على الإطلاق في هذا، يا سيِّدة كليم. أؤكِّد لكِ أنَّه علاجٌ مثاليٌّ. عليكِ أن تعديني بتجريبه»؛ وأخرج اللُّورد آرثر الصُّندوق الصَّغير من جيبه وسلَّمه لها.

«حسنًا! الصُّندوق ساحرٌ يا آرثر! هل هو هديَّة؟ هذا لطفٌ منك. وهل هذا هو الدَّواء الرَّائع؟ يبدو مثل البونبون. سأتناوله في الحال».

«باللّه عليكِ يا سيِّدة كليم»، صاح اللُّورد آرثر ممسكًا يدها، «لا تفعلي ذلك. إنَّه دواءٌ لا يؤخَذ إلَّا إذا أحسستِ بالحرقة، وإذا تناولته دون الإحساس بحموضةٍ في المعدة فإنَّه لن ينفعك في شيء. انتظري حتى تتعرَّضي لنوبةٍ، وحينئذٍ تناوليه. ستذهلكِ النَّتيجة».

«أحبُّ أن أتناوله الآن»، قالت السَّيِّدة كليمنتينا وهي ترفع إلى الضَّوء الكبسولةَ الصَّغيرةَ الشَّفَّافةَ مع فقاعتها الطَّافية من سائل الأكونيتين، «إنَّني متأكِّدةٌ من أنَّها لذيذة. والحقيقة، مع أنَّني أكره الأطبَّاء إلَّا أنَّني أحبُّ الأدوية. ومع ذلك سأنتظر حتى تأتيني نوبةٌ أخرى».

«ومتى يكون ذلك؟»، سأل اللُّورد آرثر بلهفة، «هل سيكون ذلك قريبًا؟»

«آمل ألَّا يكون ذلك قبل أسبوعٍ من الآن. لقد قاسيت الأمرَّين معها صباح أمس. ولكن لا أحد يعلم».

«هل أنت متأكِّدةٌ من أنَّها ستأتيكِ قبل نهاية هذا الشَّهر، يا سيِّدة كليم؟»

«نعم. أخشى ذلك. ولكن كم أنت حنونٌ اليوم يا آرثر! لقد فعلت سيبيل فِعْلَها بك. ولكن عليك أن تنصرف الآن، لأنَّني سأتعشَّى مع بعض الأشخاص المملِّين الذين لا يتكلَّمون عن الفضائح، وأنا أعلم أنَّني إذا لم أنم الآن فلن أتمكَّن من البقاء مستيقظةً في أثناء العشاء. وداعًا، يا آرثر، بلِّغ تحيَّاتي وحبِّي إلى سيبيل، وشكرًا جزيلًا على هذا الدَّواء الأمريكي».

«لن تنسي أن تأخذيه يا سيِّدة كليم، أليس كذلك؟»، قال اللُّورد آرثر وهو ينهض عن كرسيِّه.

«بالطَّبع لن أنسى، أيُّها الولد السَّخيف. إنَّه لطفٌ كبيرٌ منك أن تهتمَّ بصحَّتي، وسأكتب إليك وأخبركَ إذا احتجتُ إلى المزيد».

غادر اللُّورد آرثر المنزل في حالةٍ معنويَّةٍ عاليةٍ وشعورٍ كبيرٍ بالارتياح.

في تلك اللَّيلة قابل سيبيل ميرتون، وأخبرها كيف وُضِعَ فجأةً في موقفٍ صعبٍ للغاية لن يسمح له لا الشَّرف ولا الواجب بالتَّراجع عنه. قال لها إنَّه لا بدَّ من تأجيل الزَّواج في الوقت الحاضر، لأنَّه لن يكون رجلًا حرًّا قبل أن يتخلَّص من تلك الورطة المخيفة. ناشدها أن تثق به، وألَّا تشكَّ في المستقبل. فكلُّ شيءٍ سيكون على ما يُرام، ولكن لا بدَّ من بعض الصَّبر.

تمَّ ذلك اللِّقاء في المستنبت الزُّجاجيِّ التَّابع للسَّيِّد ميرتون، في شارع

لين بارك، حيث تناول اللُّورد آرثر العشاء كالمعتاد. لم تكن سيبيل سعيدةً بقرار التَّأجيل، وللحظةٍ أغراه ذلك بلعب دور الرَّجل الحنون والكتابة إلى السَّيِّدة كليمنتينا بخصوص حبوب الدَّواء وعدم تأجيل موعد الزَّواج كما لو لم يكن هناك في الوجود شخصٌ يُدعَى السَّيِّد بودجرز. ولكن سرعان ما رجع إلى سجيَّته، وحتى عندما ارتمت سيبيل بين ذراعيه باكيةً لم يتزحزح عن قراره، ذلك أنَّ الجمال الذي حرَّك أحاسيسه لمسَ وجدانه أيضًا. لقد شعر أنَّ تدمير حياةٍ في غاية الجمال من أجل متعة بضعة أشهرٍ سيكون شيئًا خاطئًا.

بقي مع سيبيل حتى منتصف اللَّيل وهو يحاول طمأنتها وطمأنة نفسه. وفي وقتٍ مبكِّرٍ من صباح اليوم التَّالي غادر إلى البندقيَّة بعد أن كتب إلى السَّيِّد ميرتون رسالةً رجوليَّةً حازمةً حول الضَّرورة الملحَّة لتأجيل الزَّواج.

الفصل الرَّابع

في البندقيَّة التقى أخاه، اللُّورد سوربيتون، الذي صادف أن كان هناك قادمًا من جزيرة كورفو على متن يخته. وقضى الشَّابَّان أسبوعين ممتعين معًا. كانا في الصَّباح يقصدان اللِّيدو[1] أو يجوبان القنوات المائيَّة الخضراء في جندولٍ أسود طويل؛ وفي الظَّهيرة يستقبلان الزُّوَّار على اليخت؛ وفي المساء يتناولان العشاء في مقهى فلوريان ويستمتعان بتدخين عددٍ لا يحصى من السَّجائر في البياتزا[2]. ولكنَّ اللُّورد آرثر لم يكن سعيدًا بشكلٍ أو بآخر، وكان يستعرض كلَّ يوم عمود النَّعي في التَّايمز، مترقِّبًا أن يرى بلاغًا بوفاة السَّيِّدة كليمنتينا، ولكنَّه في كلِّ يومٍ كان يُصاب بخيبة أمل، وبدأ يخشى أن يكون قد وقع لها حادثٌ ما، وكثيرًا ما لام نفسه لأنَّه منعها من تناول الأكونيتين حين كانت متلهِّفةً جدًّا إلى تجربة تأثيره. إضافةً إلى ذلك، كانت رسائل سيبيل، مع أنَّها مليئةٌ بالحبِّ والثِّقة والحنان، حزينةً جدًّا في نبرتها، وفي بعض الأحيان بدا له أنَّه انفصل عنها إلى الأبد.

بعد مضيِّ أسبوعين، ملَّ اللُّورد سوربيتون من البندقيَّة، فقرَّر الإبحار بيخته صوبَ رافينَّا، حيث سمع أنَّ هناك مسابقة رمي على الدِّيَكة في غابة الصَّنوبر. في البداية رفض اللُّورد آرثر رفضًا قاطعًا مرافقة أخيه، ولكنَّ

(1) منتجعٌ سياحيٌّ يقع في جزيرة تحمل الاسم نفسه بعيدًا إلى حدٍّ ما عن البندقيَّة. (المترجم).
(2) بياتزا سان ماركو، ساحةٌ كبيرةٌ يوجد فيها مقهى فلوريان. (المترجم).

سوربيتون، الذي كان مولعًا به للغاية، أقنعه أخيرًا بأنَّه إذا بقي بمفرده في فندق دانييلي، فإنَّه سيموت من الضَّجر. وهكذا، انطلقا في صباح اليوم الخامس عشر في رحلتهما البحريَّة، وكانت الرِّيح شماليَّةً شرقيَّةً قويَّةً، والبحر مضطربًا إلى حدٍّ ما. كانت المسابقة رائعةً، وأعاد الهواء الطَّلق اللَّونَ إلى وجنتَي اللُّورد آرثر، ولكن في الثَّاني والعشرين من الشَّهر عاد إليه القلق بشأن السَّيِّدة كليمنتينا، فقرَّر الرُّجوع إلى البندقيَّة بالقطار.

ما إن خرج من جندوله إلى درجِ الفندق حتى تقدَّم صاحب الفندق لاستقباله برزمةٍ من البرقيَّات، فانتزعها اللُّورد آرثر من يده وراح يفتحها بسرعةٍ واحدةً تلوَ الأخرى. كلُّ شيءٍ سار على ما يُرام ونجح الأمر. توفِّيت السَّيِّدة كليمنتينا في ليلة السَّابع عشر من الشَّهر!

كانت سيبيل أوَّل إنسانٍ خطر في باله، فأرسل إليها برقيَّةً يبلغها فيها بعودته الفوريَّة إلى لندن. ثمَّ أمر خادمه بحزم حقائبه وشحنِها بالبريد اللَّيليِّ، وأرسل إلى مسيِّر الجندول الخاصِّ به حوالي خمسة أضعاف الأجرة المتعارف عليها، ثمَّ هرع إلى غرفة جلوسه بخطوةٍ خفيفةٍ وقلبٍ مبتهج. وهناك، وجد ثلاث رسائل في انتظاره. كانت إحداها من سيبيل نفسها، وكانت مليئةً بالتَّعاطف والمواساة. أمَّا الأخريان فكانتا من والدته ومن محامي السَّيِّدة كليمنتينا. يبدو أنَّ السَّيِّدة العجوز قد تناولت العشاء مع الدُّوقة في تلك اللَّيلة بالذَّات، وكانت منطلقة الأسارير وقد أدخلت السُّرور على الحاضرين بخفَّة دمها وظرافتها، ولكنَّها ذهبت إلى بيتها أبكر من المعتاد لشعورها بحرقةٍ في المعدة. وفي الصَّباح وجدوها ميِّتةً في سريرها، ويبدو أنَّها لم تعاني أيَّ ألمٍ عند وفاتها. تمَّ استدعاء السِّير ماثيو رايد في الحال، ولكن، بالطَّبع،

لم يكن هناك ما يمكن القيام به، وتقرَّرَ أن تُدفَن في الثَّاني والعشرين من الشَّهر في مقبرة بوشامب تشالكوت. قبل أيَّامٍ معدوداتٍ من وفاتها كانت قد كتبت وصَّيتها، فتركت للُّورد آرثر منزلها الصَّغير في شارع كرزون وجميع أثاثها ومتعلِّقاتها الشَّخصيَّة وصورها، باستثناء مجموعتها من المنمنمات التي ستذهب إلى أختها، اللِّيدي مارغريت روفورد، وقلادة الجمشت التي ستذهب إلى سيبيل ميرتون. لم تكن التَّرِكة ذات قيمةٍ كبيرةٍ، ولكنَّ السَّيِّد مانسفليد، المحامي، أصرَّ كثيرًا على عودة اللُّورد آرثر على الفور، إن أمكن، لأنَّه كان هناك الكثير من الدُّيون التي يتعيَّن دفعها، ولم تكن السَّيِّدة كليمنتينا تحتفظ بأيِّ حساباتٍ منتظمة.

تأثَّر اللُّورد آرثر كثيرًا بتذكُّر السَّيِّدة كليمنتينا اللَّطيف له، وشعر أنَّ لدى السَّيِّد بودجرز الكثير ليجيبه عنه. ولكنَّ حبَّه لسيبيل طغى على كلِّ المشاعر الأخرى، وشعورُه بأنَّه قام بواجبه منحه السَّلام وراحة البال. وعندما وصل إلى محطَّة تشارينغ كروس، شعر بسعادةٍ مطلقة.

استقبله آلُ ميرتون بلطفٍ كبير، وانتزعت سيبيل منه وعدًا بأنَّه لن يسمح لأيِّ شيءٍ بالتَّفريق بينهما بعد الآن، وحُدِّد الزَّواج في السَّابع من حزيران، وبدت له الحياة مرَّةً أخرى مشرقةً وجميلةً، وعادت إليه كلُّ بهجته القديمة من جديد.

ذات يومٍ، وبينما كان يبحث في المنزل الواقع في شارع كرزون، بصحبة كلٍّ من محامي السَّيِّدة كليمنتينا وسيبيل، حارقين حزمًا من الرَّسائل الباهتة، ومُفرغين أدراجًا ممَّا فيها من القمامة الغريبة، إذ أطلقت الفتاة صيحةَ فرحٍ صغيرة.

«ماذا وجدتِ يا سيبيل؟»، قال اللُّورد آرثر وهو ينظر إليها مبتسمًا.

«وجدتُ هذا الصُّندوق الفضِّيَّ الصَّغيرَ، يا آرثر! ألا يبدو غريبًا وهولنديًّا؟ هل تعطيه لي؟ أعلم أنَّ قلادة الجمشت لن تصبح لي حتى أتجاوز الثَّمانين».

كانت قد عثرت على الصُّندوق الذي كان يحتوي على الأكونيتين.

فزعَ اللُّورد آرثر وصعدت حمرةٌ خفيفةٌ إلى وجنتيه. كان قد نسي تمامًا تقريبًا ما اقترفته يداه، وبدت له مصادفةً غريبةً أنَّ سيبيل، وهي التي لأجلها مرَّ بكلِّ ذلك الجزع الرَّهيب، هي أوَّل من كان عليه أن يذكِّره بذلك.

«بالطَّبع يمكنك الحصول عليها، يا سيبيل. أنا نفسي أعطيته ذات يومٍ للسَّيِّدة كليم المسكينة».

«أوه! شكرًا لك يا آرثر! وهل يمكنني الحصول على البونبون أيضًا؟ لم يكن لديَّ فكرةٌ أنَّ السَّيِّدة كليمنتينا كانت تحبُّ الحلوى. كنتُ أحسبها عقلانيَّةً للغاية».

اصفرَّ اللُّورد آرثر وشحب لونه كما لم يشحب من قبل، وعبرَتْ ذهنَه فكرةٌ مروِّعة.

«بونبون، يا سيبيل؟ ماذا تقصدين؟»، قال ذلك بنبرةٍ بطيئةٍ وبصوتٍ أجش.

«فيه حبَّةٌ واحدة، هذا كلُّ شيء. ولكنَّها تبدو قديمةً جدًّا ومغبرَّة، وليس لديَّ أدنى نيَّةٍ في تناولها. ما الأمر يا آرثر؟ لماذا تبدو شاحبًا هكذا؟»

اندفع اللُّورد آرثر مجتازًا الغرفة وأخذ الصُّندوق من يد سيبيل ورأى

بداخله كبسولةً بلون الكهرمان تحتوي على تلك الفقاعة السَّامَّة. إذن، لقد ماتت السَّيِّدة كليمنتينا ميتةً طبيعيَّةً بعد كلِّ شيء.

كانت صدمة ذلك الاكتشاف أكبر من طاقته على الاحتمال، فألقى الكبسولة في النَّار، وغاص في الأريكة مطلقًا صرخة يأس.

الفصل الخامس

استاء السَّيِّد ميرتون استياءً شديدًا من التَّأجيل الثَّاني للزَّواج، أمَّا اللِّيدي جوليا، وكانت قد أوصت بالفعل على فستانٍ لحفل الزِّفاف، فقد بذلت كلَّ ما في وسعها لحمل سيبيل على فسخ خطوبتها، ولكنَّ سيبيل، ومع كلِّ الحبِّ الذي كانت تكنُّه لوالدتها، كانت قد وضعت حياتها كلَّها بين يدي اللُّورد آرثر، ولا شيء ممَّا قالته اللِّيدي جوليا استطاع أن يزعزع إخلاصها له. أمَّا بالنِّسبة إلى اللُّورد آرثر نفسه فقد استغرق الأمر أيَّامًا ليتغلَّب على خيبة أمله الرَّهيبة، ولفترةٍ من الوقت بقيت أعصابه متوتِّرةً للغاية. ولكن سرعان ما استعاد حسُّه السَّليمُ المتفوِّقُ قوَّته، ولم يتركه عقلُه العمليُّ والسَّليمُ طويلًا في شكٍّ بشأن ما يجب فعله. من الواضح، بعد أن أثبت السُّمُّ فشله التَّامَّ، أنَّ الدِّيناميت، أو أيَّ شكلٍ آخر من أشكال المتفجِّرات، هو الشَّيء المناسب الذي يجب تجربته.

وهكذا، عاد ينظر مرَّةً أخرى في قائمة أصدقائه وأقاربه، وبعد دراسةٍ متأنِّيةٍ، قرَّر تفجير خاله، كبير قساوسة تشيتشستر، وهو رجلٌ واسع العلم والثَّقافة ومولعٌ للغاية بالسَّاعات ولديه مجموعةٌ رائعةٌ منها، من القرن الثَّامن عشر حتى الوقت الحاضر، وبدا للُّورد آرثر أنَّ هواية كبير القساوسة الطَّيِّب هذه فرصةٌ ممتازةٌ لتنفيذ خطَّته. أمَّا من أين سيشتري آلةً متفجِّرةً فتلك بالطَّبع مسألةٌ أخرى. لم يعطه دليل لندن أيَّ معلوماتٍ عن هذه

النُّقطة، وشعر أنَّه لن تكون هناك فائدةٌ كبيرةٌ من الذَّهاب إلى سكوتلاند يارد من أجل ذلك، إذ يبدو أنَّهم لا يعرفون شيئًا عن تحرُّكات عصبة الدِّيناميت إلى أن يقع انفجارٌ ما، وحتى حينئذٍ لا يبدو أنَّهم يعرفون الكثير.

فجأةً خطر في باله صديقُه روفالوف، الشَّابُّ الرُّوسيُّ ذو الميول الثَّوريَّة(1) للغاية، والذي التقاه في إحدى حفلات السَّيِّدة ويندرمير في الشِّتاء المنصرم. كان من المفترض أنَّ الكونت روفالوف يكتب حياة بطرس الأكبر وأنَّه جاء إلى إنجلترا بغرض دراسة الوثائق المتعلِّقة بإقامة القيصر في هذا البلد كنجَّار سفن، ولكن كان هناك شكٌّ في أنَّه عميلٌ عدميٌّ، خاصَّةً وأنَّ السَّفارة الرُّوسيَّة ليس لديها علمٌ بمهمَّته ولا بوجوده في لندن. لذلك شعر اللُّورد آرثر أنَّه الرَّجل المناسب لتنفيذ مأربه، فتوجَّه ذات صباحٍ إلى مسكنه في بلومزبري ليطلب نصيحته ومساعدته.

«إذن، أنت تأخذ السِّياسة على محمل الجدِّ؟»، قال الكونت روفالوف عندما أخبره اللُّورد آرثر بطبيعة مهمَّته؛ ولكنَّ اللُّورد آرثر، الذي كان يكره التَّباهي بكلِّ أشكاله، شعر بأنَّه ملزمٌ بالاعتراف له بأنَّه لم يكن لديه أدنى اهتمامٍ بالقضايا الاجتماعيَّة، وأنَّه ببساطةٍ كان يريد الآلة المتفجِّرة من أجل مسألةٍ عائليَّةٍ بحتةٍ لا يهتمُّ بها أحدٌ سواه.

نظر إليه الكونت روفالوف باستغرابٍ لبضع لحظاتٍ، وحين رأى أنَّه جادٌّ للغاية، كتب عنوانًا على ورقةٍ صغيرةٍ، ووقَّع عليها بالأحرف الأولى من اسمه، وسلَّمها إليه من فوق الطَّاولة.

---

(1) في الفترة التي كتب فيها أوسكار وايلد قصَّته هذه كان مهتماً بالتَّيارات الثَّوريَّة الرُّوسيَّة. (المترجم).

«سكوتلاندر يارد ستمنح صفقةً جيِّدةً لتعرف هذا العنوان، يا صديقي العزيز».

«لن يحصلوا عليه»، صاح اللُّورد آرثر ضاحكًا، ثمَّ صافح الشَّابَّ الرُّوسيَّ بحرارةٍ ونزل مسرعًا إلى الطَّابق السُّفليِّ، وهناك تفحَّص الورقة وطلب من الحوذيِّ أن يأخذه إلى ساحة سوهو.

وهناك صرفه وراح يتمشَّى في الشَّارع اليونانيِّ حتى وصل إلى مكانٍ يُدعَى حارةَ بايل، فمرَّ من تحت مجازه المقنطر ووجد نفسه في زقاقٍ مسدودٍ وغريبٍ يبدو أنَّه مشغولٌ من قِبَل مغسلةٍ فرنسيَّةٍ، حيث امتدَّت بين البيوت شبكةٌ كاملةٌ من حبال الغسيل يخفق عليها الكتَّان الأبيض في هواء الصَّباح. سار إلى نهاية الزِّقاق وطرق بابًا أخضر صغيرًا، وبعد انتظارٍ، تحوَّلت خلاله كلُّ نافذةٍ في الزِّقاق إلى كتلةٍ ضبابيَّةٍ من الوجوه المحدِّقة، فتحَ البابَ رجلٌ أجنبيٌّ خشن الهيئة وسأله بإنجليزيَّةٍ ركيكةٍ عمَّا يريده، فأعطاه اللُّورد آرثر الورقة التي أعطاه إيَّاها الكونت روفالوف، وعندما رآها الرَّجل انحنى له ودعاه للدُّخول إلى ردهةٍ أماميَّةٍ رثَّة الأثاث في الطَّابق الأرضيِّ، وفي لحظاتٍ قليلةٍ دخل الرَّجل، وكان يُدعَى هير وينكيلكوف في إنجلترا، إلى الغرفة بمنديلٍ ملطَّخٍ بالنَّبيذ حول عنقه وشوكةٍ في يده اليسرى.

«لقد أعطاني الكونت روفالوف فكرةً عنك»، قال اللُّورد آرثر وهو ينحني، «وأنا متشوِّقٌ لإجراء حديثٍ قصيرٍ معك في مسألة عمل. اسمي سميث، السَّيِّد روبرت سميث، وأريدك أن تزوِّدني بساعةٍ متفجِّرة».

«إنَّني سعيدٌ بلقائك، يا لورد آرثر»، قال الرَّجل الألمانيُّ اللَّطيفُ وهو

يضحك، «لا تخف، فعملي يقتضي منّي معرفة الجميع، وأتذكّر أنّني رأيتك في إحدى الحفلات التي تقيمها السّيّدة ويندرمير. آمل أن تكون سموُّها بصحّةٍ جيّدة. هل تمانع في الجلوس معي ريثما أنهي فطوري؟ هنا، كما ترى، فطيرة لحمٍ ممتازةٌ، وأصدقائي طيّبون بما يكفي ليقولوا إنّ نبيذ الرّاين خاصّتي أفضل من أيّ نبيذٍ قُدّم لهم في السّفارة الألمانيّة»، وقبل أن يفيق اللّورد آرثر من مفاجأة تعرُّف هذا الرّجل عليه، وجد نفسه جالسًا في الغرفة الخلفيّة يحتسي ألذّ أصناف نبيذ ماركوبرونير من زجاجةٍ صفراء شاحبةٍ مختومةٍ بالشّعار الملكيّ، ويتحدّث بأسلوبٍ ودّيٍّ مع المتآمر الشّهير.

«السّاعات المتفجّرة»، قال هير وينكيلكوف، «ليست من الأشياء التي يسهل تصديرها إلى خارج البلاد، فحتى لو نجحنا في اجتياز هيئة الجمرك، تظلُّ خدمة القطارات غير منتظمةٍ بحيث أنّها تنفجر عادةً قبل أن تصل إلى هدفها. ولكن إن كنت تريد مادّةً متفجّرةً للاستخدام المنزليّ، فبإمكاني تزويدك بسلعةٍ ممتازةٍ أضمن لك نتيجة عملها. ولكن هل لي أن أسألك ضدَّ مَن تنوي استخدامها؟ فإن كان الأمر يتعلّق بالشُّرطة أو بأيّ فردٍ من اسكوتلاند يارد، أخشى أنّني لن أستطيع أن أنفعك، لأنّ المحقّقين الإنجليز هم بالفعل أفضل أصدقائنا، وقد وجدت دائمًا أنّنا لا نستطيع أن نفعل بالضّبط ما نحبُّ إلّا بالاعتماد على غباوتهم الأكيدة، وأنا بكلامي هذا لا أستثني منهم أحدًا».

«أؤكّد لك أنّ الأمر لا علاقة له بالشُّرطة على الإطلاق. في الحقيقة، أريدها لكبير قساوسة تشيتشستر».

«عجبي! لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن أنّ لديك شعورًا قويًّا تجاه الدِّين يا لورد آرثر. قلّةٌ من الشّباب لديهم مثل هذا الشُّعور في أيّامنا هذه».

«أخشى أنَّك بالغت في تقديري، يا هير وينكيلكوف»، قال اللُّورد آرثر وقد احمرَّ خجلًا، «الحقيقة هي أنَّني لا أعلم أيَّ شيءٍ عن اللَّاهوت».

«هي، إذن، مسألةٌ شخصيَّةٌ بحتةٌ؟»

«نعم، إنَّها مسألةٌ شخصيَّةٌ تمامًا».

هزَّ هير وينكيلكوف كتفيه وغادر الغرفة، وبعد بضع دقائق عاد يحمل قرصًا من الدِّيناميت بحجم قطعةٍ نقديَّةٍ صغيرةٍ وساعةً فرنسيَّةً صغيرةً وجميلةً يعلوها تمثالٌ من الذَّهب الزَّائف يمثِّل إلهة الحرِّيَّة وهي تدوس برجلها هيدرا الاستبداد.

أشرق وجه اللُّورد آرثر حين رآها وصاح: «هذا هو ما أريده، والآن أخبرني كيف تنفجر».

«هنا يكمن سرِّي»، أجابه هير وينكيلكوف وهو يتأمَّل اختراعه بنظرة فخرٍ لها ما يبرِّرها، «أخبرني متى تريدها أن تنفجر وسأضبطها لك على تلك اللَّحظة».

«حسنًا، اليوم هو الثُّلاثاء، فإذا كان بإمكانك أن تشحنها في الحال ـ »

«هذا مستحيل؛ لديَّ أعمالٌ كثيرةٌ ينبغي أن أرسلها في موعدها لبعض الأصدقاء في موسكو. ومع ذلك، قد أرسلها لك غدًا».

«أوه! هذا وقتٌ مناسبٌ»، قال اللُّورد آرثر بلطفٍ وأدب، «إن استلمتُها مساء غدٍ أو صباح الخميس. أمَّا لحظة التَّفجير فأريدها أن تكون منتصف ظهيرة الجمعة، لأنَّ كبير القساوسة يكون دائمًا في بيته في هذه السَّاعة».

«الجمعة، منتصف الظَّهيرة»، كرَّر هير وينكيلكوف، ثمَّ دوَّن ملاحظةً

بذلك في دفتر حساباتٍ كبيرٍ كان موضوعًا على منضدةٍ بالقرب من المستوقد.

«والآن»، قال اللُّورد آرثر وقد نهض عن كرسيِّه، «أخبرني، كم أدين لك ثمنًا لها؟»

«إنَّها شيءٌ بسيطٌ، يا لورد آرثر، لدرجة أنَّني لا أستحقُّ عليها أجرًا. فالدِّيناميت سعره سبعُ قطعٍ من ستَّة بنساتٍ، والسَّاعة يقدَّر ثمنها بثلاثة جنيهاتٍ وعشرة شلناتٍ، وأجرة النَّقل حوالي خمسة شلنات، لا تهتمَّ، إنَّني سعيدٌ للغاية بإسداء معروفٍ لأيِّ صديقٍ من أصدقاء الكونت روفالوف».

«ولكن ماذا عن أتعابك، يا هير وينكيلكوف؟»

«أوه، هذا لا شيء! إنَّه من دواعي سروري. ثمَّ إنَّني لا أعمل من أجل المال. أنا أعيش بالكامل من أجل فنِّي[1]».

ولكنَّ اللُّورد آرثر وضع على الطَّاولة أربعة جنيهاتٍ وشلنين وستَّة سنتات، وشكر الألمانيَّ القصيرَ على لطفه، وبعد أن نجح في رفض دعوةٍ على الشَّاي وبعض سندويشات اللَّحم للقاء بعض الفوضويِّين يوم السَّبت القادم، غادر المنزل وتوجَّه إلى المتنزَّه.

بقي اللُّورد آرثر طوال اليومين التَّاليين في حالةٍ لا توصف من الانفعال،

---

(1) يبدو أنَّ هناك اقترانًا بين الفنِّ والجريمة في كثيرٍ من أعمال أوسكار وايلد، وثمَّة إشارةٌ إلى ذلك في مقالةٍ له عنوانها (قلم حبرٍ، وقلم رصاصٍ، وقارورة سُمٍّ)، Pen, Pencil, and Poison، وقد حاولت ترجمتها بالمحافظة على تكرار الحرف الأوَّل من كلِّ كلمة، وقد وردت المقالة في كتابه (النَّوايا)، Intentions؛ كما عالج وايلد هذه الثِّيمة في روايته (صورة دوريان كرييه). (المترجم).

ويوم الجمعة، في السَّاعة الثَّانية عشرة ظهرًا، قاد عربته إلى باكنغهام لانتظار الأخبار. طوال فترة العصر، بقي مراسل القاعة يرسل البرقيَّات إلى مختلف مناطق البلاد معطيًا نتائج سباقات الخيل، وأحكام دعاوى الطَّلاق، وحالة الطَّقس، وما شابه، بينما لم يتطرَّق الشَّريط إلى التَّفاصيل المقلقة عن جلسة مجلس العموم البريطانيِّ التي استمرَّت حتى الفجر، ولا إلى الذُّعر البسيط في سوق البورصة.

في السَّاعة الرَّابعة، وصلت الصُّحف المسائيَّة، فاختفى اللُّورد آرثر في المكتبة بين جرائد بول مول وسانت جيمس وغلوب وإيكو، لدرجة أنَّه أثار سخط الكولونيل كودجايلد الذي كان يريد قراءة التَّقارير الصَّحفيَّة التي تناولت خطابًا ألقاه صباح ذلك اليوم في المانشن هاوس حول البعثات التَّبشيريَّة إلى جنوب إفريقيا وتوصيته بضرورة إسناد مهامَّ معيَّنةٍ إلى أساقفةٍ سودٍ في كلِّ مقاطعةٍ، ولسببٍ أو لآخر كان لديه تحاملٌ قويٌّ على جريدة أخبار المساء.

ومع ذلك، لم تأتِ أيُّ صحيفةٍ على أدنى ذكرٍ لكنيسة تشيتشستر، وشعر اللُّورد آرثر أنَّ محاولتــه قد باءت بالفشل. كانت ضربةً قاصمةً له، ولفترةٍ من الوقت استولى عليه قلقٌ شديد. كان هير وينكيلكوف، حين قصده في اليوم التَّالي، آسفًا جدًّا لما حصل، وعرض عليه تزويده بساعةٍ أخرى مجَّانًا أو بقنبلةٍ صغيرةٍ تعمل بالنيتروجلسرين بسعر التَّكلفة، ولكنَّ اللُّورد آرثر كان قد فقد كلَّ أمله بالمتفجِّرات، حتى إنَّ هير وينكيلكوف نفسه اعترف بأنَّ كلَّ شيءٍ مغشوشٌ في هذا الزَّمن، لدرجة أنَّه حتى الدِّيناميت لا يمكن الحصول عليه في حالةٍ نقيَّة. ومع ذلك، وعلى الرَّغم من إقراره بوجود خطأٍ فنِّيٍّ في الآلة، لم يقطع الألمانيُّ القصير أمله بأنَّ قنبلة السَّاعة قد تنفجر

في أيَّة لحظة، وأعطى مثلًا على ذلك مقياسَ الضَّغط الذي أرسله ذات مرَّةٍ إلى الحاكم العسكريِّ في أوديسا، والذي، على الرَّغم من توقيت انفجاره بعد عشرة أيَّام، لم ينفجر إلَّا بعد ثلاثة أشهر. صحيحٌ أنَّه عندما انفجر لم ينجح سوى في تحويل الخادمة إلى أشلاء، حيث كان الحاكم خارج البلدة منذ ستَّة أسابيع، إلَّا أنَّه على الأقلِّ أظهر أنَّ الدِّيناميت، بوصفه قوَّةً مدمِّرةً، يبقى عاملًا قويًّا وإن كان غير دقيقٍ إلى حدٍّ ما عندما يكون تحت سيطرة الآلات. شعر اللُّورد آرثر ببعض العزاء من هذه التَّوضيحات، ولكن حتى هنا كان محكومًا بخيبة الأمل، فبعد يومين، بينما كان يصعد إلى الطَّابق العلويِّ، استدعته الدُّوقة إلى غرفتها الخاصَّة وأعطته رسالةً وصلتها للتَّوِّ من مكتب كبير قساوسة تشيتشستر.

«إنَّ جين تكتب رسائل ساحرةً»، قالت الدُّوقة، «عليك حقًّا أن تقرأ رسالتها الأخيرة، فهي رائعةٌ روعةَ الرِّوايات التي ترسلها لنا مودي[1]»

أخذ اللُّورد آرثر الرِّسالة من يدها؛ وهذا ما كان مكتوبًا فيها:

مكتب كبير قساوسة تشيتشستر

17 أيَّار/ مايو

عمَّتي العزيزة،

أشكرك بالغ الشُّكر على ما أرسلتِه من ملابس لجمعيَّة دوركاس[2] وكذلك على الأقمشة القطنيَّة. أتَّفق معك تمامًا في أنَّ رغبتهم في ارتداء

---

(1) مكتبةٌ لتوزيع الكتب على الأعضاء المشتركين فيها، ذاع صيتها في إنجلترا في القرن التَّاسع عشر قبل انضمامها إلى دارٍ أكبر منها، هي دار سميث للتَّوزيع. (المترجم).
(2) جمعيَّةٌ نسائيَّةٌ مقرُّها الكنائس تعنى بتوفير الملابس للمحتاجين. (المترجم).

ملابس جميلةٍ هراءٌ لا معنى له، ولكنَّ الجميع اليوم راديكاليُّون للغاية وغير متديِّنين ومن الصَّعب إقناعهم بعدم التَّشبُّه بما يرتديه أبناء الطَّبقات العليا. حقًّا لا أعرف إلى أين ستؤدِّي بنا الأمور. وكما يقول بابا كثيرًا في خطبه، إنَّنا نعيش عصر انعدام الإيمان.

لقد استمتعنا كثيرًا بساعةٍ أرسلها مجهولٌ إلى أبي يوم الخميس الفائت. وصلَتْ في صندوقٍ خشبيٍّ من لندن، بعربةٍ مدفوعة الأجر، واعتقد والدي أنَّها لا بدَّ مرسَلةٌ من قِبَل شخصٍ قرأ خطبته الرَّائعة «هل التَّحلُّل الأخلاقيُّ حرِّيَّة؟»، لأنَّه في أعلى السَّاعة كان هناك تمثالٌ لامرأةٍ تضع على رأسها، كما قال بابا، قبَّعة الحرِّيَّة. لا أجد ذلك التِّمثال لائقًا البتَّة، ولكنَّ بابا قال إنَّه تمثالٌ تاريخيٌّ، ولذلك أعتقد أنَّ الأمر على ما يُرام. أخرجها باركر من الصُّندوق ووضعها بابا على رفِّ الموقد في المكتبة، وكنَّا جميعًا جالسين هناك صبيحة يوم الجمعة عندما دقَّت السَّاعة معلنةً تمام الثَّانية عشرة، فسمعنا صوت أزيزٍ وخرج خيطٌ رفيعٌ من الدُّخان من قاعدة التِّمثال وسقطت إلهة الحرِّيَّة وكسرت أنفها على سياج المدفأة، ففزعت ماريًّا، ولكنَّ الأمر بدا سخيفًا للغاية، لدرجة أنَّ جيمس وأنا انفجرنا في نوباتٍ من الضَّحك، وحتى أبي بدا مستمتعًا. عندما فحصناها وجدنا أنَّها ساعة تنبيهٍ عاديَّةٌ إذا ضبطتِها على ساعةٍ معيَّنةٍ ووضعتِ فيها بعض البارود وفتيلةً تحت مطرقةٍ صغيرةٍ فإنَّها تنفجر متى أردتِ. قال بابا إنَّها يجب ألَّا تبقى في المكتبة، لأنَّها مزعجةٌ بفرقعاتها، فحملتها ريجي إلى غرفة دراسة الأطفال، وبقيَت تُحدِث فرقعاتٍ صغيرةً طوال اليوم. هل تعتقدين أنَّ اللُّورد آرثر يحبُّ أن يحصل على واحدةٍ مثلها كهديَّةٍ في يوم زفافه؟ أعتقد أنَّ هذه الأشياء باتت رائجةً هذه الأيَّام في لندن. يقول بابا إنَّ عليهم القيام بالكثير

من الأعمال الصَّالحة ما داموا يُظهرون أنَّ إلهة الحرِّيَّة لا يمكن أن تدوم، بل يجب أن تسقط. يقول بابا إنَّ إلهة الحرِّيَّة ابتُدعَتْ في وقت الثَّورة الفرنسيَّة. يا له من شعارٍ مروِّعٍ تعافه النَّفس!

عليَّ الآن أن أذهب إلى دوركاس لأقرأ عليهم توجيهاتك. كم هو مصيبٌ رأيك، يا عمَّتي، في أنَّه من غير اللَّائق لأشخاصٍ من طبقتهم الاجتماعيَّة أن يرتدوا ما هو غير لائق. أريد أن أقول إنَّه من العبث أن يكون مركز اهتمامهم في الحياة هو اللِّباس والمظاهر عندما يكون هناك الكثير من الأشياء الجوهريَّة في هذا العالم، أو في العالم الآخر. أنا سعيدةٌ للغاية أنَّ البوبلين المعرَّق بالأزهار قد بدا جميلًا عليكِ وأنَّ شريط حذائك لم ينقطع. سأرتدي ثوب السَّاتان الأصفر الذي قدَّمتِه لي بكرمٍ في قدَّاس الأربعاء الذي سيقيمه الأسقف، وأعتقد أنَّه سيبدو مناسبًا تمامًا. أتساءل إن كان لديك أقواسٌ معدنيَّةٌ من تلك التي ترتديها النِّساء تحت التَّنُّورة هذه الأيَّام. ألديكِ منها؟ لأنَّ جينينغز تقول إنَّ كلَّ النِّساء يضعن هذه الأقواس تحت أثوابهنَّ، وإنَّ التَّنُّورة الدَّاخليَّة يجب أن تكون مزركشة. سمعتُ قبل قليلٍ انفجارًا آخر، وكانت ريجي قريبةً منه، فأمر بابا برمي السَّاعة في الإسطبل. أعتقد أنَّ بابا لم يعد يحبُّها كما أحبَّها في البداية، مع أنَّه يشعر بإطراءٍ كبيرٍ من إرسال مثل هذه الدُّمية الجميلة والمبتكَرة إليه، فذلك دليلٌ على أنَّ النَّاس يقرأون خطبه ويستفيدون منها.

يُبلغكم بابا تحيَّاته وحبَّه ممزوجًا بحبِّ جيمس وريجي وماريَّا جميعًا، آملين أن تكون حال العمِّ سيسيل أفضل مع النُّقرس، وكوني على ثقةٍ يا عمَّتي العزيزة أنَّني ابنة أخيك المُحبَّة دائمًا.

جين بيرسي

رجاءً: ردِّي عليَّ بشأن الأقواس المعدنيَّة، فجينينغز تصرُّ على أنَّها صرعةُ العصر.

بدا اللُّورد آرثر جادًّا للغاية وغير سعيدٍ بهذه الرِّسالة لدرجة أنَّ الدُّوقة غرقت في نوباتٍ من الضَّحك.

«أوه عزيزي آرثر»، صاحت، «لن أريك رسالة امرأةٍ شابَّةٍ مرَّةً أخرى! ولكن ماذا أقول عن السَّاعة؟ أعتقد أنَّها ابتكارٌ من الطِّراز الأوَّل، وأودُّ أن أحظى بواحدةٍ لنفسي».

«لست مهتمًّا بالسَّاعات كثيرًا»، قال اللُّورد آرثر بابتسامةٍ حزينةٍ، ثمَّ قبَّل والدته وغادر الغرفة.

صعد إلى الطَّابق العلويِّ وارتمى على الأريكة وقد اغرورقت عيناه بالدُّموع. لقد بذل قصارى جهده لارتكاب جريمة القتل هذه، ولكنَّه فشل في كلتا المحاولتين، ومن دون أيِّ ذنبٍ من جانبه. لقد حاول القيام بواجبه، ولكن يبدو أنَّ ربَّة القدر نفسها صارت خوَّانةً للعهود. كان يرزح تحت إحساسٍ بعقم النَّوايا الحسنة وبلا جدوى محاولاته في أن يكون طيِّبًا. ربَّما كان من الأفضل إلغاء فكرة الزَّواج نهائيًّا. صحيحٌ أنَّ سيبيل ستعاني، ولكنَّ المعاناة لن تدمِّر طبيعةً نبيلةً مثل طبيعتها. أمَّا عنه هو، فما الذي يهمُّ؟ هناك دائمًا بعض الحروب التي يمكن أن يموت الإنسان فيها، وبعض القضايا التي يمكن أن يضحِّي الإنسان بحياته لأجلها، وكما لم تكن الحياة ممتعةً له، فكذلك الموت لم يكن مرعبًا. فلتحلَّ ربَّةُ القدر مشاكلها بنفسها، لأنَّه لن يتحرَّك قيدَ أنملةٍ لمساعدتها.

في السَّابعة والنِّصف ارتدى ملابسه وخرج إلى النَّادي. كان سوربيتون

هناك مع ثلَّةٍ من الشَّباب، فوجد نفسه مضطرًّا لتناول العشاء معهم ومشاركتهم تلك الأحاديث السَّخيفة والدُّعابات التَّافهة التي لم تكن تهمُّه، وحالما أُحضِرَت القهوة تركهم مختلقًا بعض الالتزامات من أجل الانصراف. وفي أثناء خروجه من النَّادي سلَّمه بوَّاب الصَّالة رسالة. كانت من هير وينكلكوف يطلب فيها منه زيارته في مساء اليوم التَّالي ليقف بنفسه على ابتكاره الجديد، المظلَّة المتفجِّرة التي تنفجر بمجرَّد فتحها. كانت أحدث اختراعٍ، وقد وصلت للتَّوِّ من جنيف. كان قد اتَّخذ قرارًا لا رجعة فيه بعدم القيام بأيِّ محاولةٍ جديدةٍ، فمزَّق الرِّسالة مِزَقًا صغيرةً، ثمَّ خرج يتمشَّى على ضفاف نهر التَّايمز، وجلس بجانب النَّهر لساعات. كان القمر يحدِّق من خلال لبدةِ سحبٍ سمراء مصفرَّة، كما لو كان مقلةَ أسدٍ، وكانت نجومٌ لا حصر لها تتلألأ في السَّماء المجوَّفة مثل غبارٍ ذهبيٍّ منثورٍ على قبَّةٍ أرجوانيَّة. وبين الفينة والأخرى كان يمرُّ متمايلًا في التَّيَّار العَكِر زورقٌ بخاريٌّ ويمضي بعيدًا مع المياه الجارية، وكانت إشارات السِّكك الحديديَّة تتغيَّر من الأخضر إلى القرمزيِّ بينما كانت القطارات تعبر الجسرَ مطلقةً صفَّاراتها. وبعد مرور بعض الوقت، دقَّت السَّاعة من البرج العالي في وستمنستر معلنةً الثَّانية عشرة، وبدا وكأنَّ اللَّيل برمَّته يرتجف مع كلِّ دقَّةٍ من دقَّات الجرس الرَّنَّان. ثمَّ انطفأت أضواء السِّكك الحديديَّة، باستثناء مصباحٍ وحيدٍ تُرِكَ ليتلألأ مثل ياقوتةٍ كبيرةٍ على ساريةٍ عملاقةٍ، وخفتَ هديرُ المدينة.

في الثَّانية بعد منتصف اللَّيل، نهض، وراح يتمشَّى نحو بلاكفريارس. كم بدا كلُّ شيءٍ غير واقعيٍّ! كم بدا كلُّ شيءٍ وكأنَّه حلمٌ غريبٌ! بدت المنازل على ضفَّة النَّهر الأخرى وكأنَّها مشيَّدةٌ من الظَّلام. كان يمكن

للمرء أن يقول إنَّ الفضَّة والعتمة شكَّلا العالم من جديد. وفي البعيد، ارتسمت قبَّةُ القدِّيس بولس الضَّخمة مثل فقاعةٍ في الهواء القاتم.

حين اقترب من مسلَّة كليوباترا، رأى رجلًا يتَّكئ على الحاجز، وحين اقترب من الرَّجل، نظر هذا الأخير لأعلى، فسقط ضوء مصباح الغاز على وجهه.

إنَّه السَّيِّد بودجرز، قارئ الكفِّ! لا يمكن لأحدٍ أن يخطئ الوجهَ السَّمينَ المترهِّل، والنَّظَّاراتِ ذات الإطار الذَّهبيِّ، والابتسامةَ الصَّفراءَ الواهنةَ، والفمَ الشَّهوانيَّ.

توقَّف اللُّورد آرثر، وبسرعةٍ التمعت في ذهنه فكرةٌ رائعةٌ، فراح يتسلَّل بهدوءٍ من خلفه. وبلحظةٍ واحدةٍ أمسكه من ساقيه وألقاه في نهر التَّايمز. سُمِعَتْ شتيمةٌ جشَّاء تَبِعَهَا رذاذٌ كثيفٌ، ثمَّ ساد صمتٌ مُطبق. نظر اللُّورد آرثر بقلقٍ من فوق، ولكنَّه لم يستطع رؤية شيءٍ من قارئ الكفِّ سوى قبَّعته الطَّويلة تدور في دوَّامة الماء المضاءة بضوء القمر. ثمَّ ما هي إلَّا لحظاتٌ حتى غرقت القبَّعة أيضًا وتلاشى معها كلُّ أثرٍ للسَّيِّد بودجرز. ولكن فجأةً، خُيِّل إليه أنَّه يرى هيئةً ضخمةً مشوَّهةً تخرج صاعدةً الدَّرَج الذي بجانب الجسر، فانتابه شعورٌ رهيبٌ بالفشل، ولكن اتَّضح له أنَّها مجرَّد انعكاس، لأنَّه ما إن أشرق القمر من وراء سحابةٍ حتى اختفت. وأخيرًا بدا له أنَّه حقَّق ما رسمه له القدر، فتنفَّس الصُّعداء من أعماق صدره، وصعد اسمُ سيبيل إلى شفتيه.

«هل أسقطتَ شيئًا هنا يا سيِّدي؟»، خاطبه صوتٌ من خلفه.

استدارَ فرأى شرطيًّا يحمل فانوسًا كبيرًا من فوانيس عين الثَّور.

«لا شيء مهمٌّ، أيُّها الرَّقيب»، أجاب مبتسمًا، ثمَّ لوَّح بيده لعربةٍ يجرُّها حصانٌ واحدٌ، وطلب من الرَّجل أن يوصله إلى ساحة بلجريف.

بقي في الأيَّام القليلة التَّالية يتأرجح بين الخوف والأمل. كانت هناك لحظاتٌ توقَّع فيها أن يدخل السَّيِّد بودجرز إلى الغرفة، ولكنَّه في لحظاتٍ أخرى شعر أنَّ القدر لا يمكن أن يكون ظالمًا معه. وقد ذهب مرَّتين إلى عنوان قارئ الكفِّ، في شارع ويست مون، ولكنَّه لم يستطع أن يقرع الجرس. كان في توقٍ إلى اليقين، وفي الوقت نفسه في خوفٍ منه.

وأخيرًا جاءه الخبر اليقين. كان جالسًا في غرفة التَّدخين بالنَّادي يحتسي الشَّاي ويستمع بضجرٍ إلى رواية سوربيتون عن آخر أغنيةٍ هزليَّةٍ قُدِّمَت على مسرح جايتي[1] عندما جاء النَّادل بصحف المساء، فتناول صحيفة سانت جيمس وراح يقلِّب صفحاتها بفتورٍ، وإذا بعنوانٍ غريبٍ يخطفُ بصره:

انتحارُ أحد قرَّاء الكفِّ

اصفرَّ وجهه من الانفعال وهو يقرأ الخبر؛ وجاء الخبر على النَّحو التَّالي:

عُثر صباح أمس على جثَّة قارئ الكفِّ البارز السَّيِّد بودجرز على ضفَّة النَّهر في مدينة غرينتش، قبالة فندق «شيب» تمامًا، وكان الرَّجل المسكين قد بقي مفقودًا لعدَّة أيَّام، وقد شعر أصحابه في الاختصاص بقلقٍ شديدٍ

(1) The Gaiety، مسرحٌ يقع في منطقة الويست إند من لندن، وقد اعتاد هذا المسرح تقديم عروضٍ هزليَّةٍ مصحوبةٍ بالغناء والرَّقص، وقد ذكر المؤلِّفان راي ماندر Ray Mander وجو ميتشينسون Joe Mitchenson تفاصيل كثيرةً عن هذا المسرح وغيره في كتابهما (ما فقدناه من مسارح لندن The Lost Theatres of London) المنشور في سنة 1976. (المترجم).

على سلامته، ويُعتقَد أنَّه أقدم على الانتحار بسبب اضطرابٍ عقليٍّ مؤقَّتٍ ناتجٍ عن الإرهاق، وقد أيَّد ذلك الرَّأيَ تقريرٌ صدر عن هيئة محلَّفي محكمة الوفيات ظُهْرَ اليوم، وكان السَّيِّد بودجرز قد أكمل للتَّوِّ أطروحةً مفصَّلةً حول موضوع الكفِّ البشريَّة، والتي من المقرَّر نشرها قريبًا، وستجذب بلا شكٍّ الكثير من الاهتمام، علمًا أنَّ الفقيد يبلغ من العمر خمسةً وستِّين عامًا ويبدو أنَّه لا أقرباء له.

هرع اللُّورد آرثر خارجًا من النَّادي والصَّحيفة في يده، ممَّا أثار دهشة البوَّاب الذي حاول دون جدوى إيقافه، وتوجَّه على الفور إلى شارع بارك لين. رأته سيبيل من النَّافذة، وشيءٌ ما أخبرها أنَّه جاء يحمل إليها بشارة، فهرعت إلى الأسفل للقائه، وحين رأت وجهه، عرفت أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام.

«عزيزتي سيبيل»، صاح اللُّورد آرثر، «دعينا نتزوَّج غدًا!»

«يا لك من فتىً أحمق! حتى كعكة الزِّفاف لم نطلبها بعد!»، قالت وهي تضحك من خلال دموعها.

الفصل السَّادس

عندما أقيم حفل الزِّفاف، بعد حوالي ثلاثة أسابيع، اكتظَّت كنيسة القدِّيس بطرس بحشدٍ كبيرٍ من أشراف النَّاس، وقد قرأ القدَّاس بأسلوبٍ مهيبٍ ومؤثِّرٍ كبيرُ قساوسة تشيتشستر، واتَّفق الجميع على أنَّهم لم يروا أبدًا زوجين أكثر وسامةً من هذين العروسين. بل كانا أكثر من وسيمَين؛ كانا سعيدَين. ولم يندم اللُّورد آرثر ولو للحظةٍ واحدةٍ على كلِّ ما عاناه لأجل سيبيل، بينما أعطته هي، من ناحيتها، أفضل ما يمكن للمرأة أن تعطيه لرجل ـ العبادةَ والحنانَ والحبَّ. فبالنِّسبة إليهما، لم يستطع الواقع قتلَ الرُّومانسيَّة. لقد شعرا دائمًا بأنَّهما شابَّان.

بعد ذلك ببضع سنواتٍ، وكانا قد رُزقا بطفلين جميلين، جاءت السَّيِّدة ويندرمير لزيارتهما في بيتهما في ألتون بريوري، وهو بيتٌ قديمٌ وبديعٌ كان هديَّةَ الدُّوق لابنه بمناسبة زواج هذا الأخير؛ وفي ظهيرة ذلك اليوم، بينما كانت جالسةً مع زوجة اللُّورد آرثر تحت شجرة زيزفونٍ في الحديقة، تشاهد الصَّبيَّ والبنتَ الصَّغيرين وهما يركضان ذهابًا وإيابًا على طول ممشى الورد، مثل شعاعَي شمسٍ متواترَين، أمسكت بيد مضيفتها فجأةً، وقالت: «هل أنت سعيدةٌ حقًّا، يا سيبيل؟»

«بالطَّبع أنا سعيدةٌ يا سيِّدة ويندرمير. ماذا عنكِ يا عزيزتي؟ ألستِ سعيدة؟»

«ليس لديَّ وقتٌ لأكون سعيدةً، يا سيبيل. فأنا دائمًا أحبُّ آخر شخصٍ يتمُّ تقديمه إليَّ، ولكن، كقاعدةٍ عامَّةٍ، بمجرَّد أن أعرف النَّاس أسأم منهم».

«ألستِ سعيدةً بأسُودكِ، يا سيِّدة ويندرمير؟»

«أوه يا عزيزتي! الأسُود يصلحون لموسمٍ واحدٍ فحسب! ولكن ما إن تُقَصَّ لُبَدُهم حتى يصبحون أكثر النَّاس بلادةً، بل إنَّهم يسيئون التَّصرُّف إذا كنتِ لطيفةً معهم. هل تتذكَّرين ذلك السَّيِّد بودجرز البغيض؟ لقد كان محتالًا رهيبًا. صحيحٌ أنَّني لم أكن أمانع في ذلك، وحتى عندما أراد أن يقترض المال، عفوته من الدَّين، ولكنَّني لم أستطع تحمُّل أن يمارس الحبَّ معي. لقد جعلني أكره قراءة الكفِّ. أنا مهتمَّةٌ بالتَّخاطُر الآن، فهو أكثر إمتاعًا».

«أرجو منك ألَّا تتحدَّثي بسوءٍ عن قراءة الكفِّ في بيتي، يا سيِّدة ويندرمير، لأنَّه الموضوع الوحيد الذي لا يحبُّ آرثر المساس به. أؤكِّد لك أنَّه جادٌّ للغاية في ذلك».

«أتريدين أن تقولي إنَّه يؤمن بقراءة الكفِّ، يا سيبيل؟»

«اسأليه بنفسك، يا سيِّدة ويندرمير، ها هو ذا»؛ وخرج اللُّورد آرثر إلى الحديقة وبيده باقةٌ كبيرةٌ من الورود الصَّفراء، وطفلاه يتراقصان حوله.

«حقًّا يا لورد آرثر؟»

«ماذا يا سيِّدة ويندرمير؟»

«هل أنت حقًّا من المؤمنين بقراءة الكفِّ؟»

«بالطَّبع أنا كذلك»، أجاب اللُّورد الشَّابُّ مبتسمًا.

«ولكن لماذا؟»

«لأنّني مدينٌ لها بكلِّ سعادة حياتي»، غمغمَ ملقيًا بنفسه على كرسيٍّ الخيزران.

«مدينٌ لها بماذا، يا عزيزي اللُّورد آرثر؟»

«بسيبيل»، أجاب وهو يناول زوجته الورود وينظر في عينيها البنفسجيّتين.

«يا له من كلامٍ فارغ!»، صاحت السَّيِّدة ويندرمير، «لم أسمع طوال حياتي جوابًا أسخفَ من هذا».

ليس للأسفنكس[1] أسرار

تنميشٌ

في ظهيرة أحد الأيَّام كنت جالسًا خارج مقهى دي لا باي، أحتسي كأسًا من نبيذ فيرموت وأتأمَّل الحياة الباريسيَّة بشقَّيها الجميل والقبيح، متعجِّبًا من هذا المشهد الغرائبيِّ الذي يجمع الغرورَ والفقرَ وهو يمرُّ أمامي، عندما سمعت أحدهم يناديني باسمي. استدرتُ ورأيتُ اللُّورد مورشيسون. لم نلتق منذ تخرَّجنا من الكلِّيَّة، أي منذ ما يقرب من عشر سنوات، ولذلك كنت سعيدًا بلقائه مرَّةً أخرى، وتصافحنا بحرارة، فقد كنَّا صديقين حميمين في أكسفورد. لقد أحببته كثيرًا. كان وسيمًا للغاية، ومفعمًا بالحيويَّة، ومحترمًا جدًّا. وقد اعتدنا أن نقول عنه إنَّه سيكون أفضل زملائه إن توقَّف عن قول الحقيقة، مع أنَّني أعتقد أنَّنا أحببناه أكثر ما أحببناه لصراحته. لقد طرأ تغيُّرٌ كبيرٌ عليه. فقد بدا قلقًا وحائرًا وكأنَّه في شكٍّ من شيءٍ ما. وأخبرني حدسي أنَّه لا يمكن أن يكون شكًّا حديث العهد، لأنَّ مورشيسون كان من أقوى المحافظين، وكان يؤمن بأسفار موسى الخمسة إيمانه بمجلس اللُّوردات؛ فخلصتُ إلى أنَّها امرأةٌ وسألته إن كان قد تزوَّج.

«لستُ ممَّن يفهمون النِّساء جيِّدًا»، أجابني.

---

(1) انظرْ المقدِّمة حول عنوان هذه القصَّة. (المترجم).

«يا عزيزي جيرالد، المرأة يجب أن تُحَبَّ، لا أن تُفهَم»، قلتُ.

«لا أستطيع أن أحبَّ مَن لا أستطيع أن أثق به»، أجاب.

«أعتقد أنَّ لديك سرًّا في حياتك يا جيرالد»، هتفتُ، «بُحْ لي به».

«دعنا نذهب في جولةٍ بالعربة»، ردَّ عليَّ، «فالمكان مزدحمٌ للغاية هنا. لا، ليس في عربةٍ صفراء؛ اخترْ أيَّ لونٍ آخر ـ تلك التي هناك، تلك الخضراء الدَّاكنة ستفي بالغرض»؛ وفي لحظاتٍ قليلةٍ كانت الأحصنة تخبُّ بنا على طول جادَّةٍ تكتنفها الأشجار باتِّجاه كنيسة مادلين.

«إلى أين نحن ذاهبان؟»، سألته.

«أوه، إلى أيِّ مكانٍ تحبُّه»، أجاب، «دعنا نذهب إلى المطعم الموجود في حديقة بولونيا؛ سوف نتعشَّى هناك، وسوف تخبرني كلَّ شيءٍ عن نفسك».

«أريد ان أسمع منك أوَّلًا»، قلتُ، «بُحْ لي بسرِّك».

أخرج من جيبه حقيبةً مغربيَّةً صغيرةً ذات مشبكٍ فضِّيٍّ وناولني إيَّاها. فتحتها وإذا في داخلها صورةٌ فوتوغرافيَّةٌ لامرأةٍ طويلةٍ ونحيلةٍ ولافتةٍ للنَّظر بشكلٍ غريبٍ بعينيها الكبيرتين الغامضتين وشعرها الخفيف. كانت أشبه ببصَّارةٍ، وكانت متلفِّعةً بفروةٍ غالية الثَّمن.

«ما رأيك بهذا الوجه؟»، قال، «هل فيه سيماء الصِّدق؟»

تفحَّصت الوجه بتمعُّنٍ، فبدا لي وجه شخصٍ تكتنفه الأسرار، أمَّا عمَّا إذا كانت هذه الأسرار خيرًا أم شرًّا فهذا ما لم أستطع تخمينه. كان جمالها مصوغًا من العديد من الألغاز ـ جمالُها الرُّوحيُّ وليس السَّطحيُّ

ـ والابتسامة الباهتة التي ظهرت على شفتيها كانت أرقّ بكثيرٍ من أن يُقال عنها عذبة.

«حسنًا، ماذا تقول؟»، صاح بنفاد صبرٍ.

«إنّها الموناليزا في فرو السَّمُّور»، قلتُ، «أخبرني كلَّ شيءٍ عنها».

«ليس الآن»، قال، «بعد العشاء»؛ وراح يتحدَّث عن أشياء أخرى.

عندما أحضر لنا النَّادل قهوتنا وسجائرنا ذكَّرت جيرالد بوعده، فنهض عن كرسيِّه وذرع الصَّالة جيئةً وذهابًا مرَّتين أو ثلاث مرَّاتٍ، ثمَّ غاص في كرسيِّه ذي الذِّراعين، وأخبرني القصَّة التَّالية:

«ذات مساءٍ»، قال، «كنت أتمشَّى في شارع بوند حوالي الخامسة عصرًا. كان هناك ازدحامٌ هائلٌ للعربات، وقد توقَّفت حركة المرور تقريبًا. بالقرب من الرَّصيف وقفت عربةٌ صفراء صغيرةٌ يجرُّها حصانٌ واحد، ولسببٍ من الأسباب لفتت انتباهي. حين اقتربت منها رأيت من النَّافذة الوجه الذي أريتك إيَّاه ظُهْرَ اليوم، ففتنني على الفور، وبقيت طوال تلك اللَّيلة، وطوال اليوم التَّالي، أفكِّر به. رحت أتمشَّى جيئةً وذهابًا على طول شارع رُوْ البائس وعيوني على كلِّ عربةٍ تمرُّ، منتظرًا تلك العربة الصَّفراء التي يجرُّها حصانٌ واحد، ولكنَّني لم أعثر على صاحبة الجمال السَّاحر، وفي النِّهاية بدأت أعتقد أنَّها كانت مجرَّد حلم. وبعد حوالي أسبوعٍ، كنت مدعوًّا على العشاء عند مدام دي راستيل، وكان من المفترض أن يكون العشاء في السَّاعة الثَّامنة، ولكنَّنا في السَّاعة الثَّامنة والنِّصف كنَّا ما نزال ننتظر في غرفة المعيشة. وأخيرًا فتح النَّادل الباب وأعلن عن وصول سيِّدةٍ تسمَّى اللِّيدي ألروي. كانت هي المرأة التي كنت أبحث عنها. دخلت

تمشي الهوينى، وبدت مثل نور القمر في الدَّانتيل الرَّماديِّ الذي كانت ترتديه، ولسعادتي البالغة، طُلب منِّي مرافقتها لتناول العشاء. وبعد أن جلسنا، قلتُ لها ببراءةٍ: «أعتقد أنَّني رأيتكِ في شارع بوند قبل بضعة أيَّام، يا سيِّدة ألروي»، فشحب وجهها وقالت لي بصوتٍ خافتٍ: «أرجوك، لا تتكلَّم بصوتٍ عالٍ؛ قد يسمعك أحدهم». فشعرتُ بالحزن لهذه البداية غير الموفَّقة، وتحوَّلتُ بتهوُّرٍ إلى موضوع المسرحيَّات الفرنسيَّة. ولكنَّها لم تتكلَّم إلَّا قليلًا، ودائمًا بذلك الصَّوت الموسيقيِّ الخافت نفسه، وكأنَّها كانت تخشى أن يسمعها أحد. لقد وقعت في حبِّها بعاطفةٍ متوقِّدةٍ وبغباء، وقد أثارت أجواء الغموض التي أحاطت بها أحرَّ مَوَاطِن الفضول عندي. وعندما همَّت بالانصراف، وهو ما فعلته بعد العشاء بوقتٍ قصير، سألتها إن كان بإمكاني الاتِّصال بها ورؤيتها. تردَّدت للحظةٍ، ونظرت حولها لترى إن كان هناك أحدٌ بالقرب منَّا، ثمَّ قالت: «نعم، غدًا في السَّاعة الخامسة إلَّا ربع». توسَّلتُ إلى مدام دي راستيل أن تخبرني المزيد عن هذه المرأة؛ ولكن كلُّ ما استطعت أن أعرفه عنها هو أنَّها أرملةٌ لديها منزلٌ جميلٌ في بارك لين، لأنَّ شخصًا أكاديميًّا لا أعرفه بدأ أطروحته عن الأرامل، قائلًا إنَّ البقاء في مؤسَّسة الزَّواج للأقوى، فغادرتُ متوجِّهًا إلى المنزل.

«في اليوم التَّالي، وصلتُ إلى بارك لين في الموعد المحدَّد، ولكنَّ كبير الخدم أخبرني أنَّ السَّيِّدة ألروي قد خرجت للتَّوِّ، فنزلتُ إلى النَّادي حزينًا للغاية وحائرًا للغاية، وبعد تفكيرٍ طويلٍ كتبت إليها رسالةً أسألها فيها إن كان من الممكن أن أجرِّب فرصتي في أمسيةٍ أخرى. لم أحصل على جوابٍ لعدَّة أيَّام، ولكنَّني تلقَّيت أخيرًا ملاحظةً صغيرةً تقول إنَّها ستكون في المنزل يوم الأحد، في السَّاعة الرَّابعة، ومعها التَّذييل التَّالي: «من فضلك

لا تكتب إليَّ على هذا العنوان مرَّةً أخرى؛ سأشرح عندما أراك». استقبلتني يوم الأحد، وكانت ساحرةً تمامًا؛ ولكن عندما كنت أغادر توسَّلت إليَّ، إن اقتضى الأمر أن أكتب إليها مرَّةً أخرى، أن أوجِّه رسالتي إلى السَّيِّدة نوكس، أمينة مكتبة ويتاكر، في شارع جرين، قائلةً: «هناك أسبابٌ لعدم تمكُّني من تلقِّي الرَّسائل في منزلي».

«طوال الأشهر اللَّاحقة التقيتها مرارًا وتكرارًا، ولم يفارقها جوُّ الغموض أبدًا. كنت أعتقد أحيانًا أنَّها تحت سلطة رجلٍ ما، ولكنَّها بدت منيعةً لدرجة أنَّني لم أستطع أن أصدِّق ذلك. كان من الصَّعب جدًّا عليَّ أن أصل إلى أيِّ نتيجةٍ معها، لأنَّها كانت مثل ذلك الكريستال الغريب الذي يراه المرء في المتاحف، والذي يكون في لحظةٍ ما صافيًا، وفي أخرى غائمًا. أخيرًا، قرَّرت أن أطلب منها الزَّواج: كنتُ قد سئمت وتعبت من السِّرِّيَّة المستمرَّة التي كانت تفرضها على جميع زياراتي وعلى الرَّسائل القليلة التي أرسلتها إليها. كتبت إليها على عنوان المكتبة لأسألها إن كان من الممكن أن نلتقي يوم الاثنين التَّالي في السَّادسة. ردَّت بالإيجاب، وحلَّقتُ إلى سماء النَّعيم السَّابعة من الفرح. لقد كنت مفتونًا بها برغم كلِّ الغموض، بل بسبب كلِّ الغموض الذي كان يكتنفها، كما أرى الآن. لا؛ ما أحببته فيها هو المرأة نفسها، أمَّا غموضها فقد أزعجني وأرهقني. لماذا وضعني القدرُ في طريقها؟»

«هل اكتشفت ذلك إذن؟»، صحتُ.

«نعم، أخشى ذلك»، أجابني، «وتستطيع أن تحكم بنفسك».

«عندما حلَّ يوم الاثنين، خرجتُ لتناول الغداء مع عمِّي، وحوالي

السَّاعة الرَّابعة وجدت نفسي في شارع ماريلبون. يعيش عمِّي، كما تعلم، في ريجنت بارك. أردت أن أتَّجه إلى ساحة البيكاديللي، فاتَّخذت طريقًا مختصرًا عبر الكثير من الشَّوارع الصَّغيرة المتهالكة، وفجأةً رأيت أمامي السَّيِّدة ألروي، متلثِّمةً بعنايةٍ وتمشي بسرعةٍ كبيرة. عند وصولها إلى آخر منزلٍ في الشَّارع، صعدت الدَّرج وأخرجت مفتاحًا ودخلت. قلت لنفسي: «هنا يكمن اللُّغز»، فأسرعت وتفحَّصت المنزل. بدا أشبه بمكانٍ لتأجير الغرف المفروشة. على عتبة الباب وجدتُ منديلًا سقط منها، فأخذته ووضعته في جيبي. ثمَّ بدأت أفكِّر في الخطوة التَّالية. فتوصَّلت إلى خلاصةٍ مفادها أنَّه ليس لديَّ الحقُّ في التَّجسُّس عليها. فأخذت عربةً إلى النَّادي. في السَّادسة ذهبت لرؤيتها. كانت مستلقيةً على الأريكة في فستانٍ خفيفٍ فضِّيِّ اللَّون معقودٍ ببعض أحجار القمر الغريبة التي كانت تضعها على الدَّوام. بدت جميلةً جدًّا، وقالت: «أنا سعيدةٌ للغاية برؤيتك؛ لم أخرج طوال اليوم». حدَّقتُ فيها بذهولٍ، وأخرجت المنديل من جيبي ومددتُ يدي أناولها إيَّاه. «لقد وقع هذا المنديل منكِ في شارع كومنور عصر هذا اليوم، يا سيِّدة ألروي»، قلتُ بهدوءٍ شديد. فنظرت إليَّ بخوفٍ، ولكنَّها لم تحاول مدَّ يدها لتأخذ المنديل. «ماذا كنت تفعلين هناك؟»، سألتُها. «وبأيِّ حقٍّ تسألني؟»، أجابت. «بحقِّ رجلٍ يحبُّك»، قلتُ لها، «لقد جئت إلى هنا لأطلب منكِ أن تكوني زوجتي». فأخفت وجهها بين يديها وانفجرت باكيةً فيضاناتٍ من الدُّموع. «يجب أن تخبريني»، واصلتُ. فوقفت ونظرت مباشرةً في عينيَّ وقالت: «ليس هناك ما أخبرك به، يا لورد مورشيسون». «لقد ذهبتِ لمقابلة شخصٍ ما»، صرختُ في وجهها، «هل هذا هو السِّرُّ الذي تخفينه عنِّي؟»، فشحب وجهها بشكلٍ مخيفٍ، وقالت:

«لم أذهب إلى هناك للقاء أحد». «ألا يمكنكِ قول الحقيقة؟»، صرختُ. «لقد قلتُ الحقيقة»، أجابت. فثارت ثائرتي وكدت أفقد عقلي ولا أعرف ما قلته، ولكنِّي بالتَّأكيد قلت لها أشياء فظيعة. وفي النِّهاية خرجتُ مسرعًا من المنزل. في اليوم التَّالي كتبت إليَّ رسالةً، فأعدتها إليها دون أن أفتحها، وسافرتُ إلى النّرويج مع آلان كولفيل. عدتُ بعد شهرٍ، وكان أوَّل شيءٍ رأيته في صحيفة مورنينغ بوست هو وفاة اللِّيدي ألروي. أصابتها نزلة بردٍ في دار الأوبرا، وتوفِّيت بعد خمسة أيَّام بسبب احتقانٍ رئويٍّ حادٍّ. فحبستُ نفسي ولم أرَ أحدًا. لقد أحببتها كثيرًا، أحببتها بجنونٍ. يا إلهي، يا إلهي، كم أحببتُ تلك المرأة!»

«هل ذهبتَ إلى ذلك الشَّارع؟ إلى ذلك البيت؟»، سألتُه.

«نعم»، أجاب.

«ذات يوم ذهبتُ إلى شارع كومنور. لم أستطع منع نفسي من ذلك، فقد كانت الشُّكوك تعذِّبني. طرقت الباب، وفتحت لي امرأةٌ محترمة. سألتُها إن كان لديها غرفةٌ للإيجار. فأجابت: «حسنًا، يا سيِّدي، كان من المفترض تأجير صالة الاستقبال، ولكنَّني لم أر السَّيِّدة منذ ثلاثة أشهر وبما أنَّ الإيجار لها، يمكنك الحصول عليها». «هل هذه هي السَّيِّدة؟»، قلتُ، وأريتُها الصُّورة. فصاحت قائلةً: «نعم، إنَّها هي بالتَّأكيد. ومتى ستعود، يا سيِّدي؟» ـ «لقد ماتت السَّيِّدة»، أجبتُ. «أوه يا سيِّدي، آمل ألَّا يكون ذلك صحيحًا»، قالت المرأة، «لقد كانت أفضل نزيلٍ عندي! كانت تدفع لي ثلاثة جنيهاتٍ في الأسبوع، مقابل أن تأتي إلى هنا وتجلس في صالة الاستقبال خاصَّتي بين الحين والآخر». «هل كانت تلتقي أحدًا هنا؟»، قلتُ؛ ولكنَّ المرأة أكَّدت لي أنَّ الأمر لم يكن كذلك، وأنَّها كانت تأتي

بمفردها دائمًا ولا تلتقي أحدًا. «ماذا كانت تفعل هنا، إذن، بحقِّ السَّماء؟»، صحتُ. «كانت بكلِّ بساطةٍ تجلس في الصَّالة، يا سيِّدي، تقرأ الكتب وأحيانًا تتناول الشَّاي»، أجابت المرأة. لم أعرف ماذا أقول، فأعطيتها جنيهًا ذهبيًّا وانصرفت. فماذا يعني كلُّ هذا في رأيك؟ هل تعتقد أنَّ المرأة كانت تقول الحقيقة؟»

«نعم، أعتقد ذلك».

«إذن لماذا كانت اللِّيدي ألروي تذهب إلى هناك؟»

«يا عزيزي جيرالد»، أجبت، «لقد كانت اللِّيدي ألروي مجرَّد امرأةٍ لديها هوس الغموض، وقد استأجرت تلك الغرفة من أجل متعة الذَّهاب إلى هناك ملثَّمةً، متخيِّلةً نفسها بطلةً من بطلات المسرح. كان لديها شغفٌ بالسِّرِّيَّة، ولكنَّها لم تكن سوى أسفنكسٍ بلا أسرار».

«أتظنُّ ذلك حقًّا؟»

«أنا على يقينٍ من ذلك»، أجبت.

أخرجَ العلبة المغربيَّة وفتحها وتأمَّل الصُّورة، وأخيرًا قال: «هل الأمر كذلك يا تُرى؟»

شبح كانترفيل

قصَّةٌ من وحي المثاليَّة المادِّيَّة[1]

الفصل الأوَّل

عندما اشترى السَّيِّد حيرام ب. أوتيس، الوزير الأمريكيُّ، قلعةَ كانترفيل تشيس، أخبره الجميع أنَّه كان يقوم بعملٍ في غاية الحماقة، لأنَّه لم يكن هناك أدنى شكٍّ في أنَّ المكان كان مسكونًا، بل إنَّ اللُّورد كانترفيل نفسه، وهو رجلٌ حريصٌ كلَّ الحرص على السُّمعة الحسنة، شعر أنَّ من واجبه أن يذكر هذه الحقيقة للسَّيِّد أوتيس عندما جلسا لمناقشة بنود العقد.

«نحن أنفسنا تخلَّينا عن العيش في هذا المكان»، قال اللُّورد كانترفيل، «لأنَّ عمَّة أبي الأرملة، دوقة بولتون، دخلت في نوبةٍ من الخوف الشَّديد لم تتعافَ منها أبدًا، عندما كانت ترتدي ملابس العشاء وإذا بيدي هيكلٍ عظميٍّ تربِّتان على كتفها، وأشعر أنَّني ملزمٌ بإخبارك، يا سيِّد أوتيس، بأنَّ الشَّبح قد شوهد من قبل العديد من أفراد عائلتي الذين ما يزالون على قيد

(1) كُتبت هذه القصَّة من وحي مبدأ المثاليَّة المادِّيَّة الذي أُعجب به أوسكار وايلد، وهو مبدأٌ يعدُّ كلَّ ما هو حيويٌّ جزءًا مكمِّلًا للعالم المادِّيِّ الذي نعيشه، وهو مبدأٌ نادى به الشَّاعر الإنجليزيُّ كونستانس نادين، وإن كان مذهبًا قديمًا قدم البشريَّة نجده فيما يسمَّى بالفكر البدائيِّ وفي الفلسفات البوذيَّة. (المترجم).

الحياة، وكذلك من قبل رئيس الأبرشيَّة، القسِّ أوغسطس دامبير، وهو زميلٌ من أيَّام الكلِّيَّة الملكيَّة بكامبريدج، وبعد الحادث المؤسف الذي وقع مع الدُّوقة، ترك جميع الخدم الشَّباب العمل عندنا، وقليلًا ما كان يغمض لزوجتي السَّيِّدة كانترفيل جفنٌ في اللَّيل بسبب الأصوات الغامضة التي كانت تجيء من الممرِّ ومن المكتبة».

«يا سيِّدي اللُّورد»، ردَّ الوزير الأمريكيُّ، «سآخذ الأثاث والشَّبح حسب السِّعر المقدَّر، فأنا من بلادٍ متحضِّرةٍ تجد فيها كلَّ ما يمكن أن يشتريه المال؛ وأعتقد أنَّه لو كان في أوروبَّا شبحٌ حقًّا لاستطعنا بهمَّة جميع شبَّاننا الرَّشيقين الذين يصبغون العالم القديم باللَّون الأحمر ويعودون إلينا بأفضل ممثِّلاتكم ومغنِّياتكم أن نحصل عليه في وقتٍ قصيرٍ جدًّا ونعرضه في متحفٍ من متاحفنا العامَّة، أو في أحد شوارعنا».

«أخشى أنَّ الشَّبح موجودٌ حقًّا»، قال اللُّورد كانترفيل مبتسمًا، «مع أنَّ مديري فِرَقِكُم المغامرين قد ينكرون هذه الحقيقة. إنَّه موجودٌ ومعروفٌ منذ ثلاثة قرون، منذ عام 1584 على وجه التَّحديد، ودائمًا ما يظهر قبل وفاة أيِّ فردٍ من عائلتنا».

«وهذا ما يفعله طبيب الأسرة أيضًا، يا لورد كانترفيل. ولكن لا وجود للأشباح، يا سيِّدي. لا وجود لشيءٍ من هذا القبيل، وأعتقد أنَّ قوانين الطَّبيعة لن تتوقَّف كُرمَى للأرستقراطيَّة البريطانيَّة».

لم يفهم اللُّورد كانترفيل تمامًا عبارة السَّيِّد أوتيس الأخيرة، فأجاب قائلًا: «إنَّكم في أمريكا طبيعانيُّون جدًّا، وإذا كنت لا ترى مانعًا من وجود شبحٍ في المنزل، فلا بأس. ولكن فقط عليك أن تتذكَّر أنَّني حذَّرتك».

بعد أسابيع قليلةٍ من ذلك، تمَّت الصَّفقة، وفي نهاية الموسم انتقل الوزير وعائلته إلى قصر كانترفيل. أمَّا السَّيِّدة أوتيس، المعروفة سابقًا بالآنسة لوكرشيا ر. تابان، من شارع 53 الغربيِّ، وكانت من أشهر حسناوات نيويورك، فهي الآن امرأةٌ في منتصف العمر، ساحرة العينين بهيَّة الطَّلعة. وبخلاف السَّيِّدات الأمريكيَّات اللَّواتي يتظاهرن بالمرض المزمن عند مغادرتهنَّ وطنهنَّ، متوهِّماتٍ أنَّ ذلك مظهرٌ من مظاهر الأناقة الأوروبِّيَّة، لم تقع السَّيِّدة أوتيس أبدًا في هذا الخطأ. كانت قويَّة البنية ومفعمةً حقًّا بأروع الغرائز الحيوانيَّة. وفي الواقع، كانت إنجليزيَّةً تمامًا في الكثير من النَّواحي، وكانت مثالًا ممتازًا على حقيقة أنَّ لدينا الكثير من الجوانب المشتركة مع أمريكا في الوقت الحاضر، باستثناء اللُّغة طبعًا. وكان ابنها الأكبر، والذي عمَّده والداه باسم واشنطن في لحظةٍ من لحظات الحماس الوطنيِّ، وهو ما لم يتوقَّف والده عن النَّدم عليه أبدًا، شابًّا أشقر، حسن المظهر إلى حدٍّ ما، وقد أعدَّ نفسه لدخول السِّلك الدُّبلوماسيِّ الأمريكيِّ من خلال قيادته رقصة الفالس الألمانيَّة في كازينو نيوبورت لثلاثة مواسم متتالية، وحتى في لندن اشتهر بكونه راقصًا من الطِّراز الأوَّل. كانت أزهار الغاردينيا وألقاب النُّبلاء نقطتي ضعفه الوحيدتين. ولولا ذلك لكان راجح العقل. أمَّا أخته الآنسة فرجينيا أوتيس، فكانت فتاةً صغيرةً في الخامسة عشرة من عمرها، رشيقةً وجميلةً مثل شادنٍ صغيرٍ، ومن عينيها الزَّرقاوين النَّجلاوين تطلُّ روحٌ شجاعةٌ مستقلَّة. كانت محاربةً رائعةً، وقد تسابقت ذات مرَّةٍ مع اللُّورد بيلتون العجوز على مهرها الصَّغير مرَّتين في المتنزَّه، فتجاوزته ببُعدٍ ونصف البُعد إلى أمام تمثال آخيل، ما أفرح قلب دوق شيشاير اليافع الذي لم يتمالك نفسه فتقدَّم على الفور لخطبتها، فأعاده

أوصياؤه في تلك اللَّيلة بالذَّات إلى إيتون وسط سيلٍ من الدُّموع. وبعد الآنسة فرجينيا يأتي التوأمان اللَّذان كان يطلَق عليهما لقب «النُّجوم والأشرطة»[1] لكثرة ما كانا يهسهسان. كانا صبيَّين مبهجَين حقًّا، وباستثناء معالي الوزير كانا الجمهوريَّين الحقيقيَّين الوحيدَين في العائلة.

ولأنَّ قصر كانترفيل كان يقع على بعد سبعة أميالٍ عن أسكوت، أقرب محطَّة قطار، فقد أبرق السَّيِّد أوتيس في طلب عربة خيلٍ لمقابلتهم، وبدأوا رحلتهم بمعنويَّاتٍ مرتفعةٍ وصدورٍ منشرحة. كانت أمسيةً جميلةً من أمسيات شهر تمُّوز، وكان النَّسيم عليلًا وعابقًا برائحة غابات الصَّنوبر، وبين الحين والآخر كانوا يسمعون حمامةً من حمائم الغابات تهدل مشجيَّةً بصوتها الجميل، أو يرون وسط حفيف السَّرخس الصَّدرَ اللَّامعَ لطائرٍ من طيور التَّدرج، وكانت السَّناجب الصَّغيرة تتلصَّص عليهم من بين أغصان الزَّان في أثناء مرورهم، والأرانب تندفع هاربةً بين الأحراش وفوق التِّلال الطُّحلبيَّة رافعةً ذيولها البيضاء في الهواء. ولكن ما إن وصلوا إلى طريق كانترفيل المشجَّر حتى تلبَّدت السَّماء فجأةً بالغيوم، وخيَّم على الجوِّ سكونٌ غريبٌ، بينما مرَّ سربٌ كبيرٌ من الغربان بصمتٍ فوق رؤوسهم، وقبل أن يصلوا إلى المنزل بدأت قطراتٌ ضخمةٌ بالهطول.

كانت تقف بعتبة الباب في استقبالهم امرأةٌ عجوزٌ ترتدي ثوبًا أنيقًا من الحرير الأسود، وتضع قبَّعةً بيضاء ومئزرًا. تلك المرأة هي السَّيِّدة أومني، مدبِّرة المنزل، التي وافقت السَّيِّدة أوتيس، بناءً على طلبٍ وديٍّ من السَّيِّدة كانترفيل، على بقائها في منصبها السَّابق. ولدى نزولهم من العربة انحنت

---

(1) إشارةً إلى العلم الأمريكيِّ. (المترجم).

محيِّيةً كلَّ فردٍ منهم، وقالت بأسلوبٍ غريبٍ قديم الطِّراز: «أرحِّب بكم في كانترفيل تشيس». فتبعوها واجتازوا القاعة الفخمة المؤثَّثة على طراز أسرة تيودور متَّجهين إلى المكتبة، وهي غرفةٌ طويلةٌ ومنخفضة السَّقف، وقد كُسِيَتْ جدرانها بألواحٍ من خشب البلُّوط الأسود، وفي نهايتها نافذةٌ كبيرةٌ ذات زجاجٍ متعدِّد الألوان. وهنا وجدوا الشَّاي معدًّا لهم، وبعد أن نزعوا معاطفهم، جلسوا وراحوا يجيلون النَّظر حولهم بينما قامت السَّيِّدة أومني على خدمتهم.

وفجأةً استرعى انتباه السَّيِّدة أوتيس بقعةٌ حمراء باهتةٌ على الأرضيَّة بجوار المدفأة، فقالت للسَّيِّدة أومني وهي جاهلةٌ تمامًا بطبيعة تلك البقعة: «أحسب أنَّ شيئًا ما قد أُريق هناك».

«نعم، سيِّدتي»، ردَّت مدبِّرة المنزل العجوز بصوتٍ منخفض، «إنَّها الدِّماء ما أُريقَ هناك».

«يا له من أمرٍ فظيع»، صرخت السَّيِّدة أوتيس، «لا أتحمَّل على الإطلاق رؤية بقع الدَّم في غرفة الجلوس. يجب إزالتها على الفور».

ابتسمت المرأة العجوز وأجابت بنفس الصَّوت المنخفض الذي يكتنفه الغموض: «إنَّه دم السَّيِّدة إليانور دي كانترفيل التي قُتلت في تلك البقعة بالذَّات على يد زوجها السِّير سيمون دي كانترفيل في عام 1575، وقد عاش السِّير سيمون تسع سنواتٍ بعد موتها ثمَّ اختفى فجأةً في ظروفٍ غامضةٍ للغاية ولم يُعثَر على جثَّته أبدًا، ولكنَّ روحه الآثمة ما تزال تسكن القصر. وقد حظيت بقعة الدَّم هذه بإعجاب السُّيَّاح وغيرهم، ولا يمكن إزالتها.

«أيُّ كلامٍ فارغٍ هذا!»، صاح واشنطن أوتيس، «إنَّ مزيل البقع بينكرتون ومنظِّف الأرضيَّات باراغون كفيلان بإزالتها في لمح البصر». وقبل أن تتمكَّن مدبِّرة المنزل المرتعبة من التَّدخُّل، نزل على ركبتيه وراح يحفُّ الأرضيَّة بسرعةٍ بمِروَدٍ صغيرٍ شبيهٍ بمستحضر تجميلٍ أسود، وفي غضون لحظاتٍ قليلةٍ اختفى كلُّ أثرٍ لبقعة الدَّم.

«كنت أعلم أنَّ بينكرتون سيفعلها!»، صاح بلهجة المنتصر وهو ينظر حوله إلى وجوه عائلته المعجبين بما قام به، ولكن ما إن أتمَّ جملته حتى أضاء وميضُ برقٍ مرعبٍ الغرفةَ الباهتةَ الإضاءة، مصحوبًا بدويٍّ رعدٍ مخيفٍ جعلهم جميعًا يقفون على أقدامهم، وسقطت السَّيِّدة أومني مغشيًّا عليها.

«يا له من جوٍّ فظيعٍ!»، قال الوزير الأمريكيُّ بهدوءٍ وهو يشعل سيجارًا طويلًا من ماركة شيروت، «أعتقد أنَّ البلد العجوز بات مكتظًّا بالسُّكَّان لدرجة أنَّه لم يعد لديهم ما يكفي من الطَّقس اللَّطيف لتوزيعه على الجميع. لطالما اعتقدت أنَّ الهجرة هي الشَّيء الوحيد الذي يمكن أن يعيد إنجلترا إلى المسار الصَّحيح».

«أوه يا عزيزي حيرام، ماذا يمكننا أن نفعل لامرأةٍ أُغميَ عليها؟»، صرخت السَّيِّدة أوتيس.

«حمِّليها تعويض ذلك كما تحمِّليها تعويض ما تكسره ولن يُغمى عليها بعد الآن»، أجاب الوزير؛ وبعد لحظاتٍ قليلةٍ استعادت السَّيِّدة أومني وعيها، ولكن بدا واضحًا أنَّها كانت وَجِلَةً للغاية وحذَّرت السَّيِّد أوتيس بصرامةٍ من بعض الخطوب التي قد تلمُّ بالمنزل، قائلةً: «لقد رأيتُ بأمِّ

عيني يا سيِّدي أشياء من شأنها أن تجعل شعر أيِّ مسيحيٍّ ينتصب، وكم من اللَّيالي لم يغمض لي فيها جفنٌ بسبب الأشياء الرَّهيبة التي تحدث هنا».

ولكنَّ السَّيِّد أوتيس وزوجته أكَّدا بحرارةٍ للعجوز الطَّيِّبة أنَّهما لا يخافان الأشباح، وبعد أن استنزلت بركات العناية الإلهيَّة على سيِّدها وسيِّدتها الجديدَين، وطلبت منهما زيادةً في الأجر، انصرفت مدبِّرة المنزل العجوز إلى غرفتها وهي تترنَّح في مشيتها.

الفصل الثَّاني

استمرَّت العاصفة عنيفةً طوال تلك اللَّيلة، ولكن لم يحدث شيءٌ يستحقُّ الذِّكر. ولكن في صباح اليوم التَّالي، عندما نزلوا لتناول الإفطار، وجدوا بقعة الدَّم مرَّةً أخرى على الأرض، فقال واشنطن: «لا أعتقد أنَّه خطأ منظِّف الأرضيَّات باراغون، لأنَّني جرَّبته مع كلِّ شيءٍ. لا بدَّ وأنَّه الشَّبح»؛ فقام بإزالة البقعة مرَّةً أخرى، ولكنَّها ظهرت مجدَّدًا في صباح اليوم الثَّاني. وفي صباح اليوم الثَّالث، وجدوها هناك أيضًا، مع أنَّ السَّيِّد أوتيس كان قد أقفل باب المكتبة طوال اللَّيل وحمل معه المفتاح إلى الطَّابق العلويِّ، فأصبحت الأسرة بأكملها الآن مهتمَّةً بهذه القضيَّة، وبدأ السَّيِّد أوتيس يشكُّ في أنَّه كان شديد التَّعصُّب في إنكاره لوجود الأشباح، وأعربت السَّيِّدة أوتيس عن نيَّتها الانضمام إلى جمعيَّة الوسطاء الرُّوحيِّين، وأعدَّ واشنطن رسالةً طويلةً إلى السَّيِّدين مايرز وبودمور حول موضوع «ثبات البقع الدُّمويَّة عند ارتباطها بجريمة قتل». في تلك اللَّيلة، امَّحت من أذهانهم إلى الأبد كلُّ الشُّكوك حول الوجود الموضوعيِّ للأشباح.

كان النَّهار دافئًا ومشمسًا، وفي برودة المساء خرجت الأسرة بأكملها في نزهةٍ بالعربة، ولم يعودوا إلى المنزل حتى السَّاعة التَّاسعة، فتناولوا عشاءًا خفيفًا، ولم تتطرَّق المحادثة بأيِّ حالٍ من الأحوال إلى الأشباح، ما يعني أنَّه لم يكن عندهم ذلك الاستعداد النَّفسيُّ الذي يسبق عادةً شهود الظَّواهر

الرُّوحانيَّة. أمَّا المواضيع التي ناقشوها، كما أبلغني السَّيِّد أوتيس نفسه في وقتٍ لاحقٍ، فكانت أحاديث عامَّةً ممَّا يتناوله المثقَّفون الأمريكيُّون من أبناء الطَّبقة الرَّاقية، مثل التَّفوُّق الكبير للآنسة فاني دافنبورت على سارة برنار كممثِّلة؛ أو صعوبة الحصول على الذُّرة الخضراء، وكعكة الحنطة السَّوداء، وجريش الذُّرة، حتى في أفضل البيوت الإنجليزيَّة؛ أو أهمِّيَّة مدينة بوسطن في تنمية الوعي البشريِّ؛ أو مزايا نظام فحص الأمتعة في محطَّات القطار؛ أو حلاوة لهجة نيويورك مقارنةً بلهجة لندن؛ ولم يأتوا أبدًا على ذكر أيِّ شيءٍ من خوارق الطَّبيعة، ولم يلمِّح أحدٌ بأيِّ شكلٍ من الأشكال إلى السِّير سيمون دي كانترفيل. وفي السَّاعة الحادية عشرة صعد كلٌّ إلى غرفته، وبعد نصف ساعةٍ كانت جميع الأنوار مُطفأة. ولكن لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى استيقظ السَّيِّد أوتيس على جلبةٍ غريبةٍ في الممرِّ خارج غرفته. بدا الصَّوت وكأنَّه قعقعةٌ معدنيَّةٌ، وخُيِّل إليه أنَّه يقترب منه شيئًا فشيئًا، فنهض في الحال وأشعل عود ثقابٍ ونظر إلى الوقت. كانت الواحدة تمامًا، وكان الرَّجل في منتهى الهدوء، وجسَّ نبضه فوجد أنَّه لم يكن مضطربًا على الإطلاق. واستمرَّت القعقعة الغريبة، وسمع معها بوضوحٍ صوتَ وقع أقدام، فانتعل خفَّيه وأخذ قارورةً صغيرةً مستطيلة الشَّكل من أحد الأدراج وفتح الباب، فرأى أمامه مباشرةً، وفي نور القمر الباهت، رجلًا عجوزًا رهيب المظهر، عيناه حمراوان كأنَّهما قطعتا جمرٍ ملتهبٍ، وشعره أشيب طويلٌ ينسدل على كتفيه في لفائف متلبِّدة؛ وكانت ثيابه العتيقة الطِّراز متَّسخةً وممزَّقةً، وتدلَّت من معصميه وكاحليه أغلالٌ ثقيلةٌ وأصفادٌ صدئة.

«سيِّدي العزيز»، خاطبه السَّيِّد أوتيس، «يجب أن أُصِرَّ على تزييت هذه

السَّلاسل، وقد جئتك لهذا الغرض بقارورةٍ صغيرةٍ من زيت «الشَّمس المشرقة» من تصنيع شركة تاماني. يُقال إنَّه فعَّالٌ جدًّا من أوَّل تطبيقٍ، وهناك العديد من الشَّهادات على هذا التَّأثير تجدها على الملصَق وهي شهاداتٌ من أبرز كهنة بلادنا. سأتركها لك هنا بجوار شموع غرفة النَّوم، وسأكون سعيدًا بتزويدك بالمزيد إذا طلبتَ ذلك». ومع هذه الكلمات الأخيرة وضع السَّيِّد وزير الولايات المتَّحدة قارورة الزَّيت على طاولةٍ رخاميَّةٍ، ثمَّ أغلق باب غرفته وأوى إلى فراشه.

جمد شبح كانترفيل للحظةٍ في مكانه ساخطًا، ثمَّ حطَّم القارورة بعنفٍ على الأرضيَّة المصقولة، وولَّى عابرًا الممرَّ وهو يُطلق آهاتٍ جوفاء ويُصدر ضوءًا أخضر مروِّعًا، وما إن بلغ أعلى الدَّرج العريض المصنوع من خشب البلُّوط حتى فُتح له بابٌ وظهر ولدان صغيران في ثيابٍ بيضاء ثمَّ أزَّت وسادةٌ كبيرةٌ مارَّةً بجوار رأسه، وبدا له جليًّا أنَّه ليس هناك وقتٌ ليضيِّعه فاعتنق على عجلٍ البُعدَ الرَّابعَ للمكان كوسيلةٍ للهرب واختفى بين الألواح الخشبيَّة، وغرق المنزل من جديدٍ في سكوتٍ مُطبِق.

عند وصوله إلى غرفةٍ سرِّيَّةٍ صغيرةٍ في الجناح الأيسر، اتَّكأ على شعاعٍ من أشعَّة القمر ليلتقط أنفاسه، وأخذ يفكِّر محاولًا استيعاب موقفه، إذ لم يسبق له أن تعرَّض لإهانةٍ شديدةٍ طوال ثلاثة قرونٍ من مسيرته المهنيَّة اللَّامعة والمتواصلة. تذكَّر الدُّوقة الأرملة التي أخافها حتى سقطت مغشيًّا عليها عندما كانت واقفةً أمام المرآة في مخرَّماتها وزينتها؛ وتذكَّر الخادمات الأربع اللَّواتي أُصِبن بحالةٍ من الهستيريا عندما ابتسم لهنَّ من بين السَّتائر في إحدى غرف النَّوم الإضافيَّة؛ وتذكَّر رئيس الأبرشيَّة، وكيف أطفأ له شمعته وهو خارجٌ في وقتٍ متأخِّرٍ من اللَّيل من مكتبته، فوقع صريع نوباتٍ

عصبيَّةٍ وهو ما يزال تحت رعاية السِّير وليام جول منذ ذلك الحين؛ وتذكَّر مدام دي تريمويالك العجوز التي استيقظت مبكِّرًا ذات صباحٍ ورأت هيكلًا عظميًّا جالسًا على الأريكة بجوار الموقد يقرأ مذكِّراتها، فلزمت فراشها ستَّة أسابيع تتناهبها حمَّى الدِّماغ، وبعد شفائها تصالحت مع الكنيسة وقطعت علاقتها بذلك المشكِّك الكبير مسيو دي فولتير[1]؛ وتذكَّر تلك اللَّيلة الرَّهيبة التي عُثِرَ فيها على اللُّورد كانترفيل الشِّرِّير وهو يختنق في غرفته الخاصَّة بورقة الشَّبِّ الدِّيناريِّ التي بقيت عالقةً في حلقه، وقد اعترف، قبل وفاته بقليلٍ، بأنَّه قد غشَّ السِّير تشارلز جيمس فوكس بخمسين ألف جنيهٍ بتلك الورقة نفسها في كازينو كروكفورد، وأقسم أنَّ الشَّبح هو الذي حشر الورقة في حلقه. عادت إليه كلُّ إنجازاته العظيمة وكأنَّها تحدث الآن، من كبير الخدم الذي أطلق النَّار على نفسه في حجرة المؤن لأنَّه رأى يدًا خضراء تنقر على زجاج النَّافذة، إلى السَّيِّدة ستوتفيلد الجميلة التي كانت مضطرَّةً دائمًا إلى وضع وشاحٍ من المخمل الأسود حول عنقها لإخفاء أثر أصابعه الخمس الحارقة على جلدها الأبيض، والتي انتحرت في النِّهاية غرقًا في بركة الكارب التي في نهاية «ممشى الملِك». وهكذا، بالغرور المتَّقد لفنَّانٍ حقيقيٍّ واصل الشَّبح تذكُّر أكثر إنجازاته شهرةً، وابتسم بحسرةٍ وهو يتذكَّر ظهوره الأخير في دور «روبن الأحمر، أو الطِّفل المخنوق»، وظهوره الأوَّل في دور «جيبون النَّحيل: مصَّاص دماء قرية بكسلي»، والضَّجَّة الكبيرة التي أثارها في إحدى أمسيات حزيران الجميلة عندما رآه النَّاس يلعب بعظامه لعبة القناني الخشبيَّة على أرضيَّة ملعب التِّنس العشبيَّة. وبعد كلِّ هذا، يأتي بعض الأمريكيِّين العصريِّين الحُقَراء ويقدِّمون له مِزْيتةَ «الشَّمس المشرقة»

(1) الإشارة هنا إلى الكاتب الفرنسيِّ فولتير. (المترجم).

ويرمون الوسائد على رأسه! هذا لا يُطاق على الإطلاق! علاوةً على أنَّه ما من شبحٍ على مرِّ التَّاريخ عومل بالطَّريقة المهينة التي عومل بها. ولذلك قرَّر الانتقام منهم شرَّ انتقامٍ، وبقي حتى الصَّباح مستغرقًا في تفكيرٍ عميق.

الفصل الثَّالث

في صباح اليوم التَّالي، عندما اجتمع آل أوتيس على الإفطار، تناقشوا في قضيَّة الشَّبح بشيءٍ من الاستفاضة، ومن الطَّبيعيِّ أنَّ الوزير الأمريكيَّ كان مستاءًا بعض الشَّيء لأنَّ هديَّته لم تُقبَل، فقال: «ليس في نيَّتي إنزال أيِّ إهانةٍ شخصيَّةٍ بالشَّبح، ويجب أن أقول إنَّه بالنَّظر إلى طول الفترة التي قضاها في المنزل لا أعتقد أنَّه من التَّهذيب في شيءٍ رميه بالوسائد» ـ وهي ملاحظةٌ صائبةٌ للغاية يؤسفني القول إنَّ التَّوأمين انفجرا ضحكًا عليها؛ وتابعَ قائلًا: «من ناحيةٍ أخرى، إذا رفض حقًّا استخدام مِزْيتة «الشَّمس المشرقة»، فسيتعيَّن علينا انتزاع السَّلاسل منه، لأنَّ النَّوم مستحيلٌ تمامًا مع مثل هذه الضَّوضاء المتواصلة خارج غرف النَّوم».

ولكن طوال بقيَّة الأسبوع لم يزعجهم أحد، والشَّيء الوحيد الذي أثار اهتمامهم هو التَّجدُّد المستمرُّ لبقعة الدَّم على أرضيَّة المكتبة، وكان ذلك أمرًا غريبًا حقًّا، لأنَّ السَّيِّد أوتيس كان يُقفل باب المكتبة دائمًا في اللَّيل ويُبقي النَّوافذ مغلقةً بإحكام. كما أثار اللَّون الحربائيُّ للبقعة، أيضًا، قدرًا كبيرًا من التَّعليقات. فهو مرَّةً أحمر باهتٌ، أو هنديٌّ، ومرَّةً قرمزيٌّ، ومرَّةً أرجوانيٌّ غامقٌ، ومرَّةً، عندما نزلوا لتأدية الصَّلاة العائليَّة، وفقًا للطُّقوس البسيطة للكنيسة الأمريكيَّة الأسقفيَّة الحرَّة المُصْلَحة، وجدوها بلون الزُّمرُّد الأخضر السَّاطع. ومن الطَّبيعيِّ أن تكون هذه التَّغيُّرات المشكاليَّة

مبعث تسليةٍ لهم في جلسات السَّمر، وكانوا يتراهنون كلَّ مساءٍ بمتعةٍ كبيرةٍ على لون البقعة في الصَّباح التَّالي. الشَّخص الوحيد الذي لم يشاركهم هذه المزحة هو فرجينيا الصَّغيرة التي، لسببٍ غير معروفٍ، كانت دائمًا تحزن بشدَّةٍ عندما ترى بقعة الدَّم، وكادت تبكي في الصَّباح الذي رأتها فيه بلونٍ أخضر زمرُّديٍّ.

وكان الظُّهور الثَّاني للشَّبح ليلةَ الأحد، فبعد وقتٍ قصيرٍ من ذهابهم إلى الفراش، أفزعهم فجأةً صوت تحطُّمٍ رهيبٍ في القاعة، فهرعوا إلى الطَّابق السُّفليِّ، ووجدوا أنَّ بذلةً ضخمةً من تلك الصَّفائح الفولاذيَّة الواقية التي كان يرتديها الفرسان القدماء قد انفصلت عن حاملها وسقطت على الأرضيَّة الحجريَّة بينما جلس شبح كانترفيل على كرسيٍّ عالي الظَّهر يحكُّ ركبتيه وقد علا وجهَه تعبيرٌ يدلُّ على ألمٍ مبرِّحٍ، فأسرع التَّوأمان بإحضار مِخْذَفتَيهما وأطلقا عليه حصاتين بدقَّة تصويبٍ لا يمكن إحرازها إلَّا بعد مرانٍ طويلٍ وحَذِرٍ على مدرِّس الخطِّ، بينما شهر عليه الوزير الأمريكيُّ مسدَّسه وطلب منه أن يرفع يديه وفق الآداب المتعارف عليها في كاليفورنيا! صاح الشَّبح صيحة غضبٍ مدوِّيةً وانسلَّ من بينهم انسلال الضَّباب، فأطفأ شمعة واشنطن أوتيس في أثناء مروره، وتركهم جميعًا في ظلامٍ دامس. وعند وصوله إلى أعلى الدَّرج استعاد رباطة جأشه وقرَّر أن يقدِّم لهم جلجلةَ ضحكته الشَّيطانيَّة الشَّهيرة، فقد وجدها في أكثر من مناسبةٍ مفيدةً للغاية. يُقال إنَّها أشابت شعر اللُّورد راكر المستعارَ في ليلةٍ واحدة، وإنَّها جعلت ثلاث مربِّياتٍ فرنسيَّاتٍ يتركن عملهنَّ لدى اللِّيدي كانترفيل قبل مرور شهرٍ على وصولهنَّ، فأطلق ضحكةً مريعةً تردَّد صداها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ في السَّقف القديم المقبَّب، ولم يكد ذلك الصَّدى المخيف

يهدأ حتى انفتح بابٌ وخرجت السَّيِّدة أوتيس مرتديةً ثوبًا منزليًّا فاتح الزُّرقة وقالت: «أخشى أنَّك لست على ما يرام، ولقد أحضرت لك زجاجةً من مستحضَر الدُّكتور دوبيل، فإن كان لديك عسر هضم، فستجده أنجع دواء». حملق الشَّبح إليها والشَّرار يقدح من عينيه، وبدأ على الفور يعدُّ العدَّة لتحويل نفسه إلى كلبٍ أسـود ضخم، وهي مأثرةٌ اشتهر بها وكانت، حسب رأي طبيب الأسرة، وراء جنون عمِّ السَّيِّد كانترفيل، السَّيِّد توماس هورتون المبجَّل. ولكنَّ صوت دنوِّ خطواتٍ جعله يتردَّد في تحقيق مأربه الخبيث، فاكتفى بأن يصبح فسفوريًّا ضعيف البصيص، وفي اللَّحظة التي وصل التَّوأمان إليه اختفى مُطلِقًا آهةً عميقةً كآهات أفنية الكنائس.

عند وصوله إلى غرفته انهار تمامًا، وسقط فريسةً لأعنف نوبات الهياج. فقد كانت فظاظة التَّوأمين من جهةٍ والمادِّيَّة الخشنة في سلوك السَّيِّدة أوتيس من جهةٍ أخرى، مزعجتَين للغاية بطبيعة الحال، ولكنَّ أكثرَ ما أزعجه هو أنَّه لم يستطع ارتداء بذلة الفارس الفولاذيَّة، وكان يحسب أنَّه حتى الأمريكيِّين المعاصرين سوف يسعدهم مشهدُ شبحٍ في بذلةٍ فولاذيَّة، إن لم يكن لسببٍ منطقيٍّ، فعلى الأقلِّ احترامًا لشاعرهم الوطنيِّ لونغفيلو الذي كان هو نفسه يزجِّي ساعات الضَّجر الطِّوال في مطالعة أشعاره الجميلة والجذَّابة كلَّما غادر آل كانترفيل إلى المدينة. فضلًا عن أنَّها كانت بذلته الخاصَّة التي ارتداها في بطولة كينيلورث وحقَّق بها نجاحًا منقطع النَّظير هنَّأته عليه الملكة العذراء ذاتها، ولكن عندما كان يرتديها في تلك اللَّيلة أثقل وزنُ درع الصَّدر الضَّخم والخوذة الفولاذيَّة عليه فسقط بشدَّةٍ على الأرضيَّة الحجريَّة وانكشطت ركبتاه بشدَّةٍ ورُضَّت مفاصل يده اليمنى.

ولعدَّة أيَّامٍ بعد ذلك لزم الشَّبح فراشه من شدَّة المرض، وقليلًا ما كان

يخرج من غرفته، فلم يكن يخرج إلَّا لإبقاء بقعة الدَّم في حالةٍ جيِّدة. ولكن، بفضل اهتمامه الشَّديد بنفسه، سرعان ما تعافى، وقرَّر القيام بمحاولةٍ ثالثةٍ لتخويف الوزير الأمريكيِّ وعائلته. فاختار يوم الجمعة، السَّابع عشر من آب، موعدًا لظهوره، وأمضى معظم ذلك اليوم أمام خزانة ملابسه، وقرَّر في النِّهاية أن يختار قبَّعةً كبيرةً مترهِّلةً مزيَّنةً بريشةٍ حمراء، وكفنًا مكشكشًا عند الرُّسغين والرَّقبة، وخنجرًا صدئًا. ومع حلول المساء، هبَّت عاصفةٌ مطريَّةٌ شديدةٌ، وكانت الرِّياح عاتيةً لدرجة أنَّ جميع النَّوافذ والأبواب في المنزل القديم راحت تهتزُّ وتقعقع. وفي الحقيقة، كان طقسًا مثلما كان يحبُّ ويشتهي، وكانت خطَّة عمله كالتَّالي. أن يتسلَّل بهدوءٍ إلى غرفة واشنطن أوتيس، ويتمتم عند قدم سريره، ويطعن نفسه ثلاث طعناتٍ في الحلق، على صوت موسيقى هادئة. كان يكنُّ حقدًا خاصًّا لواشنطن، لأنَّه كان يعلم تمامًا أنَّه هو من كان يزيل بقعة دم كانترفيل الشَّهيرة بمنظِّف الأرضيَّات باراغون. ثمَّ ينتقل بعد ذلك، بعد أن يترك الفتى المتهوِّر والطَّائش في حالةٍ من الرُّعب الشَّديد، إلى الغرفة التي يشغلها الوزير الأمريكيُّ وزوجته، وهناك يضع يده الرَّطبة والباردة على جبين السَّيِّدة أوتيس بينما يهمس بأسرار القبور المروِّعة في أذن زوجها المرتجفة. أمَّا بالنِّسبة إلى فرجينيا الصَّغيرة، فلم يكن قد حسم أمره بعد، فهي لم توجِّه له أيَّ إهانة، كما أنَّها جميلةٌ ولطيفة، ولذلك كان يعتقد أنَّ بعض الآهات الجوفاء من خزانة ملابسها ستكون أكثر من كافية، فإن فشل ذلك في إيقاظها، عبثَ بلحافها بأصابع ترتعش كأنَّ بها شللًا جزئيًّا. أمَّا بالنِّسبة إلى التَّوأمين، فقد كان مصمِّمًا تمامًا على تلقينهما درسًا. وأوَّل ما يجب القيام به، بطبيعة الحال، هو أن يجلس على صدريهما ليسبِّب لهما إحساسًا خانقًا بأنَّ كابوسًا يجثم

عليهما، ثمَّ أن يقف بين سريريهما المتقاربين على شكل جثَّةٍ خضراء، باردةٍ كالثَّلج، حتى يصابا بالشَّلل من شدَّة الخوف، وبعد ذلك، أن يرمي عنه الكفن ويزحف في أرجاء الغرفة بعظامٍ بيضاء وعينٍ واحدةٍ متحرِّكةٍ، كما في شخصيَّة «دانييل الأبكم، أو الهيكل العظميّ للمنتحر»، وهو دورٌ مسرحيٌّ حقَّق به تأثيرًا كبيرًا في أكثر من مناسبةٍ، وكان يعدُّه لا يقلُّ شأنًا عن دوره الشَّهير «مارتن المهووس، أو اللُّغز المقنَّع».

في العاشرة والنِّصف سمع العائلة تتفرَّق ليخلد كلٌّ إلى فراشه، وبقي لبعض الوقت منزعجًا من الضَّحكات الجامحة التي كان يطلقها التَّوأمان اللَّذان، ببهجة تلاميذ المدرسة الذين ليس لديهم همومٌ تؤرِّقهم، كانا يسلِّيان نفسيهما قبل أن يخلدا إلى النَّوم، ولكن في السَّاعة الحادية عشرة والرُّبع لفَّ القصرَ سكوتٌ مُطبِق، وعندما دقَّت السَّاعة معلنةً منتصف اللَّيل انطلق إلى مهمَّته. ارتطمت البومة بزجاج النَّوافذ، ونعب الغراب من شجرة الطَّقسوس القديمة، وكانت الرِّيح تئنُّ حول المنزل مثل روحٍ ضائعة. ولكنَّ عائلة أوتيس غطَّت في نومٍ عميقٍ غير مُوجِسَةٍ شيئًا ممَّا كان ينتظرها، وأعلى من هزيم المطر وقصف الرِّيح كان الشَّخير المتواصل للوزير الأمريكيِّ. انسلَّ خلسةً من وراء الألواح الخشبيَّة التي تكسو الجدران، وعلى شفتيه القاسيتين المجعَّدتين ابتسامةٌ خبيثةٌ جعلت القمر يخفي وجهه بغيمةٍ عندما رآه يمرُّ بجوار مشربيَّة النَّافذة الكبيرة التي نُقِشَت عليها بالذَّهب واللَّازورد ذراعاه وذراعا زوجته المقتولة. انسلَّ خطوةً خطوةً، مثل خيالٍ شرِّيرٍ، حتى إنَّ الظَّلام نفسه بدا مشمئزًّا منه وهو يمرُّ. ظنَّ أنَّه سمع صوتًا فتوقَّف؛ ولكنَّه لم يكن سوى نباح كلبٍ من الحقل الأحمر، فاستأنف السَّير مغمغمًا بلعناتٍ غريبةٍ من القرن السَّادس عشر، وملوِّحًا بخنجره الصَّدئ

بلا انقطاعٍ في ظلام اللَّيل، إلى أن بلغ أخيرًا زاوية الممرِّ المؤدِّي إلى غرفة واشنطن المنحوس. توقَّف للحظةٍ هناك، وعصفت الرِّيح مُطَيِّرةً خُصَل شعره الشَّيباء الطَّويلة حول رأسه، ومجعِّدةً في طيَّاتٍ خرافيَّةٍ بشعةٍ كفنه المرعب. ثمَّ دقَّت السَّاعة الرُّبعَ، فشعر أنَّ الوقت قد حان وقوقأ ضاحكًا بينه وبين نفسه وانعطف عند الزَّاوية؛ ولكن ما إن فعل ذلك حتى تراجع مطلقًا صيحة رعبٍ مثيرةٍ للشَّفقة وأخفى وجهه الأبيض بيديه العظميَّتين الطَّويلتين. فأمامه مباشرةً وقف بلا حراكٍ، كتمثالٍ منحوتٍ، شبحٌ آخر بشعٌ ومخيفٌ كحلم رجلٍ مجنون! كان رأسه أصلع ولمَّاعًا، ووجهه مستديرًا وبدينًا وأبيض وبدا كما لو أنَّ ضحكةً قبيحةً قد لَوَتْ ملامحه في ابتسامةٍ أبديَّة. من عينيه تدفَّقت أشعَّةٌ قرمزيَّةٌ، أمَّا فمه فكان بئر نارٍ واسعة، وكان ثوبٌ قبيحٌ، مثل ثوبه تمامًا، يلفُّ ببياضه الثَّلجيِّ الأخرس قامته العملاقة. وكانت على صدره لوحةٌ عليها كتاباتٌ غريبةٌ بحروفٍ قديمةٍ، بدت له سجلَّ رذائله، أو صحيفةَ خطاياه الشَّائنة، أو لائحةَ جرائمه، وبيده اليمنى كان يرفع عاليًا سيفًا معقوفًا من الفولاذ البرَّاق.

ولأنَّه لم ير شبحًا من قبل، شعر برعبٍ رهيبٍ، وبعد إلقاء نظرةٍ سريعةٍ ثانيةٍ على الشَّبح الفظيع، هرب عائدًا إلى غرفته، متعثِّرًا بالكفن الطَّويل وهو يحثُّ خطاه في الممرِّ، وأخيرًا أسقط خنجره الصَّدئ في جزمة الوزير حيث عثر عليه كبير الخدم في الصَّباح. وما إن خلا بنفسه في غرفته حتى ارتمى في سريره الصَّغير وطمر وجهه تحت أغطية السَّرير. ولكن بعد مضيٍّ بعض الوقت، استعاد شبح كانترفيل العتيق رباطة جأشه، وقرَّر أن يذهب ويتحدَّث مع الشَّبح الآخر وجهًا لوجهٍ بمجرَّد حلول النَّهار. وبناءً عليه، ما إن لمس الفجرُ التِّلالَ بفضَّته حتى عاد الشَّبح إلى المكان

الذي وقعت فيه عيناه على الشَّبح المخيف، شاعرًا في قرارة نفسه، بعد كلِّ شيءٍ، أنَّ شبحين أفضل من شبحٍ واحد، وأنَّه بمساعدةٍ من صديقه الجديد يمكنه أن ينبري للتَّوأمين دون أن يصيبه منهما أيُّ مكروه. ولكن ما إن بلغ ذلك الموضع حتى وقعت عيناه على مشهدٍ مرعب. لقد كان جليًّا أنَّ شيئًا ما قد حدث لذلك الشَّبح، فقد تلاشى الضَّوء المخيف من عينيه المجوَّفتين، وسقط السَّيف البرَّاق المعقوف من يده، وكان متَّكئًا على الحائط في وقفةٍ متوتِّرةٍ وغير مريحة. فهرع إليه وضمَّه بين ذراعيه، ولكنَّه ارتعب حين انزلق رأس الشَّبح وتدحرج على الأرض، بينما اتَّخذ جسده وضعيَّة المنبطح، ووجد نفسه يحتضن ستارة سريرٍ بيضاء باهتة وعند قدميه استقرَّت فرشاة تنظيفٍ وساطور مطبخ ولِفتةٌ جوفاء. وجد نفسه عاجزًا عن فهم هذا التَّحوُّل الغريب فأمسك اللَّوحة بعجلةٍ محمومةٍ، وهناك، في ضوء الصَّباح الرَّماديِّ، قرأ هذه الكلمات المخيفة:

شبح أوتيس

الشَّبح الأصليُّ والحقيقيُّ الوحيد

فاحذروا التَّقليد

لأنَّ كلَّ ما عداه زائف

واتَّضح له كلُّ شيء. لقد احتالوا عليه وأحبطوا مخطَّطاته وخدعوه! لمعت في عينيه نظرة آل كانترفيل التُّلَداء، وراح يكزُّ على لِثاه الخالية من الأسنان، ورفع يديه الذَّاويتين عاليًا فوق رأسه، وأقسم، بأسلوب المدرسة القديمة الخلَّاب، أنَّه عند صياح الدِّيك بمزماره السَّعيد مرَّتين، ليجعلنَّ الدَّم يصل إلى الرُّكَب والموتَ يسير في الشَّوارع بأقدامٍ صامتة.

وما إن أنهى هذا القسم الفظيع حتى تناهى إلى مسمعه، من سطح القرميد الأحمر لمنزلٍ بعيدٍ، صياح ديكٍ، فضحك ضحكةً طويلةً وخفيضةً وساخرةً، ووقف ينتظر. انتظر ساعةً تلو السَّاعة ولكنَّ الدِّيك، لسببٍ غريبٍ، لم يصح مرَّةً ثانية. وأخيرًا، في السَّابعة والنِّصف، أرغمه وصول الخادمات على إنهاء حلم يقظته الرَّهيب، وعاد إلى غرفته وهو يفكِّر في أمله المهدور وعزمه الخائب. وهناك راح يراجع كتب الفروسيَّة القديمة التي كان مولعًا بها للغاية، واكتشف لأوَّل مرَّةٍ أنَّه ما من مناسبةٍ أدَّى فيها هذا القسم إلَّا وصاح الدِّيك مرَّتين، فدمدم قائلًا: «أخذتكَ الحُطَمة أيُّها الدِّيك الأزعر! لقد ولَّى اليوم الذي كنتُ فيه أخترق حنجرتك برمحيَ المَضَّاء وأجعلك تصيح لأجلي في حشرَجة الموت!»، ثمَّ أوى إلى تابوتٍ رصاصيٍّ وثيرٍ، وبقي هناك حتى المساء.

الفصل الرَّابع

في اليوم التَّالي نهض الشَّبح كليلَ الظُّفْر خائرَ القوى. فالأمور الرَّهيبة التي حدثت معه في الأسابيع الأربعة الماضية قد بدأت تؤتي ثمارها وتحطَّمت أعصابه تمامًا وصار يجفل لأدنى صوت. فمكث في غرفته خمسة أيَّامٍ لم يخرج منها، وفي النِّهاية قرَّر أن يتخلَّى عن بقعة الدَّم على أرضيَّة المكتبة، لأنَّه إذا كان آل أوتيس لا يريدونها، فمن البديهيِّ أنَّهم لا يستحقُّونها. لقد كان واضحًا بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أنَّهم كانوا أناسًا على مستوىً ماديٍّ منحطٍّ من الوجود، وعاجزين تمامًا عن تقدير القيمة الرَّمزيَّة للظَّواهر الحسِّيَّة. كانت مسألة الظُّهورات الشَّبحيَّة وتطوُّر الأجسام النُّورانيَّة مسألةً مختلفًا تمامًا، ولم تكن في الواقع ممَّا يدخل ضمن صلاحيَّاته، فقد كان من واجباته الرَّسميَّة المهيبة أن يظهر في الممرِّ مرَّةً واحدةً في الأسبوع ويتمتم عند مشربيَّة النَّافذة الكبيرة في أوَّل وثالث أربعاء من كلِّ شهر، ولم يعرف كيف يمكنه التَّنصُّل بشرفٍ من هذه الالتزامات. صحيحٌ تمامًا أنَّ حياته كانت مليئةً بالشُّرور، ولكنَّه، من ناحيةٍ أخرى، كان حيَّ الضَّمير في كلِّ الأشياء المرتبطة بخوارق الطَّبيعة. ولذلك، في أيَّام السَّبت الثَّلاثة التَّالية، اجتاز الممرَّ كالمعتاد بين منتصف اللَّيل والسَّاعة الثَّالثة صباحًا، متَّخذًا جميع الاحتياطات الممكنة لئلَّا يراه أو يسمعه أحد، فخلع جزمته وداس برفقٍ على الألواح الخشبيَّة القديمة التي نخرها الدُّود وقد ارتدى معطفًا

فضفاضًا من المخمل الأسود، وكان حريصًا على استخدام علامة الشَّمس المشرقة لتزيين سلاسله. ولا بدَّ لي من الاعتراف بأنَّه واجه صعوبةً كبيرةً في تبنِّي هذا الأسلوب الجديد من الحماية. فذات ليلةٍ، وبينما كانت العائلة على العشاء، تسلَّل إلى غرفة نوم السَّيِّد أوتيس وأخذ الزُّجاجة، وقد شعر قليلًا بالمهانة في البداية، ولكنَّه بعد ذلك حكَّم العقل واعترف أنَّ هناك الكثير ممَّا يمكن قوله عن هذا الاختراع وأنَّه، إلى حدٍّ ما، أدَّى الغرض المرجوَّ منه، ولكنَّ ذلك كلَّه لم يدفع عنه الإزعاج، فقد مُدَّت الحبال في طريقه على طول الممرِّ، فتعثَّر بها في الظَّلام، وفي إحدى المرَّات، وبينما كان متنكِّرًا في زيِّ «إسحاق الأسود، أو صيَّاد غابات هوجلي»، وقع وقعةً شديدةً حين انزلق على الزُّبدة التي قام التَّوآمان بدهنها من مدخل غرفة النُّجود إلى أعلى السُّلَّم الخشبيِّ. هذه الإهانة الأخيرة أغضبته بشدَّة، لدرجة أنَّه عقد العزم على بذل جهدٍ أخيرٍ لتأكيد كرامته ومكانته الاجتماعيَّة، وقرَّر أن يزور هذين الصَّبيَّين الوقحَين في اللَّيلة التَّالية متنكِّرًا في شخصيَّته الشَّهيرة «روبرت المتهوِّر، أو الإيرل البِلا رأس».

لم يكن قد ظهر متنكِّرًا بهذا الزِّيِّ منذ أكثر من سبعين عامًا، أي منذ أن أفزع به السَّيِّدة الجميلة باربرا موديش لدرجة أنَّها فسخت خطوبتها فجأةً مع جدِّ اللُّورد كانترفيل الذي باعه القصر، وهربت مع جاك كاسلتون الوسيم إلى جريتنا جرين، معلنةً أنَّه لا توجد قوَّةٌ في الوجود يمكن أن تجبرها على الزَّواج برجلٍ من عائلةٍ تسمح لمثل هذا الشَّبح الرَّهيب بالسَّير جيئةً وذهابًا على الشُّرفة عند الغسق. وقد قُتل المسكين جاك بعد ذلك برصاصةٍ أطلقها عليه اللُّورد كانترفيل في مبارزةٍ جرت بينهما في ضاحية واندسوورث، وتوفِّيت السَّيِّدة باربرا كسيرةَ الفؤاد في تونبريدج ويلز قبل انتهاء العام،

ولذلك، وبجميع المقاييس، حقَّقت تلك الشَّخصيَّة نجاحًا باهرًا. ولكنَّه كان «مكياجًا» صعبًا للغاية، إن جاز لي أن أستخدم هذا المصطلح المسرحيَّ مع واحدٍ من أعظم أسرار ما وراء الطَّبيعة، أو لندعوها «أسرار العالم الطَّبيعيِّ الأعلى» إن أردنا استخدام مصطلحاتٍ أكثر علميَّةً لوصفها. واستغرق الأمر ثلاث ساعاتٍ كاملةٍ للقيام بالاستعدادات اللَّازمة. وأخيرًا، كان كلُّ شيءٍ جاهزًا، وكان سعيدًا جدًّا بمظهره. كان حذاء الرُّكوب الجلديُّ الكبير الذي لاءم اللِّباس كبيرًا قليلًا على قدميه، ولم يتمكَّن من العثور إلَّا على واحدةٍ من الطَّبنجتَين، ولكنَّه، بشكلٍ عامٍّ، كان راضيًا تمامًا بالنَّتيجة، وفي السَّاعة الواحدة والرُّبع انسلَّ من بين الألواح الخشبيَّة وتسلَّل إلى الممرِّ. وعند وصوله إلى غرفة التَّوأمين، والتي يجب أن أذكر أنَّها كانت تسمَّى «غرفة النَّوم الزَّرقاء» بسبب لون ستائرها، وجد الباب موارَبًا. ورغبةً منه في الدُّخول دخولًا مؤثِّرًا، فتحه على مصراعيه، وما إن فعل ذلك حتى سقط عليه إبريق ماءٍ ثقيلٌ فغسَّله تغسيلًا، وكاد يصيب كتفه الأيسر لو لم يخطئه ببوصاتٍ قليلة. وسمع في تلك اللَّحظة قهقهاتٍ مخنوقةً آتيةً من السَّرير ذي الأعمدة الأربعة، وكانت الصَّدمة كبيرةً جدًّا على جهازه العصبيِّ لدرجة أنَّه فرَّ عائدًا بأقصى سرعةٍ إلى غرفته، وفي اليوم التَّالي أصيب بنزلة بردٍ شديدة بقي بسببها طريح الفراش. وكان العزاء الوحيد له في كلِّ ما حدث هو أنَّه لم يأخذ رأسه معه إلى غرفة التَّوأمين، لأنَّه لو فعل ذلك لكانت العواقب وخيمةً للغاية.

لقد تخلَّى عن كلِّ أملٍ في إخافة هذه العائلة الأمريكيَّة الوقحة، واكتفى عمومًا بالزَّحف في الممرَّات منتعلًا خفَّين خفيفَين، مع شالٍ أحمر سميكٍ حول عنقه لئلَّا يُصاب بالبرد، وبندقيَّةٍ صغيرةٍ في حال تعرَّض للهجوم

من قبل التَّوأمين. وكانت آخر ضربةٍ تلقَّاها ما حدث في التَّاسع عشر من أيلول عندما نزل إلى البهو الكبير في الطَّابق السُّفليِّ، شاعرًا بالثَّقة بأنَّه هناك سينعم بالرَّاحة ولن يتحرَّش به أحد، وراح يسلِّي نفسه بالسُّخرية من الصُّور الفوتوغرافيَّة الكبيرة للوزير الأمريكيِّ وزوجته، المأخوذة بعدسة ساروني، وقد علِّقت مكان صور عائلة كانترفيل. كان في تلك اللَّحظة يرتدي كفنًا طويلًا ولكن مهندمًا، منقَّطًا بعفن المدافن الكنسيَّة، وقد ربط فكَّيه بشريطٍ من الكتَّان الأصفر وحمل فانوسًا صغيرًا ومجرفة. والحقيقة أنَّه كان متنكِّرًا في زيِّ شخصيَّة «جوناس الذي لا قبر له، أو سارق جثث تشرتسي بارن»، وهو دورٌ من أروع الأدوار التي تقمَّصها، وكان لدى عائلة كانترفيل كلُّ الأسباب لعدم نسيان هذا الدَّور أبدًا، لأنَّه كان السَّبب الحقيقيَّ لشجارهم مع جارهم اللُّورد رافورد. كانت السَّاعة حوالي الثَّانية والرُّبع بعد منتصف اللَّيل، وكان بإمكانه أن يؤكِّد أنَّ الجميع كانوا نائمين ملء جفونهم، وبينما كان متَّجهًا نحو المكتبة، ليرى إن كان قد بقي أيُّ أثرٍ من بقعة الدَّم، قفز عليه فجأةً من زاويةٍ مظلمةٍ شخصان وهما يلوِّحان بذراعيهما بجنونٍ فوق رأسيهما وصرخا في أذنيه: «بوو!»

انتابه الذُّعر، وكان ذلك طبيعيًّا في مثل تلك الظُّروف، فاندفع مسرعًا نحو السُّلَّم، ولكنَّه وجد واشنطن أوتيس ينتظره هناك وفي يده مضخَّةٌ كبيرةٌ كالتي تُستخدَم لسقي الحدائق، وإذ وجد نفسه محاصَرًا من قبل الأعداء من جميع الجهات، وليس أمامه تقريبًا سوى الاستسلام، اختفى في الموقد الحديديِّ الكبير الذي، لحسن الحظِّ، لم يكن مشتعلًا، واضطرَّ إلى العودة إلى غرفته عبر الأنابيب والمداخن ولم يصل إليها إلَّا في حالةٍ يرثى لها من الاتِّساخ والاضطراب واليأس.

ولم يره أحدٌ بعد ذلك في أيِّ جولةٍ من جولاته اللَّيليَّة. وقد انتظره التَّوأمان في عدَّة مناسباتٍ، وكانا ينثران قشور الجوز في الممرَّات كلَّ ليلةٍ ممَّا أزعج والديهما والخدم، ولكن بلا فائدة. كان واضحًا تمامًا أنَّ مشاعره قد جُرِحَت كثيرًا فأحجم عن الظُّهور. ولذلك أستأنف السَّيِّد أوتيس العمل على كتابه العظيم عن تاريخ الحزب الدِّيمقراطي، الكتاب الذي انكبَّ عليه لعدَّة سنوات؛ وكذلك نظَّمت السَّيِّدة أوتيس حفلات رقصٍ ريفيٍّ أذهلت المقاطعة بأكملها؛ وذهب الصَّبيَّان يلعبان ألعاب لاكروس والبوكر والبوكر، وغيرها من الألعاب القوميَّة الأمريكيَّة؛ أمَّا فرجينيا فقد انشغلت بامتطاء حصانها الصَّغير عبْرَ المسالك والممرَّات برفقة دوق تشيشاير اليافع الذي جاء ليقضي الأسبوع الأخير من إجازته عند عائلة كانترفيل. وظنَّ الجميع أنَّ الشَّبح قد رحل، وفي الواقع، كتب السَّيِّد أوتيس رسالةً بهذا المعنى إلى اللُّورد كانترفيل الذي أعرب، في ردِّه على تلك الرِّسالة، عن سعادته الكبيرة بالأخبار وأرسل أحرَّ التَّهاني إلى زوجة الوزير.

ولكنَّ آل أوتيس كانوا مخطئين، لأنَّ الشَّبح كان ما يزال في المنزل، ومع أنَّه كان قد أصبح معتلًّا وشبه عاجزٍ، إلَّا أنَّه لم يكن مستعدًّا بأيِّ حالٍ من الأحوال لتهدئة الأمور بينه وبينهم، خاصَّةً وأنَّه سمع أنَّ العائلة كانت تستضيف دوق تشيشاير الذي كان عمُّه الأكبر، اللُّورد فرانسيس ستيلتون، قد راهن ذات مرَّةٍ الكولونيل كاربري بمئة جنيهٍ على أنَّه سيلعب الورق مع شبح كانترفيل، وعُثر عليه في صباح اليوم التَّالي ممدَّدًا على أرضيَّة غرفة اللَّعب في حالة شللٍ تامٍّ بقي معها عاجزًا عن قول أيِّ شيءٍ طوال العمر الطَّويل الذي عاشه باستثناء كلمة «ستَّتان». وقد انتشرت هذه القصَّة انتشار النَّار في الهشيم في ذلك الوقت رغم جميع المحاولات التي بُذلت

لإخفائها احترامًا لمشاعر العائلتين النَّبيلتين؛ ويمكن العثور على وصفٍ كاملٍ لجميع الملابسات المتعلِّقة بها في المجلَّد الثَّالث من كتاب اللُّورد تاتل «ذكرياتٌ عن الوصيِّ على العرش وأصدقائه». كان الشَّبح، إذن، متلهِّفًا جدًّا إلى إثبات أنَّه لم يفقد نفوذه على آل ستيلتون الذين كان على علاقة قرابةٍ بعيدةٍ بهم، فبنتُ عمِّه كانت متزوِّجةً، في زواجها الثَّاني، بالسَّيِّد دي بوكلي الذي يعلم الجميع أنَّ دوق تشيشاير ينحدر من سلالته. ولذلك أعدَّ العدَّة ليَظهر لعشيق فرجينيا متقمِّصًا شخصيَّة «الرَّاهب مصَّاص الدِّماء، أو الرَّاهب الخالي من الدِّماء»، وهو تقمُّصٌ مرعبٌ جدًّا لدرجة أنَّ السَّيِّدة ستارتاب العجوز عندما رأته في ليلة رأس السَّنة الكارثيَّة تلك، سنة 1764، أطلقت صرخاتٍ شقَّت عنان السَّماء وانتهت بنوبة صرعٍ عنيفةٍ، وماتت بعد ثلاثة أيَّام، بعد أن حرمت آل كانترفيل، وهم أقرباؤها الأدنون، من الميراث، وتركت كلَّ أموالها لصيدلانيِّها في لندن. ولكن في اللَّحظة الأخيرة، منعه رعبه من التَّوأمين من مغادرة غرفته، ونام الدُّوق الصَّغير بسلامٍ تحت المظلَّة الكبيرة المريَّشة في غرفة النَّوم الملكيَّة، وحلمَ بفرجينيا.

الفصل الخامس

بعد أيّامٍ قليلةٍ من ذلك، خرجت فرجينيا مع فارسها ذي الشَّعر المجعَّد ليتجوَّلا في مروج بروكلي على حصانيهما الصَّغيرين، وهناك مزَّقت ثوبها بشدَّةٍ وهي تجتاز سياج الشُّجيرات، لدرجة أنَّها، عند عودتها إلى المنزل، قرَّرت أن تصعد من الدَّرج الخلفيِّ لئلَّا يراها أحد. وبينما كانت تمرُّ بجوار غرفة النُّجود، التي صادف أنَّ بابها كان مفتوحًا، خُيِّل إليها أنَّها رأت شخصًا ما في الدَّاخل، ولأنَّها اعتقدت أنَّها خادمة والدتها التي اعتادت أن تُنجز بعض أعمال الخياطة هناك، دخلت لتطلب منها أن ترتق لها ثوبها، ولكن يا لدهشتها الهائلة حين رأت أمامها شبح كانترفيل نفسه! كان جالسًا بجوار النَّافذة يتأمَّل الذَّهب المتساقط من الأشجار المصفرَّة وهو يتطاير في الهواء، والأوراقَ الحمراءَ وهي تتراقص بجنونٍ على طول الطَّريق الطَّويل، وقد وضع خدَّه على يده، وكان موقفه كلُّه يوحي بالاكتئاب الشَّديد. بل إنَّه بدا بائسًا للغاية ومحطَّمًا لدرجة أنَّ فرجينيا الصَّغيرة، التي كان أوَّل ما تبادر إلى ذهنها أن تهرب وتقفل عليها باب غرفتها، أشفقت عليه وقرَّرت أن تقوم ببعض المحاولات لمواساته. كان وطؤها من الخفَّة، وحزنه من العمق، بحيث أنَّه لم يشعر بوجودها حتى كلَّمته.

«إنَّني حزينةٌ جدًّا لأجلك»، قالت، «ولكنَّ شقيقيَّ عائدان غدًا إلى إيتون، وعندئذٍ، إذا أحسنت التَّصرُّف، لن يزعجك أحد».

«يا له من أمرٍ سخيفٍ أن يُطلَب منِّي أن أحسن التَّصرُّف»، أجاب وهو ينظر بدهشةٍ إلى الفتاة الصَّغيرة الجميلة التي تجرَّأت على مخاطبته، «أمرٍ سخيفٍ تمامًا، إذ لا بدَّ لي من القعقعة بأغلالي والتَّأوُّه من ثقوب المفاتيح والتَّجوُّل في اللَّيل، إن كان هذا ما تقصدينه، فهذا هو السَّبب الوحيد لوجودي».

«لا مبرِّر على الإطلاق لوجودك، وأنت تعلم أنَّك اقترفت الكثير من الشُّرور. لقد أخبرتنا السَّيِّدة أومني في اليوم الأوَّل لوصولنا أنَّك قتلت زوجتك».

«حسنًا، أنا أعترف بذلك»، ردَّ الشَّبح بفظاظة، «ولكنَّه شأنٌ عائليٌّ بحتٌ، ولا يخصُّ أحدًا آخر».

«من الخطأ الشَّنيع قتل أيِّ شخص»، قالت فرجينيا التي كانت شخصيَّتها تنمُّ أحيانًا عن جاذبيَّةٍ بروتستانتيَّةٍ حلوةٍ ورثتها من جدٍّ من أجدادها القدماء الذين أقاموا في نيو إنجلاند.

«أوه، كم أكره الأخلاقيَّات النَّظريَّة وصرامتها الرَّخيصة! لقد كانت زوجتي امرأةً شديدة القُبح، وكانت لا تجيد تنشية ياقات قمصاني، ولم تكن تعرف شيئًا عن الطَّبخ. ومرَّةً اصطدتُ وعلًا في غابات هوجلي، وعلًا رائعًا في عامه الثَّاني، أتعلمين بأيَّة هيئةٍ كان حين قدَّمته على المائدة؟ ولكن لا يهمُّ الآن، فما كان كان، ومع أنَّني قتلتها، لا أعتقد أنَّه كان من اللُّطف بمكانٍ أن يجوِّعني أخوتها حتى الموت بسبب ذلك».

«جوَّعوك حتى الموت؟ أوه، يا سيِّد شبح، أقصد يا سير سيمون، هل أنت جائع؟ إن كنت جائعًا فثمَّة شطيرةٌ في حقيبتي. أتحبُّ أن تأكلها؟»

«لا، شكرًا لكِ، فأنا لم أعد آكل شيئًا، ولكنَّه لطفٌ كبيرٌ منكِ، وأنتِ حقًّا ألطف بكثيرٍ من بقيَّة أفراد أسرتك الفظيعة والوقحة والمبتذلة والقليلة الأمانة».

«اسكتْ»، صاحت به فرجينيا ضاربةً الأرض بقدمها، «بل أنت الوقح والبغيض والمبتذل. أمَّا عن خيانة الأمانة، فأنت تعلم أنَّك سرقت الألوان من علبة ألواني لتجدِّد بها بقعة الدَّم السَّخيفة في المكتبة. في البداية استوليتَ على كلِّ أقلامي الحمراء، بما في ذلك اللَّون القرمزي، ولم يعد بمقدوري رسم غروب الشَّمس، ثمَّ أخذتَ الأخضر الزُّمرُّديَّ والأصفر الكْرُوميَّ، وأخيرًا لم يبق لديَّ سوى النِّيليِّ والأبيض الصِّينيِّ اللَّذين لا أستطيع رسم شيءٍ بهما غير مناظر ضوء القمر التي دائمًا ما تبثُّ الكآبة في نفس النَّاظر إليها، ناهيك عن صعوبة رسمها. ومع ذلك، لم أخبر أحدًا بسرِّك، رغم انزعاجي الشَّديد، ثمَّ إنَّ الأمر برمَّته تافهٌ ولا يستحقُّ الذِّكر، فمن ذا الذي سمع عن دمٍ بلونٍ أخضر زمرُّديٍّ؟»

«حسنًا، وماذا كان بإمكاني أن أفعل؟»، قال الشَّبح بوداعة، «من الصَّعب جدًّا الحصول على دمٍ حقيقيٍّ هذه الأيَّام، ولأنَّ أخاك كان البادئ حين استخدم منظِّف باراغون، لم أجد ما يمنعني من الحصول على ألوانك. أمَّا بالنِّسبة إلى لون البقعة، فهذه مسألة أذواق: فآل كانترفيل، مثلًا، دماؤهم زرقاء، بل لا دماء أشدَّ منها زرقةً في كلِّ إنجلترا؛ ولكنَّني أعرف أيُّها الأمريكيُّون أنَّكم لا تهتمُّون بمثل هذه الأمور».

«أنت لا تعرف شيئًا عن أمريكا، وأفضل شيءٍ يمكنك فعله هو أن تهاجر إليها وتطوِّر عقلك. سيكون والدي سعيدًا جدًّا بمنحك إذنًا مجَّانيًّا

للدُّخول إليها، ومع أنَّ هناك ضرائب عالية على الأشباح والعفاريت من كلِّ نوعٍ، إلَّا أنَّه يمكن بسهولةٍ تجاوز ذلك لدى مصلحة الجُمرك لأنَّ جميع موظَّفيها ينتمون إلى الحزب الدِّيمقراطي، وأؤكِّد لك، بمجرَّد وصولك إلى نيويورك، ستحقِّق نجاحًا منقطع النَّظير، فأنا أعرف هناك أناسًا مستعدِّين لدفع مئة ألف دولارٍ ليحصلوا على جَدٍّ، وأكثر من ذلك بكثيرٍ ليحصلوا على شبحٍ في عائلتهم».

«لا أعتقد أنَّ أمريكا ستروقني».

«ربَّما لأنَّه ليس لدينا آثارٌ وتحفٌ فنيَّة»، قالت فرجينيا ساخرةً.

«ليس لديكم آثارٌ وتحفٌ»، أجاب الشَّبح، «ولكن لديكم البحريَّة الأمريكيَّة ولديكم عاداتكم».

«عِمْ مساءً، سأذهب وأطلب من أبي أن يمدِّد عطلة أخويَّ التَّوأمين أسبوعًا آخر».

«أرجوكِ لا تذهبي يا آنسة فرجينيا»، صاحَ الشَّبح، «فأنا وحيدٌ جدًّا وشقيٌّ جدًّا ولا أعرف حقًّا ماذا عليَّ أن أفعل. أريد أن أنام ولا أستطيع».

«هُراء! ما عليك سوى أن تستلقي على الفراش وتطفئ الشَّمعة. من الصَّعب جدًّا أحيانًا أن تظلَّ مستيقظًا، وخاصَّةً في الكنيسة، أمَّا النَّوم فلا صعوبة فيه على الإطلاق. يا إلهي، حتى الأطفال يعرفون كيف يقومون بذلك، مع أنَّهم ليسوا في غاية الذَّكاء».

«لم أذق طعم النَّوم منذ ثلاثة قرونٍ»، قال الشبح بحزنٍ وفتحت فرجينيا عينيها الزَّرقاوين دهشةً، «ثلاثة قرونٍ لم أذق طعم النَّوم، وأنا في غاية التَّعب».

شعرت فرجينيا بالحزن لأجله وارتجفت شفتاها الصَّغيرتان مثل وُرَيقات وردةٍ، ثمَّ اقتربت منه وجثت بجانبه وراحت تحدِّق في وجهه القديم الذَّاوي.

«يا للشَّبح المسكين!»، تمتمت، «أليس لديك مكانٌ تنام فيه؟»

«بعيدًا وراء غابات الصَّنوبر»، أجاب بصوتٍ حالمٍ منخفضٍ، «ثمَّة حديقةٌ صغيرة. هناك ينمو العشب طويلًا وغزيرًا، وهناك ترين نجوم أزهار الشُّوكران البيضاء الكبيرة، وهناك يغنِّي العندليب طوال اللَّيل. طوال اللَّيل يغنِّي، والقمر الكريستاليُّ البارد ينظر إلى أسفل، بينما شجرة الطَّقسوس ناشرةٌ أذرعها العملاقة على النَّائمين».

ترقرق الدَّمع في عينَي فرجينيا، وأخفت وجهها في يديها.

«أنتَ تقصد حديقة الموت».

«نعم، الموت! لا بدَّ وأنَّ الموت جميلٌ جدًّا. جميلٌ أن يستلقي المرء في التُّراب البنِّيِّ النَّاعم، بينما العشب يتموَّج فوق رأسه، ويُصغي إلى الصَّمت. جميلٌ ألَّا يكون له ماضٍ ولا مستقبل. أن ينسى الوقت، ويسامح الحياة، وينعم بالسَّلام. وأنتِ يمكنك مساعدتي. يمكنك أن تفتحي لي أبواب منزل الموت، لأنَّكِ تمتلكين الحُبَّ، والحُبُّ أقوى من الموت».

ارتعدت فرجينيا، وسرت في جسدها قشعريرةٌ باردةٌ، وساد الصَّمت لبضع لحظات. شعرت وكأنَّها في حلمٍ رهيب.

ثمَّ تكلَّم الشَّبح مرَّةً أخرى وبدا صوته مثل تنهُّد الرِّيح.

«هل قرأتِ النُّبوءة القديمة المحفورة على نافذة المكتبة؟»

«أوه، مرَّاتٍ ومرَّات»، هتفت الفتاة الصَّغيرة وهي تنظر إليه، «أنا أعرفها

جيِّدًا، وهي محفورةٌ بحروفٍ سوداء غريبةٍ ومن الصَّعب قراءتها. وما هي إلَّا ستَّة أبياتٍ من الشِّعر تقول:

عندما تستطيع فتاةٌ ذهبيَّة الشَّعر أن تفوز

بصلاةٍ من شفتين آثمتين،

وعندما تثمر شجرة اللَّوز العقيم،

وطفلٌ بريءٌ يذرف الدُّموع،

عندئذٍ يعمُّ السُّكونُ البيتَ

ويحلُّ السَّلام على كانترفيل.

ولكنَّني لا أعرف مغزاها».

«إنَّها تعني»، قال الشَّبح بحزنٍ،«أنَّ عليكِ أن تبكي عنِّي على الذُّنوب التي ارتكبتُها، لأنَّه ليس لديَّ دموع، وأن تصلِّي معي لخلاص روحي، لأنَّه ليس لديَّ إيمان، وعندئذٍ، إذا كنتِ لطيفةً وطيِّبةً وكريمةً طوال حياتك، فإنَّ ملك الموت سيرحمني. سترين أشكالًا مخيفةً في الظَّلام وستهمس أصواتٌ شرِّيرةٌ في أذنك، ولكنَّها لن تؤذيكِ، لأنَّ قوى الظَّلام لا يمكن أن تنتصر على نقاء طفلةٍ مثلك».

لم تُحر فرجينيا جوابًا، فلوى الشَّبح يديه في يأسٍ شديدٍ وهو ينظر إلى رأسها الذَّهبيِّ المنحني. وفجأةً وقفت شاحبة الوجه وفي عينيها بريقٌ غريبٌ وقالت بحزمٍ: «لست خائفة، وسأطلب من ملك الموت أن يرحمك».

نهض من جلسته مطلقًا صيحة فرحٍ خافتة، وأمسك يدها بأسلوبٍ قديم الطِّراز وقبَّلها. كانت أصابعه باردةً كالثَّلج وشفتاه تحترقان كالنَّار،

ولكنَّ فرجينيا لم تتردَّد وهو يقودها عبرَ الغرفة المظلمة، وكان على سجَّادةٍ خضراء باهتةٍ من السَّجاجيد المعلَّقة تطريزاتٌ صغيرةٌ تمثِّل صيَّادين، وإذا بهم ينفخون في أبواقهم المزيَّنة بالشَّراريب ويلوِّحون لها بأيديهم الصَّغيرة أن تعود وهم يصيحون بها: «ارجعي، ارجعي يا فرجينيا الصَّغيرة». ولكنَّ الشَّبح أمسك يدها بقوَّةٍ فأغمضت عينيها عنهم. ورمقتها خلسةً من نقوش المدخنة حيواناتٌ مرعبةٌ بذيولٍ كذيول السَّحالي وعيونٍ جاحظةٍ وهمست لها: «حذارِ، حذارِ يا فرجينيا الصَّغيرة، قد لا نراكِ أبدًا بعد الآن»، ولكنَّ الشَّبح انطلق بسرعةٍ أكبر وأعرضت فرجينيا عن تحذيرهم لها. وعندما وصلوا إلى نهاية الغرفة توقَّف وتمتم ببعض الكلمات التي لم تستطع فهمها. فتحت عينيها ورأت الجدار يتلاشى ببطءٍ كما الضَّباب، وكهفًا أسود كبيرًا ينفتح أمامها، ثمَّ هبَّت حولهما ريحٌ صرصرٌ وأحسَّت بشيءٍ يشدُّها من فستانها وسمعت الشَّبح يصرخ: «أسرعي، أسرعي، وإلَّا فات الأوان»، وفي لحظةٍ انغلقت ألواح الجدار الخشبيَّة خلفهما، وعادت غرفة النُّجود فارغةً كما كانت قبل أن يدخلاها.

الفصل السَّادس

بعد حوالي عشر دقائق دقَّ الجرس معلنًا موعد احتساء الشَّاي، ولأنَّ فرجينيا لم تنزل، أرسلت السَّيِّدة أوتيس أحد الخدم ليناديها، ولكنَّه عاد بعد قليلٍ وقال إنَّه لم يعثر على الآنسة فرجينيا في أيِّ مكان. ولمَّا كان من عادتها الخروج إلى الحديقة كلَّ مساءٍ لجمع أزهارٍ تزيِّن بها مائدة العشاء، لم تقلق السَّيِّدة أوتيس في البداية، ولكن عندما دقَّت السَّاعة السَّادسة ولم تظهر فرجينيا، قلقت بشدَّةٍ وأرسلت التَّوأمين للبحث عنها، بينما قامت هي والسَّيِّد أوتيس بتفتيش المنزل غرفةً غرفة. وفي السَّادسة والنِّصف عاد التَّوأمان وقالا إنَّهما لم يجدا لها أثرًا في أيِّ مكان، فاشتدَّ القلق بالجميع ولم يعرفوا ماذا يفعلون، ولكن فجأةً تذكَّر السَّيِّد أوتيس أنَّه، قبل بضعة أيَّامٍ، أعطى الإذن لفرقةٍ من الغجر بأن يخيِّموا في الحديقة. فانطلق من فوره برفقة ابنه الأكبر واثنين من الفلَّاحين إلى وَهْدَةٍ بلاكفيل حيث كانوا موجودين على حدِّ علمه، وقد توسَّل دوق تشيشاير، وكان في غاية القلق، بشدَّةٍ ليسمحوا له بالذَّهاب معهم، ولكنَّ السَّيِّد أوتيس لم يوافق، لأنَّه كان يخشى وقوع عراك. وعند وصوله إلى هناك، وجد أنَّ الغجر قد رحلوا، وكان واضحًا أنَّ رحيلهم كان مفاجئًا إلى حدٍّ ما، لأنَّ النَّار كانت ما تزال مشتعلةً، وكانت بعض الأطباق ملقاةً على العشب. وبعد أن أرسل واشنطن والرَّجلين للبحث في المنطقة، هرع إلى المنزل

وأبرق إلى جميع مفتِّشي الشُّرطة في المقاطعة يطلب منهم البحث عن فتاةٍ صغيرةٍ اختطفتها مجموعةٌ من المتشرِّدين أو الغجر، ثمَّ أمر بإحضار حصانه، وبعد أن أصرَّ على جلوس زوجته والصِّبية الثَّلاثة لتناول العشاء، انطلق مع السَّائس في الطَّريق المؤدِّي إلى أسكوت. وما إن قطع بضعة أميالٍ حتى سمع وقع حوافرٍ خلفه، فالتفت ورأى الدُّوق الصَّغير يتبعه على حصانه الصَّغير ووجهه محمرٌّ للغاية ولا قبَّعة على رأسه، وصاح الصَّبيُّ لاهثًا: «آسفٌ للغاية يا سيِّد أوتيس، ولكن لا يمكنني تناول أيِّ طعامٍ طالما فرجينيا ضائعة. أرجوك لا تغضب منِّي. لو أنَّك وافقت على خطوبتنا في العام الماضي لما وقعنا في كلِّ هذه المشاكل. لن تأمرني بالعودة، أليس كذلك؟ لن أعود، لا يمكنني أن أعود».

لم يستطع الوزير منع نفسه من الابتسام للوغد الصَّغير الوسيم وتأثَّر كثيرًا بإخلاصه لفرجينيا، فمال من فوق حصانه وربَّت بلطفٍ على كتفه وقال: «حسنًا يا سيسيل، إن كنت ترفض العودة، فلا مفرَّ إذن من مجيئك معي، ولكن عليَّ أن أحصل لك على قبَّعةٍ في أسكوت».

«أوه، اللَّعنة على قبَّعتي! أريد فرجينيا!»، صاح الدُّوق الصَّغير ضاحكًا وانطلقا على جواديهما إلى محطَّة القطار، وهناك استفسر السَّيِّد أوتيس من ناظر المحطَّة إن كان رأى فتاةً بأوصاف فرجينيا على رصيف المحطَّة، ولكنَّه لم يحصل على أيِّ خبرٍ عنها. ومع ذلك أبرق النَّاظر إلى جميع المحطَّات الفرعيَّة وأخبره أنَّهم سيشدِّدون المراقبة بحثًا عنها، وبعد أن اشترى للدُّوق الصَّغير قبَّعةً جديدةً من متجرٍ للكتَّانيَّات كان على وشك الإغلاق، انطلق السَّيِّد أوتيس إلى بيكسلي، وهي قريةٌ تبعد بضعة أميالٍ عن أسكوت، وكان الغجر كثيري التَّردُّد عليها، كما قيل له، لأنَّه كان ثمَّة أرضٌ كبيرةٌ مشاعٌ على

مشارفها. وهناك أيقظا شرطيًّا، ولكنَّهما لم يحصلا منه على أيَّة معلومة، وبعد أن طافا على جواديهما في جميع أنحاء الأرض المشاع، استدارا نحو البيت، ووصلا إلى كانترفيل نحو السَّاعة الحادية عشرة كسيرَي الفؤاد وقد بلغ منهما الإعياء كلَّ مبلغ، فوجدا واشنطن والتَّوأمين في انتظارهما عند بوَّابة القصر يحملون الفوانيس لأنَّ الطَّريق كان غارقًا في الظَّلام. لم يظهر لفرجينيا أيُّ أثرٍ، وقيل إنَّه تمَّ إلقاء القبض على الغجر في مروج بروكلي ولكنَّها لم تكن معهم، وفسَّر الغجر سبب تعجُّلهم في المغادرة بأنَّهم أخطأوا في تاريخ معرض شورتون فانطلقوا على عجلٍ مخافة أن يتأخَّروا. والحقُّ أنَّهم شعروا بالحزن الشَّديد عند سماعهم باختفاء فرجينيا لأنَّهم كانوا ممتنِّين للغاية للسَّيِّد أوتيس لأنَّه سمح لهم بالتَّخييم في مزرعته، وبقي أربعةٌ منهم للمساعدة في البحث عن الفتاة. فبحثوا عند البركة وفي المزرعة كلِّها، من أقصاها إلى أقصاها، ولكن دون أيَّة نتيجة. فأيقن الجميع أنَّهم فقدوا فرجينيا، تلك اللَّيلة على الأقلِّ. وفي حالةٍ من الحزن الشَّديد عاد السَّيِّد أوتيس والصِّبية إلى المنزل يتبعهم السَّائس مع الحصانين والمهر. وفي الرَّدهة وجدوا مجموعةً من الخدم الخائفين، وكانت السَّيِّدة أوتيس المسكينة مستلقيةً على أريكةٍ في المكتبة وقد جُنَّت تقريبًا من شدَّة الخوف والقلق، وكانت مدبِّرة المنزل تمسح لها جبينها بماء الكولونيا، وألحَّ السَّيِّد أوتيس على زوجته أن تأكل شيئًا وأمر بإعداد العشاء للجميع. كانت وجبةً حزينةً لم يتكلَّم خلالها أحد، وحتى التَّوأمين كانا ساهمَين وواجمَين لأنَّهما كانا مولعَين جدًّا بأختهما. وعندما انتهوا، أمرهم السَّيِّد أوتيس بأن يذهبوا جميعًا للنَّوم على الرَّغم من توسُّلات الدُّوق الصَّغير، قائلًا إنَّه لا يمكن فعل أيِّ شيءٍ آخر في تلك اللَّيلة، وإنَّه سيرسل في الصَّباح إلى سكوتلاند

يارد في طلب بعض رجال التَّحرِّي. وعندما كانوا يغادرون غرفة الطَّعام، بدأت السَّاعة تدقُّ معلنةً منتصف اللَّيل، وما إن صمتت الدَّقَّة الأخيرة حتى سمعوا صوت ارتطام شيءٍ بالأرض وصرخةً حادَّةً مفاجئة، ثمَّ هزَّ هزيمُ رعدٍ رهيبٍ أركان المنزل، وسبح في الهواء لحن موسيقا غير أرضيَّةٍ، ثمَّ رأوا لوحًا خشبيًّا يسقط من أعلى السُّلَّم مُحدِثًا ضجيجًا عاليًا، ومن مكانه خرجت فرجينيا شاحبة الوجه تحمل صندوقًا صغيرًا في يدها. وبسرعةٍ اندفع الجميع نحوها وضمَّتها السَّيِّدة أوتيس بانفعالٍ بين ذراعيها وكاد الدُّوق الصَّغير يخنقها بقبلاته العنيفة وراح التَّوأمان يرقصان رقصة حربٍ بدائيَّةٍ حول الرَّهط.

«يا إلهي! أين كنتِ يا طفلتي؟»، سألها السَّيِّد أوتيس بغضبٍ وقد ظنَّ أنَّها كانت تمزح معهم مزحةً حمقاء، «لقد طفنا أنا وسيسيل كلَّ أرجاء المقاطعة بحثًا عنكِ، وكادت أمُّك تموت جزعًا عليك. يجب ألَّا تعودي إلى مثل هذا المزاح بعد الآن».

«إلَّا على ذلك الشَّبح! إلَّا على ذلك الشَّبح!»، صاح التَّوأمان وهما يدوران حولهم.

«أوه يا حبيبتي، الحمد للّه على عودتك! لن أتركك تغيبين عن ناظريَّ أبدًا بعد الآن!»، همهمت السَّيِّدة أوتيس وهي تقبِّل الطِّفلة المرتعشة وتسوِّي ذهبَ شعرها المتشابك.

«لقد كنتُ مع الشَّبح يا أبي،»، قالت فرجينيا بهدوءٍ، «لقد مات وعليك أن تأتي وتراه. لقد كان شرِّيرًا جدًّا، ولكنَّه ندم على كلِّ ما اقترفته يداه، وقد أعطاني هذا الصُّندوق المليء بالمجوهرات الجميلة قبل وفاته».

نظر إليها جميع أفراد الأسرة في ذهولٍ أخرس، ولكنَّها بدت جادَّةً للغاية؛ ثمَّ استدارت وقادتهم جميعًا عبر الفتحة بين ألواح الخشب إلى ممرٍّ سرِّيٍّ ضيِّقٍ يتبعها واشنطن حاملًا شمعةً كانت على المائدة، وفي نهاية الممرِّ وجدوا بابًا كبيرًا من خشب البلُّوط، مرصَّعًا بمسامير صدئة، وعندما لمسته فرجينيا، انفتح على مصراعيه ليجدوا أنفسهم في غرفةٍ صغيرةٍ ذات سقفٍ واطئٍ ومحدَّب، فيها نافذةٌ صغيرةٌ مقضَّبةٌ بقضبانٍ حديديَّةٍ، وكان مثبَّتًا في الجدار حلقةٌ حديديَّةٌ ضخمةٌ وقد قُيِّد إليها بالسَّلاسل هيكلٌ عظميٌّ هزيلٌ رأوه ممدَّدًا على طوله على الأرضيَّة الحجريَّة، وبدا أنَّه كان يحاول، بأصابعه الطَّويلة المجرَّدة من اللَّحم، الإمساك بصينيَّةٍ خشبيَّةٍ قديمة الطِّراز وكوزٍ موضوعَين بعيدًا عن متناول يديه، ومن الواضح أنَّ الكوز كان مملوءًا بالماء، فقد كان مغطًّى من الدَّاخل بعفنٍ أخضر، بينما لم يكن هناك شيءٌ في الصَّينيَّة سوى الغبار. جثت فرجينيا بجانب الهيكل العظميِّ وطوت يديها الصَّغيرتين معًا وشرعت تصلِّي بصمتٍ، بينما راح بقيَّة الرَّهط ينظرون فاغري الفم إلى هذه المأساة الرَّهيبة التي تكشَّف لهم سرُّها الآن.

«انظروا!»، صاح أحد التَّوأمين وكان ينظر من النَّافذة ليرى في أيِّ جناحٍ من البيت تقع الغرفة، «انظروا! لقد أزهرت شجرة اللَّوز القديمة اليابسة! أستطيع أن أرى زهورها بوضوحٍ في ضوء القمر».

«لقد غفر اللّه له»، قالت فرجينيا بجدِّيةٍ، ثمَّ نهضت على قدميها وقد أشرق وجهها بنورٍ جميل.

«أيُّ ملاكٍ أنتِ!»، هتف الدُّوق الصَّغير ووضع ذراعه حول رقبتها وقبَّلها.

الفصل السَّابع

بعد أربعة أيَّامٍ من هذه الوقائع الغريبة، خرجت من قصر كانترفيل جنازةٌ في حوالي السَّاعة الحادية عشرة ليلًا، وكانت تجرُّ عربة الموتى ثمانية جيادٍ سُودٍ حمل كلٌّ منها على رأسه حزمةً كبيرةً من ريش النَّعام، بينما غُطِّي التَّابوت المصنوع من الرَّصاص بكسوةٍ أرجوانيَّةٍ نفيسةٍ طُرِّز عليها بخيوط الذَّهب شعار عائلة كانترفيل. على جانبي العربات سار الخدم يحملون المشاعل، وكان الموكب رائعًا ومهيبًا بحقٍّ. وكان اللُّورد كانترفيل نفسه على رأس المعزِّين، إذ جاء خصِّيصًا من ويلز لحضور الجنازة، وكان جالسًا في العربة الأولى مع فرجينيا الصَّغيرة، بينما جلس في العربة الثَّانية الوزير الأمريكيُّ وزوجته، وفي الثَّالثة واشنطن والصِّبية الثَّلاثة، وفي الأخيرة السَّيِّدة أومني، فنظرًا لأنَّها كانت خائفةً من الشَّبح لأكثر من خمسين عامًا من حياتها، رأى الجميع أنَّ لها الحقُّ في توديعه الوداع الأخير. وحُفر قبرٌ عميقٌ في ركنٍ من مقبرة الكنيسة، تحت شجرة الطَّقسوس القديمة، وقرأ القسُّ أوغسطس دامبير الجنَّازَ بأسلوبٍ مؤثِّرٍ ومهيب. وعندما انتهت المراسم، قام الخدم، جريًا على عادةٍ قديمةٍ عند آل كانترفيل، بإطفاء مشاعلهم، وبينما كانوا يُنزِلون التَّابوت في القبر، تقدَّمت فرجينيا ووضعت عليه صليبًا كبيرًا من أزهار اللَّوز البيضاء والورديَّة، وفي أثناء قيامها بذلك، خرج القمر

من وراء سحابةٍ وغمر فناءَ الكنيسة الصَّغير بفضَّته الصَّامتة، ومن بعيدٍ بدأ عندليبٌ بالغناء، وتذكَّرت فرجينيا وصف الشَّبح لحديقة الموت، فاغرورقت عيناها بالدُّموع ولم تنبس ببنت شفةٍ طوال طريق العودة إلى المنزل.

في صباح اليوم التَّالي، وقبل أن يغادر اللُّورد كانترفيل إلى المدينة، تكلَّم السَّيِّد أوتيس معه بخصوص المجوهرات التي أعطاها الشَّبح لفرجينيا. لقد كانت مجوهراتٍ بديعةً، وخاصَّةً ذلك العقد من الياقوت المرصَّع على الطِّراز الفينيسيِّ، والذي كان بحقٍّ قطعةً نفيسةً من شغل القرن السَّادس عشر، وكانت قيمة الحليِّ عظيمةً لدرجة أنَّ السَّيِّد أوتيس كان متردِّدًا كثيرًا بشأن السَّماح لابنته بقبولها.

«سيِّدي اللُّورد»، قال، «أعلم أنَّ الأملاك الموقوفة في هذا البلد تشمل الحليَّ مثلما تشمل الأراضي، وأعتقد أنَّ هذه المجوهرات من موروثات عائلتكم، ولذلك أرجوك أن تأخذها معك إلى لندن، وأن تعدَّها مجرَّد جزءٍ من ممتلكاتك وقد أُعيد إليك في ظروفٍ غريبة. أمَّا بالنِّسبة إلى ابنتي، فهي ما تزال مجرَّد طفلة، ويسعدني أن أقول إنَّها حتى الآن غير مهتمَّةٍ بهذا النَّوع من مظاهر الرَّفاهية الفارغة، وقد أخبرتني السَّيِّدة أوتيس أنَّها نفيسةٌ جدًّا، مع أنَّها ليست خبيرةً بالمجوهرات، ولكنَّها تعرف ذلك لأنَّها قضت عدَّة شتاءاتٍ في بوسطن عندما كانت فتاةً صغيرةً، ولذلك فإنَّها قد تُباع بسعرٍ باهظٍ إن عُرِضَت للبيع. والحالُ هذه، يا لورد كانترفيل، أنا على يقينٍ من أنَّك ستدرك أنَّه من المستحيل أن أوافق على بقائها في حوزة أيِّ فردٍ من من أفراد عائلتي؛ وبالفعل، أجد أنَّ كلَّ هذه الزِّينة والدُّمى، مهما كانت ملائمةً وضروريَّةً لكرامة

الأرستقراطيَّة البريطانيَّة، ستكون في غير محلِّها بين أولئك الذين نشأوا على مبادئ البساطة الصَّارمة التي ينادي بها الحزب الجمهوريُّ، والتي أحسبها خالدة. ولكن ربَّما عليَّ أن أذكر أنَّ فرجينيا توَّاقةٌ جدًّا إلى الاحتفاظ بالصُّندوق كتذكارٍ من سلفك المأسوف عليه وإن كان من الخَطَأة؛ ولأنَّ الصُّندوق قديمٌ جدًّا ولا يمكن إصلاحه، ربَّما لا تجدون غضاضةً في الامتثال لطلبها. من ناحيتي، أعترف أنَّني فوجئت كثيرًا حين وجدتُ طفلةً من صُلبي تعبِّر عن تعاطفها مع شيءٍ من هذه الشَّاكلة يعود إلى القرون الوسطى، ولا يمكنني تفسير ذلك إلَّا بأنَّها وُلدت في إحدى ضواحي لندن بعد عودة السَّيِّدة أوتيس بفترةٍ وجيزةٍ من رحلةٍ إلى أثينا».

أصغى اللُّورد كانترفيل باهتمامٍ كبيرٍ إلى خطاب معالي الوزير، وكان بين الفينة والأخرى يفتل شاربيه الرَّماديَّين لإخفاء ابتسامةٍ لاإراديَّة، وعندما انتهى السَّيِّد أوتيس، صافحه بحرارةٍ وقال له: «سيِّدي العزيز، لقد قدَّمت ابنتكم الصَّغيرة والفاتنة خدمةً عظيمةً لسلفي السَّيِّئ الحظِّ، السِّير سيمون، وأنا وعائلتي مدينون لها بالكثير على ما أظهرته من شجاعةٍ وإقدام. وعلى هذا فإنَّ المجوهرات من حقِّها، وأخشى إن كنتُ بلا قلبٍ وأخذتها منها أن يخرج العجوز الشِّرِّير من قبره في غضون أسبوعين ويقلب حياتي جحيمًا. أمَّا عن كونها إرثًا، فلا يُعَدُّ إرثًا شيءٌ لم يرد ذكره في وصيَّةٍ أو وثيقةٍ قانونيَّة، وليس هناك من يعلم بوجود هذه المجوهرات، وأؤكِّد لك أنَّه لا حقَّ لي في المطالبة بها أكثر ممَّا لخادمك الشَّخصيِّ الحقُّ في ذلك، وأعتقد أنَّ الآنسة فرجينيا، عندما تكبر، ستكون سعيدةً بامتلاكها أشياء جميلة تتزيَّن بها. وفضلًا عن ذلك، لا تنس يا سيِّد أوتيس أنَّك اشتريت الأثاث والشَّبح

ضمن الصَّفقة، وكلُّ ما يملكه الشَّبح تؤول ملكيَّته تلقائيًّا إليك، ومهما كان النَّشاط الذي أظهره السِّير سيمون في الممرِّ ليلًا، فهو يبقى في نظر القانون ميْتًا، وبمقتضى الصَّفقة آلت ممتلكاته إليك.

شعر السَّيِّد أوتيس بالأسى الشَّديد بسبب رفض اللُّورد كانترفيل، وتوسَّل إليه أن يعيد النَّظر في قراره، ولكنَّ الرَّجل النَّبيل الطَّيِّب كان حازمًا للغاية، ونجح أخيرًا في إقناعه بالسَّماح لابنته بالاحتفاظ بالهديَّة التي أعطاها إيَّاها الشَّبح، وفي ربيع عام 1890، عندما دُعيَتْ دوقة تشيشاير إلى حفل استقبالٍ أقامته الملكة بمناسبة زواجها، كانت مجوهراتها محطَّ إعجاب الجميع، وقد منحتها الملكة إكليلًا من تلك الأكاليل التي تُمنَح للفتيات الأمريكيَّات الصَّالحات، وبمجرَّد بلوغ عاشقها الصَّغير سنَّ الرُّشد زُفَّت إليه. كلاهما كانا ساحرين للغاية، وكان كلٌّ منهما يحبُّ الآخر حبًّا جمًّا، وكان الجميع فرحين بهذه الزِّيجة باستثناء ماركيزة دمبلتون العجوز التي كانت تريد اصطياد الشَّابِّ لأجل إحدى بناتها السَّبع غير المتزوِّجات، حتى إنَّها أقامت ليس أقلَّ من ثلاث حفلاتٍ باذخةٍ لهذا الغرض، والسَّيِّد أوتيس نفسه، وإن بدا ذلك غريبًا. لقد كان السَّيِّد أوتيس مولعًا بالدُّوق الصَّغير من النَّاحية الشَّخصيَّة، ولكنَّه من النَّاحية النَّظريَّة كان رافضًا للألقاب ولم يكن على حدِّ تعبيره «بلا مخاوف من أن تُنسَى مبادئ البساطة الجمهوريَّة تحت التَّأثيرات الباعثة على التَّراخي للأرستقراطيَّة المحبَّة للمتعة». ولكنَّ اعتراضاته رُفِضَت تمامًا، وأعتقد أنَّه حين سار في ممرٍّ كنيسة سانت جورج في ساحة هانوفر، وابنته تتكئ على ذراعه، لم يكن هناك رجلٌ أكثر زهوًا منه في طول إنجلترا وعرضها.

وبعد انتهاء شهر العسل، حلَّ الدُّوق والدُّوقة بقصر كانترفيل، وفي اليوم التَّالي لوصولهما تمشَّيا بعد الظُّهر معًا إلى المقبرة الموحشة الواقعة بجوار غابة الصَّنوبر. كان هناك قدرٌ كبيرٌ من الصُّعوبة في البداية بشأن الكلمات التي ستُنقَش على شاهد قبر السِّير سيمون، ولكن في النِّهاية قرَّروا أن يكتفوا بنقش الأحرف الأولى من اسم العجوز الموقَّر وتحتها تلك الأبيات المنقوشة على نافذة المكتبة. وكانت الدُّوقة قد أحضرت معها بعض الورود الجميلة فنثرتها على القبر، وبعد أن وقفا عند القبر لبعض الوقت، تمشَّيا حتى المذبح الخَرِب للدَّير القديم، وهناك جلست الدُّوقة على عمودٍ محطَّمٍ بينما جلس زوجها عند قدميها يدخِّن سيجارةً ويتأمَّل عينيها الجميلتين، وفجأةً ألقى سيجارته بعيدًا وأمسك يدها وقال لها: «اسمعي يا فرجينيا، لا ينبغي للزَّوجة أن تُخفي أسرارًا عن زوجها».

«أنا لا أُخفي أيَّ سرٍّ عنك يا عزيزي سيسيل!»

«بلى»، قال مبتسمًا، «فأنتِ لم تخبريني بما حدث بينك وبين الشَّبح عندما كنتما وحدكما».

«ولكنَّني لم أخبر أحدًا بذلك يا سيسيل!»، قالت فرجينيا بنبرةٍ حازمة.

«أعلم ذلك، ولكن ألا يحسن بكِ أن تخبريني؟»

«أرجوك لا تطلب منِّي ذلك، يا سيسيل، لأنَّني لا أستطيع إخبارك. يا للسِّير سيمون المسكين! إنَّني مدينةٌ له بالكثير. لا تضحك يا سيسيل، فأنا أعني ما أقول. لقد جعلني أرى ما هي الحياة، وما معنى الموت، ولماذا الحبُّ أقوى من كليهما».

وهنا نهض الدُّوق وقبَّل زوجته بحُبٍّ وقال لها هامسًا: «يمكنك أن تحتفظي بسرِّكِ ما دمتُ أملك قلبك».

«لقد ملكته دائمًا يا سيسيل».

«وسوف تحكين ما حدث لأطفالنا يومًا ما، أليس كذلك؟»

وتضرَّج وجه فرجينيا خجلًا.

المليونير المثاليّ

رسالة إعجاب

ما لم يكن المرء ثريًّا، فلا فائدة من كونه فاتنًا، فالرُّومانسيَّة امتياز الأثرياء وليست حرفة المتعطِّلين، وعلى الفقراء أن يكونوا عمليِّين وواقعيِّين، وخيرٌ للمرء أن يكون لديه دخلٌ ثابتٌ من أن يكون جذَّابًا. هذه هي أعظم حقائق الحياة الحديثة التي لم يفطن إليها هيو إرسكين. يا للمسكين هيو! علينا أن نعترف أنَّه من ناحية القدرات العقليَّة لم يكن ذا شأنٍ يُذكَر، فهو لم يقل في حياته شيئًا يدلُّ على الذَّكاء ولا حتى على سوء الطَّويَّة. ولكنَّه كان حسن المظهر بشكلٍ يفوق الوصف، بشعره البنِّيِّ المتموِّج وملامحه الواضحة وعينيه الرَّماديَّتين، وكان يتمتَّع بشعبيَّةٍ كبيرةٍ بين الرِّجال كما بين النِّساء، وكانت لديه كلُّ المهارات إلَّا مهارة كسب المال. كان والده قد أورثه سيف سلاح الفرسان وتاريخ حروب شبه الجزيرة في خمسة عشر مجلَّدًا، فعلَّق السَّيف في بيته، فوق المرآة، ووضع المجلَّدات على رفٍّ بين دليل راف ومجلَّة بايلي، وعاش على مئتي جنيهٍ في العام كانت تجود بها عليه عمَّته العجوز. جرَّب كلَّ شيءٍ، فقد عمل في البورصة ستَّة أشهر، ولكن ماذا كان باستطاعة فراشةٍ أن تفعل بين الثِّيران والدِّببة؟ ثمَّ عمل تاجر شايٍ لفترةٍ

أطول قليلًا، ولكن سرعان ما سئم من البيكيو والسُّوشونغ. ثم حاول الاتِّجار بالنَّبيذ المزِّ، ولكنَّ النَّبيذ كان مزًّا أكثر من اللُّزوم، وفي النِّهاية أصبح هيو عديم الشَّأن، شابًّا محبوبًا ومتعطِّلًا بملامح مثاليَّةٍ ولكن بلا مهنة.

وممَّا زاد الطِّين بلَّةً أنَّه كان واقعًا في الحبِّ، والفتاة التي أحبَّها هي لورا ميرتون، ابنة العقيد المتقاعد الذي فقدَ أعصابه وقدرته على الهضم حين كان في الهند، ولم يستعد أيًّا منهما أبدًا بعد ذلك. وقد هامت لورا به حبًّا، وكان هو مستعدًّا لتقبيل خيوط حذائها، وكانا الثُّنائيَّ الأكثر وسامةً في لندن لأنَّ حبَّهما كان بريئًا تمامًا من المسائل الماليَّة، وكان العقيد متعلِّقًا جدًّا بالفتى هيو، ولكنَّه لم يسمح بأيِّ ارتباطٍ بينهما، واعتاد أن يقول: «تعال إليَّ، يا ولدي، عندما يكون لديك عشرة آلاف جنيهٍ، وسننظر في الأمر عندئذٍ»، ولذلك بدا مكتئبًا جدًّا في تلك الأيَّام، وكان يقصد لورا طلبًا للعزاء.

ذات صباح، وبينما كان في طريقه إلى هولاند بارك، حيث يقطن آل ميرتون، مرَّ بصديقه الحميم آلن تريفور الذي كان رسَّامًا. والحقيقة، كثيرٌ من النَّاس يتجنَّبون القيام بذلك هذه الأيَّام. ولكنَّه كان فنَّانًا، والفنَّانون نادرون إلى حدٍّ ما. أمَّا على المستوى الشَّخصيِّ فقد كان رجلًا فظًّا غريب الأطوار، ذا وجهٍ منمَّشٍ ولحيةٍ حمراء شعثاء، ولكنَّه كان فنَّانًا حقيقيًّا عندما يمسك الفرشاة، وكانت لوحاته مطلوبةً بشكلٍ كبير، وكان في البداية شديد الافتتان بهيو وبسحر شخصيَّته، واعتاد أن يقول: «الأشخاص الوحيدون الذين يجب على الفنَّان أن يلتقيهم هم الأشخاص اللُّطفاء والجميلون، الأشخاص الذين هم لذَّةٌ جماليَّةٌ لمن

ينظر إليهم وراحةٌ فكريَّةٌ لمن يتحدَّث معهم. الرِّجال المتأنِّقون والنِّساء الحسناوات هم حكَّام العالم، أو على الأقلِّ هكذا ينبغي أن يكون». ولكن بعد أن توطَّدت معرفته بهيو أحبَّه أكثر لروحه المشرقة والمبهجة ولطبيعته السَّخيَّة والسَّادرة وأعطاه الحرِّيَّة المطلقة بالدُّخول إلى مرسمه الخاص.

عندما دخل هيو وجد تريفور يضع اللَّمسات الأخيرة على لوحةٍ رائعةٍ بالحجم الطَّبيعيِّ تصوِّر رجلًا متسوِّلًا. وكان المتسوِّل نفسه واقفًا على منصَّةٍ خشبيَّةٍ في زاويةٍ من زوايا المرسم، وكان رجلًا عجوزًا ذاويًا، بوجهٍ أشبه بِرَقٍّ مجعَّدٍ، وبتعابير مثيرةٍ للشَّفقة. وكان يضع على كتفيه عباءةً بنِّيَّةً رثَّةً، مليئةً بالخروق والرُّقَع، وكانت جزمته الثَّخينة مرقَّعةً ومخيطةً، وكان يتَّكئ بإحدى يديه على عصًا غليظةً ويمدُّ باليد الأخرى قبَّعةً ممزَّقةً ليضع فيها المحسنون صدقاتهم.

«يا له من موديلٍ رائع!»، همس هيو وهو يصافح صديقه.

«موديلٌ رائع؟»، صاح تريفور بأعلى صوته، «أظنُّ ذلك! فالمرء لا يلتقي بأمثال هذا المتسوِّل كلَّ يوم. إنَّه لُقيةٌ يا عزيزي! نموذجٌ فيلاثكيثيٌّ[1] من لحمٍ ودم! يا لحظِّي الرَّائع! أيَّ لوحةٍ مذهلةٍ كان سيصنع رامبرانت منه!»

«يا للرَّجل المسكين!» قال هيو، «كم يبدو بائسًا! ولكن أظنُّ أنَّ وجهه، بالنِّسبة إليكم أنتم الفنَّانين، ثروةٌ حقيقيَّة».

«بالتَّأكيد»، ردَّ تريفور، «وهل تتوقَّع من متسوِّلٍ أن يبدو سعيدًا؟»

---

(1) نسبةً إلى دييغو فيلاثكيث (1599 ـ 1660)، الرَّسام الإسباني. (المترجم).

«كم يتقاضى الموديل لقاء جلوسه؟»، سأل هيو وقد وجد لنفسه مكانًا مريحًا على الأريكة.

«شلنًا واحدًا في السَّاعة».

«وكم تتقاضى أنت لقاء لوحتك، يا آلن؟»

«أوه، لقاء لوحةٍ كهذه أتقاضى ألفين».

«ألفي باوندٍ تقصد؟»

«بل ألفي جنيهٍ! الرَّسَّامون والشُّعراء والأطبَّاء يتقاضون دائمًا جنيهات».

«أعتقد أنَّ الموديل يجب أن يأخذ نسبةً معيَّنةً»، صاح هيو ضاحكًا، «فهو يعمل بجدٍّ مثلك تمامًا».

«هراء، هراء! أتدري لماذا؟ انظر إلى معاناة الانكباب على اللَّوحة، والوقوف طوال اليوم أمام حامل القماشة. من السَّهل أن تقول ذلك يا هيو، ولكن أؤكِّد لك أنَّ هناك لحظاتٍ يكاد ينحدر فيها الفنُّ إلى مستوى الحِرفة اليدويَّة. ولكن لا تثرثر معي، فأنا مشغولٌ جدًّا. دخِّن سيجارةً والتزمْ الصَّمت».

وبعد لحظاتٍ دخل الخادم وأخبر تريفور أنَّ صانع البراويز يريد التَّحدُّث إليه.

«لا تنصرف يا هيو»، قال وهو يخرج، «سأعود بعد قليل».

استغلَّ المتسوِّل العجوز غياب تريفور ليرتاح قليلًا على مقعدٍ خشبيٍّ خلفه. بدا بائسًا ومحطَّمًا لدرجة أنَّ هيو لم يستطع منع نفسه من الإشفاق عليه، وتحسَّس جيوبه ليرى ما معه من نقود، وكلُّ ما وجده كان جنيهًا

وبضعة سنتات. «يا للمسكين!»، قال لنفسه، «إنَّه في حاجةٍ إليها أكثر منِّي، ولكنَّ هذا يعني ألَّا أستقلَّ عربةً لمدَّة أسبوعين»؛ ثمَّ مشى طاويًا بخطواته المرسمَ ودسَّ النُّقود في يده.

تفاجأ الرَّجل العجوز، وارتسمت ابتسامةٌ باهتةٌ على شفتيه الذَّابلتين، وقال: «شكرًا لك يا سيِّدي، شكرًا لك».

ثمَّ عاد تريفور فاستأذن هيو وقد تورَّد وجهه حياءً لما فعله. وبعد أن أمضى نهاره مع لورا التي وبَّخته بعذوبةٍ على إسرافه، عاد إلى المنزل.

في تلك اللَّيلة، تمشَّى إلى نادي باليت في حدود السَّاعة الحادية عشرة، فوجد تريفور جالسًا بمفرده في غرفة التَّدخين ويشرب نبيذًا ألمانيًّا أبيض ومياهًا غازيَّة.

«حسنًا يا آلن، هل أنجزت تلك اللَّوحة؟»، قال وهو يشعل سيجارته.

«أنجزتها وأطَّرتها، يا ولدي!»، أجاب تريفور، «وبالمناسبة، لقد كوَّنت لنفسك صداقةً جديدة، فذلك الموديل العجوز يحفظ لك الوفاء، وقد كان عليَّ أن أخبره كلَّ شيءٍ عنك ـ من أنت، وأين تعيش، وما هو دخلك، وما هي تطلُّعاتك».

«أوه يا عزيزي آلن»، صاح هيو، «ربَّما أجده في انتظاري عندما أعود إلى المنزل. ولكن بالطَّبع أنت تمزح فحسب. يا للعجوز البائس المسكين! كم أتمنَّى أن أفعل له شيئًا! أعتقد أنَّه من المرعب أن يكون أيُّ إنسانٍ بهذا البؤس. اسمع، لديَّ أكوامٌ من الملابس القديمة في البيت؛ هل تعتقد أنَّه سيكون مهتمًّا بأيٍّ منها؟ يا إلهي، كانت أسماله تتساقط فتاتًا».

«ولكنَّه يبدو رائعًا فيها»، قال تريفور، «لن أرسمه في معطفٍ مهما كلَّف الأمر. وما تسمِّيه أنت أسمالًا، أسمِّيه أنا رومانسيَّة. وما يبدو لك فقرًا مدقعًا، يبدو لي لوحةً فنيَّةً رائعة. ومع ذلك، سأخبره بعرضك».

«أنتم الرَّسامين بلا قلب، يا آلن»، قال هيو.

«قلبُ الفنَّان رأسُه»، أجاب تريفور، «فضلًا عن أنَّ عملنا هو إدراك العالم كما نراه، وليس تشكيله كما نفهمه. لكلِّ إنسانٍ صنعته. والآن أخبرني كيف حال لورا. فالرَّجل العجوز بدا مهتمًّا جدًّا بها».

«أتقصد أنَّك تكلَّمت معه عن لورا أيضًا؟»، قال هيو.

«بالتَّأكيد فعلت. إنَّه يعرف كلَّ شيءٍ عن العقيد القاسي القلب، وعن لورا الجميلة، وعن العشرة آلاف جنيهٍ إسترليني».

«هل أخبرت ذلك المتسوِّل العجوز كلَّ شيءٍ عن شؤوني الخاصَّة؟»، صاح هيو وقد استشاط غضبًا واحمرَّت وجنتاه.

«اسمع يا صديقي العزيز»، قال تريفور مبتسمًا، «هذا المتسوِّل العجوز، كما تسمِّيه، هو من أغنى الرِّجال في أوروبَّا، ويمكنه شراء لندن بأكملها غدًا دون مغالاةٍ في السَّحب من رصيده. لديه منزلٌ في كلِّ عاصمة، ويأكل من أطباقٍ من الذَّهب، ويمكنه منع روسيا من شنِّ الحرب إذا أراد ذلك».

«ماذا تقصد بحقِّ السَّماء؟»، صاح هيو.

«كما أقول لك»، قال تريفور، «الرَّجل العجوز الذي رأيته اليوم في مرسمي هو البارون هاوسبرغ، وهو من أعزِّ أصدقائي ويشتري كلَّ لوحاتي وكلَّ ما يتعلَّق بالفنِّ، وقد أعطاني قبل شهرٍ عربونًا لأقوم برسمه في هيئة

متسوِّل. ماذا تريد أن تعرف بعد؟ نزوات مليونير! والحقُّ يُقال، لقد بدا رائعًا بأسماله تلك، أو ربَّما ينبغي أن أقول بأسمالي؛ فهي بدلةٌ قديمةٌ حصلت عليها في إسبانيا».

«البارون هاوسبرغ! يا إلهي! لقد أعطيته جنيهًا واحدًا!» صاح هيو وهو يغوص في أريكته فَزِعًا.

«أعطيته جنيهًا؟»، صاح تريفور وانفجر في هديرٍ من الضَّحك، «آه يا عزيزي، لن ترى ذلك الجنيه مرَّةً أخرى، فأموال الآخرين عملُه».

«كان عليك أن تخبرني يا آلن ولا تدعني أجعل من نفسي أضحوكةً أمامه»، قال هيو عابسًا.

«حسنًا، بادئ ذي بدءٍ، يا هيو»، قال تريفور، «لم يخطر ببالي أبدًا أنَّك توزِّع الصَّدقات بهذه الطَّريقة المتهوِّرة. أستطيع أن أفهم تقبيلك موديلًا جميلًا، ولكن أن تعطي المال لشخصٍ قبيحٍ، لا وحقِّ جوبيتر! والحقيقة أنَّني ما كنت لأسمح لأحدٍ بدخول بيتي اليوم، وعندما أتيت أنت، لم أجد من اللَّائق أن أذكر اسمه، فأنت تعلم أنَّه لم يكن في كامل أناقته».

«سيحسبني أخرق بالتَّأكيد!»، قال هيو.

«على الإطلاق! لقد كان في أعلى معنويَّاته بعد مغادرتك، وظلَّ يضحك بينه وبين نفسه ويفرك يديه المجعَّدتين معًا. لم أفهم سبب اهتمامه بمعرفة كلِّ شيءٍ عنك؛ ولكنَّني بدأت أفهم الآن. سوف يستثمر الجنيه الذي أعطيته له يا هيو، وسيدفع لك الفائدة كلَّ ستَّة أشهر، وستكون قصَّتك في مقدِّمة ما سيحكيه على العشاء».

«يا لي من لعينٍ سيِّئ الحظِّ!»، دمدم هيو، «أفضل شيءٍ أفعله الآن هو الذَّهاب إلى الفراش؛ وباللّه عليك يا عزيزي آلن، لا تخبر أحدًا، لأنَّني لن أجرؤ على لقاء النَّاس في الطَّريق».

«هراء! ذلك يعكس نبلَ روحك المحبَّة لمساعدة الآخرين يا هيو. لا تنصرف. أشعل سيجارةً أخرى، وتحدَّث عن لورا بقدر ما تريد».

ولكنَّ هيو لم يبق وآثر الذَّهاب إلى المنزل حزينًا مغتمًّا وتاركًا آلن تريفور مستغرقًا في الضَّحك.

في صباح اليوم التَّالي، وبينما هو جالسٌ يتناول الإفطار، أحضر له الخادم بطاقةً كُتِبَ عليها: «مسيو غوستاف ناودين من طرف البارون هاوسبرغ»؛ فقال هيو لنفسه: «أظنُّه جاء ليقدِّم اعتذارًا»، وطلب من الخادم أن يسمح للزَّائر بالدُّخول.

ودخل شيخٌ محترمٌ ذو شعرٍ رماديٍّ ويضع نظَّارةً ذات إطارٍ ذهبيٍّ الغرفةَ، وقال بلكنةٍ فرنسيَّةٍ خفيفةٍ: «هل لي بشرف مخاطبة مسيو إرسكين؟»، فأومأ هيو بالإيجاب.

«لقد جئت من طرف البارون هاوسبرغ»، تابع قائلًا، «البارون...»

«أرجو، يا سيِّدي، أن تقدِّم له أصدق اعتذاراتي»، قال هيو متلعثمًا.

«لقد كلَّفني البارون بإعطائكم هذه الرِّسالة»، قال الشَّيخ مبتسمًا، وناوله مغلَّفًا مختومًا.

في الخارج كان مكتوبًا: «هديَّة زفافٍ إلى هيو إرسكين ولورا ميرتون، من متسوِّلٍ عجوز»، وفي الدَّاخل كان هناك شيكٌ بمبلغ 10000 جنيهٍ إسترليني.

عندما تزوَّجا كان آلن تريفور أسعد رجلٍ، وألقى البارون كلمةً على مائدة العرس.

«أصحاب الملايين نادرون بما فيه الكفاية»، علَّق آلن، «ولكن، وحقِّ جوبيتر، أصحاب الملايين المثاليُّون أكثر ندرة!»